زهر الكمام

في

قصة يوسف عليه السلام

تأليف

سراج الدين أبي حفص عمر بن إبراهيم بن عمر

الأنصاري الأوسي

المتوفى ٧٥١ هـ سنة

تحقيق

كمال الدين علام

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

عمر بن إبراهيم الأنصاري الأوسي

زهر الكمام في قصة يوسف عليه السلام

دار الكتب العلمية

زهر الكمام
في
قصة يوسف عليه السلام

تأليف

سراج الدين أبي حفص عمر بن إبراهيم بن عمر
الأنصاري الأوسي
المتوفى ٧٥١ هـ

تحقيق

كمال الدين علام

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
جميع الحقوق محفوظة
Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon
No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban
Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.
الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3857-X
90000>
9782745138576

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

زهر الكمام

في

قصة يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة . وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً.

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار.

لقد يسَّر الله سبحانه وتعالى الحصولَ على كتاب " زهر الكمام في قصة يوسف عليه السلام " ، وقد رتبه المصنف - رحمه الله - على مجالس ، ونمَّق كل مجلس منها بخطبة كاملة وأحاديث وأشعار وأخبار ، وقد جعله في سبعة عشر مجلساً .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

اللهم احرسني بعينك التي لا تنام ، واكنفني بكنفك الذي لا يرام ، وارحمني بقدرتك عليَّ ، أنت ثقتي ورجائي ، فكم من نعمة أنعمت بها عليَّ قل لك بها شكري ، وكم من بلية ابتليتني بها قلّ لك بها صبري ، فيا مَن قلّ عند نعمته شكري فلم يحرمني ، ويا مَن قل عند بلائه صبري فلم يخذلني ، ويا مَن رآني على الخطايا فلم يفضحني ، أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد .

وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين .

ترجمة المؤلف

المرسي رحمه الله :

نسبه : عمر بن إبراهيم بن عمر سراج الدين ، أبو حفص الأنصاري الأوسي .

مقرئ مالكي ، من أهل " مُرسية " بالأندلس ، من مؤلفاته : زهر الكِمام في قصة يوسف عليه السلام .

ذكر ذلك الزركلي في الأعلام ، وذكره صاحب كشف الظنون ، وكذلك ذكره صاحب هدِية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين .

ولم يُعرف له – على التحديد – تاريخ ميلاد ، أما تاريخ وفاته – كما ذكر الزركلي – فهو : ٧٥١هـ / ١٣٥٠م .

وصف المخطوط

وجدتُ هذه النسخة بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة من المخطوطات ، وهي أولاها ، ضمن مجاميع طلعت (رقم : ٧٧٦ ميكروفيلم رقم : ١٠٥٣٥) .

وقد كُتب عليها اسمُ مؤلف الكتاب هكذا : أبو علي عمر بن أبي إسحاق إبراهيم الأنصاري الأوسي .

والكتاب يقع في (٢٦٧) لقطة .

الصفحة الأولى

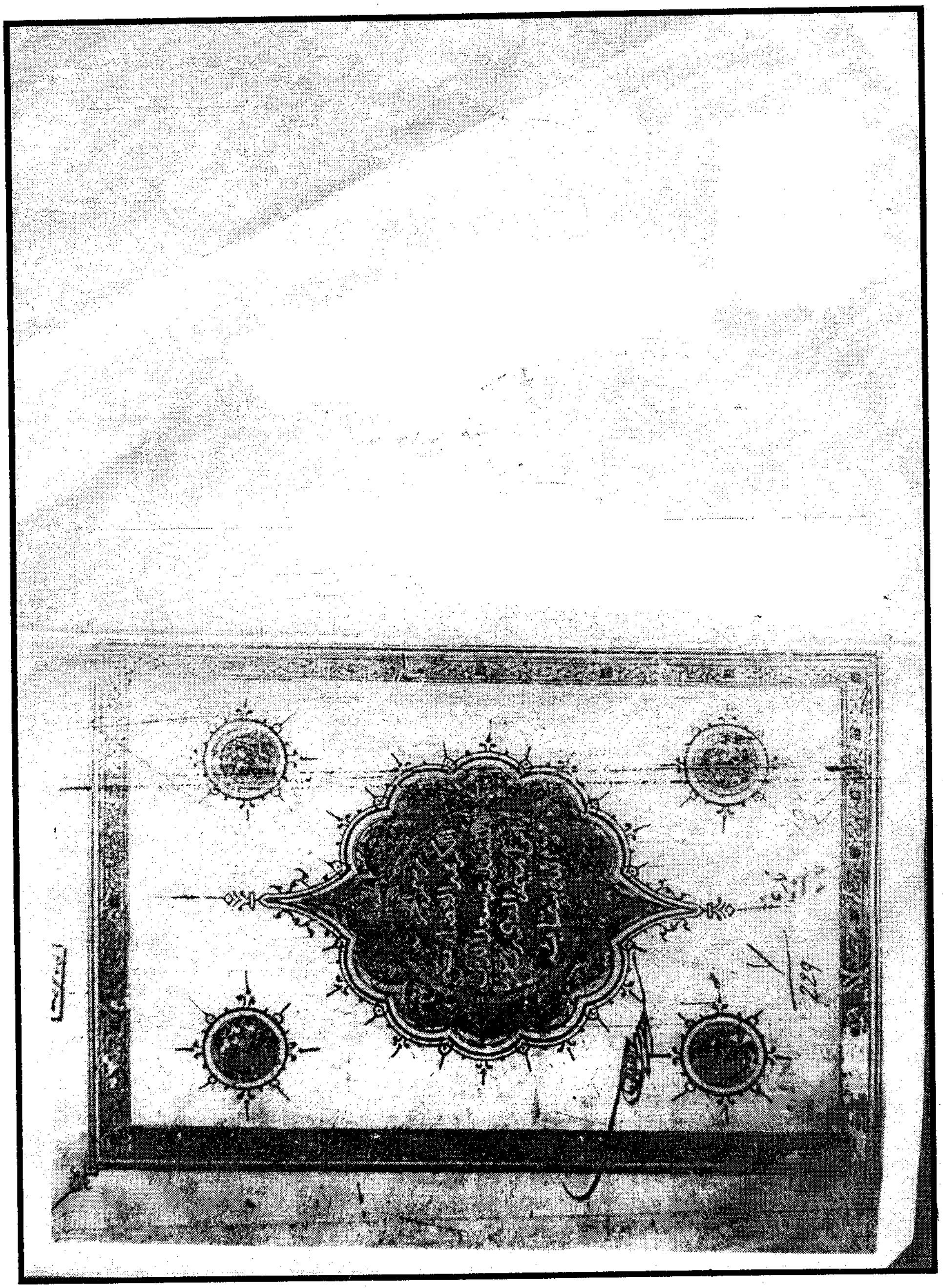

الصفحة الثانية

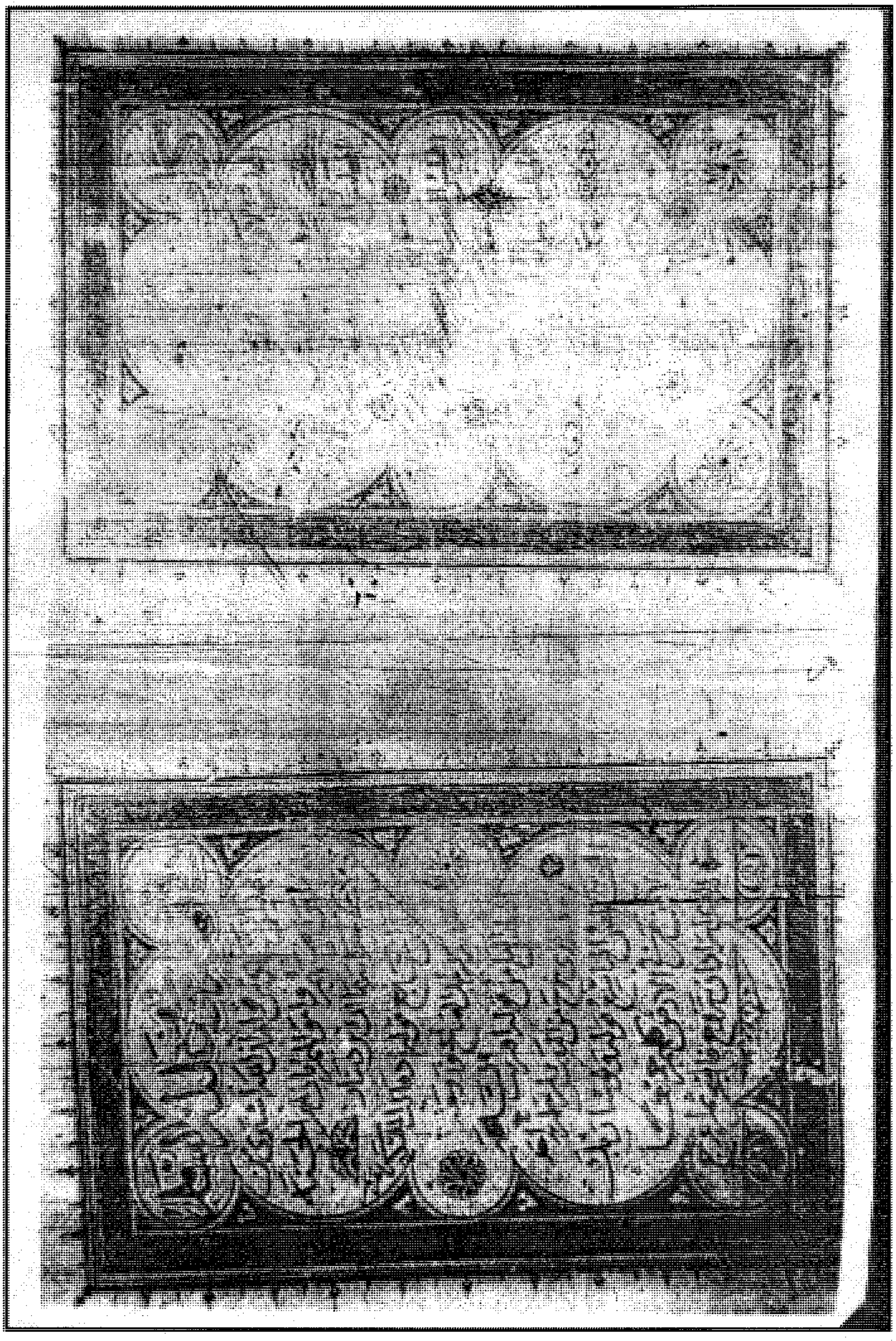

الصفحة الثالثة

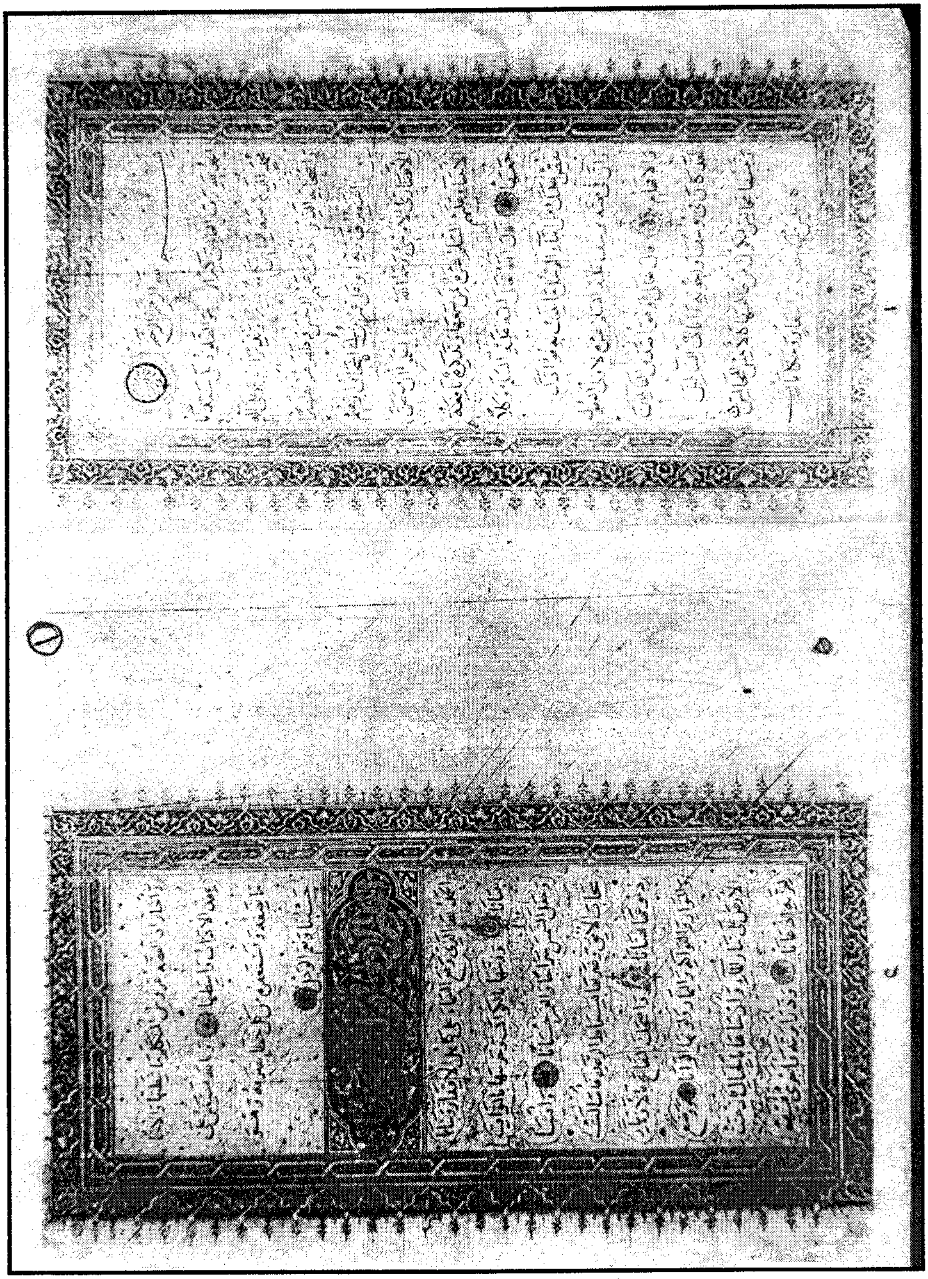

الصفحة قبل الأخيرة

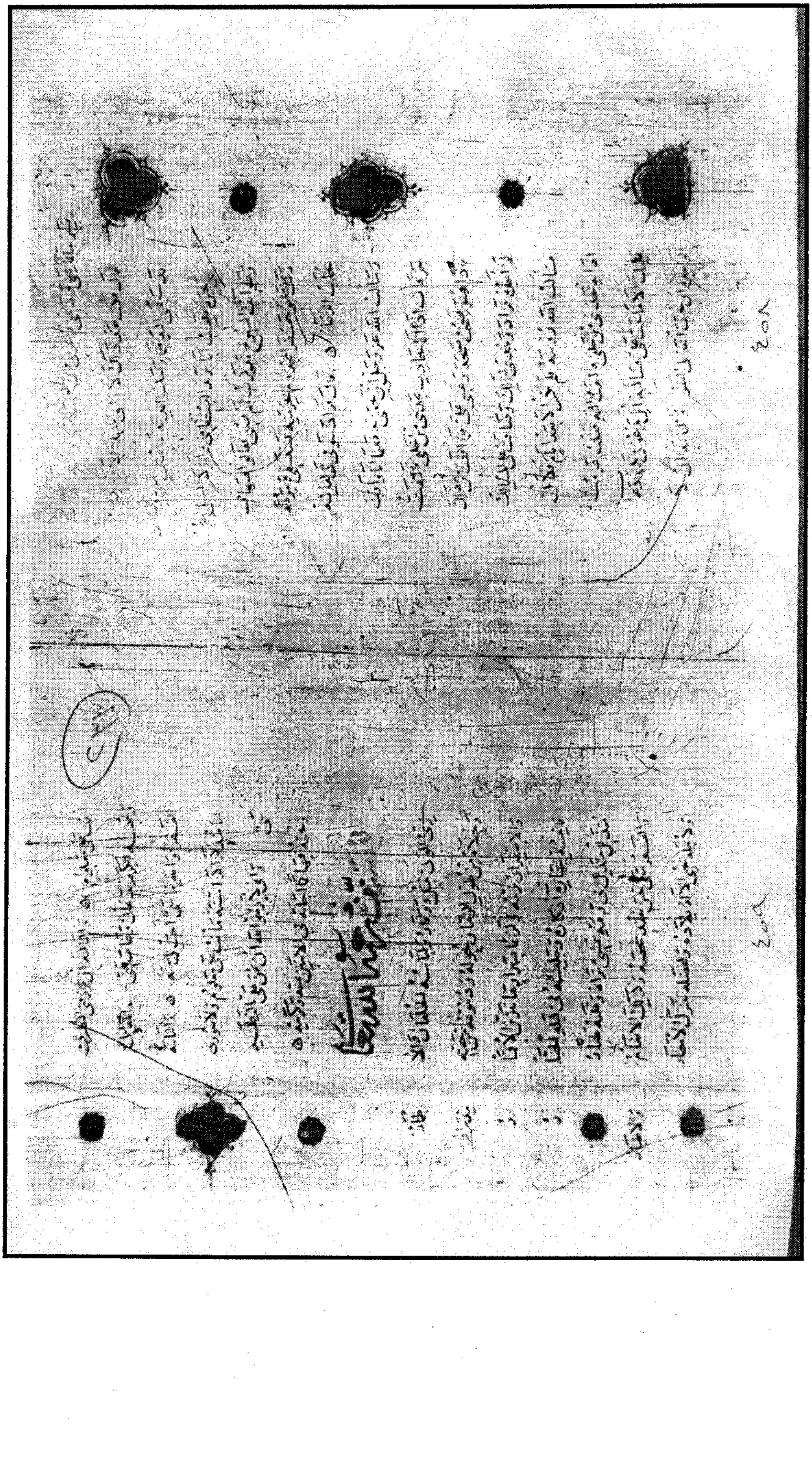

الصفحة الأخيرة

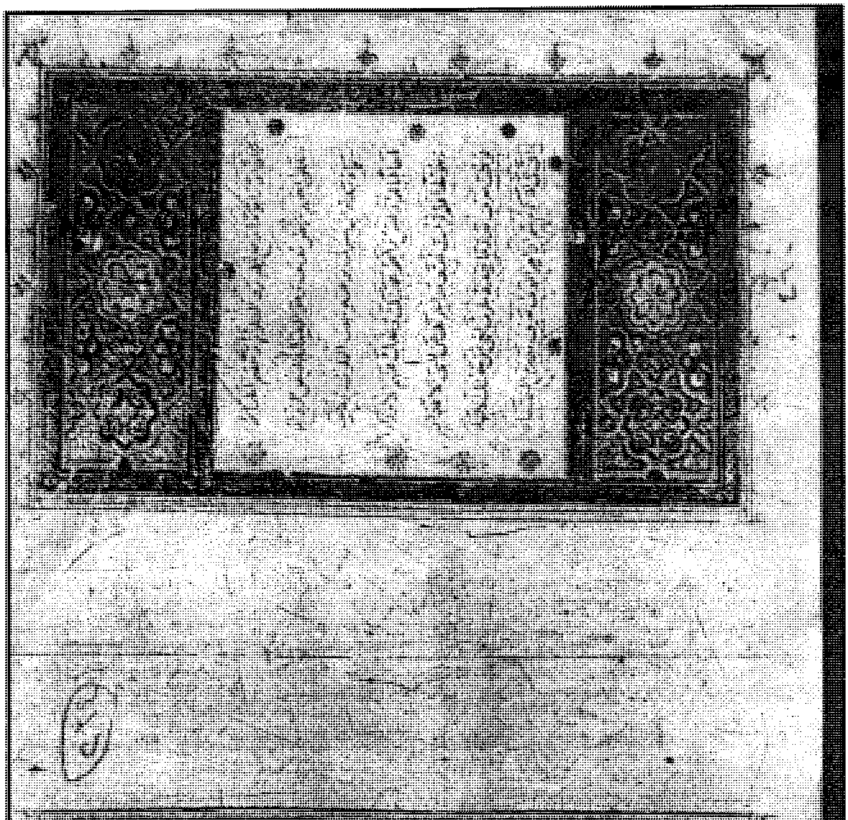

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين كثيراً ، والصلاة على سيدنا محمد الذي بعثه للناس كافة بشيراً ونذيراً ، وعلى آله وأصحابه الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

يقول الفقير إلى ربه ، الراجي عفو ربه الكريم **أبو علي عمر بن أبي إسحاق إبراهيم الأنصاري الأوسي** :

اعلموا أن قصص الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام عبرة لمن سمعها ، وتذكرة نافعة [لمن] جمعها ، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ [يوسف:١٢٠] ، وإن قصة سيدنا يوسف عليه السلام عبرة لأولي العقول والأفهام ، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ** ﴾ [يوسف :٧] ، رتبتها على مجالس لتكون لمن طالعها كالأنيس المجالس ، ونمقت كل مجلس منها بخطبة وأشعار وحكايات وأخبار ، إذ القصة عروس والمتكلم ماشطتها ، والأخبار عقد والأدب واسطتها ، بالله أستعين على ما أصفه ، وأستغفره من خطأ أقترفه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

المجلس الأول

في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ الآية [الإسراء:٢٣].

الحمد لله الذي رفع السماء على كاهل الاقتدار ، وبناها بنياناً ، وزينها بالكواكب ، وحرسها بالثواقب ، وجعل الشمس سراجاً والقمر حسباناً ، وأنشأ سحائب الأفق ، وضربها بسياط الرعد ، فسالت دموعها هتاناً ، وأضحك البقاع بالأزهار والنَّوار والفواكه والأثمار ، ولونها ألواناً ، ووضع الأرض على تيار الماء ، وأرساها بالجبال فأذعنت لعزته إذعاناً ، وذرأ بريته وأجرى فيهم مشيئته ، فهذا يضمر جحداً ، وهذا يظهر إيماناً ، القديم الذي تفرد بالعزة فلم يتخذ ولداً ولا مدداً ولا عدداً ولا أعواناً ، الحكيم الذي نقلنا من الأصلاب إلى البطون وجعلها مثوانا ، وصورنا بقدرته في ظلمة الأحشاء وسوَّانا ، وأمدنا بالتأييد والإلهام والعقول والأفهام وقوانا ، وأمرنا في كتابه ببر الوالدين وأوصانا ، فقال جل منْ قائل : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ [الإسراء:٢٣] . أحمده سراً وإعلاناً ، أشكره على ما أنعم به علينا وأولانا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون لنا من عذاب القبر أماناً ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، الذي أنقذ أمته من الضلالة ، وحماهم من الجهالة ، حتى اجتمعوا بعد الفرقة ، وأصبحوا بعد العداوة إخواناً ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين كانوا بالليل رهباناً ، وبالنهار فرساناً ، صلاة وسلاماً يدومان ويقومان ما هيج الشوق أشجاناً ، وعلت الأوراقُ الأغصانا ، وسلم تسليماً كثيراً :

قَضَى اللهُ أنْ لا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ حتْما ... فَــا وَيْحَ شَخْـصٍ غَيْرَ خالقه أمَّا
وأوْصَــاكُمُو بِــالوَالِدَيْنِ فَــبالغُوا ... بِــبِرِّهما فَالأجْــرُ في ذاكَ والرُّحْمَا
فكَــمْ بَــذَلا مِــن رأْفَــةٍ ولَطَافَةٍ ... وكَمْ مَنَحَا وَقْتَ احْتياجِكَ مِن نُعْمَى
وأمُّــكَ كَــمْ بَاتَتْ بِثِقْلِكَ تَشْتَكِي ... تُواصِــلُ ممَّــا شَـفَّهَا البُؤسَ والغَمَّا
وفي الوَضْعِ كَمْ قاسَتْ وعند ولادها ... مَشَــاقّ تُذيبُ الجلْدَ واللحمَ والعظْمَا
وكَــمْ سَهِرَتْ وَجْداً عليكَ جُفُونُها ... وأكْــبادُها لهفــاً بجمرِ الأسَى تحمَى
وكَــمْ غسلتْ عنْكَ الأذَى بِيَمِينها ... حُــنوًّا وإشْـفَاقاً وأكْـثَرَتِ الضَّمَّا

فَضَيَّعْتَها لَمَّا أَسَنَّتْ جَهَالَةً وَضِقْتَ بِهَا ذَرْعًا وذَوَّقْتَهَا سُمَّا
وَبِتَّ قَرِيرَ العَيْنِ رَيَّانَ نَاعِمًا مُكِبًّا على اللَّذَّاتِ لا تَسْمَعُ اللَّوْمَا
وأُمُّكَ في جُوعٍ شَدِيدٍ وَغُربةٍ تَلِينُ لها مِمَّا بها الصَّخْرَةُ الصَّمَّا
أهذا جَزَاها بَعْدَ طولِ عَنَائِها لأنتَ لَذو جَهْلٍ وأنتَ إذًا أعْمَى

قوله تعالى : ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً** ﴾ [الإسراء: ٢٣] ، وقضى ربك بمعنى أمر ربك ، والقضاء في القرآن على عشرة أوجه :

أحدها : بمعنى الفراغ ، ومنه قوله تعالى ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ** ﴾ [البقرة:٢٠٠].

والثاني : بمعنى التمام ، ومنه قوله تعالى ﴿ **لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى** ﴾[الأنعام: ٦٠] .

والثالث: بمعنى الفصل ، ومنه قوله تعالى ﴿ **وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ** ﴾ [يونس: ٥٤] .

والرابع : بمعنى وجوب العذاب ، ومنه قوله تعالى ﴿ **وَقُضِيَ الأَمْرُ** ﴾ [هود:٤٤].

والخامس : بمعنى الحتم ، ومنه قوله تعالى ﴿ **قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** ﴾ [يوسف:٤١] .

والسادس : بمعنى الخبر ، ومنه قوله تعالى ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الإسراء:٤] .

والسابع : بمعنى الأمر ، ومنه قوله تعالى ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾ [الإسراء:٢٣] .

والثامن : بمعنى الفعل ، ومنه قوله تعالى ﴿ **فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ** ﴾[طه: ٧٢] .

والتاسع: بمعنى الخلق ، ومنه قوله تعالى ﴿ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ** ﴾[فصلت: ١٢].

والعاشر : بمعنى الموت ، ومنه قوله تعالى ﴿ **لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ** ﴾ [الزخرف:٧٧] .

قوله تعالى ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [البقرة : ٨٣] ، وهو البر والإكرام ، فينبغي أن تتولى من خدمتهما ما تولياه من خدمتك ؛ على أن الفضل للمتقدم كما قيل :

وَلَـوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً ... بِسُعْدَى شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ

وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي البُكَا ... بُكَاها فَقُلْتُ : الفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

فكيف يقع التساوي وهما كانا يغسلان أذاك ويرجوان حياتك ، وأنت إن غسلت أذاهما رجوت موتهما ؟! قال رسول الله ﷺ : « رغم أنفه ، رغم أنفه ، قيل : هو من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك أحد والديه عنده الكبر أو كلاهما ؛ فلم يدخل الجنة » (١) ذكره مسلم ، قال أبو سعيد الساعدي : « كنا عند رسول الله ﷺ يوماً فجاءه رجل من بني سلمة ، وكان مغرماً ببر الوالدين ، فقال : يا رسول الله ، أبقي من بر والديَّ شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإيفاء عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما من بعدهما » (٢) ذكره أبو داود ، « وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في الجهاد ، فقال : ألك أبوان ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد » (٣) أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر . واعلم أن حق الأم مقدم في البر لموضع الشفقة ، قال أبو هريرة « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أي الناس أحق بحسن الصحبة ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ؟ قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك ، ثم أدناك فأدناك » (٤) ذكره مسلم . وفي حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، قال : « قلت : يا رسول الله ، من أبر ؟! قال : أمك ، قلت : ثم من ؟ قال : أمك ، قلت : ثم من ؟ قال : أمك ، قلت : ثم من ؟ قال : أباك ، ثم الأقرب

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٩٨٧ ، وابن حبان في صحيحه ٢ / ١٤٠ ، والحاكم في مستدركه ٤ / ١٧٠ ، والبيهقي في الكبرى ٤ / ٣٠٤ ، وابن أبي شيبة في المصنف ٢ /٢٧٠ ، والبزار في مسنده ٤ / ٢٤١ ، والطبراني في الأوسط ٨ / ١١٣ ، والروياني في مسنده ١ / ٩٠ ، والطبراني في الكبير ٢ / ٢٤٣ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٤ / ٣٣٦ ، وابن ماجة في سننه ٢ / ١٢٠٨ ، وأحمد في المسند ٣ / ٤٩٧ ، وابن حبان في صحيحه ١ /١٦٢ ، والحاكم في المستدرك ٤ / ١٧١ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣ / ١٠٩٤ ، ومسلم في صحيحه ٤ / ١٩٧٥ .

(٤) أخرجه البخاري ٢ / ٢٢٢٧ ، ومسلم في صحيحه ٤ / ١٩٧٤ .

فالأقرب»[١] ذكره الترمذي وأبو داود . وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ: «دخلتُ الجنة فسمعتُ فيها قراءة ، فقلت من هذا ؟ فقالوا حارثة بن النعمان ، فقال رسول الله ﷺ: كذلكم البر ، كذلكم البر ، وكان أبرَّ الناس بأمه»[٢] ذكره النسائي . وجاء رجل لأبي الدرداء ﷺ ، فقال: إن لى زوجة ، وإن أمي تأمرني بطلاقها ، فقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ : «الوالدان أوسط أبواب الجنة ، فإن شئت فاحفظ ذلك الباب أو ضيِّعْه» ذكره الترمذي[٣] . وقال ابن عمر ﷺ : «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، إنى أصبت ذنباً عظيماً ، فهل لى من توبة ؟ فقال : هل لك من أم ؟ قال : لا ، قال : هل لك من خالة ؟ قال : نعم ، قال : فبرها» ذكره الترمذي . وقالت أسماء بنت أبي بكر : « قدمتْ عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش ، فقلتُ : يا رسول الله ، قدمتْ علي أمي وهي راغبة أفأصلها ؟ قال : نعم ، صليها»[٤] ذكراه في الصحيحين ، وقال أبو الطفيل : «رأيت رسول الله ﷺ يقسم لحماً بالجِعرَّانة إذ أقبلت امرأة حتى دنت إليه ، فبسط لها رداءه فجلست عليه ، فقلت : مَنَ هي ؟ فقالوا : أمه التي أرضعته»[٥] ذكره أبو داود ، ومن طريق آخر «أنه بسط رداءه ، فقعدت وقعد معها ، فزال عن مكانه ، فجاء أخوه من الرضاعة ، فأقعده معها ، وقعد هو على الارض. وقالت عائشة رضي الله عنها: رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ كانا من أبر الناس بأمهما : عثمان بن مظعون ، وحارثة بن النعمان ، أما عثمان فقال : ما قدرتُ أن أتأمل أمى منذ أسلمت ، وأما حارثة فكان يطعمها بيده ولا يستفهمها كلامًا ؛ فإذا خرج من عندها يقول : ماذا قالت سيدتي ؟ . وكان ابن سيرين إذا دخل عند أمه يكلمها بضعف ، فيقول مَنٍ لا يعرفه : أيشتكي شيئاً ؟ فيقال: لا ، ولكن هكذا يكون عند أمه ، ونادت يوماً ابنَ عوفٍ أمُّه فأجابها ، فارتفع صوته

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٩٧٤ ، والترمذي في سننه ٤ / ٣٠٩ ، وابن ماجة في سننه ٢ / ١٢٠٧ ، والحاكم في المستدرك ٣ / ٧٤٤ .

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ١ / ١٠٩ ، والحاكم في المستدرك ٣ / ٢٢٩ ، وسعيد بن منصور في سننه ٢ / ٤١٣ ، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٤ / ١٦.

(٣) أخرجه ابن الترمذي في سننه ٤ / ٣١١ ، وابن حبان في صحيحه ٢ / ١٦٨ ، والحاكم في مستدركه ٤ / ١٦٩ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٣ / ١١٦٢ .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١ / ٤٤٠ ، وابن حبان في صحيحه ١٠ / ٤٤ ، والحاكم في مستدركه ٣ / ٧١٧ .

على صوتها فأعتق رقبتين ، وكان طيبان بن علي من أبر الناس بأمه ، فنامت ليلة وفي صدرها عليه شيءٌ منه ، فكره أن يوقظها ، وكَره أن يقعد ، فقام حتى ضعف فدعا بغلامين له ، فتوكأ عليهما حتى استيقظت من تلقاء نفسها ، ورضيتْ عليه فأعتق الغلامين . وقال سفيان بن عيينة : قدم رجل من سفر وأمه قائمة تصلي ، فكره أن يقعد ، وهي قائمة ، وعلمت هي قصْدَه فطولت ليؤجر . وقال بشر : رجل يقرب من أمه بحيث يسمع كلامه ؛ أفضل من الذي يضرب بسيفه في سبيل الله ، والنظر إليها أفضل من كل شيء . وجاء رجل وامرأة إلى رسول الله ﷺ يختصمان في صبي لهما ، فقال الرجل : ولدي خرج من صلبي ، وحملته قبل أن تحمليه ، ووضعته قبل أن تضعيه ، فقالت المرأة : نعم يا رسول الله ، حمله خفًا ، وحملته ثقلاً ، ووضعه شهوةً ، ووضعته كرهًا ، وأرضعته حولين ، فقضى به رسول الله ﷺ للأم » ، وقيل في المعنى :

لَـئِنْ كـان بِـرُّ الوالِدَيْنِ مُقَدَّمًا ... فَمَـا يَسْـتَوِي في بِـرِّهِ الأبُ والأمُّ
وهَلْ يَسْتَوِي الوَضْعانِ وَضْعُ مَشَقَّةٍ ... وَوَضْـعُ الْـتِذَاذٍ ذاكَ بُـرْءٌ وذا سُقْمُ
لأُمِّـكَ ثُلْـثَاهُ ولـلأبِ ثُلْـثُهُ ... بهـذا أتَـاكَ الـنَّصُّ واطَّـرَدَ الحُكْمُ
إذا الْتَفَـتَتْ نَحْوَ السَّمَاءِ بِطَرْفِها ... فكُنْ حَذِرًا مِنْ أنْ يُصِبْ قَلْبَكَ السَّهْمُ
وفى آيَـةِ الـتَّأْفِيفِ لِـلْحُرِّ مَقْنَعٌ ... ولَكِـنَّهُ مَـا كُـلُّ عَـبْدٍ لَـهُ فَهْمُ

« فصل » أيها المضيع لآكد الحقوق ، المعتاض من البر بالعقوق ، الناسي لما يجب عليه ، الغافل عما بين يديه ، بر الوالدين عليك دين ، وأنت تماطلهما باتباع الشين ، تطلب الجنة بزعمك ، وهي تحت أقدام أمك ، حملتك في بطنها تسعة أشهر كأنها تسع حجج ، وكابدتْ عند الوضع ما يذيب المُهَج ، وأرضعتك من ثديها لبنًا ، وأطارت لأجلك وسنًا ، وغسلت بيمينها عنك الأذى ، وآثرت على نفسها في الغذا ، وصيرت حجرها لك مهدًا ، وأنالتك إحسانًا ورفْدًا ، فإن أصابك مرض أو شكاية ، أظهرت من الأسف فوق النهاية ، وأطالت الحزن والنحيب ، وبذلت مالها للطبيب ، ولو خُيِّرتْ بين حياتكَ وموتها ، لطلبتْ حياتك بأعلى صوتها ، وكم عاملتها بسوء الخلق مراراً ، فدعت لك بالتوفيق سرًّا وجهاراً ، فلما احتاجت عند الكبر إليك ، جعلتها من أهون الأشياء عليك ، فشبعْتَ وهي جائعة ، ورَويتَ وهي ظامئة ، وقدّمتَ عليها أهلك وأولادك في الإحسان ، وقابلتَ أياديها بالنسيان ، وصعبَ عليك أمرها وهو يسير ، وطال عليك عمرُها وهو قصير ،

وهجرتها ومالها سواك نصير ، وربُّك بتضييعك لها خبير ؛ هذا وهو نهاك عن التأفيف ، وخاطبك في حقها بخطاب لطيف ، ستعاقب في دنياك بعقوق البنين ، وفي أخراك بالبعد عن رب العالمين ، يناديك لسان التوبيخ والتهديد ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد . وقيل في المعنى :

لأُمِّـكَ حَـقٌّ لَـوْ عَلِمْتَ كَبِيرُ ... كَـثيرُكَ يَـا هَـذا لَدَيْه يَسِيرُ
فَكَـمْ لَـيْلَة بَاتَتْ بثقْلكَ تَشْتَكي ... لهَـا مِـنْ جَواهَـا أَنَّـةٌ وَزَفِيرُ
وفي الوَضْعِ كَمْ قَاسَتْ عَلَيْكَ مَشَقَّةً ... ومـا حِجْـرُها إلا لَدَيْكَ سَرِيرُ
وَكَمْ غَسَلَتْ عَنْكَ الأذى بِيَمِينِهَا ... وَكَـمْ غُصَصٌ مِنْهَا الفُؤادُ يَطِيرُ
وَتَفْدِيـكَ مِمَّـا تَشْـتَكِيه بِنَفْسِها ... ومِـنْ ثَدْيِهَا شُرْبٌ لَدَيْكَ نَمِيرُ
وكم سهرتْ وجداً عليكَ جفونها ... وأكبادُها لهفاً بجمر الأسى تَحْمَى
وَكَـمْ لَيْلَة جَاعَتْ وأَعْطَتْكَ قُوتَها ... حُـنوًّا وإشْـفاقًا وأَنْتَ صَغِيرُ
فَضَـيَّعْتَها لَمَّـا أَسَـنَّتْ جَهَالَـةً ... وطَـالَ عَلَيْكَ الأَمْرُ وَهْوَ قَصِيرُ
فَآهًـا لِـذي عَقْـلٍ وَيَتَّبِعُ الهَوَى ... وآهًـا لأَعْمَى القَلْبِ وَهْوَ بَصِيرُ
فَدُونَـكَ فَارْغَبْ في عميم دُعَائِها ... فَأَنْـتَ لِمـا تَدْعُـو إليه فَقِيرُ

وقيل : إن أبر الناس بأمه يعقوب ﷺ حيث أظهر برها وهو في بطنها ، وذلك أن أم يعقوب ﷺ حملت في بطن واحد بتوأمين ، فلما تمت عدة أشهر الحمل ، وجاء وقت الوضع ، تكلما في بطنها والأم تسمع كلامهما ؛ فقال أحدهما للآخر : طرِّقْ لي حتى أخرج قبلك ، فقال الآخر : لئن خرجْتَ قبلي لأشقَنَّ بطنها حتى أخرج من خصرها ، فقال له : اخرج قبلي ، وقيل في المعنى :

أتقـتلُ أمًّـا قَدْ غدَا بَطْنُها كَهْفَا ... لـنا والذي نَجْني عَلَى اللهِ لا يَخْفَى
وَمِـنْ حِجْرِها مَهْدٌ لوقت رُقَادِنَا ... وَمِـنْ ثَدْيِها حُقٌّ هُوَ المورِدُ الأَصْفَى
وَمَوْلاتُـنا أَضْحَتْ وَنَحْنُ عَبِيدُها ... وَيَقْـبُحُ فِعْلُ السُّوءِ يا ذا مَعَ الأَكْفَا
فدونَكَ فَاخْرُجْ كيفَ شِئْتَ فإِنَّني ... أَلَـذُّ وإِنْ جُرِّعْـتُ في حَقِّهَا الحَتْفَا
إذا كَـانَ مَوْلاي عَلَيْكَ مُقَدَّمِي ... فَمَا ضَرَّني أَنْ صِرْتُ في ساعَتِي خَلْفَا

قال : فخرج الأول فسَمَّته عيصًا ؛ لأنه عصاها في بطنها ، وخرج الثاني وقد

أمسك بعقبه ، فسَمَّته يعقوب ، فنشأ عيص بالغلظة والفظاظة صاحبَ صيد وقنص ، ونشأ يعقوب بالرحمة واللين صاحبَ زرع وماشية ، وكان أبوهما إسحاق عليه السلام يميل لعيص لكثرة انتفاعه به ، وكانت الأم تميل ليعقوب لكثرة بره لها[1] ، ثم إن الله تعالى امتحن إسحاق عليه السلام بذهاب بصره ، فأظهر الصبر والتسليم ، وقيل :

إنْ أفْقَـدَ اللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُما ... فَفِـي فُؤادِي وقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ
عَقْلِي زَكِيٌّ وحُكْمِي لا خَفَاءَ بِهِ ... وَلِي لِسانٌ بِحُسْنِ القَوْلِ مَشْهُورُ
وإنَّ أحْسَـنَ شَيءٍ أنتَ مُظْهِرُهُ ... صبرٌ إذا ما جَرَى بالكُرْهِ مَقْدُورُ

قال : فنزل جبريل عليه السلام وقال له : إن الله تعالى قد ابتلاكَ ورأى صبركَ وعَوَّضك من صبركَ دعوةً مستجابةً لكَ في أعزِّ ولد عليكَ ، فادعُ له بما شئتَ ، فدعا إسحاق عليه السلام ولده عيصًا ، وقال له : يا بني ، صدْ لي صيداً ، واشْوِ لي لحمَه ، فإنني أشتهيه ، ثم ائتني به ، فإذا قضيتُ منه شهوتي دعوتُ لكَ بالدعوةَ التي وعدني بها ربي ، فتفوز بعز الدارينِ ، فخرج عيص في طلب الصيد ، وكان يعقوب في ماشيته فأرسلتْ إليه أمُّه ، فأتى إليها ، فقالت له : اعمدْ إلى غنمك ، فاذبحْ منها شاةً ، ثم اشْوِ لحمَها ، واجعل الجلْدَ على ظهرك - لأن عيصاً كان كثير الشَّعر - ثم ادخل على أبيكَ وتنكَّرْ في كلامك ، ثم قل له : هذا ما أمرتني به ، ثم سَلْه أن يدعو لك فتفوز بخيرَي الدنيا والآخرة ، وعرَّفَتْه بما كان ، فسار يعقوب عجلاً ، وفعل ما أمرتْه به أمه ، وأتى به والده متنكراً ، وجعل اللحم بين يديه ، فأكل الشيخُ ، ثم قال : اقربْ يا ولدي ، فجعل يده عليه ، فوجد الشَّعر ، وكان الشيخ يقول : سبحان الله ، اللمس لمس عيص ، والريح ريح يعقوب ، وقيل في المعنى :

أَسـيرُ وَقَلْـبِي في يَدَيْـكَ أَسـيرُ ... وكُـلُّ الـذي أَلْقَى عَلَيْكَ يَسيرُ
وإنْ رُمْتُ أنْ أنْسَاكَ في الدَّهْرِ سَاعَةً ... يُعَاتِبُـني قَلْـبٌ علـيكَ يَطِـيرُ
وَأَخْضَـعُ إجْلالاً إذَا هَبَّ رِيحُكُمْ ... وفي الـرِّيحِ لي مَـثْوًى إلَيْهِ أسيرُ

فقالت الأم : هو ولدكَ ، فادعُ له ، فمسحَ الشيخ على ظهره ، وقال : اللهم ،

---

(١) هذا الخبر الذي أورده المصنف لم نجده إلا في تاريخ الطبري (١/١٩١)،والكامل (١/٩٦)، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا يبدو من الإسرائيليات الموضوعة في كتب التفاسير ، وعلامة ذلك واضحة عليه.

اجعل أنبياءك ورسلك سوى النبي العربي الذي أجريته في قناة أخي إسماعيل من نسل ولدي هذا إلى يوم القيامة ، فقام يعقوب وقد فاز بالدعوة ، وأحضر عيص الصيدَ ، فشوى اللحم ، وأتى والده ، فوجده في البيت ، فقال الشيخ وقد سمع منه نفساً : من أنت ؟ قال ولدك عيص ، جئتك بما أمرتني به ، فقال يا بني : أو لم تأتني به قبل هذا ؟ قال : لا ، قال : فاز أخوك بالدعوة دونك ، قال : والله ، لأقتلنه ، فقال : يا بني ، قدر الله تعالى ومراده ، وقيل في المعنى :

وَلَيْسَ رِزْقُ الفَتَى مِنْ فَرْطِ قُوَّتِه ... لَكِـنْ حُدُودٌ بأرزاقٍ وأَقْسَامِ
كالصَّيْدِ يحرِمُهُ الرَّامي المُجِدُّ وقَدْ ... يَرْمِي فَيُرْزَقُهُ مَنْ لَيْسَ بالرَّامي

قال : فصار عيص يضرب لأخيه المكايد وينصب له المصايد ، فخافت الأم عليه فقالت له : يا ولدي ، إن لك خالاً بنجران[1] ، فلو مضيتَ إليه وكنتَ عنده ، فإني أرضى بفراقك لما أخاف عليك من بأس أخيك ولا طاقة لك به ، فكن عند خالك حتى يقضيَ الله لكما بما يشاء ، فودعهما وخرج يريد نجران ، وقيل :

دَمْـعٌ يُصَـبُّ ومُقْلَـةٌ لا تَهْجَعُ ... قَلْـبٌ يَـذُوبُ وَمُهْجَـةٌ تَتَقَطَّعُ
بَـانُوا فَبَانَـتْ راحَتِي مِنْ راحَتِي ... والصَّـبْرُ وَدَّعَـنِي عَشِيَّةَ وَدَّعُوا
وَمِنَ العَجَائِبِ أنَّ شَخْصِيَ ظَاهِرٌ ... والصَّـدْرُ مِنْ قَلْبِي خَرابٌ بَلْقَعُ
وأُجِـيلُ طَرْفِي في الدِّيَارِ فلا أَرَى ... إلا سـيوفَ البَـيْنِ حَوْلِيَ تَلْمَعُ
وَلَقَـدْ أُعنِـتُ عَلَى فراقِ أَحِبَّتِي ... لَمَّـا رَأَيْـتُ لَهُـمْ فِـراقِي أَنْفَعُ
يـا أَيُّهَـا القَمَرُ المُغَيَّبُ وَهْوَ في ... أُفُـقِ الجَوَانِـحِ والسَّـرائرِ يَطْلُعُ
إنْ غِبْـتَ فامْـنُنْ في المَنامِ بزَوْرَةٍ ... إنَّ الضَّـعيفَ بِمـا تَيَسَّـرَ يَقْنَعُ
سَـبَقَ القَضَـاءُ بِـبُعْدنا وشَتَاتِنا ... مَنْ ذا يُخَاصِمُ في القَضَا أو يَدْفَعُ
قَدْ كُنْتُ أَجْزَعُ مِنْ صُدودِ جَفَاكُمْ ... فالصَّـبْرُ أفْضَـلُ مـا إليهِ يُرْجَعُ

---

(١) نَجْرَان : بالفتح ثم السكون وآخره نون ، يقال : نجران الباب ، أي الخشبة التي يدورُ عليها ، وهي موضع في مخاليف اليمن ، أي خلف اليمن من ناحية مكة ، سُمِّيت بنجران بن زيدان بن سبأ بن كشجب بن يعرب بن قحطان ، قيل : سُميت باسمه لأنه أول من عمرها ونزلها. (انظر : معجم البلدان ٥ / ٢٦٦).

قال : فخرج يعقوب عليه السلام يسري في الليل ، ويكمن بالنهار ، فسمي بذلك : إسرائيل ، أو لأنه أُسري به في سبع سموات ، وأنه نزل أرض كنعان[1] ، فبعثه الله لهم نبياً ، وهو أبو الأسباط الذين دُعينا إلى الإيمان بهم ، قال الله تعالى : ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ** ﴾ [البقرة:١٣٦] . قال ابن عباس رضى الله عنهما : فقدم يعقوب على خاله واسمه ليا بن تنويل ، وكان صاحب غنم ، وقدم عليه في عام جدب ، وكان له بئر تردُها غنمه ، وكان أكثرُ مائها قد نضب ، فشكا ذلك إلى يعقوب ، فأخذ الرِّشا ، وقام على البئر ، فملأ دلواً ، فشرب منه ، ثم رد فضلته في البئر ، فإذا بالماء قد نبع ، ووصل فوق الحد وطلع ، فأجلَّه وعظَّم قدْرَه ، فعرض عليه النكاح ، وكان يعقوب قد رأي راحيل ابنة خاله فمال إليها قلبه ، وكانوا يتزوجون المشركات ، ولا يزوجون نساءهم المشركين ، ولا يزوجون الصغار قبل الكبار ، فأجابه يعقوب إلى ذلك ، وهو يرى الصغرى وهي راحيل ، فزوجه من أختها ، فلما نظرها يعقوب قال : يا خالي ، ليست هذه التي أردتُ ، فقال : يا بني ، إنا لا نزوِّج الصغارَ قبل الكبار ، وإني قد زوجتكَ أختها الثانية استجلاباً لمودتكَ ، واغتباطاً بمقامكَ عندنا فتزوجهما . قال السدى والضحاك وغيرهما : ففي ذلك يقول الله تعالى ﴿ **وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ** ﴾ [النساء:٢٣] . فأباح الله له ذلك وحرمه علينا ، فكان يعقوب بينهما في غبطة وسرور ونعمة وحبور ، وكان لهما جاريتان أختان ، فوهبته كل واحدة منهما جاريتها ، فجمع بين أختين حرتين وأختين أمتين ، وكان زوَّجه ابنته على أن يعمل في غنمه سبع سنين ، فلما انقضت المدة اشتاق يعقوب إلى الرجوع إلى أمه وأبيه وأهله وأخيه ، وقيل :

إلَـيْكُمْ رَحَلْنَا لا لِرَبْعٍ ومَعهدِ ... فأنْتُمْ مَحَلُّ الأُنْسِ في كُلِّ مَشْهَدِ
نَـزُورُكُمُ لَوْ لَمْ نَنَلْ غَيْرَ نَظْرَةٍ ... لَكانَـتْ لَنا بُشْرَى بِإنجازِ مَوْعِدِ
أسُـكَّانَ قَلْـبِي والدِّيارُ بَعِيدَةٌ ... ومَطْمَـعُ نَفْسِي والعُيونُ بِمَرْصَدِ
فَلَـمْ يَبْقَ مِنِّي غَيْرُ قَلْبٍ مُرَوَّعِ ... يُـراعِي المَنَايا تَحْتَ جِفْنٍ مُسَهَّدِ

---

(١) كَنْعَان : بالفتح ثم السكون وعين مهملة وآخره نون ، قال ابن الكلبي والأزهري : هو كنعان بن سام بن نوح ، وإليه ينسب الكنعانيون ، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية ، وقاله ابن منظور في لسان العرب (٣١٦/٨). (انظر معجم البلدان ٤٨٤/٤ ، ٤٨٥).

أَمَـا لَكُمُ بالرِّفْقِ بالصَّبِّ حِيلَةٌ   فَمَـا هُـوَ إلا هَامَةُ اليَوْمِ أَوْ غَدِ
أَصَابَ النَّوَى قَلْبي نَعَمْ وفُؤادَهُ   فلمْ يَسْتَطِعْ بَسْطَ اللسانِ ولا اليَدِ
وها هُوَ وافاكُمْ عَلَى قَدَمِ الرِّضَا   بِحَقِّكُـمُ رِقُّـوا لصَبٍّ ومُكْمَدِ

قال : فلما علم خاله ذلك اشتد عليه فراقه ، وقال له : كيف ترجع إلى أهلك دون شيء ؟ أقم عندي سنة ، وأجعل لك جُعْلاً ترجع به إلى أهلك ، قال : وما تجعل لي ؟ قال : أجعل لك غنمي شطرين ، فما ولد الشطر عناقاً فهو لك ، قال : قد رَضيتُ ، فأقام عنده فلما كان وقت نتاج الأغنام أتى جبريل ﷺ إلى يعقوب ﷺ فقال : يا يعقوب ، اذهب إلى موضع كذا وكذا من الوادي ، فإن هناك شجرة كذا وكذا ، فاضربها بعصاك يتساقط عليك ورقها فاتفل عليه ، ثم سرح الغنم ، فانه لا تأكلُ منه شاةٌ إلا حملتْ عناقاً ، ففعل يعقوب ذلك ، فكان بقدرة الله تعالى ، فلما رأى خاله ذلك كبُر عليه ، وقال : أرى أن تقيم عندي عاماً ثانياً ، وأجعل لكَ ما وُلد من شطر غنمي ذكوراً ، قال : فأقام عنده ، فلما كان وقت نتاج الغنم أتاه جبريل ﷺ فقال : اذهب إلى الوادي ، وائت شجرة كذا ، فاضربها بعصاك ؛ فإذا تساقط ورقها فاتفلْ عليه ، وسرِّح غنمك ، فإنه لا تأكل شاة منها ورقةً إلا حملتْ ذكرًا ، ففعل ذلك ؛ فلما رأى خاله ذلك ، قال : يا يعقوب ، إن ربك الذي تعبده لقادر ، فودَّعَ خاله وسار بأهله ، وكان قد دعا زوجتيه وجاريتيهما إلى الله سبحانه وتعالى فأسلمن ، وكانت إحدى زوجتيه قد أمرتْ أحد أولادها أن يسرق صنم جده ، فلما خرجوا عن الشيخ اشتد عليه فراقهم ، فجاء إلى صنمه ليستأنس به فلم يجدْه ، فركب في أثر يعقوب حتي لحقه ، وقال : يا يعقوب ، ما كافأتني ولا وصلت رحمك ، فقال : وما ذاك ؟ قال : سرقت إلهي ، قال : يا خالي ، وما تفعل بإله يسرق ؟ يا خالي ، ألا أدلكَ على ما هو خير لك ؟ تعبد الله الذي لا إله إلا هو ، وأنا أعطيكَ جميع ما حملتُه مِن عندكَ سوى أهلي وولدي ، وقيل :

أَتَتْرُكُ مَنْ يَقْضِي القَضَاءَ وَيَخْلُقُ   ويُعْطِي عَطَايَاهُ العبادَ وَيَرْزُقُ
وَتَعْبُدُ عُودًا قَدْ تَبَيَّنَ عَجْزُهُ   أَلَسْتَ تَرَاهُ كَيْفَ يُؤْذَى وَيُسْرَقُ
وَقَدَ أَبْصَرتْ عَيْناكَ مِنْ فِعْلِهِ مَعِي   دَلائِلَ كالشَّمْسِ المُنيرَةِ تُشْرِقُ
فَدَيْتُكَ فَارْجِعْ للذي أَنْتَ عَبْدُهُ   فإنَّ رُجُوعَ العَبْدِ للحَقِّ أَلْيَقُ
فَخُذْ كُلَّ مَا عِنْدِي وَوَحِّدْهُ ساعَةً   لَعَلَّكَ في يَوْمِ القِيامَةِ تَلْحَقُ

فقال الشيخ : يا يعقوب ، اردده عليَّ ، ولا حاجة لي فيما ذكرت ، فرده إليه وسار بماله وأهله وولده وهم اثنا عشر ، ورواحيل لم يكن له منها سوى ولدين يوسف وبنيامين عليهما السلام ، فلما قربوا من كنعان أخذ يعقوب أولاده ، وألبسهم أحسن الثياب وزينهم وقدمهم ، وقال : يا بني ، إذا لقيكم رجل طويل أشقر ذو سلاح وقوة ويقول لكم : من أنتم ؟ فقولوا : نحن أولاد يعقوب عبد عيص اشتاق إلى رؤية سيده ، فأتاه برفيقه وأولاده وأهله وماله ، وكان عيص قد سمع بوصول أخيه ، فتنكب قوسه وسلاحه وخرج فاستقبله الأولاد ، فلما نظر إليهم أقبل عليهم وسألهم ، فأخبروه بما أوصاهم به أبوهم ، فرق قلبه ودمعت عيناه ، وقيل في المعنى :

خَضَعْتُ ذَليلاً حِينَ عَزَّتْ مَطَالِبي ... وأُرْمِيتُ رُشْدًا بَيْنَ تلكَ المَضَارِبِ
ولي أَرَبٌ بالجَـزْعِ إنْ لَـمْ أُقَضِّهِ ... سَأَقْضِـي وما قَضَّيْتُ مِنْهُ مآربي
إذا قَدِمَتْ مِنْ سُفْرَةِ البَيْنِ عِيسُكُمْ ... تَلَقَّيْـتُها بالرَّحْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
وَقَبَّلْـتُ أخْفَـافَ المَطِيِّ كَرَامَةً ... لِمَـا قَدْ عَلاها مِنْ تُرابِ الحَبَايِبِ
وَأَقْصِـدُ ذَنْـبًا لي تُعَاتِبُـنِي بِـهِ ... لأنَّ سُـروري أنْ أراكَ مُعَاتِـبِي

قال فرمى عيص سلاحه وقال : أخي وابن أمي يعترف لي بالعبودية ، وأنا أجحد فعله ، وأنكر فضله ، وأريد قتله ، فتلاقيا وتعانقا ، فقال يعقوب : يغفر الله تعالى لك يا أخي كل ما بين يدي تحكم فيه بما شئت(١) ، وقيل في المعنى :

أَتَيْـتُكُمْ والشَّوْقُ نَحْوَكُمْ يَحْدُو ... وَأَنْـتُمْ مُـنَى قَلْبِي وإنْ وَقَعَ البُعْدُ
لَـئِنْ بَرِحَتْ داري وشَطَّ مَزارُنَا ... فَمَـا بَرِحَ الحُبُّ الصَّحِيحُ ولا الوُدُّ
ولي حَـنَّةٌ في كُـلِّ وقتٍ إلَيْكُمْ ... كَحَـنَّةِ صـادٍ مِنْهُ قَدْ قَرُبَ الوِرْدُ
فـإنْ تَصِلُوني تَسْمَحُوا لي بِبُغْيَتي ... وإنْ كانتِ الأُخْرَى فَقَدْ سَلِمَ العَبْدُ
ولا أذْكُرُ الماضِي الذي كانَ بَيْنَنا ... دَعُوا ما مَضَى إنَّا مِنَ اليَوْمِ نَسْتَبْدُوا

---

(١) القصة التي أوردها المصنف بطولها ، ذكرها الطبري في التاريخ (١٩٢/١ ، ١٩٣) ، وفيها من الغرابة ما يأكد أنها من الإسرائيليات .

قال : فبقيا في غبطة وسرور ونعمة ، وسُرَّ الوالدان بهما برهة من الدهر ، ولقد قيل : إن يعقوب ﷺ وعيصًا ماتا في يوم واحد ودفنا في قبر واحد ؛ كما كانا في أول حالهما في بطن واحد ، فسبحان مَن لا مطلع لعلمه ، ولا معقب لحكمه ، وهذه القصة شاهدة لما يهبه الله تعالى من بر الوالدين ، فتيامنْ ببقائهما واستكثرْ من لقائهما ، فالموت آت عن قريب ، وكم فرَّق بين محب وحبيب ، وما أسرعَ فرقة الصاحبَيْن ، إذا صاح بَيْنٌ ، وقيل في المعنى :

وَلَمَّـا وَقَفْـنَا لِلسَّـلامِ تَبَادَرتْ ... دُمُوعِي إِلى أَنْ كِدْتُ بالدَّمْعِ أُغْرَقُ
فَقُلْتُ لِعَيْنِي هَلْ مَعَ الوَصْلِ عَبْرَةٌ ؟ ... فَقَالَـتْ : أَلَسْنَا بَعْدَ ذا نَتَفَرَّقُ ؟

قال أبو إسحاق الصعلوكي رحمه الله تعالى : خرجتُ مرة إلى الحج ، فبينما أنا أتيه في البادية إذ جَنَّ الليل عليَّ ، وكانت ليلة مقمرة ، إذ سمعتُ صوت شخص ضعيف يقول : يا أبا إسحاق ، قد انتظرتُكَ من الغداة ، فدنوت منه فإذا هو شابٌّ نحيل الجسم قد أشرف على الموت ، وحوله رياحين كثيرة ؛ منها ما أعرف ، ومنها ما لا أعرف ، فقلت له : من أين أنت ؟ قال : من مدينة شمشاط ، كنت في عز ورفعة ، فطالبتني نفسي بالعزلة ، فخرجتُ وقد أشرفتُ على الموت ، فدعوت الله تعالى أن يقيض لي ولياً من أوليائه ، وأرجو أن يكون أنت ، فقلت : ألكَ أهل ؟ قال : نعم ، لي والدة وإخوة وأخوات ، فقلت : هل اشتقتَ إليهم قط ؟ قال : لا ، إلا اليوم ، فإني استنشقتُ ريحهم ، فاحتوشتني السباع والبهائم والهوام ، وبكين معي ، وحملن إليَّ هذه الرياحين ، قال : فبينما أنا كذلك ، وقد رقَّ له قلبي ، وإذا بحية قد أتته وفى فمها باقة نرجس كبيرة ، وقال : دع شرك عني ، فإن الله تعالى يغارُ على أوليائه ، قال : فغُشي عليَّ ، فما أفقتُ إلا وقد خرجتْ روحه ، رحمه الله تعالى ، وقيل في المعنى :

مَاتَ الغَريبُ بأَرْضٍ لا أَنيسَ بها ... إلا الهَـوامُ وَوَحْشُ القَفْرِ والأُسْدُ
لَـهُ لُـبانَاتُ نَفْسٍ لَيسَ يَبْلُغُها ... ألامَ قَصْـد وشَمْشَاطٌ هي البلدُ
شَاقَ الفُؤادُ إلى اسْتنْشاقِ رِيحِهِمُ ... واللهُ يَعْلَـمُ مَـا يَلْقَى ومَا يَجِدُ
فَأَرْسَلَ الوَحْشَ بالأَزْهَارِ يَقْصِدُهُ ... لِيَسْتَرِيحَ فُـؤادٌ شَـفَّهُ الكَمَدُ
فَعِـنْدَمَا مَدَّ لاسْتِنْشَاقِ رِيحِهِمُ ... مِقْدَارَ بَاعٍ خَلا مِنْ رُوحِهِ الجَسَدُ

قال : ثم وقع عليَّ سبات ، فانتبهتُ وأنا على الجادَّة ، فدخلتُ مدينة شمشاط بعد ما حججتُ ، فاستقبلتني امرأة وبيدها ركوة ما رأيتُ أشبه بالشابِّ منها ، فلما رأتني قالت : يا أبا إسحاق ، ما فعل الشاب الغريب فإني انتظرتكَ منذ كذا وكذا ؟ فذكرتُ لها قصته إلى أن قلتُ لها : قال : أردت أن أشمهم ، فقالت : آه ، بلغ الشم السم ، وخرجت نفسُها ، وقيل في المعنى :

بَلَـغَ الشَّـمُّ فُـؤادي فَأنَا ... رَهَـنٌ بَـيْنَ غَرَامٍ وَضَنَى
آه مِنْ مَوْتِ غَرِيبٍ لَمْ يَجِدْ ... مُؤْنسًا يَشْكُو إلَيْه الشَّجَنَا
قُـرَّةُ العَـيْنِ حَبِيبِي وَلَدِي ... فَـرَّقَ الدَّهْرُ كَذا مَا بَيْنَنَا
بَعْـدَ بُعْدِي منْكُمُ نُورَ الحَشَا ... مَا رَأَتْ عَيْنَايَ شَيْئًا حَسَنَا
حَكَـمَ اللهُ عَلَيْـنَا بالـنَّوَى ... فَلَـهُ الحَمْـدُ جِهارًا عَلَنَا
لَـوْ تَـرَى أمَّكَ مَا قَدْ نَالَها ... جُدْتَ بالدَّمْعِ عَلَيْهَا حَزَنَا
وَلَقَـدْ أرْجُـو الذي فَرَّقَنَا ... في جنَانِ الخُلْد أنْ يَجْمَعَنَا

قال : فخرجتْ أترابٌ عليهن المرقعاتُ والفوطُ ، فتكفلن أمرها ، وتولين دفنها ، رحمة الله تعالى عليها .

المجلس الثاني

في قوله تعالى : ﴿ **لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ [يونس:٦٤] .

الحمد لله الذي ضرب بسيوف الحتوف رقاب الجبابرة ، وصلب بإلمام إرغام جوازم الانتقام تعزز الأكابر والأكاسرة ، فأخرجهم من سَعة القصور إلى ضيق القبور ، وقذفهم في ظلمات الحافرة ، وبدد أموالهم ، وأحال أحوالهم ، وصيرهم أمثالاً عابرة ، فأصبحوا عظة للألباب الحاضرة ، وعبرة للعيون الناظرة ، فسبحان من زين وجه سماء قلوب المحبين العارفين بنجوم التوحيد النائرة ، وأطلع فيها شموس التحقيق وأقمار التصديق فهِمَمُهُمْ إليه ثائرة ، وأجاب سؤالهم وأراهم حالهم فكأنهم في أرض الساهرة ، إن قاموا قاموا لأوامره ، وإن ناموا أتتهم البشائر المتواترة ، ووصفهم مولاهم في آياته الباهرة ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ **لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ [يونس:٦٤] أحمده على نعمه الباطنة والظاهرة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أكفِّر بها ما سلف من الأفعال الفاجرة ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المؤيد بالمعجزات الباهرة ، والمخصوص بالسجايا العليا والرتب السنية الفاخرة ، صلى الله عليه وعلى آله أولي الأعمال الزكية والنفوس الطاهرة ، صلاةً تدوم وتقوم ما اكتحلت بالمنام جفون ساهرة ، وذُكرت بالحمَى قبورٌ دائرة ، وسلّم تسليماً كثيراً ، وقيل في المعنى :

كَحِّلْ جُفُونَكَ كُحْلَ السُّهْدِ والأَرَقِ ... ونَكِّس الرَّأسَ رَأْسَ الذُّلِّ والفرَقِ
وَقِفْ عَلَى البَابِ يا مِسْكِينُ مُجْتَهِدًا ... مِنْ قَبْلِ أنْ يُؤْمَرَ البَوَّابُ بالغَلَقِ
وَلَتُخْبِرَنَّ قَلْبَكَ المَصْدودَ يا بَطِرًا ... فالسَّبْقَ تَعْرِفُهُ في آخِرِ الطَّلَقِ
عَجِبْتُ مِنْ واقِفٍ بالمَاءِ يُبْصِرُهُ ... وإنَّهُ بالظَّمَا يَشْكُو مِنَ الحُرَقِ
وللإلهِ رِجَالٌ مِنْهُ أَتْحَفَهُمْ ... بزِينَةٍ نُورُهَا يَزْهُو عَلَى الشَّفَقِ
فَبالنَّهَارِ شُمُوسٌ إنْ نَظَرْتَ لَهُمْ ... وبالمَسَاءِ بُدُورُ اللَّيْلِ والغَسَقِ
قُلْ كَيْفَ يَطْمَعُ يا ذَا باللِّحَاقِ بِهِمْ ... وَقَدْ جَهِلْتَ سَبِيلَ السَّيْرِ والطُّرُقِ
قِفْ في فَيافي التنادي خاضعاً لهمُ ... فَقَدْ يُفيدُ النِّدَا مَنْ ظَلَّ في غَرَقِ
يا مَنْ وهبتُ له روحي فعذبها ... وَرُمْتُ تخليصَها مِنْهُ فَلَمْ أُطِقِ

أصـــبحتُ عندكَ بعد العز منطرحاً وطالَما كُنْتُ مَحْمُولاً على الحَدَقِ
فارْحَمْ حُشَاشَةَ نَفْسٍ فيكَ قَدْ تَلِفَتْ قَــبْلَ المَمَــاتِ فَهَــذا آخِرُ الرَّمَقِ
فَلَــوْ مَضَى الكُلُّ مِنِّي لَمْ يَكُنْ عَجَبًا وإنَّما عَجَبي في البَعْضِ كيفَ بَقِي

قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [يونس:٦٤] . تكلم الناس في هذه الآية ، فقال مجاهد : هو الرجل المؤمن يرى الرؤيا الصالحة ، وهي من أعمال الأنبياء جزء من سبعين جزءاً من النبوة ، وسأل رجل من أهل مصر ابن عباس عن هذه الآية ، فقال : ما سألني أحدٌ عنها منذ سألت رسول الله ﷺ إلا رجل واحد سأل النبي ﷺ ، فقال : ما سألني أحد عنها منذ نزلت إلا رجل واحد : هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المؤمن أو تُرى له . وفي الصحيحين من حديث سمرة بن جندب قال : كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة الصبح أقبل علينا بوجهه ، فقال : مَن رأى منكم الليلةَ رؤيا ؟ فإن رأى أحدٌ رؤيا قصها عليه ، فيقول ما شاء الله ، فسألَنا يوماً وقال : هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ فقلنا : لا ، قال : لكنِي رأيتُ الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة ؛ فإذا رجلٌ جالس ورجل قائم بيده كَلُوبٌ من حديد يدخله في شدقه حتى يبلغ قفاه ، ثم يفعل بشدقه الآخر كذلك ، ويلتئم شدقه الأول فيعود فيصنع به مثله ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهْر أو بصخرة يشدخ بها رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر ، فينطلق إليه فيأخذهَ ، فلا يرجع حتى يلتئم رأسه ، ويعود كما كان ، فيعود إليه فيضربه ، فقلت : ما هذا ؟ فقالا : انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضَيِّق وأسفله واسع ، يتوقد تحته نار وفيه ناس ؛ فإذا قربت منهم النار ، ارتفعوا حتى كادوا يخرجون منها ، فإذا خمدت رجعوا فيها وهم رجال ونساء عراة ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم ورجل قائم على شاطئ النهر ، ورجل بين يديه حجارة ، فيقبل الرجل الذي في النهر إذا أراد أن يخرج ، رمى الرجل بحجر في فيه ، فيرجع كما كان ، قلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق ، فانطلقنا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان ، وإذا برجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها ، فصعدا بي إلى الشجرة ، وأدخلاني داراً لم أَرَ قط مثلَها ولا أحسنَ منها ، فيها رجال وشيوخ وشبان ونساء وصبيان ، ثم أخرجاني منها ، وصعدا بى الشجرة فأدخلاني داراً هي أحسنُ من الأولى وفيها شيوخ وشبان ، فقلت لهما : إنكما طوفتماني الليلة فأخبراني

عما رأيتُ ، قالا : نعم ، أما الرجل الذي رأيته يشق شدقيه فكذاب يحدث بالكذبة ، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيُصنع به كما ترى إلى يوم القيامة ، والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه اللهُ القرآنَ فنام عنه بالليل ، ولم يعمل بما فيه في النهار يُفعل به ما رأيت إلى يوم القيامة ، والذين رأيتهم في الثقب فهم الزناة ، والذي رأيته في النهر آكل الربا ، والشيخ الذي رأيته فى أصل الشجرة إبراهيم ﷺ ، والصبيان الذين حوله أولاد المؤمنين ، والذي يوقد النار مالك خازن النار ، والدار الأولى التي دخلتها دار عامة الناس ، وأما هذه الدار فدار الشهداء ، وأنا جبريل ، وهذا ميكائيل ، ارفع رأسك ، فرفعت رأسي ، فإذا فوقي مثل السحاب ، وفي طريق آخرَ مثل الذبابة البيضاء ، فقالا : هذا مترلك ، فقلت : دعاني أدخل مترلي ، قالا : إنه بقِيَ لك عمرٌ لم تستكمله ؛ فلو استكملته أتيت مترلك »[(١)] .

وذكر أبو داود عن عبد الرحمن بن سمرة قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في مسجد المدينة فقال : لقد رأيتُ البارحة عجباً ، رأيتُ رجلاً من أمتي سلط عليه عذاب القبر ، فجاءه وضوءه فرده عنه ، قال : ورأيتُ رجَلاً من أمتي احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله تعالى فخلصه من أيديهم ، قال : ورأيتُ رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكةُ العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، قال : ورأيتُ رجلاً من أمتي يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً مُنع ، فجاءه صيام شهر رمضان فسقاه ، قال : ورأيتُ رجلاً من أمتي والنبيون قعودٌ حلَقاً حلَقاً كلما دنا من حلقة طرِد ، فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده وأجلسه إلى جانبي ، قال : ورأيتُ رجلاً من أمتي فوقه ظلمة وتحته ظلمة ، وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ، ومن بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة ، فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور ، قال : ورأيتُ رجلاً من أمتي مُتَّقياً بوجهه وهجَ النار وشررها ، فجاءته صدَقته فصارت على وجهه ستراً وظللت علَى رأسه ، قال : ورأيتُ رجلا من أمتي يكلم الناس ولا يكلمونه ، فجاءته صلة الرحم ، فقالت : يا معشر المسلمين ، كان هذا واصلاً للرحم فكلموه ، فكلموه وصافحوه ، قال : ورأيتُ رجلاً من أمتي قُرِّب للميزان فخف ميزانه ، فجاءته أفراطه فثقلت ميزانه ، قال : ورأيتُ رجلا من أمتي أخذته الزبانية من كل مكان ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه وأدخلاه مترل الرحمة ، قال : ورأيتُ رجلاً من أمتي يهوي في النار ، فجاءه بكاؤه من خشية الله تعالى فاستخرجه ، قال : ورأيتُ رجلاً من أمتي على الصراط يزحف أحياناً فجاءته صلاته عليَّ فأقامته على قدميه ، قال : ورأيتُ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١ / ٤٦٦ ، وأحمد في المسند ٥ / ١٤ .

رجلاً من أمتي كلما انتهى إلى باب من أبواب الجنة غُلق الباب دونه حتى غُلقت الأبوابُ كلها ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ، ففُتحت له الأبوابُ كلها ، وأُدخل الجنة » . قال : قال وثيمة في كتابه : عن نوح بن أبي مريم عن يونس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيتُني في المنام كأني في الجنة فإذا أنا بخشخشة أمامي فظننتُ أنه أبو بكر وعمر ، وكان جبريل معي ، فقلتُ : مَنْ هذا ؟ قال : بلال ، قلت : ما بلغ به هذه المنزلة ؟ قال : إنه كان لا يُحْدثُ إلا توضأ ، ولا توضأ إلا صلى ركعتين ، قال : فرفعتُ رأسي إلى علالي في الجنة ، فإذا فقراء المهاجرين والأنصار ، فقلتُ : يا جبريل ، ما لي لا أرى الأغنياء والنساء ؟ قال : أمَّا الأغنياء فإنهم يمحصون ويحاسبون ، وأما النساء فألهاهنَّ الأحمران الذهبُ والحريرُ ، قال : ثم جئت إلى باب الجنة ، فإذا عبد الرحمن بن عوف ، فقلتُ : ما أبطأ بكَ عني يا ابن عوف ؟ فقال : بأبي أنت وأمي ، ما زلتُ أُمحصُ وأُحاسبُ حتى ظننتُ أني لا ألتقي أنا وأنت ، قال : فخرجتُ من باب الجنة ، فأُدلي الميزانُ لي ، فوُضعت في كفة وجميعُ أمتي في كفة فرَجَحتُهم ، ثم جيء بأبي بكر رضي الله عنه ، فوُضع في كفة ، وجميعُ أمتي في كفة فرجحهم ، ثم جيء بعمر فوُضِع في كفة وجميعُ أمتي في كفة فرجح بهم عمر ، ثم رفع الميزان» (١) ، وذكر أيضاً عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رآني في المنام فقد رآني ، فإن الشيطان لا يتمثل بي »(٢) ، وفي رواية « بصور الأنبياء ولا يراني إلا أحدُ رجلين إما بَرٍ وإما فاجر ، فأنا للبر بشيرٌ وللفاجر نذيرٌ ؛ لأني إنما بعثتُ بشيراً ونذيراً » . قال سلمان الفارسي رضي الله عنه : رأيتُ رسول الله ﷺ في النومِ وبين يديه طبقٌ فيه تمر ، فقلت : يا رسول الله ، ناولْني ، فأعطاني تمرةً واحدة فأكلتُها وجعلتُ النواةَ في يدي ، فقلت : زدني ، فأعطاني أخرى ، فأكلتها وجعلتُ النواة في يدي ، فقلت : زدني ، فأعطاني أخرى ، فأكلتها وجعلتُ النواة في يدي ، ثم انتبهتُ وحلاوةُ التمر في فمي والنوى في يدي ، فلما أصبحتُ سرتُ إلى منزل فاطمة رضي الله عنها ، فدخلتُ بعد الاستئذان لأخبرهم بذلك ، فإذا علي والحسن والحسين بين أيديهم طبقٌ فيه تمر يأكلون منه ، فقلتُ : ناولْني يا أبا الحسن ، فأعطاني تمرة ، فأكلتُها وجعلتُ النواة في يدي ، ثم قلتُ : ناولْني يا حسن فناولني تمرة فأكلتها وجعلتُ النواة في يدي ، ثم قلتُ : ناولْني يا حسين فأعطاني تمرة فأكلتها وجعلتُ النواة في يدي ، فقلت : الزيادةَ ، فقال لي علي : حسبُكَ ، لو

---

(١) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٣ / ٢٣٢ ، والهيثمي في مجمع الزوائد ٧ /١٩٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٧٧٥ ، والبخاري في صحيحه ١ / ٥٢.

زادكَ الجد شيئاً في المنام لزدناك في اليقظة ، وقيل :

شَوَاهِدُ أَهْلِ الصِّدْقِ فِي الحُبِّ تُعْرَفُ ... فَلَيْتَكَ مِنْهُمْ أَيُّهَا المُتَخَلِّفُ
جُسُومُهُمْ تَنْأَى وإنَّ قُلُوبَهُمْ ... لها أَعْيُنٌ أجْفَانُها لَيْسَ تَطْرِفُ
لَئِنْ كَانَتِ الأَشْخَاصُ مِنْهُمْ تَبَاعَدَتْ ... فأَرْوَاحُهُمْ عِنْدَ الكَرَى تَتَأَلَّفُ
وَقَدْ سَمِعَتْ أُذْنَاكَ قِصَّةَ سَيِّدٍ ... لَهُ رُتْبَةٌ بَيْنَ الأَنَامِ تُشَرِّفُ
أَتَاهُ صَدِيقٌ فِي المَرَائِي مُعَرِّفاً ... فَأَلْفَاهُ بالرُّؤْيا الكَرِيمَةِ يُعْرَفُ
تَوَاصَلُ أَرْبَابُ القُلُوبِ تَجَدُّدًا ... إِذَا زَالَتِ الأَجْسَامُ زالَ التَّعَسُّفُ
ولَمْ يَبْقَ إلا الرُّوحُ تَأْلَفُ جِسْمَهَا ... وتَسْرَحُ فِي رَوضِ الرِّضَا ثُمَّ تَشْرُفُ
وتُبْصِرُ مَوْلاهَا بِلا رَفْعِ حَجْبِهِ ... فَيُتْحِفُهَا بالقُرْبِ مِنْهُ ويُزْلِفُ

وقيل : إن أول ما ابتُدئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء فكان مع خديجة حتى كمل له من العمر أربعون سنة ، وكان يقول : يا خديجة ، دعيني أتحنث ، فكانت تصنع له الكعك والزبيب ، ثم يخرج إلى جياد الأصغر ، وقيل : إلى غار حراء فخرج إليه يوماً ، فهتف به جبريل ﷺ ولم يبدُ له ، فغُشي عليه ، فحمله المشركون إليها ، وقالوا : دونك يا خديجة ، قد تزوجت مجنوناً ، فوثبتْ خديجةُ من السرير ، وضمته إلى صدرها ، ووضعت رأسه في حجرهَا ، وقَبَّلَتْ بين عينيه ، وقالت : تزوجتُ نبياً مرسلاً ، فلما أفاق قالت : بأبي أنت وأمي ، جعلني الله فداك ، ما الذي أصابك ؟ هل رأيت شيئاً أنكرته ؟ قال : ما أصابني إلا الخيرُ غير أني سمعتُ صوتاً أفزعني ، ففرحتْ خديجةُ واستبشرتْ ثم قالت له : إذا كان من الغد فعُد إلى الموضع الذي كنتَ فيه بالأمس ، فإن يكن ملَكاً فسيرجع ، وإن يكن شيطاناً فليس براجع ، قال فلما كان اليوم الآخر خرج ﷺ إلى موضعه فهتف به جبريل ﷺ ولم يبدُ له ، فغُشي عليه وحملوه ، وفرحت قريش بذلك ، وقالوا : زوج خديجة يتخبطه الشيطان ، فحملوه إليها ، وقالوا مثل القول الأول ، وعملت به مثلِ عملها الأول ، فلما أفاق سألته وقالت : بأبي أنت وأمي ، هل رأيتَ اليوم شيئاً ؟ فقصَّ عليها القصةَ ، ففرحت وقالت : إذا كان من الغد فارجع ، فرجع من الغد إلى موضعه ، فبدا له جبريل ﷺ في أحسن صورة وأطيب رائحة ، فقال : يا محمد ، إن الله تبارك وتعالى يُقرئك السلامَ ، ويقول لك : أنت رسولي إلى الثقلين الإنسِ والجنِّ ،

فادعهم إلى قول لا إله إلا الله ، ثم قال : ألا تعرفني ؟ قال : لا ، قال : أنا أخوك جبريل ، وأنت محمد ، ولا نبيَّ بعدكَ ، ثم ضرب جبريل عليه السلام الأرضَ برجْله فنبعت عينُ ماءٍ ، فأمره أن يتوضأ ، وقام جبريل عليه السلام يصلي ، وأمره أن يصلي معَهَ ، فعلّمه الوضوءَ والصلاةَ ، وعلّمه (اقرأ باسم ربك الذي خلق) إلى آخرها ، ورسول الله ﷺ يأتمّ بجبريل ، وعرج جبريل إلى السماء ، وخرج رسول الله ﷺ من جياد الأصغر ، فكان لا يمر بحجر ولا مدر ولا شجر إلا سَلّم عليه وهو ينادي : السلامُ عليكَ يا رسول الله ، حتى أتى إلى خديجةَ ، فأخبرها بالكرامة التي أكرمه الله تعالى بها من الرسالة والنبوة ، فغُشيَ عليها من الفرح ، فنضح عليها الماء حتى أفاقت ، فآمنت بالله ورسوله ، وقيل :

رَمَــوْا بالجُنونِ نَبيَّ الوَرَى ... وَتَــاجَ الكِرامِ وَمُزْنَ الأُوَامْ
وَقَــالُوا : خَديجَةُ هذا الذي ... مَــلأت بِــهِ قَلْبَك المُستَهَامْ
أَصَــابَتْهُ مَــا بَيْنَــنا غَشْيَةٌ ... فَمَــا هُوَ مَا إنْ يَبِينُ الكَلامْ
فَقَالَــتْ لَهُــمْ أَنْتُم بالذي ... تَقُولُونَ أحْرَى وَرَبِّ الأَنَامْ
فَخَلُّــوا حَبِيبي وسِيرُوا فَمَا ... يُؤَثِّــرُ عِــنْديَ فِــيهِ المَلامْ
فَضَــمَّتْهُ شَوْقًا إلى صَدْرِهَا ... وَقَالَــتْ : مُحَمَّدُ مَاذَا الهُيَامْ
فَقَــالَ : لَهَا جاءَني هَاتِفٌ ... منَ اللهِ جِبْريلُ يُقْرِي السَّلامْ
عَلَــيَّ وَيُخْــبِرُني أَنَّــني ... رَسُــولُ الإلَــهِ لِهَذا الأَنَامْ
ألا فَاسْلِمي تَسْلَمي مِنْ لَظًى ... فَــإنَّك أوْلَــى بِهَذا المُقَامْ
فَقَالَتْ لَهُ : إنَّني قَدْ شَهِدْتُ ... بِــأَنَّ الإلَــهَ قَــديمُ الدَّوامْ
فَصَــلُّوا عَلَــيْهِ أَيَا إخْوَتي ... وَقُولُوا جَمِيعًا : عَلَيْهِ السَّلامْ

وقيل : إن ثلاثة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رأوْا ثلاث مراءٍ ، وكانت في ظاهرها امتحاناً ، وفي باطنها امتناناً :

أولهم : إبراهيم الخليل عليه السلام : مال قلبه إلى ابنه فأُمر بذبحه ، فقال ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ** ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فقال : يا أبتِ ، هذا جزاءُ مَن نام عن حبيبه ، لو لم تنم ما أُمرتَ بذبحي ، فلما تله للجبين ، ورجع بقلبه إلى الحق

المبين ، فرج كربه الكظيم ، وفدى الولدَ بذبْحٍ عظيم ، وقيل له : ليس المراد ذبحه لدينا ، إنما المراد تصفية قلبك إلينا ، فلما فرَغتَ إلينا قلبَكَ وجلدَك ، رددنا عليك ولدَكَ .

الثاني : رسول الله ﷺ : رأى أنه يدخل مكة معتمراً ، فأخبرَ أصحابَه ، وخرج في سبعمائة ، فصدَّه المشركون عن البيت ، فنجَمَ النفاق من أهله ، وقالوا : إنه أخبرنا برؤيا ، ووجب أن تكون حقًّا ، حتى كان يأمرهم بالنحر فلا ينحرون ، وبالحلق فلا يحلقون ، فدخل على أم سلمة وشكا إليها ذلك ، فقالت : اخرج واحلق وانحر ، فإذا رأوكَ حلقوا ونحروا ، فخرج فنحر وحلق ، فنحروا وحلقوا ، ودخل عمر على أبي بكر الصديق ، وقال له : فرِّجْ عني هذه النازلة ، فقال له أبو بكر : هل أخبركم بدخولها هذا العام ؟ قال : لا ، قال : فذلك كذلك ، فقال عمر : فرج الله كربك كما فرجت كربي ، فوقع الصلح ورجع عامةُ ذلك ، فخالط المسلمون المشركين ، ورأوا حسنَ الدين ومكارمَ الأخلاق ، فما زال الإسلام يكثر حتى دخلها - أعني مكة - في عشرة آلاف .

والثالث : يوسف عليه السلام : قيل : إنه رأى ثلاث مَرَاءٍ :

أحدها : أنه كان نائماً في حجر أبيه ، فرأى كأنه خرج مع إخوته إلى البرية ، فاحتطبوا واحتزم كل واحد منهم حُزمة ، واحتزم يوسف حُزمة ، فإذا حُزَمُ إخوته تسجدُ لحُزمته ، فانتبه فزعاً مرعوباً ، وأخبر أباه بذلك ، فقال : يا بني ، إني أخاف عليكَ منها ، ولم يأمره بكتمانها ، فقصَّها على إخوته ، فاغتاظوا لذلك ، وتآمروا في شأنه ، فلما كان بعدَ سنة من هذه الرؤيا ، نام في حجر أبيه ؛ لأن يعقوبَ كان يحبه ؛ لأن أمه ماتت في نفاس أخيه بنيامين[1] ، وكان الله تعالى قد أعطاه نصف الجمال ، وأعطى الخلق كلهم نصفه كما ورد في الخبر ، فانتبه مرعوباً ، وقال : يا أبت ، إني رأيتُ الشمس والقمر قد نزلا من السماء ، فتمثلا بين يديَّ ، ثم رأيتُ أحدَ عشر كوكباً قد نزلتْ ، فسجدوا لي جميعاً ، وهو قوله تعالى : ﴿ **إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** ﴾ [يوسف:٤] ، **فالرؤيا الأولى** : رؤية الأشخاص ، **والثانية** : رؤية الأفعال ، فعلم أبوه أن الأحد عشر كوكباً إخوتُه ، والشمسَ والقمرَ أبوه وخالتُه ؛ لأنها مقامُ الأم ، فعبَر له

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٩ / ١١٦) ، أن أسماء إخوة يوسف عليه السلام هي : روبيل ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، وزيالون ، ويشجر ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وآشر ، وبنيامنين . ولم أقف على سند يُعوّل عليه ، كما لم نجد حديثاً صحيحاً في ذلك .

الرؤيا ، ونهاه أن يذكرها لإخوته ، فقال : ﴿ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً ﴾ [يوسف:٥] ، وقيل في المعنى :

ظُهُورُ الشَّمْسِ والبَدْرِ وَبَدْءُ الأَنْجُمِ الزُّهْرِ
دَلِيلُ أَنَّكَ السَّامِي عَلَى الأَخَوَاتِ فَلْتَدْرِ
فَلا تُخْبِرْهُمُ شَيْئًا وَلا تُطْلِعْ عَلَى السِّرِّ
فَإِنِّي خَائِفٌ مِنْهُمْ وَخَوْفُ العَبْدِ لا يُبْرِي
مِنَ المَقْدُورِ إنْ وَافَى لِمَنْ في قَبْضَةِ القَهْرِ

قال : ففرح يوسف عليه السلام بتعبير رؤياه ، وأنساه الشيطان نصيحة أبيه ، فذكر ما حذره أبوه لإخوته ، فزاد همهم بأمره ، وتشاوروا في شأنه .

ثم بعد ذلك رأى رؤيا *ثالثة* : وذلك أنه كان لكلٍ واحد من الأسباط قضيبٌ ، وكان ليوسف عليه السلام قضيبٌ ، وكان يوسف عليه السلام نائماً في حجر بعض إخوته فانتبه وقال : يا إخوتى ، رأيتُ رؤيا كأن قضيبي غُرس بينكم وغُرستْ قضبانكم حوله ، فعلا قضيبي وأثمر ، وتلاشت قضبانكم حتى كأنها لم تكن ، فزاد غيظهم ، وتأكدت عداوتهم ، وكان ذلك منهم قبل أن يؤتيَهم الله تعالى النبوة ، فقال بعضهم لبعض : لابد لابن راحيل أن يقول : أنتم عبيدي وأنا سيدكم ؛ ألا تنظرون لأبيكم كيف يخصه بالقرب ويحابيه بالتحف ، وأنتم تكابدون رعيَ الأغنام وتحصيل المعيشة وملاقاة الشدائد ؟ فانظروا في شأنكم قبل أن يتفاقم أمره عليكم ، ويتعاظم خطره لديكم ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ [يوسف : ٩] ، انظروا إلى رتبة النبوة كيف فزعوا إلى التوبة ، ووعدوا بها قبل الوقوع في الذنب ؛ فقالوا : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ [يوسف : ٩] ، أي تائبين ، فمتى تلحق رتبة من يتوب بعد الذنب ممن يتوب قبل الذنب ؟ فصلوات الله عليهم أجمعين . ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنَ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف : ١٠] ، قيل : إن القائل لهذه يهودا ، فتشاوروا في البطش به ، وعلموا أن ذلك لا يكون بحضرة الشيخ يعقوب ، ولم يهتدوا إلى حيلة يدخلون عليه بها ، فأتوا يوسف عليه السلام وشوَّقوه إلى النزهة ، وقالوا : هذا أوان درِّ الألبان ونِتاج الأغنام ، وأتوا

يعقوب عليه السلام ، وقالوا : يا أبانا ، أرسل معنا أخانا يوسف يتفرج ويتنزه ويتنعم ويترفه ، فقال : لا أقدر على ذلك ؛ لأنني لا أستغني عنه ساعة واحدة ، ولا صبرَ لي دونه ، وأيضاً فإني رأيتُ رؤيا كأني على ذروة جبل ويوسف في بطن الوادي وأنا أنظر إليه إذ احتوشتْهُ عشرةٌ من الذئاب يريدون قتله ، وأنا أريد حمايته فلا أجد إلى ذلك سبيلاً ، فحماه أحد الذئاب ، ثم انشقت الأرضُ فتوارى عني فيها ثلاث ليال ، و﴿ **إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ** ﴾ [يوسف : ١٣] قال ابن عباس : العشرة الذئاب إخوته ، والذي حماه هو أخوه يهودا ، وشقّ الأرض : هو الجبُّ الذي أُلقي فيه ، والثلاث ليال التي توارى فيها هي الثلاثة أيام ، فـ ﴿ **قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ** ﴾ [يوسف : ١٤] ، ثم عمدوا إلى أخيهم يوسفَ ، وشوقوه وتوقوه حتى جاء معهم إليه ، وصار يتملق بين يديه حتى رق الشيخ لحاله ، وقال له : يا حبيبي ، إذا أردتَ أنتَ ذلك ، فنعَمْ إذا كان في غد تمشي معهم ، فسُرَّ الإخوة بذلك ، وباتوا بأغبط ليلة ، وبات يوسف مغتبطاً يقول : ما أطولها من ليلة ، ويعقوب عليه السلام يقول : ما أقصرها من ليلة ، وقيل في المعنى :

يَخُطُّ الشَوقُ شخصَكَ في ضَميري ... على بُعْدِ التزاوُرِ خطَّ زُورِ
وتُدنيكَ الأماني من فؤادي ... دُنوَّ البرقِ مِن لَمْحِ البَصيرِ
فلا تبعدْ فإنكَ نُورُ عَيني ... إذَا ما غبْتَ لَم تطرفْ بِنُورِ
إذَا مَا كُنتَ مسرُورًا ببُعدي ... فإني من سروركَ في شُرُورِ

فلما أصبح قمَّصَه بقميصه ، وعمَّمَه بعمامته ، وأرسل في عنقه وشاحاً ، وأتي بشن صغير ، فملأه لبناً وبإداوة صغيرة ، فملأها ماء ، وبمزود فجعل فيه تمرا وطعاماً ، ووثق بقولهم ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [يوسف:١٢] ، وجعل يوصيهم ويقول : يا بَنيَّ ، إنكم تعلمون حبي له وكلفي به ، وإنه إن غاب عني ساعةً لم يقرَّ لي قرار ، ولاَ يطيبُ لي عيش ، فإن جاع فأطعموه ، وإن عطش فأسقوه ، وإن أعيا فأحملوه ، ولا تملوه ، وعجلوا برده عليَّ ، قال : فجعل يشيعهم ميلاً بعد ميل وهم يحملونه على أعناقهم ، ثم عزموا على الشيخ أن يرجع ، فعانقه وقَبَّل بين عينيه وجعل ينظر إليهم وإليه ، وقيل في المعنى :

كَمْ قَطَّعَ البَيْنُ أحْشَائِي وأَوْصَالي ... كَأَنَّمَا الدَّهْرُ بالتَّفْريقِ أَوْصَى لِي

وَحِلْتُ في وَحْلِ أَوْجَالي لِبَيْنِكُمْ — فَمُرْسِلُ البَيْنِ بالأَوْصَابِ أَوْصَى لِي
أَحْبَابَ قَلْبِي ومَا الأَحْبَابُ غَيْرُكُمْ — مَنْ ذا الذي بَعْدَكُمْ أَرْجُو لآمَالي
كَأَنَّنِي طَائِرٌ قُصَّتْ قَوَادِمُهُ — فَبَاتَ في فَخٍّ أَوْصَابٍ وَبِلْبَالِ
يَا رَاحِلِينَ ومَا لي عَنْهُمُ عِوَضٌ — هَلْ نَظْرَةٌ تُرْتَجَى لي عِنْدَ تَرْحَالي
آه لِفَقْدِكُمُ آهٍ لِبُعْدِكُمُ — عَزَّ العَزَاءُ فَلَيْسَ الصَّبْرُ يَهْنَا لِي
إِنْ تَسْأَلُوا كَيْفَ حَالي بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ — فَلَسْتُ أَدْرِي وأَيْمِ اللهِ مَا حَالِي

قال : فتقدموا وصعد الشيخ على جبل عال مرتفع ينظر إليهم ، فما داموا يرونه حملوه علي الأعناق ، فلما غاب الشيخ وانقطَع النظر رماه الذي حمله على عنقه رمياً عنيفاً كاد أن تنكسر أضلاعه ، فقال : يا أخي ، ما حملك على ما فعلت ؟ فاستغاث بالآخرين فوجد مِنْ كل واحد منهم أشدَّ ما وجده من الآخرين ، ومضَوْا عنه ، وتركوه فجعل يقفو آثارهم ، وينادي كل واحد منهم باسمه ، وهم لا يلتفتون إليه ، واشتد حر الشمس عليه وأخذه العطش ، فقال : يا أخي ، يا روبيل ، اسقني ، فإن العطش قد أضرني ، فعمد إلى الماء واللبن فأراقهما ، وقال : يا صاحب الأحلام الكاذبة ، ادعُ الشمسَ والقمرَ والكواكبَ تسقيك وتطعمك ، فلما أن علم حقدهم من أجل رؤياه ، جعل يقبل أقدامهم ، ويتعلق بأذيالهم ، ويقول : يا إخوتى ، ارحموا حداثة سني ، وقلة حيلتي ، وارحموا أباكم ، فما أسرع ما نسيتم وصيته ، وأضعتم حرمته ، فقالوا له : اليوم آخر أيامك من الدنيا ، فقال : لا تفعلوا ذلك ، لأكونن لكم عبداً ما عشتُ ، ولا أخبرُ والدي بصنيعكم ، وقيل في المعنى :

أَأُغْدَرُ يَا أَحْبَابَ قَلْبِي وهَكَذا — أُهَانُ بِلا ذَنْبٍ وأُقْتَلُ بالوَهْمِ
فَدَيْتُكُمُ مَا تَعْلَمُونَ بأَنَّنِي — بِعَيْنِ الذي يَنْهَى عَنِ الجَوْرِ والظُّلْمِ
فَيَا سَامِعَ النَّجْوَى ويَا رَاحِمَ البُكَا — ويا مُنْقِذَ الغَرْقَى أَجِرْنِي مِنَ الغَمِّ

فاستغاث بروبيل ، وقال : يا أخي ، أنت ابن خالتي ، والموصى عليَّ من أبي ، فارحم ذلي ، وأجرني مما نزل بي ، فلطمه لطمة خر مغشياً عليه ، وقال : لا قرابة بيني وبينكَ ، فتعلّق بأذيال يهودا ، وقال له : يا أخي ، أنت الكبير ، وأنت الشفيق ، وقد ترى ما نزل بي ، فارحم ذلي ، ولو قُتلتُ لكنتَ أنتَ الآخذَ بثأري

والطالبَ لدمي ، وجعل يبكي ، ويُقبِّل قدميه ، فألقى يهودا نفسه عليه ، وقال : والله ، لا يصلون إليك ، ولا إلى قتلك ما دمت حياً ، ثم قال : يا إخوتي ، أما تعلمون أن سفك الدماء من أعظم الخطايا عند الله تعالى ؟ فردوا هذا الصبي إلى أبيه ، فقالوا : إنما تريد أن تزداد حُظوةً عند أبينا ، ولئن لم تخلِ بيننا وبينه ، وإلا قتلناك معه ، فقال لهم : فإذا أبيتم ، فالرأي عندي أن تلقوه في الجبِّ الموحش ، فإن أصابه شيء من الأفاعي والحيات فهو المراد ، وإن نجا فتلتقطه سيارةٌ ، فتذهب به إلى أقصى البلاد ، ويخلو لكم وجه أبيكم بعده ، فاتفقتْ آراؤهم على ذلك ، فقام يهودا عنه ، وأوثقوه بالحبال ، ونزعوا عنه قميصَه ، فتعلق يوسف بكم القميص وقال : يا إخوتي ، اتركوه لي ، إن عشتُ واريتُ به سوأتي ، وإن متُّ كان كفني ، فلم يلتفتوا إلى قوله ، ونزعوا القميص عنه ، وأدلَوْه فعمد أحدهم إلى سكين ، وتقدم إلى الحبل الذي أدلي به ليقطعه ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام أن أدركْه قبل أن يهلك ، فنزل جبريل عليه السلام إلى صخرة كانت في قعر الجب ، فرفعها إليه وأنزله عليها سالماً ، وقال : يا يوسف ، إن ربك يُقرئك السلام ، ويقول لك : لا تجزع ، فوعزتي ، لئن قطعوا الحبل الذي بينك وبينهم ، فإني لا أقطع الحبل الذي بيني وبينك[1] ، وقيل في المعنى :

لَـئِنْ قَطَعُـوا بِزَعْمِهِمُ حِبَالاَ ... فَمَا قَطَعُوكَ عَمَّنْ قَدْ تَعَالَى
وإِنْ رَامُـوا بِعَادَكَ مِنْ أَبِيهِمْ ... فَـأَقْدَارُ الإِلَهِ تَقُولُ : لا لا
سَـتَلْقَاهُ عَلَـى رَغْمِ الأَعَادِي ... وإِنْ بَعُدَ المَدَى بِكُمُ وَطَالا
وَيَأْتِي الكُلُّ نَحْوَكَ فِي خُضُوعٍ ... وَيَسْـأَلُكَ التَّفَضُّلَ والنَّوَالا
فَـلا تَحْزَنْ لِمَا قَدْ حَلَّ واعْلَمْ ... بِـأَنَّ الصَّـبْرَ يُعْقِبُهُ نَوَالاَ

يا مَنْ رماه الأمل في حب الدنيا ، استيقظ من غفلتك ، فإن سيارة القدر تبعث في كل ليلة وارداً : هل مِنْ سائل ؟ فكن مستيقظاً للوارد إذا أدلى دلو التخليص ، فقم على أقدام ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** ﴾ [السجدة : ١٦] ، وامدُدْ أناملَ ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ** ﴾ [السجدة : ١٦] ، ولا تتشبثْ بأرجاء بئر الهوى ، فإنها رمل

(١) قال الإمام الآلوسي – رحمه الله تعالى – في روح المعاني (١٢/٢٩٧) : « والروايات في كيفية إلقائه وما قال وما قيل له كثيرة ، وقد تضمّنت ما يلين له الصخر ، لكن ليس فيها ما له سند يعوّل عليه ، والله تعالى أعلم » .

تنهار عليك ، الحبيب محبوب ، وعين الحاسد ترى العيوب ، والعشق عند العقلاء من أشد الذنوب ، انظر إلى إخوة يوسف أجمعين كيف قالوا : ﴿ **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [**يوسف** : ٨] ، كان حب يوسفَ عند الإخوة ضلالاً ، وعند يعقوبَ جمالاً ، وكان عند الإخوة غير مباح ، وعند يعقوب رشادٌ وصلاح ، كان عند الإخوة تعبًا وعنا ، وعند يعقوب سببًا وغنى ، وقيل :

وَقَائِلَةٍ : دَعْ وَصْلَ عَزَّةَ واتَّبِعْ هَوًى غَيْرَها ثم ارْتَقِبْ كَيْفَ تَصْنَعُ
أَرَاكَ عَلَـيْهَا مُسْتَهَامًا وبَاكِيًا وَمَا نِلْتَ مِنْهَا وَيْكَ مَا كُنْتَ تَطْمَعُ
فَقُلْتُ ذَرِينِي بِئْسَمَا قُلْتُ إِنَّنِي عَلَى البُخْلِ مِنْهَا لا عَلَى الجُودِ أَتْبَعُ

حكاية : كان في بني إسرائيل قاضٍ من قضاهم ، وكانت له زوجةٌ حسناءُ زائدة في الجمال ، بديعة الصورة والاجتمال ، فأراد القاضي النهوضَ إلى حج بيت المقدس ، فاستخلف أخًا كان له على القضاء ، وأوصاه بزوجته ، وكان أخوه كلف حبًّا بها ، فلما سار أخوه توجه إليها ، وراودها عن نفسها ، فاعتصمت بالورع ، فلما يئس منها ، خاف أن تخبر أخاه بصنيعه معها ، فأشهد عليها شهود زور بالزنا ، ورفع مسألتها إلى ملك ذلك الزمان فأمر برجمها ، فحُفرت لها حفرة وأُقعدت فيها ، ورُجمت حتى غطيت بالحجارة ، وقال : تكون الحفرة قبرها ، فلما جن عليها الليل صارت تئن لشدة ما نالها ، فمر رجل يريد قرية ، فلما سمع أنينها قصدها وأخرجها واحتملها إلى زوجته ، وأمرها بمعالجتها فعالجتها حتى شُفيت ، وكان للمرأة ولدٌ فدفعته إليها فصارت تكفله ، وتبيت به في بيت ثان ، فرآها أحد الشطار ، فطمع فيها ، وراودها عن نفسها ، فاعتصمت منه بالورعً ، فعزم على قتلها ، وجاء في الليل ، ودخل عليها البيت وهي نائمة ، فأهوى بالسكين إليها فوافق الصبي فذبحه ، فلما علم بذبح الصبي أدركه الخوف وخرج من البيت ، وعصمها الله منه ، فأصبحت المرأة وإذا الصبي مذبوح ، فجاءت أمه ، وقالت لها : أنت ذبحْت ولدي ، وضربتْها ضرباً وجيعاً ، وجاء الرجل فقال لزوجته : إنها والله لا تفعل ذلك ، فأنقذها الله منها ، وخرجت المرأة فارَّة بنفسها ، لا تدري أين تتوجه ، وكان عندها بعض دُريهمات ، فمرت بقرية من القرى ، فإذا الناس مجتمعون ، ورجل مصلوب على جذع إلا أنه فيه الحياة لم يقتل ، فقالت : يا قوم ، ما هذا ؟ فقالوا لها : أصاب ذنباً لا يكفره إلا قتله أو صدقة كذا وكذا من الدراهم ، فقالت : خذوها مني وسرحوه ، فتاب على يديها ، وآلى على نفسه أن يخدمها لله تعالى حتى يتوفاه الموت ، فابتنى لها صومعة ، وأسكنها فيها ، وصار

يحتطب ويأتيها بقوتها ، واجتهدت في العبادة حتى كان لا يأتيها مريض أو مصاب أو ذو عاهة فتدعو له إلا شفاه الله تعالى ، وكان الله تعالى قد أنزل بأخي زوجها الذي عمل على رجمها عاهةً بوجهه ، وأنزل بالمرأة التي ضربَتْها برصاً ، وامتحن الشاطر بأن أقعده من قدميه ، قال : وجاء القاضي زوجُها من الحج ، وسأل أخاه عنها ، فقال له : اتفق لها كذا وكذا وقد ماتت ، فأسف عليها ، واحتسبها عند الله تعالى ، قال : وتسامع الناس بالمرأة ، فكانوا يأتونها من أطراف البلاد ، فقال القاضي لأخيه : لو قصدتَ هذه المرأة الصالحة ، لعل الله تعالى أن يجعل لك على يديها شفاءً ، فقال : يا أخي ، احملني إليها ، قال : وسمع زوج المرأة التي نزل بها البرص فحملها إليها ، وسمع بها اللصُّ المقعد ، فسار إليها واجتمع الجميع عند بابها أمام الصومعة ، وكانت ترى جميع مَنْ يأتيها إلى صومعتها ولا يراها أحد ، فانتظروا خَديمها حتى وصل ، ورغبوا إليه أن يستأذنها ففعل ، فتنقَّبَتْ ووقفتْ عند الباب تنظر إلى زوجها ، وأخيه ، واللص ، والمرأة ، وهي تعرفهم وهم لا يعرفونها ، فقالت : يا هؤلاء ، إنكم لا تستريحون مما نزل بكم ، إلا أن تعترفوا بذنوبكم السالفة ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه تاب الله عليه ، وأعطاه ما قصد فيه إليه ، فقال القاضي لأخيه : تُبْ إلى الله تعالى ، ولا تصرَّ على عصيانك ، وقيل في المعنى :

الـيَوْمَ يُجْمَعُ مَظْلُومٌ ومَنْ ظَلَمَا ... وَيُظْهِـرُ اللهُ سِرًّا كانَ قَدْ كُتِمَا
هَــذَا مُقَـامٌ يُـذَلُّ المُذْنِبُونَ بِهِ ... وَيَـرْفَعُ اللهُ مَـنْ طَاعَاتِهِ لَزِمَا
يا وَيْحَ مَنْ جَاهَرَ المَوْلَى وَأَسْخَطَهُ ... كَأَنَّـهُ بِعِقَـابِ اللهِ مَـا عَلِمَا
وَيُظْهِـرُ الحَـقَّ مَوْلاَنَا وَسَيِّدُنَا ... هَذَا وإِنْ سَخِطَ النَّائِي وإِنْ زَعَمَا

فقال الرجل ، أخو القاضي : الآن يا أخي أقول الحقَّ : فعلتُ بزوجتك ما صنعت . وقالت المرأة أمُّ المذبوح : كانت عندي امرأةٌ ، فنسبتُ إليها ما لم تفعل فضربتها عمداً ، ونفيتها تعدياً . وقال الشاطر : دخلت على امرأة لأقتلها بعد مراودها على الزنا ، فاعتصمتْ بالورع ، فذبحتُ صبياً كان بين يديها ، ففتحتْ لهم باب صومعتها ، وأبدتْ لهم وجهها ، فعرفوها وخضعوا بين يديها ، فقالت : اللهم رب هذه الصومعة ، أريتَهم ذلَّ المعصية ، فأرهم عزَّ الطاعة ، فشفاهم الله عز وجل ، ورجعَ إليها زوجَها ، ولزم الجميعُ خدمتها حتى أتاهم الموت ، وقيل في المعنى :

تَوَكَّلْ عَلَى مَوْلاكَ في السِّرِّ والجَهْرِ ... فَأَلْطَافُـهُ تَأْتِيكَ مِنْ حَيْثُ لا تَدْرِي

ولا تُــرِيَنَّ الــنَّاسَ إلا تَجَمُّــلاً   وَصَبْرًا عَلَى مَا نَالَ فَالأَجْرُ فِي الصَّبْرِ
وَكُلُّهُـــمُ بالعَجْــزِ ذَلُّــوا لِخَالِقٍ   تَفَــرَّدَ بالإنْشَــاءِ والمُلْــكِ والقَهْرِ
أَلَــمْ تَــرَ أنَّ اللهَ يُــنْفِذُ حُكْمَهُ   وَيُجْــرِيهِ فِي كُــلِّ العِبادِ بِمَا يَجْرِي
فَلُــذْ بِحِمَــاهُ سَائِلاً فَيْضَ فَضْلِه   وقُلْ عَبْدُكَ المَكْسورُ يَرْغَبُ فِي الأَجْرِ
عَسَــى عَطْفَــةٌ مِنْهُ يَمُنُّ بِنَيْلِهَا   فَيَــنْقُلَ مِــنْ عُسْــرٍ أَلَــمٍ إلى يُسْرِ

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس الثالث

في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [فاطر:١] .

الحمد لله المتفرد بالإنشاء والتصوير والاختراع ، المتره عن الحدود والقيام والقعود والحركة والسكون والظهور والكمون والهبوط والانحطاط والارتفاع ، الموصوف بالعلم والحلم والحكم والشهود والاطلاع ، الفعال لا بأدوات ؛ المتكلم لا بلسان ولا بلهوات ؛ ولا صوت يكون فيه المد والقصر والرخامة والانقطاع ، العزيز الذي تعالى عن الإخوان والأخوات والأصهار والأنصار والقهارمة والأتباع ، العظيم الذي لا تحويه الأقطار ؛ ولا تدركه الأبصار ؛ ولا تحيط به الجهات ولا البقاع ، القديم الذي جلت ذاته عن السمع والبصر والطول والقصر والضيق والسعة والشبر والذراع ، ووضع الأرض على غير مهاد[1] ، وأعلى قبة السماء بلا عماد ، وحفظها من التزلزل والتخلخل والانصداع ، وجعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، أحمده على ما أولَى من المنن وأباح من الاصطناع ، وأشكره شكراً يخرج من العسر إلى اليسر ومن الضيق إلى الاتساع ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أجد بركتها في يوم ينكشف فيه القناع ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي انشق له القمر ؛ وكلمه الحجر ؛ فأفحم أهل الكفر والزور والابتداع ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين مهدوا رسومهم ، وبذلوا لله نفوسهم ، فلم يكن لهم فيها ارتجاع ، صلاة تدوم وتقوم ما عز مطاع وهز القلب سماع ، وسلم تسليماً كثيراً . وقيل في المعنى :

سُبْحانَ مَنْ ذَلَّتِ الأَشْيَاءُ أَجْمَعُهَا ... إِلَيْهِ فَهْوَ الذي يَلْتَاحُ في الأَثَرِ
قَدْ جَلَّ قَدْرًا فَلا خَلْقٌ يُمَاثِلُهُ ... ولا غِنًى عَنْهُ في وِرْدٍ ولا صَدَرِ
ولا يُحِيطُ بِهِ عَقْلٌ فَيُدْرِكَهُ ... حِرْصُ الفَتَى جَلَّ عَنْ إِدْرَاكِ مُفْتَقِرِ
تَاهَتْ عُقُولُ أُولِي الأَلْبَابِ فِيه وقَدْ ... كَلَّتْ وضَلَّتْ مَجَارِي العُقُولِ والفِكَرِ

---

(١) حاشاه أن ينفي السمع والبصر عن الله عز وجل ، فهذا لا يكون من أصحاب الفطر السليمة ، ومراد المصنف عدم مماثلة الحق سبحانه لسمع وبصر المخلوقات ، ويدل عليه بقية الكلام . انظر مقدمة المجلس الرابع ، فهو يقول فيه : البصير الذي يبصر دبيب النمل على كثبان الرمل ... ، والسميع الذي يسمع صوت البعوضة إذا رجت بالتلحين ... إلخ . فمراده تتريه سبحانه عن مماثلة الحوادث والمخلوقات .

كَفَـــاكَ عِلْمًــا بِه أَنَّ الوُجُودَ ومَا ... يَحْوِيــه مِــنْ فَلَــكٍ جَارٍ عَلَى قَدَرِ
وَمِـــنْ كَوَاكِبَ تَسْرِي لا قَرَارَ لَهَا ... شَــرْقًا وَغَرْباً وَمِنْ شَمْسٍ وَمِنْ قَمَرِ
ومِنْ سَمَاءٍ أَظَلَّتْ مَا حَوَتْ وَبَدَتْ ... دَهْــراً مُكَلَّلَــةً بِــالأَنْجُمِ الزُّهُــرِ
فِـــيهَا مَلائِكَـــةٌ مِـــنْ نُورِهِ خُلِقُوا ... وصُـــوِّرُوا في وُجُـــودِ الخَلْقِ والصُّوَرِ
الذِّكْــرُ قُوتهِــمُ في كُــلِّ آوِنَـــةٍ ... لا يَفْــتُرُونَ كَمَـــا قَدْ جَاءَ في الخَبَرِ
وَكُلُّهِــم خَاضِــعٌ للهِ مُعْــتَكِفٌ ... عَلَــى العِـبَادَةِ لا يَلْوِي عَلَى وَطَرِ
وَمِـــنْ تَمَهُّــدِ أَرْضٍ فَهْيَ مُمْسَكَةٌ ... بِــالأَمْنِ مَحْفُوظَــةٌ مِنْ طَارِقِ الغِيَرِ
ومِـــنْ تَــرَدُّدِ أَنْهَــارٍ يُسَــابِقُها ... تَجْــرِي بِمَــاءٍ مِنَ الأَكْوانِ مُنْهَمِرِ
وَمِـــنْ هَــواءٍ ونَــارٍ فِيهِمَا فِكَرٌ ... لِعَــارِفٍ مُدْمِــنِ الأَفْكَــارِ مُعْتَــبِرِ
وَمِنْ هُبُوبِ رِياحٍ سُخِّرَتْ فَجَرَتْ ... وَمِـــنْ بَــوَارِقَ تُــرْخِي صَيِّبَ المَطَرِ
وَمِـــنْ تَمَـــايُلِ أَزْهَــارٍ مُكَلَّلَـــةٌ ... حَافَاتُهــا بِأَفَـــانِينٍ مِـــنَ الزَّهَـــرِ
وَمِـــنْ أَغَـــارِيدِ أَطْــيَارٍ مُــرَدِّدَةٍ ... أَصْــوَاتَها عِــنْدَ إِقْـبَالٍ مِنَ السَّحَرِ
وَمِـــنْ بُكَاءِ غَمَامٍ مِنْهُ قَدْ ضَحِكَتْ ... سُــوحُ الــبِطَاحِ بِرَوْضٍ مُونَقٍ عَطِرِ
وَمِـــنْ حَــيَاةٍ بِأَجْسَــامٍ مُــنَوَّعَةٍ ... مَـــا شِئْتَ مِنْ نَاطِقٍ مِنْهَا وَمِنْ حَصِرِ
وَمِنْ جُسُومٍ وَأَعْرَاضٍ بِهَا اشْتَبَكَتْ ... تَحْــرِيكُها كُلُّهَــا بِالأَمْــرِ والقَدَرِ
الكُــلُّ يُخْــبِرُ أَنَّ اللهَ خَالِقُــهُ ... وأَنَّـــهُ خَــالِقٌ لِلــنَّفْعِ والضَّــرَرِ
فَعَظِّمُـــوهُ ولا تَنْسَـــوْا تَذَكُّــرَهُ ... يَقِــيكُمُ في نَهَــارِ الحَشْــرِ مِنْ سَقَرِ

قوله تعالى ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [فاطر:١] ، معنى الحمد : الثناء على الله تعالى ، قال رسول الله ﷺ : خمسٌ مَنْ كنَّ فيه دخل الجنة بغير حساب : مَن كانت عصمته بلا إله إلا الله ، ومَنْ إذا أُعطي نعمة الله قال : الحمد لله ، ومَنْ إذا بدأ بالعمل قال : بسم الله ،

ومَنْ إذا أذنب ذنباً قال : أستغفر الله ، ومَنْ إذا أصابتْه مصيبةٌ قال : إنا لله ».
وقيل : إن الله تعالى أثنى على سبعة نفرٍ قالوا : الحمد لله :

أولهم : آدم عليه السلام لما نُفخ فيه الرُّوح عطس ، فقال : الحمد لله ، فقال الله له : يرحمك ربك يا آدم لهذا خلقتك .

الثاني : نوح عليه السلام : قال : الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ، فأورثه الله السلامة ، وقيل له : ﴿ **اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ** ﴾ [هود : ٤٨] .

الثالث : إبراهيم الخليل عليه السلام ، قال : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ** ﴾ [إبراهيم:٣٩] ، فأعطاه الله الفداءَ بقوله تعالى : ﴿ **وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الصافات:١٠٧] .

الرابع والخامس : داود وسليمان عليهما السلام ، قالا : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النمل:١٥] ، فأعطاهما الله تعالى الحكم والعلم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً** ﴾ [الأنبياء:٧٩] .

السادس والسابع : محمد ﷺ وأمته ، قال ﷺ : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً** ﴾ [الإسراء:١١١] ، فأعطاه الله الرفعةَ بقوله تعالى : ﴿ **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾ [الشرح:٤] ، وقالت أُمَّته : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الفاتحة:٢] ، فأعطاهم الله تعالى الرفعة بقوله تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ** ﴾ [المجادلة:١١] ، والفاطر : الخالق ﴿ **جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً** ﴾ [فاطر:١] ؛ وذلك أن الله تعالى أعلى السموات رفعاً ، وجعلها طباقاً سبعًا ، وملأها ملائكة ، وأعلى كل صنْف منهم على العبادة السالكة ، فإسرافيلُ مقصور على النفخ في الصُّور ، وميكائيلُ يَخزن الأمطار ، ويرسلها بوزن معلوم ومقدار ، وجبريل يترل إلى الأنبياء بالوحي ، ويأتيهم بالأمر والنهي ، وعزرائيلُ يقبض الأرواح ، وينتهزها في كل مساء وصباح ، ومنهم المتصرفون في الأقوات والأسباب ، والمتصفحون في الوجوه ، والواقفون بالأبواب ، ومنهم الذين يحملون العرش ، ويسبحون حوله ويعبدون الله ، ويستمعون قوله ، ويُغيثون أصحابَ المحن والكروب ، ويستغفرون لأرباب الأوزار والذنوب ، وليس في السموات موضع أربع أصابع إلا فيه ملَك ساجد لله خاضع يسلمون لما حكم الله به وقضى ، ﴿ **وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ**

ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء:٢٨] ، قال أبو ذر : قال رسول الله ﷺ : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أَطَّت السماء ، وحق لها أن تئطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَكٌ واضع جبهته سَاجد لله » ، ذكره الترمذي . وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « خلق الله الملائكة من نور ، والجانَّ من نار ، وآدم مما ذكر لكم » ، ذكره مسلم . وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : قال رسول الله ﷺ : « أُذنَ لي أن أُحَدِّث عن ملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرةُ ألفَ عام » ، وفي حديث : « سبعمائة سنة » ، ذكره الترمذي . وقالت عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ : « هل أتى عليك يوم أشد عليك من يوم أحد فيما لقيتَه من قومك ؟ فقال : عرضتُ نفسي يوم العقبة على عبد ياليل بن عبد كلاب ، فلم يجبني إلى ما أردتُ ، فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي ، فلم أفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا سحابة قد أظلتني ، فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فقال لي : إن الله تعالى قد سمع قول قومك وما ردوا عليك ، وقد بعثني إلى ملَك الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم ، قال : فناداه ملَك الجبال وقال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك ، وقد بعثني إليك لتأمرني بأمرك ، فإن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين أبا قبيس والذي يقابله ، فقال رسول الله ﷺ : أرجو الله أن يخرج من أصلابهم مَنْ يعبد الله ولا يشرك به شيئاً » ، ذكره مسلم . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : « قال أبو جهل – لعنه الله – يعفر محمد وجهه بينكم ؟ قالوا : نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيتُه يفعل ذلك لأطأن على رقبته ، فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلي ، فذهب ليفعل ما قد قال ، فإذا به قد رجع يمشي على عقبه ويتقي بيديه ، فقيل له : مالَكَ ؟! فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحةً ، فقال رسول الله ﷺ : لو دنا مني لاختطفَتْه الملائكةُ عضواً عضواً » ، ذكره مسلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله ﷺ يوم بدر : c هذا جبريلُ آخذ بعنان فرسي ، عليه أداة الحرب » ، ذكره مسلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتدُّ في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوتاً يقول : أقدم حيزوم ، فإذا المشرك خر أمامه مستلقياً ، فنظر إليه فإذا به قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط ، فاخضرَّ من ذلك وجهه ، فجاء الرجل إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك ، فقال : صدقتَ ، كان ذلك من مَدد ملائكة السماء الثالثة » ، ذكره مسلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام : « إني أحبُّ أن أراكَ في الصورة التي تكون فيها في السماء ، قال :

إنكَ لا تقوى على ذلك ، قال : لابد ، قال : فأين تريد أن أبدوَ لك ؟ قال : بالأبطح ، قال : لا يسعني ، قال : فبمنى ، قال : لا يسعني ، قال : فبعرفات ، قال : ذاك عسى أن يسعني ، قال : فواعدَه ، قال : وخرج رسول الله ﷺ للموقف فإذا هو بجبريل عليه السلام قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ، رأسه في السماء ورجلاه في الأرض ، فلما رآه النبي ﷺ خر مغشياً عليه ، فتحول جبريل عليه السلام إلى صورته وضمَّه في صدره ، وقال : يا محمد ، لا تخفْ ، أنا أخوكَ جبريل ، فلما أفاق قال : يا جبريل ، ما ظننتُ أن لله في السماء خلقاً يشبهكَ ، فقال : يا محمد ، كيف لو رأيتَ أخي إسرافيل ؟! إن رأسه تحت العرش ؛ ورجلاه في تخوم الأرض السابعة ، وإن العرش على كاهله واللوح المحفوظ بين عينيه ، وإنه ليتضاءل من هيبة الله حتى يصير كالوصع - وهو العصفور الصغير - وما يحمل العرشَ إلا عظمة ربكَ » ، ذكره صاحب كتاب الغرائب وإظهار العجائب ، وفيه عن أبي بكر الهذلي وغيره ، قال : « إن جبريل عليه السلام أجلى الجبين ، مُعقد الشَّعر ، كأن شَعره المَرْجان ، له جناحان أخضران ، قدماه في خضرة ، ولونه كالثلج ، موشح بالدر ، رآه النبي ﷺ مرتين ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى** ﴾ [النجم:١١] ، ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى** ﴾ [النجم:١٣ و ١٤] ، وهي شجرة ، الورقة منها تُظلُّ أمةً من الأمم ، ونبقها مثل القلال لا عجمَ له ، إليه ينتهي علم الدنيا » . وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام : « وددتُ أني قد رأيتكَ في الصورة التي تكون فيها في السماء ، قال : وتحبُّ ذلك ؟ قال : نعم ، قال : موعدكَ ببقيع الغرقد لكذا وكذا من الليل ، فلقيه لموعده فنشر جناحاً من أجنحته ، فسدَّ أفق السماء حتى صار لا يرى من الشمس شيئاً » ، ذكره ابن سيرين في كتاب العظمة ، وفيه أن حمزةَ سأل النبي ﷺ أن يُريه جبريل عليه السلام ، قال : إنك لن تستطيع ، فألحَّ عليه ، فقال : اقعدْ مكانك ، فنزل جبريل عليه السلام على خشبة كان المشركون يضعون ثيابهم عليها إذا طافوا بالبيت ، فقال رسول الله ﷺ : ارفع بصرك ، فرفع بصره فإذا قدماه كالزبرجد الأخضر ، فخر حمزةُ مغشياً عليه هيبة منه » . وفيه أن المشركين لما قالوا لرسول الله ﷺ ما قالوا ؛ هبط جبريل عليه السلام في الصورة التي يكون فيها في السماء لونه كالثلج ، وشَعره كالمرجان ، وله جناحان أخضران ، وقدماه مغموستان في خضرة ، وعليه وشاح من در منظوم ، بَرَّاق الثنايا ، أزجُّ الجبين ، شَعره حبك حبك ، فقال : يا محمد ، أتريد أن أُريكَ بعض حظك من الجنان في الآخرة ؟ قال : بلى ، قال : فكشف عن جناح له أخضر ،

فإذا بنهر عليه ألف قصر من ذهب مبني . وسُئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى،عندَ سدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ [النجم:١٣ و١٤] فقال : قال رسول الله ﷺ : رأيتُ جبريلَ عليه السلام عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح يتناثر من ريشه تهاويل الدر والياقوت ، ذكره وثيمة في مصنفه . وقال رجل لبعض الشيوخ المتصوفة : أخبرني عن عظمة الله تعالى ، قال : يا بني ، ما أقول فيمن له عبد اسمه جبريلُ له ستمائة جناح ، لو أمره أن يأخذ الأرض كلها على خافقة من جناحه لفعل ، ولكانت عليه أخفَّ من الريشة . وقيل : لما أراد الله تعالى هلاكَ قوم لُوط ، وكانت ست مدائن ، في كل مدينة منها مائة ألف مقاتل ، أمر جبريلَ عليه السلام أن يبطشَ بهم ، فرفع المدائن من أصولها من الأرض بمن فيها من الخلق عند السحر على خافقة من جناحه ، حتى كان أهل سماء الدنيا يسمعون رُغاء البعير ونهاق الحمير وصياح الديكة ، ولم ينكسر في وقت الرفع إناء ولا أهريق ماء ، ثم قلبها بمن فيها وأتبعهم الحجارة ، وقيل :

أَيَا هائمًا في مَهْمَهِ الشَّكِّ والفِكْرِ ... تَنَبَّهْ فَكَمْ ذا أنْتَ وَيْحَكَ في سُكْرِ
إذا كانَ هذا فِعْلَ خَلْقٍ وبَطْشَهُ ... فَمَا فِعْلُ خلاقٍ تَفَرَّدَ بالأَمْرِ ؟
لَجبريلُ والأَمْلاكُ طُرًّا جَميعُهمْ ... وَأَهْلُ السَّمَا والأَرْضِ في قَبْضَةِ القَهْرِ
يَخافُونَهُ كلا وَيَرْجُونَ فَضْلَهُ ... وَلَيسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ النَّفْعِ والضُّرِّ
ومَا الحُكْمُ والسُّلْطانُ إلا لِوَاحِدٍ ... أَوَامِرُهُ تَقْضِي وأَقْدارُهُ تَجْرِي
غَنِيٌّ عَنِ الأَكْوانِ مُتَّصِلُ البَقَا ... قَديمٌ عَليمٌ بالذي حَلَّ في السِّرِّ
فَعَوِّلْ عَلَيْهِ في الشَّدائدِ كُلِّها ... فَأَلْطَافُهُ تَأْتِيكَ مِنْ حَيْثُ لا تَدْرِي

قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام : يا جبريل ، أنتَ مع قوتكَ هل عَيِيتَ قط ؟ قال : نعم يا محمد ، ثلاث مرات :

إحداها : يوم أُلقي إبراهيمُ في النار ، فأوحى الله إليَّ : أَدركْهُ ، فوعزتي وجلالي ، لئن سبقكَ إلى النار ، لأمحون اسمكَ من ديوان الملائكة ، فنزلت إليه بسرعة ، فأدركته بين النار والهواء وقد عييتُ ، فقلت له : يا إبراهيم ، ألكَ حاجة ؟ قال : أما إليك فلا .

والثانية : حين أمر إبراهيم بذبح ولده ، أوحى الله تعالى إليَّ أنْ أدركْهُ ، فوعزتي وجلالي ، لئن سبقك السكين إلى حلقه ، لأمحون اسمكَ من ديوان الملائكة ، فترلتُ إليه وقد عييت ، وحولتُ السكينَ من يده وأتيتُه بفداء ولده .

والثالثة : حين رُمي يوسف عليه السلام في الجُبِّ ، فأوحى الله إليَّ أنْ أدركْهُ ، فوعزتي وجلالي ، لئن سبقكَ إلى قعر الجُبِّ ، لأمحون اسمكَ من ديوان الملائكة ، فترلتُ إليه بسرعة ، فأدركتُه في الفضاء ، فرفعت له صخرة كانت في قعر الجُبِّ ، وأنزلتُه عليها سالمًا ، وكان الجُبُّ مأوى الحيات والأفاعي ، فلما أحسسنَ به قالت كل واحدة منهن لصاحبتها ، إياكن أن تتحركن ، فإن نبياً كريماً نزل بجوارنا ، فلم تخرج واحدة من جحرها ، إلا الأفاعيَ ، فإنها خرجتْ إليه وقصدتْ لدغه ؛ فصحتُ بهن صيحةً صمَّتْ آذانهنَّ ، فهن صُمٌّ إلى يوم القيامة » .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما استقر يوسف في قعر الجب سالماً ، وحُوصر من الأفاعى والمؤذيات جعل ينادي إخوته ، ويقول : يا إخوتي ، إن لكل ميت وصيةً ؛ ووصيتي إليكم : إذا اجتمعتُم فاذكروا وَحدتي ، وإذا شربتُم فاذكروا عطشي ، وإذا طعمتُم فاذكروا جُوعي ، وإذا أنِسْتُم فاذكروا وحشتي ، وإذا رأيتُم شابًّا ذا صورة حسنة فاذكروا شبابي وصورتي ، فقال له جبريل عليه السلام : يا يوسف ، أمسكْ عن هذا ، واشتغلْ بالدعاء فإن الدعاء من الله تعالى بمكان ، وعَلَّمه هذا الدعَاءَ وهو هذا : " اللهم ، يا مؤنسَ كل وحيد ، ويا كاشفَ كل كربة ، ويا مجيبَ كل دعوة ، ويا شاهدَ كل نجوى ، ويا دافعَ كل بلوى ، ويا جابرَ كل كسير ، ويا صاحبَ كل غريب ، لا إله إلا أنتَ سبحانكَ ، أسألكَ أن تجعلَ لي من أمري فرجاً ومخرجًا ، وأن تقذفَ في قلبي حبَّكَ حتى لا يكونَ لي همٌّ ولا شغلٌ سواكَ ، وأن ترحمني يا أرحم الراحمين "(١) ، فقالت الملائكة : يا ربنا ، نسمعُ صوتاً ودعاءً ، أما الصوتُ فصوت صبي ، وأما الدعاء فدعاء نبي ، فأوحى الله تعالى إليهم هو نبيي يوسف عليه السلام ، وأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام أن قل له : ﴿ **لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ** ﴾ [يوسف : ١٥] ، تُوقفهم بين يديكَ أذلاء كالعبيد ،

---

(١) قال الإمام الآلوسي – رحمه الله تعالى - في روح المعاني (١٢/٢٩٧) : « والروايات في كيفية إلقائه وما قال وما قيل له كثيرة ، وقد تضمّنت ما يلين له الصخر ، لكن ليس فيها ما له سند يعوّل عليه ، والله تعالى أعلم » .

تحكم فيهم بما تريد ، وقيل في المعنى :

تَعَلَّقْ بِأَذْيَالِ الضَّرَاعَةِ فِي الكَرْبِ ... وَلُذْ بِحِمَى مَوْلاكَ فِي الجَهْرِ والغَيْبِ
وَلا تَلْتَفِتْ نَحْوَ الخَلائِقِ إِنَّهُمْ ... لأَهْلٌ لِنَقْضِ العَهْدِ والرَّفْضِ والعَيْبِ
أَتَسْأَلُ مَخْلُوقًا وتَتْرُكُ خَالِقًا ... لأَنْتَ كَظَمْآنٍ يُذَادُ عَنِ الشُّرْبِ
لأَنْتَ الذي قَدْ شِئْتَ إِعْلاءَ أَمْرِهِ ... وَمِنْ قَبْلِ كَوْنِ الكَوْنِ خُصِّصْتَ بالحُبِّ
فَسَلِّمْ لأَحْكَامِي وسَلْنِي لأَنَّنِي ... سَأُعْلِيكَ فَوْقَ الكُلِّ يا سَاكِنَ الجُبِّ

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : لما تأخرَّ أبناءُ يعقوبَ عليه السلام عن الوقت الذي كانوا يرجعون إليه فيه فأحسَّ قلبه بالشر ، فقام ليستقبلَهم فلم يُطق النهوض ، فتوكأ على جارية له يقال لها : صفرا ، وجعل يمشي حتى رمى بنفسه على شفير الوادي ينتظرهم ، فلما أشرفوا على الوادى شقوا مدارعهم ، وحثوا التراب على رءوسهم ، وجعلوا يدعون بالويل والثبور ، وجعلوا يصيحون : يا أخاهم ، يا يوسفاهم ؛ فلما سمع الشيخ أصواتهم لم يتمالكْ حتى خرَّ مغشياً عليه ، قال : فوصلوا إلى أبيهم واحتوشوه ، وسلَّمُوا عليه سلاماً ضعيفاً ، فأفاق وقال : يا بَنِيَّ ، ما لي أسمع عويلكم شديداً وسلامكم ضعيفاً ، ولا أرى قرة عيني بينكم ؟ فقالوا : كما أخبر الله تعالى عنهم : **﴿ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾** [يوسف:١٧] ، فقال : ألم يُبْقِ الذئبُ عضواً من أعضائه تأتوني به أستأنس به إليه وأشم ريحه عليه ؟ فقالوا : هذا قميصه ملطخ بدمه ، وكانوا قد ذبحوا شاة ولطخوا قميصه بدمها ، قال : فقلبه يعقوب فلم يرَ فيه شقاً ولا تمزيقاً ، وشمه فلم يجد ريحه عليه ، فقال : سبحان الله ! ما كان أشفق وأرأف هذا الذئب حيث أكله ولم يمزق له ثوباً ، ولم يُبق منه عضواً ، وأحس في نفسه أن الذئب لم يأكله ، وإنما أمسى مظلوماً ، فجعل ينوح ويقول : قرة عيني ليت شعري في أى بئر طرحوك ؟ ليت شعري لأي سبع عرضوك ؟ ليت شعري في أي نهر وضعوك ؟ ليت شعري أطريد أم جريح أم قتيل أم طريح ؟ معشرَ أولادي دلوني على ولدي ، فإن كان حياً رددتُه ، وإن كان ميتاً كفنته ودفنته ، وقيل : في المعنى :

وَنَعِّمُونِي بِلَحْظٍ مِنْهُ أَلْمَحُهُ ... مِنْ قَبْلِ قَتْلِ نُزُولِ المَوْتِ أَوْلادِي

أَلَـمْ تَـرَوْا فَرْطَ مَا أَلْقَاهُ مِنْ كَلَفِي ... وَمِـنْ شُجُونٍ وَأَوْصَابٍ وَأَنْكَادِ
كَأَنَّمَـا أنَـا حُـوتٌ جَفَّ مَوْرِدُهُ ... فَعَـادَ مِنْ بَعْدِ رِيٍّ رِيحُهُ صَادِي
يَجُودُ بالنَّفْسِ والصَّيَّادُ يَضْحَكُ مِنْ ... فَرْطِ السرور لما قد جفَّ بالوادي

فقال بعضهم لبعض : ألا ترونَ أبانا يكذبنا ولا يصدق مقالتنا ، تعالوا نصطد ذئباً ونلطخه بالدم ، ونأتي به إليه ، ونقول : هذا الذي أكله ، فلعله أن يسليَه ذلك عما هو فيه ، قالوا : نعم ، فاصطادوا ذئباً ، وأوثقوه بالحبال ، وأتوا به يعقوب ، فلما مثلوه بين يديه نظر يعقوب إليهم وإليه ، وقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا الذئب الذي يغشى أغنامنا ويحل بساحتنا ، ولا شك أنه الذي قتل أخانا وأفجعنا فيه ، فقال لهم : أطلقوه ، فأطلقوه ، فجعل الذئب يبصبص بذنبه ، ويدنو إليه ، ويعقوب عليه السلام يقول له : ادنُ مني ، فجعل يدنو حتى ألصق خده بخده ، فرفع يعقوب عليه السلام بصره إلى السماء ، وقال : اللهم ، إن كنت أجبتَ لي دعوة ، أو رحمتَ لي عبرة ، فأنطق لي هذا الذئب بقدرتك ، إنك على كل شيء قدير ، فأطلق الله لسانَ الذئب من عقاله ، وقال : السلام عليكَ يا نبي الله ، فقال : وعليكَ السلام أيها الذئب ، بأيِّ جرم أفجعتني في ولدي ، وأورثتني غماً طويلاً ، وقيل في المعنى :

هَـلا تَرَكْـتَ لَهُ عُضْوًا يُؤَانِسُنِي ... يَـا ذِئْبُ أَوْ قِطْعَةً مِنْ ذَلِكَ الجَسَدِ
أَبقَيْتَـنِي بَعْـدَهُ حَـيْرَانَ مُكْتَئِبًا ... تَرَكْتَـنِي كَأَسِـيرِ القَيْدِ في صَفَدِي
يَا رَبُّ أَنْتَ تَرَى مَا قَدْ بُلِيتُ بِهِ ... فَارْحَمْ بُكَائِي وَخُذْ يَا سَيِّدِي بِيَدِي

فقال الذئب : لا وحقك ، ما أكلتُ له لحماً ، ولا شربتُ دمه ، ولا نتفتُ شعره ، وما لي بولدكَ عهد ، وإني لذئبٌ غريبٌ بنواحيكم أقبلتُ من ناحية مصر في طلب أخ لي غاب عني منذ سنين ، ولا أدري أحيٌّ هو فأرجوه أم ميتٌ فأحتسبه ؟ وإن لحوم الأنبياء محرمة على جميع السباع ، وإني أُخبرتُ أن ملك هذه القرية اصطاده ، فقال يعقوب : أنا أشفع في أخيك ، فقال الذئب : وأنا أشفع في ولدك ، وأسأل الله أن يردَّه عليكَ ، فقال : هل عندكَ خبرٌ من ولدي ، قال : نعم ، قال : فأخبرني قال : أخشى أن يسموني غمازاً ، والغماز آيسٌ من رحمة الله تعالى ، قال ﷺ :

« شر الناس المشاءون بين الناس بالنميمة ، والغمازون بين الإخوة »[١] ، وفي حديث : « حُرِّمَتْ شفاعتي على العاقِّ وبائع الخمر والغماز » ، فقال يعقوب : لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم ، هذا خرج ليقفوَ دم أخيه ، وأنتم ضيعتُم أخاكم ، ولقد علمتُ أن الذئب بريء مما نسبتم إليه[٢] ، ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** ﴾[يوسف: ١٨] ، وقيل في المعنى :

هَلْ مِنْ طَبِيبٍ لِمَا أَلْقَى وَمَـا أَجِدُ ... عَـزَّ العَـزَاءُ وبَـانَ الصَّبْرُ والجَلَدُ
ضِدَّانِ في الجِسْمِ صَرْفُ الدَّهْرِ إِلْفُهُمَا ... العَيْـنُ تَدْمَـعُ والأَحْشَـاءُ تَـتَّقِدُ
يـا قُرَّةَ العـيْنِ يا أُنْسَ الفـؤَادِ لَقَدْ ... لَقِيـتُ بَعْـدَكَ مَـا لَمْ يَلْقَهُ أَحَدُ

يا من رمى يوسفَ قلبَه في جُبِّ حُبِّ الهوى ، يا مريضاً قد أعرض عن الدوا ، تشاغلتَ باللهو واللعب ، وجئتَ على قميص الإنابة بدمٍ كذب ، إن كنت تتلبسُ بظاهر أحوالك ، فذئب التصنع يخبر يعقوب الفراسة بخفيِّ أفعالَكَ ، إخواني ، الدنيا دار فرقة ، كم في جرع لذاهّا من شَرْقة ، سرورها كلمح برقة ، العيش فيها يومئذ حُرْقة ، والمسافر عنها متزود بخرقة ، فكم آلمت بالفراق ، وكم عذبت من مشتاق ، لا يطيبُ فيها عيش ، ولا ينتصر فيها على الهموم جيش ، سكون آفاهّا عين الطيش ، عاش فيها آدمُ باكياً ، وقام نوحٌ نائحاً ، وصار داود صائحاً ، وقام فيها موسى صعقاً ، وبات يعقوب للحبيب مفارقاً ، لما صفا نعيق ضفادع الجسد في نقاء قلوب إخوة يوسف، أعربتِ الألسنُ عن مضمرات القلوب ﴿ **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾[يوسف: ٨] ، فأرى المظلوم مآل الظالم في مرآة ﴿ **إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** ﴾[يوسف: ٤] ، فخلا به يعقوب في بيت الحذر يتلو عليه منشور ﴿ **لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ** ﴾ [يوسف: ٥] ، فحام حمام إخوته حول حلة الحيلة ، وشجعهم شجاع الطمع

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ١١٩ ، وأحمد في المسند ٤ / ٢٢٧ ، وابن ماجة في سننه ١ / ٢٥٦ ، والطبراني في الأوسط ٧ / ٣٥٠.

(٢) وذكر هذه القصة الثعلبي في تفسيره (٤ /٢١). وليس لها أصل من الكتب المعتمدة ، ومن العجيب أن يذكرها الإمام السيوطي في تفسيره ، من غير سند .

﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ [يوسف : ٩] ، فانعكس مقصودُهم ، وهوى هواهم ؛ لأنهم أبعدوا أخاهم ليؤلفوا أباهم فأباهم ، فاحتالوا على يعقوب في سلب ما تمنى بكف ﴿ مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا ﴾ ، وشوَّقُوا يوسفَ إلى رياض ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ ، فنطق منطقاً حوى جواب يعقوب المخزون ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف:١٣] ، فتلقفت عذر الخطيئة بهذا العذر ، فلما أصبحوا أظهروا المقت له ، ورموا بسهم العدوان مقتله ، فعادت فيهم المقتلة ، فنسخ نهار رفقهم به ليل انتهارهم له ، فصاح يهودا من وراء شفق الشفقة وأغباش غيابة الجُبِّ ﴿ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ [يوسف:١٠] ، فلما رموه ، وقالوا : هلك ، جاء من عند المَلِك مَلَكٌ ، وقال له : ستبلغ أملك ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف :١٥] ، فعادُوْا عَمَّنْ عادَوْا كالأَعْشَاء ﴿ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : ١٦] ، ولطخوا قميصه الصحيح بدمٍ كذب ، فأظهرت سلامةُ الثوب كمينَ كيدهم ، فقال لهم حاكمُ الفراسة : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ [يوسف : ١٨] : فحصل لهم من ذلك الحاكم قهراً ، وأحدثَ في ذلك أمراً ، وقيل في المعنى :

راحُوا فَرَاحَتْ راحَتِي مِنْ رَاحَتِي ... صِفْرًا وأَضْحَى حُبُّهُم لِي رَاحَا

خَتَمُوا عَلَى قَلْبِي الهُمُومَ وأَغْلَقُوا ... بَابَ السُّرُورِ وَضَيَّعُوا المِفْتَاحَا

كان للصديق ﷺ ثلاثة أقمصة : قميص العلامة ، وقميص الشهادة ، وقميص البشارة ، ففي قميص العلامة ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : ١٨] ، وقميص الشهادة بريء من الدعوة ، وفي قميص البشارة جمع بينه وبين من يهوى ، وكان لرسول الله ﷺ ثلاثة أقمصة : قميصُ العطية حين سألته المرأة فأعطاها قميصاً لم يكن له سواه ، وجاء وقت الصلاة فلم يجد ما يخرج به ، فأنزل الله عليه : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] الآية ، وقميصُ الهداية ، وذلك أن عبد الله بن سلول كان رأسَ المنافقين ، فلما جاءه الموت قال : سيروا إلى محمد ، ورغبوه في أن يعطيني قميصه

فادفنوه معى في القبر ، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك ، فقال : خذوا قميصي ، فإنه لن يغنيَ عنه من الله شيئاً ، فلما رأى المنافقون ذلك ، قالوا : إذا كان سيدنا يتبرك بثوبه فنحن أولى أن نتبرك بنفسه ، فأخلص في ذلك اليوم ألف منافق ، وقميص المعجزة وهو أنه ما لبس قط ثوباً طال ولا قصر إلا وكأنه خيطَ عليه ، وفي كل قميص رزق وفائدة ، ففي قميص العطية وقع التعليم ، وفي قميص الهداية بان قدره العظيم ، وفي قميص المعجزة ظهر الحق لمن كان في بحر الشرك يهيم ، وكذلك المؤمن له ثلاثة أقمصة :

قميص الخدمة ، قال الله تعالى : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ [الأعراف : ٣١] .

وقميص العفة قال الله تعالى : ﴿ **وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى** ﴾ [الأعراف : ٢٦] .

وقميص الكرامة قال الله تعالى : ﴿ **وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ** ﴾ [الكهف : ٣١] .

وفي كل قميص فائدة ، ففي قميص الخدمة يناجي مولاه ، وفي قميص العفة يغلب شهوته وهواه ، وفى قميص الكرامة يرى مَنْ جَلَّ عن الأشباه ، وقيل في المعنى :

ولا أشْـتَهِي دَارَ الجِـنانِ لأنَّني ... أُمَـتَّعُ فِيهَـا بالمَـآكلِ والشُّرْبِ
وَأَلْـبَسُ أَلْـوَانَ الحَرِيرِ تَبَخْتُرًا ... وَأَخْلُو بِذَاتِ الحُسْنِ والخَالِ والقَلْبِ
وَلَكِنَّـنِي أشْـتَاقُهَا لأَرَى الذي ... تَحَجَّـبَ عَنْ عَيْنِي وَمَسْكَنُهُ قَلْبِي
خُذُوا كُلَّ مَا تَهْوَوْنَهُ مِنْ نَعِيمِكُمْ ... وَخَلُّوا الذي أَهْوَى فَذَلِكُمُ حَسْبِي

إذا أُفضيت الخلعُ على المحبِّ ، ورأى الخلائق عراة رَفَلَ فرحاً بها ، كما مال من صرْفِ المُدامة شاربها ، فيصبح به تقليب القلوب : احذر السلب ، فتنقلب الهزة رعدةً ، كما انتفض العصفورُ مِنْ بَلَلِ القَطْرِ ، فيبقى في يد الحذر أسيراً كطائر جو علقته الحبائل ، يبالغ في كتمان حاله ، وما يخفى ثكل الثكلاء ؛ لما علم القوم أنه لا ينظر إلى صُورهم غابوا عن معانيهم ، فلباسهم ما ستر ، وأكلهم ما حضر ، ذلوا له ليرضى ، فإذا رأيتَهم قلتَ : مرضَى . كان أويسٌ القرنيُّ يلتقط الرقع من المزابل ،

فيغسلها في الفرات ، ويجعل بعضها على بعض فيلبسها ، لما عريَ من لباس الهوى كُسيَ حُلةً يشفع في مثل ربيعة ومضر . لبس رسول الله ﷺ جبة شامية لم يقدر أن يخرج ذراعيه من كُمَّيْها عند الوضوء حتى أخرجهما من أسفلها . وكان موسى(1) ﷵ يلبس جبة من خرق المزابل ، وكانت إبرته من ريش حواصل الطيور ، وكانوا يقولون : لو اتخذتَ إبرة من حديد ؟ فيقول : أخاف أن تشغلني عن الله ، فدخل جبريل الجنة وأخرج ثوباً من أثواب العافية فكساه إياه ، فكان يلقى فرعونَ وجنودَهُ فلا يقدرون له على مكيدة ، فلما مات الكليم ﷵ كساه الله عز وجل عين الشمس ، فلذلك تخف آلام المريض عند طلوعها ، وتهيج عند غروبها ، وما ذلك إلا لقرب النسيم بالنهار وبعده بالليل ، وقيل :

وَمِـــنَ الغَــبَاوَةِ أنْ تُعَظِّمَ جَاهِلاً لِصِـــقَالِ مَلْبَسِهِ وَرَوْنَقِ رَقْشِهِ
وَاعْلَـــمْ بِأَنَّ التِّبْرَ في عِرْقِ الثَّرَى خَـــافٍ عَلَى أنْ يَسْتَبِينَ بِنَبْشِهِ
وَكَذَلِـــكَ الدِّيــنَارُ يَظْهَرُ سِرُّهُ مِـــنْ حَكِّهِ لا مِنْ مَلاحَةِ نَقْشِهِ
أَوْ أَنْ تُهِـــينَ مُهَذَّبــاً في نَفْسِــهِ لِـــدُرُوسِ بَـــزَّتِهِ وَرَثَّـــةِ فَرْشِهِ
وإذَا الفَتَى لَمْ يَخْشَ عَارًا لَمْ يَكُنْ أَسْــمَى لَـــهُ إلا مَرَاقِي عَرْشِهِ
مَـــا إنْ يَضُرُّ العَضْبُ كَوْنُ قِرَابِهِ خَلَقًـــا ولا البَازِي حَقَارَةُ عُشِّهِ

(حكاية) قال مالك بن دينار : أتيتُ القبور يوماً لأنظر في الموتى ، وأعتبرَ وأزدجرَ وأتفكرَ ، فجعلتُ أجول بين المقابر ، وأنشد بذهن حاضر :

أَتَيْتُ القُبُورَ فَنَادَيْتُهَا أَيْـــنَ المُعَظَّـــمُ والمُحْتَقَرْ ؟
وَأَيْنَ المُلَبَّى إذَا مَا دَعَا وَأَيْنَ المُزَكَّى إذَا مَا افْتَخَرْ ؟
وَأَيْنَ المُدِلُّ بِسُلْطَانِه وَأَيْـــنَ العَزِيزُ إذَا مَا قَدَرْ ؟

وإذا بصوت يجيبني ، وينشد فيقول :

تَفَـــانَوْا جَمِيعًا فَلا مُخْبِرٌ وَمَـــاتُوا جَمِيعًا وَهَذَا الخَبَرْ

(1) لم نقف على سند يعوّل عليه .

تَنُوحُ عَلَيْهِمْ بَنَاتُ الثَّرَى   وَتَمْحُو مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّوَرْ
لَقَــدْ قَلَّدَ القَوْمُ أعْمَالَهُمْ   فَإمَّــا نَعِــيمٌ وإمَّــا سَقَرْ
وَسَــارُوا إلى مَلِكٍ قَادِرٍ   عَزِيــزٍ مُطَــاعٍ إذَا مَا أَمَرْ
فَيَا سَائِلي عَنْ أُنَاسٍ مَضَوْا   أمَا لَكَ فِيمَنْ مَضَى مُعْتَبَرْ ؟

قال : فنظرت فإذا ببُهلول المجنون جالسٌ بين قبرين ، وهو ينظر إلى السماء فيبتهل ، وإلى الأرض فيعتبر ، وعن يمينه فيضحك ، وعن يساره فيبكى ، فسلمتُ عليه فردَّ عليَّ السلامَ ، فقلتُ له : يا بُهلولُ ، أراكَ قعدتَ بين القبور ، فقال : نعم ، قعدتُ بين قوم لا يُؤذوني ، وإن غبتُ عنهم لا يغتابوني ، فقلتُ له : أراكَ تنظرُ إلى السماء فتبتهل ، وإلى الأرض فتعتبر ، وعن يمينك فتضحك ، وعن شمالك فتبكي ، قال : إذا نظرتُ إلى السماء ذكرتُ قوله تعالى : ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾ [الذاريات:٢٢] ، فحُق لِمَنْ سمع هذه الآية أن يبتهل ، وإذا نظرتُ إلى الأرض ذكرتُ ، قوله تعالى : ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى** ﴾ [طه : ٥٥] ، فحُق لِمَنْ سمع هذه الآية أن يعتبر ، وإذا نظرتُ إلى اليمين ذكرتُ قوله تعالى : ﴿ **وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ** ﴾ [الواقعة:٢٧]، فحُق لِمَنْ سمع هذه الآية أن يضحك ، وإذا نظرتُ إلى الشمال ذكرتُ قوله تعالى : ﴿ **وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ** ﴾ [الواقعة : ٤١] ، فحُق لِمَنْ سمع هذه الآية أن يبكي ، فقلت : يا بُهلولُ ، والله إنك لحكيم ، فهل لك من حاجة ؟ قال : نعم ، أريد أن تشتري لي قميصاً نظيفاً ، قلت : نعم إن شاء الله تعالى ، ثم ذهبتُ إلى السوق ، وقد مُلئتُ سروراً ، واشتريتُ قميصاً جديداً ، وأتيتُ به إليه ، فقلبه ورماه إليَّ ، وقال : لست أريدُ مثل هذا ، فقلتُ : صفْهُ لي يا بهلولُ ، قال : نعم ، أريدُ قميصاً من قُمُصِ أهل الإخلاص وذوي البصيرة والاختصاص ، محفوظاً من الدنس والانتقاص ، زُرِعَ قطنُه في حديقة مشرقة بأنوار الحقائق ، محروسة من الاعتراضات والبوائق ، يُسقى بماء السلسبيل، وحُفظ من العطش بجبريل ، فأينع بهاءً وحسنًا ، وأثمر فأنبتَ قطناً ، ثم لُقط بأنامل الكرام البررة التالين لسورة البقرة ، ثم

حُلج بأكف الوفاء على دفف الصفاء ، بحركات العزم من غير خفاء ، ثم تحللته الأوتار المتصلة بنور الأنوار ، ثم غزلته بنات طاهرات ونساء خيرات ، بمغازل الحمد والثناء والمحبة السابقة والاعتناء ؛ فجعلت الجنة على نسجه ثواباً ، وكان بين لابسه وبين النار حجاباً ، ثم قصر الثوب بماء معين غدق ، وطلعت عليه شموس الشوق والقلق ، فسطع بياضه ، وزال اعتراضه ، وامتاز بحسن الرقعة ، والطراز ، وأعجب كل تاجر وبزاز ، فدُفع إلى خياط مطبوع في صنعته ، بعيد المدى في همته ، صادق البكاء من عبرته ؛ فنظر إلى الثوب بفكره ، وقاسه بشبره ، وميز ما عاب من قَدْره ، وأوقع فيه المقراضَ بلا شكٍّ ولا اعتراض ، فجعل بدنه من حقائق الإخلاص ، وقدر الكُمَّيْنِ كاملين بلا انتقاص ، ثم علق البنائق ، وأوصل بهما النيافق اتصال الحقيقة بالحقائق ، وكان الخياط بربه واثقاً ، فأتى القميص موافقاً ، وللشك مفارقاً ، ثم قصص التدوير ، وخاطه بلطائف التدبير ، ثم فتح الجيب ، وأمده بشواهد الغيب ، وأزال عنه النقص والعيب ، ثم صور الطوق وزينه بلواعج الشوق ، فاعتدل القميص من أسفل إلى فوق ، فهل تقدرُ يا مالكُ على مثل ذلك ؟ فقلتُ : يقدرُ عليه مَنْ خصَّكَ بوصفه ، وألهمك لمعانيه وكشفه ، فصِفْ لي لابسَهُ يرحمُكَ الله ، فقال : يلبسُهُ قوم خصهم الله بأنواره ، وكتبهم في ديوان أبراره ، وحماهم في أزل الأزل بالسابقة ، وقَوَّاهم بالعزائم الصادقة ، فأجسادهم بين أهل الأرض تسعى ، وقلوبهم في غياض رياض الملكوت ترعى ، لا يتكلمون في غير ذكره بلفظة ، ولا ينظرون إلى غيره لحظة ، فهم شموس الناظرين وأقمار الساهرين ، بهم يقصم الله الجبابرة ويسلمهم ، ويرزق عباده ويرحمهم ، ثم قام وقال : إليك فرَّ الهاربون ، ونحوك قصد الطالبون ، وببابك أناخ التائبون ، ثم سار وتركني ، وقيل في المعنى تخميساً :

نَديمِـــيَ الشَّـــوْقُ فِي الظَّلْمَا أجالسُهُ ... يا وَحشَة الصَّبِّ مُذ أَقْوَى مُؤَانسُهُ
هَلْ فِي الورَى مَنْ لهُ وَصْفٌ يُجَانسُهُ ... قَالوا : غَدًا العيدُ مَاذا أنتَ لاَبِسُهُ
فَقُلْتُ : خَلْعَةَ سَاق حُبَّهُ جَرَعَا
فَنيتُ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ فِي الهوَى حَرِمًا ... فَزِيـــنَتِي أَنْ أُرَى بِالعَهْدِ مُعتَصِمَا
طِمْـــرانِ فِـــيك لِبَاسِي لا عَدِمْتُهُمُا ... فَقـــرٌ وصَـــبرٌ هما ثَوْبَانِ تحتهُمَا

قَلْبٌ يَرَى إلْفَهُ الأَعْيادَ والجُمُعَا

يَـــا مَـــن غَدا سَابحاً في أَبْحُرِ الوَلَه   وَسَـــائحاً في قِفارِ اللَّبْسِ وَالشُّبَه

وَمـــدَّعٍ في حَبِيـــبٍ جَـــلّ عَن شبَه   أَسْنَى الملَابسِ أنْ تَلْقَى الحبيبَ بِه

يَوْمَ الزِّيارَةِ في الثَّوْبِ الذي خَلَعَا

خَلعْتُ ثَوبَ اعتراضي في مُرادكَ لي   وَقَد تبرَّأْتُ مِنْ حَوْلي وَمِنْ حِيَلي

فَمَوْسِـــمِي لَحْظَـــةٌ تُبْرِي بها عِلَلِي   الدَّهْـــرُ لي مَأتَمٌ إنْ غِبْتَ يَا أَمَلي

والعِيدُ مَا كُنْتَ لي مَرْأًى ومُسْتَمَعَا

يـــا واحِدًا في العُلا قَدْ جَلّ عَنْ ثَاني   نَفْسِـــي جَعَلْتُ إليكَ اليَوْمَ قُرْبَاني

وَجِئْـــتُ أَرْفُـــلُ في ذُلِّـــي وَإذعَاني   فامْـــنُنْ بعفـــوٍ وَلاَ تَنْظُرْ لِعصْياني

إنَّ الكَرِيمَ يُنِيلُ العَفْوَ مَنْ خَضَعَا

المجلس الرابع

في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي أوضح لعباده وأهل حبه ووداده سبيلاً ، وأقام لهم من الآيات الصحيحة والبراهين الفصيحة دليلاً ، وتجلى لأبصار بصائرهم وتبدى لمرآة سرائرهم فلم يتخذوا غيره وكيلاً ، القدير الذي يقضي بما يشاء فيذل عزيزاً ويعز ذليلاً ، البصير الذي يبصر دبيب النمل على كثبان الرمل ويؤيدها بالإلهام فتلتمس قوتاً وتؤمُّ مقيلاً ، السميع الذي يسمعُ صوتَ البعوضة إذا رجعتْ بالتلحين وأخذتْ في الترنين بكرة وأصيلاً ، البديع الذي أتقن كل شيء خلقه فستر قبيحاً وأظهر جميلاً ، رفع قبة السماء اللازوردية وكللها بالنجوم الزواهر تكليلاً ، وبسط فراش الأرض وذللها للأقدام تذليلاً ، وأظهر طرائقها وبيَّن مغاربها ومشارقها يمشي الآدميُّ في مناكبها متى رام رحيلاً ، ولذلك أشار في كتابه الذي نزله تنزيلاً ، فقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، أحمده حمداً كثيراً طويلاً ، وأشكره شكراً يكون بزيادة نعمه كفيلاً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ مَنْ برئَ من التقليد وشرب من كؤوس التوحيد سلسبيلاً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وحبيبه الذي اتخذه نبياً ورسولاً وخليلاً ، فانشقَّ له القمر المنير وكلمه الظبي الغريرُ وجاء إليه البعير مستجيراً به ودخيلاً ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين كَسَّروا الصُّلبان ورتلوا القرآن ترتيلاً ، صلاةً تدوم وتقوم ما شكا محبٌّ عليلاً ، وشفى بنسيم غليلاً ، وسلم تسليماً كثيراً عظيماً طويلاً ، وقيل في المعنى :

رَحِيلُكَ شَرْطٌ أنْفذَتْهُ المَقَادِرُ ... فأنْتَ مُقيمٌ لَوْ ترى وَمُسَافِرُ

وَدُنْياكَ لَوْ تَدْري طَريقٌ وَمَعْبرٌ ... وَسَائرُ هَذا الخَلْقِ وَيْحكَ سَائِرُ

تُمَهِّدُ للنَّوْمِ الفِراشَ وأَنْتَ عَنْ ... قَريبٍ لِبَيْتِ الدُّودِ والتُّرْبُ زَائِرُ

وَمِــنهُ أَخــي أيْضاً تسَافرُ سُفْرةً   إلى مَوْقِــف فيــه تَبينُ السَّرائِر
فَمــاذَا يكــونُ العذْرُ يومَ لقائه   إذَا جئــتَهُ فَرْداً وما لَكَ نَاصرُ
وَعُــلِّقَ مِيزَانٌ وَطَارَتْ صَحائفٌ   وَمُدَّ صِرَاطٌ وَاضمحَلَّتْ مَعَاذِرُ
وَجَاءَتْ بِقَاعُ الأَرضِ تَشْهَدُ بالذي   فَعــلْتَ وَلا ستْرٌ مِنَ اللهِ ساتِرُ
فقَــدِّمْ أخي زَادًا لديكَ مِنَ التُّقَى   فشَيْبُكَ عَنْ عِصْيَانِ رَبِّكَ زَاجِرُ
وَتُــبْ للذي مَازلتَ تَعْرِفُ فَضْلَهُ   وَلَيــسَ سِــوَاهُ للجرَائِمِ غَافِرُ
وَصــلِّ عَلَى المُخْتَارِ مِنْ آلِ هاشِمٍ   نَــبِيٌّ لَــهُ فَوْقَ السَّمَاءِ مَنَابِرُ

قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

سَمَّى اللهُ تعالى خمسة أشياء كريمة :

الأول : نفسه ، قوله تعالى : ﴿ **مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ** ﴾ [الانفطار : ٦] .

الثاني : جبريل ، قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾ [الحاقة : ٤٠] .

الثالث : نبيه ﷺ ، قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ** ﴾ [الحاقة : ٤٠ ، ٤١] .

الرابع : الجنة ، قوله تعالى : ﴿ **وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً** ﴾ [النساء : ٣١] .

الخامس : كلامه ، قوله تعالى ﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الواقعة : ٧٧] .

وفي التكريم سبعة أقوال :

الأول : ولقد كرمنا بني آدم بسجود الملائكة لأبيهم .

الثاني : ولقد كرمنا بني آدم بخلق أبيهم بأيدينا .

الثالث : ولقد كرمنا بني آدم بالقد والقامة والصورة الحسنة .

الرابع : ولقد كرمنا بني آدم بستر العورة وأخذ الزينة .

الخامس : ولقد كرمنا بني آدم بالعقل والعلم .

السادس : ولقد كرمنا بني آدم بالأكل بأيديهم ، والبهائم تأكل بأفواهها .

السابع : ولقد كرمنا بني آدم الرجالَ باللِّحَى ، والنساءَ بالذوائب ، ثم قال : ﴿ **وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** ﴾ [الإسراء : ٧٠] . الإشارة في ذلك إلى السفر ، وهو على وجهين : سفر بالظاهر في البر والبحر ، وسفر بالباطن وهو الانتقال إلى الأفعال الحسنة ؛ فسفر الظاهر مَنْ يسافر من بقعة إلى بقعة ، وسفر الباطن مَنْ ينتقل من صفة إلى صفة ، فكثيرٌ مَنْ يسافر بجسده ، وقليل مَنْ يسافر بقلبه . وفي الإسرائيليات أن الله تعالى يقول : من أين يجد ابن آدم مثلي ؟! إن سافر في البر كلأته ، وإن سافر في البحر حفظته ، وإن نام حرسته بعيني ، وإن قام مددته بعوني ، وقال ابن عمر : « كان رسول الله ﷺ إذا استوى على بعيره خارجاً يريد سفراً كبَّر ثلاثاً ثم قال : سبحان الله ، الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل والولد ، اللهم هوِّنْ علينا سفرنا هذا ، واطْوِ لنا البعيد ، اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد ، فإذا رجع قالهن وزاد عليهن : آيبون تائبون ، لربنا حامدون » (١) ، ذكره مسلم . وقال ﷺ : « لا تصحبُ الملائكةُ رفقةً فيها كلب ولا جرس » (٢) ، ذكره مسلم . وقال ﷺ : « إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض ، وإذا سافرتم في الجدب فأسرعوا عليها السير ، وإذا أعرستم في الليل فاجتنبوا الطريق ، فإنها طرق الدوابِّ ومأوى الهوام بالليل » (٣) ، ذكره مسلم ، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : « بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجلٌ على رحلة له يركض بها يميناً وشمالاً ، فقال ﷺ : مَنْ كان معه فضلُ ظهر فليعد على مَنْ لا ظهرَ له ، ومَنْ كان معه فضل زاد فليعد على مَنْ لا زادَ له ، وذكر من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لا حقَّ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢ / ١٩٧٨ ، وابن حبان في صحيحه ٦ / ٤١٣ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٣ / ١٦٧٢ ، وابن حبان في صحيحه ١٠ / ٥٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٣ / ١٥٢٥.

لأحد منا في فضل »[١] . وقال رسول الله ﷺ « السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نهمته من توجهه ، فليعجل إلى أهله »[٢] ، ذكره البخاري ، وقال عبد الله بن جعفر رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفره تلقّى بصبيان أهل بيته ، وإنه قدم من سفر فجيء بي إليه ، فحملني بين يديه ، ثم جيء بأحد بني فاطمةَ فأردفه خلفه ، فدخلنا المدينة ثلاثاً على دابة» ، ذكره مسلم ، وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً »[٣] ، ذكره مسلم ، وقال كعب بن مالك رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ لا يقدم من سفر إلا نهاراً في الضحى ، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس »[٤] ، أخرجاه في الصحيحين . وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل » ، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ « إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم واحداً »[٥] ذكره أبو داود . وقال أبو ثعلبة : « كان الناس إذا نزلوا منزلاً تفرقوا في الشعاب والأودية ، فقال رسول الله ﷺ : إن تفرقكم في الشعاب والأودية من الشيطان ، فلم ينزلوا بعد ذلك منزلاً إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى لو بُسط عليهم ثوبٌ واحد لعَمَّهم»[٦] ، ذكره النسائي ، وقال ابن عمر : « كان رسول الله ﷺ إذا ودع أحداً أخذ بيده فلا يدعها النبي ﷺ حتى يكون الرجل هو الذي يدعها ، ثم يقول ﷺ أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك »[٧] ، ذكره الترمذي وأبو داود . وقال أنس رضي الله عنه : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني أريد سفراً فزَوِّدْني ، فقال : زودَكَ اللهُ التقوى ، فقال زدني ، قال : وغفر ذنبكَ ، فقال : زدني بأبي

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٢ / ٢٣٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢ / ٦٣٩ ، ومسلم في صحيحه ٣ / ١٥٢٦ .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢٠٠٨ .
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١ / ١٧٠ ، ومسلم في صحيحه ١ / ٤٩٦.
(٥) أخرجه أبو داود في سننه ٣ / ٣٦ .
(٦) أخرجه أبو داود في سننه ٣ / ٤١ ، وابن حبان في صحيحه ٦ / ٤٠٨.
(٧) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٤ /١٣٧ ، والحاكم في المستدرك ١ / ٦١٠.

وأمي ، قال : ويسَّرَ لكَ الخيرَ حيثُ كنتَ » ، ذكره الترمذي . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إني أريد أن أسافر فأوصني ، قال : عليك بتقوى الله والتكبير على كل شَرَف ، فلما ولّى الرجل قال : اللهم ، اطْوِ له البعيدَ ، وهوِّنْ عليه السفرَ »[١] ، ذكره الترّمذي . وقال عبد الله بن عمر : قال رسول الله ﷺ : « لا يركب أحدكم البحرَ إلا حاجًّا أو معتمراً أو غازياً في سبيل الله ، فإن تحت البحر ناراً ، وتحت النار بحراً »[٢] . ذكره أبو داود . وقالت أم حرام : قال رسول الله ﷺ : « في المائد في البحر الذي يصيبه القيء له أجر شهيد ، والغريق الذي يموت فيه له أجر شهيدينِ »[٣] ، وقيل في المعنى :

رَكِبْتُ عَلى اسْمِ اللهِ بَحْرَ شُجوني ... وَصَيَّرْتُ ذِكْرِي مُؤْنسِي وَسَفينِي
وَتُهْـتُ عَنِ الأَكْوَانِ أَزْهُو بِحُبِّهِ ... فَعَايَـنْتُ فيمَا قَدْ رَأَيْتُ مَعِينِي
وَلَمَّـا تَجَـلَّى لي بِسِـرِّ جَمَالِه ... جُنِـنْتُ فَأَدْنَانِي لِفَرْطِ جُنُونِي
وَلاطَفَنِي لُطْفَ الموالي وَقَالَ لِي : ... رُوَيْـدَكَ إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ دُيُونِي
فَأَبْشِـرْ بِرِضْوَانِي وَقُرْبِي وَمِنْحَتِي ... فَمَـا خَـابَ عَبْدٌ جَاءَنِي بِيَقِينِ
فَطَأْطَـأْتُ إِجْـلالاً لَـهُ وَمَهَابَةً ... وَمَلَّكْتُ مَنْ أَهْوَى جَمِيعَ رُهُونِ
وَمَـازِلْتُ أَرْجُو مِنْهُ مَا هُوَ أَهْلُهُ ... فَحَقَّـقَ لِي عِنْدَ القُدُومِ ظُنُونِي

وفى السفر ثلاث فوائد : إحداها تجديد الرزق ، وفى التوراة مكتوب : يقول الله تعالى : عبدي ، أَحْدِثْ سفراً أُحدثْ لكَ رزقاً . **والثانية** رؤيةُ العِبَر ، وفي الإسرائيليات : إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد ، ثم سِحْ في الأرض حتى تنكسر العصا وتتخرق النعلان . **والثالثة** اكتساب الفوائد ؛ ألا ترى أن السيارة من أجل سفرهم لقُوا أجمل الناس وجهاً

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢ / ٣٣١.
(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ١ / ٥٨ ، والحاكم في المستدرك ٤ / ٦٣٨.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه ٣ / ٧ ، والبيهقي في الكبرى ٤ / ٣٣٥.

وأكرمهم منزلة وأعلاهم عند الله مرتبة ، قال الله تعالى : ﴿ **وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ** ﴾ [يوسف : ١٩] ، وذلك أن يوسف عليه السلام لما أتى عليه في الجب ثلاثة أيام ، نزل عليه جبريل عليه السلام ، وكان القَميصُ الذي أنزله الله على إبراهيم يوم رُمي في النار من ثياب الجنة ورثه من إسحاق ، وورِثه من إسحاقَ يعقوبُ ، وجعله في قصبة في وسط قلادة ، وعلقها في عنق يوسف عليه السلام فأخرجه جبريل عليه السلام من القصبة[(١)] ، وكساه إياه ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : كسوة الجنة تواري من الجانّ والملائكة ، ولا تواري من الناس ، فرأوْه عُرياناً وهو مكتسٍ بكسوة الجنة ، فأوحى الله تعالى إليه : إني مخرجكَ من الجب ومرسلكَ إلى مصر ، وجاعلٌ أهلَ مصر عبيداً لكَ ، تخدمك الجبابرة ، وتذل لك الملوك ، وتكون لك اليدُ العليا على إخوتك تحكم فيهم بمرادك ، قال : وقدمتْ قافلة من قوافل الشام تريد مصر ، وأهلها ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، وكان رئيس القافلة عربياً بدوياً يسمى مالك بن دعر الخزاعي ، فلما قربوا من المكان قال لهم مقدّمهم : عهدي بهذا المكان وفيه بئر نستقى منها فانزلوا ، قال : فترلوا ودعا بغلامين له يقال لأحدهما : بشراي ، والآخر : بشار ، فقال لهما : انطلقا إلى هذا البئر وائتياني بماء ، فانطلقا بالدلو والرشا ، فلما قربوا من البئر إذا بالطير عاكفة عليه ، فاشتغل بشراي بقضاء الحاجة ، وانطلق بشار إلى البئر ليأتي بماء ، فإذا نور يسطع فتعجب بشار من ذلك وأدلى دلوه ، فتعلق يوسف بالدلو ، وكان يوسف جسيماً وسيماً ، فأراد أن يرفعه فثقل عليه ، فنظر إلى البئر فرأى وجهاً يُخجل الشمسَ جمالُه ، والبدرَ كمالُه كما قيل :

أَشْهَلُ العَينِ كَحيلُ الحَدَقَهْ ... عُنُقُ الرِّيمِ يُضَاهِي عُنُقَه
لَوْ تَرَاهُ حِينَ يَمْشِي نَشِطاً ... كَقَضِيبِ الآسِ يُكْسَى وَرَقَهْ
وَتَرَى النَّحْلَ مُحِيطَاتٍ به ... يَشْرَبُونَ الشَّهْدَ مِمَّا بَصَقَهْ
فَازَ بالجَنَّةِ مَنْ أَبْصَرَهُ ... ثُمَّ بِالفِرْدَوْسِ مَنْ قَدْ رَمَقَهْ

---

(١) وهذه الأخبار التي أوردها المصنف لم نجدها.

فلما أبصر الغلامُ بدرَ التِّمام داخلتْهُ الدهشةُ والهيام ، ومنعه الثقل مِن رفعه من ذلك المُقام ، وصاح : يا بشراي ، هذا غلام ، وقيل في المعنى :

واطَرَبًا مِنْ نَشْرِ رِيحِ الخُزَامْ   يُحْيِي فُؤَادَ الشَّيِّقِ المُسْتَهَامْ
كَأَنَّمَا نَفْحَتُهُ عَنْبَرٌ   أَوْ مِسْكُ دَارِينَ وَزَهْرُ الكِمَامْ
شَمَمْتُهُ مِنْ نَحْوِ مَنْ قَدْ نَأَى   وفي فُؤَادِي والحَشَا قَدْ أَقَامْ
أَحْبَابَنَا هَلْ عَطْفَةٌ تُرْتَجَى   أَوْ لَمْحَةٌ مِنْكُمْ تُرَى في المَنَامْ
لَوْ شَاهَدَتْ عَيْنَايَ مَرْآكُمُ   مَا كُنْتُ أَلْوِي نَحْوَ بَدْرِ التِّمَامْ
وَكُنْتُ أَشْدُو طَرَبًا مِثْلَمَا   يَشْدُو مُنَادِي الحُبِّ بَيْنَ الأَنَامْ
أَبْصَرَ شَمْسَ الحُسْنِ في يُوسُفٍ   فَقَالَ : يَا بُشْرَايَ ، هَذَا غُلامْ

قال : فتعاونا عليه حتى رفعاه ، فلما نظرا إليه تحيرا ، ثم احتملاه إلى سيدهما ، فلما نظر إليه مالك بن دعر أعجب به ، وبُهت من جماله ، وجعلوا يكلمونه بالسريانية ، وهو يكلمهم بالعبرانية ، وكان إخوة يوسف قد جعلوا مراعيهم حول البئر يتجسسون أخباره ، فلما نظروا إليه وقد أخرجوه أقبلوا وقالوا : هذا مملوكنا أبق منا منذ ثلاثة أيام ، وتوارى منا في هذا الجُبِّ ، ثم قالوا له بالعبرانية : إن أقررتَ لنا بالعبودية سلمْتَ ، وإلا انتزعناكَ من أيديهم ، وقتلناكَ شر قتلة ، فتوقف في الجواب فتقدم إليه يهودا ، وقال له : يا أخي ، إنا قد أخبرنا أباك أن الذئب قد أكلك ، فإن أقررتَ لهم بالعبودية باعوكَ ، وسلمتَ من القتل ، ولعل الله أن يأتيكَ بالفرج منه ، فتقدموا إلى رئيس القافلة ، وقالوا : هذا عبدنا أبق منا ، فقال الرئيس : ما هذه والله سيمة العبودية ، إن هي إلا سيمةُ الأحرار المكرمين ، فقالوا : نعم ، إن أبانا اشترى جارية تسمى راحيل ، وكان هذا رضيعاً منها ، فرُبي في أحجارنا ، وتخلق بأخلاقنا ، فقال التاجر : ما تقول يا غلام ؟ قال : نعم ، ربيتُ في أحجارهم ، وتخلقت بأخلاقهم ، فقالوا : اشتره منا نبعه منك ، فقال : ما بقي عندي من الدراهم إلا مقدار عشرين درهماً ؛ لأنا صرفناها في أنواع المتاجر ، فقالوا : نبيعه منك بذلك ، لكن على شرط أن تُوثقه بأشدِّ الوثاق ، وتقيده وتغله وتوكل به من يحفظه حتى يأتي مصر ، فإنه لص آبق ، وإنما خافوا أن ينفلت منهم ويرجع إلى

أبيهم ، فقال التاجر : لكم عليَّ ذلك ، ولكن اكتبوا لي كتاباً ، فقدمَ روبيلُ قرطاساً ودواةً ، وكتب : بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، هذا ما اشترى مالك بن دعر الخزاعي من أولاد يعقوب ، وهم فلان وفلان وفلان مملوكهم يوسفَ بعشرين درهماً بعهد الله وميثاقه أن يقيده ويغله ويوكل به مَنْ يحفظه حتى يأتي مصر ، فأعطاهم مالك بن دعر تلك العشرين درهماً ، تقسموها بينهم درهمين درهمين ، فالتفت يوسف إلى أخيه يهودا ، وقال : يا أخي ، سألتُكَ بالله لا تأخذْ من ثمني شيئاً فإنه حرام ، فقال يهودا : والله ، لا آكلُ لأخي يوسفَ ثمناً ، وقيل في المعنى :

يُحَـرِّكُني إلَـيْكَ هَـوًى مُطَاعُ ... فَـأَحْملُ فِـيكَ مَا لا يُسْتَطَاعُ

وَأَرْكَـبُ مَرْكَـبًا للحُبِّ صَعْبًا ... تَضِـيقُ بِـهِ الأَمَـاكِنُ والبِقَاعُ

فَلِلْعَـبرَاتِ بِـالخَدِّ انْدِفَـاعٌ ... وللزَّفَـرَاتِ بالصَّـدْرِ ارْتِفَـاعُ

وَفي هَـذَا رُمِيـتُ بِكُـلِّ بَلْوَى ... تَـدَاوَلُ زَورُهـا الهُوْجُ الرِّعَاعُ

وَبَلْـوَى الدَّهْـرِ تَـنْزِلُ كُلَّ يَوْمٍ ... بِكُـلِّ فَـتًى لَهُ في السَّبْقِ بَاعُ

تَطَـاوَلَ فى المَكَـارِهِ مِـنْهُ قَوْلٌ ... لَـهُ في عَـالَمِ الغَيْـبِ اطِّلاعُ

وَمَـا ذنـبي سِـوَى أني مُحِبٌّ ... وفي كَـبدي منَ الحُبِّ انْصِدَاعُ

أَبِعْـتَ مَوَدَّتِـى ونَسِيتَ عَهْدي ... عَلَـى أنَّ المَـوَدَّةَ لا تُـبَاعُ

وَكُنْـتُ قَنعْـتُ بالكِتْمَانِ فِيكُمْ ... فَأمَّـا الـيَوْمَ فَـانْحَلَّ القِـنَاعُ

وَكُنْتُ رَضَعْتُ ثَدْيَ القُرْبِ مِنْكُمْ ... وَأَمَّـا الـيَوْمَ قَدْ فُطِمَ الرَّضَاعُ

وَكُنْـتُ إذَا سَـمِعْتُ لَكُمْ حَديثًا ... يُحَرِّكُـني مِـنَ الوَجْدِ السَّمَاعُ

وَطَلَّقْـتُ السُّـرُورَ بِكُـمْ ثَلاثًا ... طَلاقًـا لَـيْسَ لي فِـيهِ ارْتِجَاعُ

فَـإنْ تَعْطِـفْ عَلَـى عَبْدٍ مُطَاعٍ ... فَـإنِّي ذلِـكَ العَـبْدُ المُطَـاعُ

عَلَـى أنِّـي سَأُنْشِـدُ عِنْدَ بَيْعِي ... أَضَـاعُوني وأيَّ فَـتًى أضَاعُوا

وَبَـاعُوني بِـبَخْسٍ يـا لَقَوْمِـي ... وَمِـثْلِي في الحَقِـيقَةِ لا يُـبَاعُ

قال : فدعا التاجر بقيد فقيده ، وبغُلٍّ فغلَّه في عنقه ، فقال يوسف عليه السلام : لا تغُلُّوا عنقي ، فإني إذا رأيتُ ذلكَ ذكرتُ أغلالَ أهل النار ، فقال له التاجر : يا يوسف ، قد أعطيتُ مواليَكَ عهداً وميثاقاً أن أغُلَّكَ وأقيدكَ حتى آتيَ مصر ، وإذا وصلتُ مصر حللتُ عنكَ قيودكَ وأغلالكَ وأنزلتكَ منزلة الأحرار لا منزلة العبيد ، وقيل في المعنى :

أيَا قَيْدُ كَمْ مَزَّقْتَ مِنْ جِلْدِ مُسْلِمٍ ... تَـرَفَّقْ بِحُـرٍّ فـي وَثَـاقِكَ مُتْهَمِ
تَعَطَّفْــتَ في وِثْقِي تَعَطُّفَ أَرْقَمٍ ... فَطُعْمُكَ مِنْ لَحْمِي وَشُرْبُكَ مِنْ دَمِي
وَلَوْنُــكَ مُسْـوَدٌّ كَيَـوْمِ فِرَاقِنَا ... وَجِـرْمُكَ مُشْـتَدٌّ كَصَـخْرٍ مُلَمْلَمِ
لَكَ الوَيْلُ إنِّي قَدْ حَسِبْتُكَ حَاصِرًا ... لِسَـاقِي وَمُفْنٍ لَوْنَ جِلْدِي وَأَعْظُمِي
سَأَشْـكُو إلى مَوْلايَ مَا أنَا وَاجِدٌ ... فَمَـا زَالَ مَـنَّانًا كَـثِيرَ الـتَّرَحُّمِ

قال : فلما جاء وقت ارتحالهم ونظر يوسفُ إلى الجمال شدوا عليها الرحال بكى ، فقال التاجرُ : من الباكي عند مسيرنا ؟ فقالوا له : الغلام العبراني ، قال : عليَّ به ، فأوقفوه بين يديه ، فقال : يا غلام ، ما لكَ ؟ قال : أريد أن أصلَ إلى مواليَّ الذين باعوني ، فأسلِّم عليهم سلامَ مَنْ لا يرجعُ إليهم ، فقال التاجر لأسود قد وكله التاجر بحفظه : يا غلام ، اذهب بهذا إلى مواليه ليودعهم ، فما رأيت غلاماً أبرَّ منه بمواليه ، ولا قوماً أجفى منهم له ، وقيل في المعنى :

تَنَفَّسْــتُ الْغَـدَاةَ وَقَدْ تَوَلَّوْا ... وَعِيسُهُمُ مُعَارِضَةُ الطَّرِيقِ
فَصَاحُوا بِالْحَرِيقِ فَظَلْتُ أَبْكِي ... فَصَاحُوا بِالْحَرِيقِ وَبِالْغَرِيقِ

ثم قال التاجر للأسود : إذا فرغ من وداعهم فألحقه بالقافلة ، فتقدم الأسود بيوسف عليه السلام يقوده بسلسلة ، وكانت الليالي بين أولاد يعقوب نوبًا يحرس كل واحد منهم ليلة ، ويذود السباع عن أغنامهم ، وكانت تلك الليلة ليلة يهودا ، فلما سمع صلصلة الحديد تقدم فإذا هو بيوسف يعثر في قيده وسلسلته ، فانكب عليه يبكي ويقول : عز عليَّ مسيركَ هذا فلماذا جئتَ ؟ قال : أتيتُ لأودعكم وأسلم عليكم سلام مَنْ لا يرجو أن يراكم أبداً ، فصاح يهودا لإخوته وقال : قوموا إلى مَنْ أتاكم مقيداً ليسلمَ عليكم سلام مَنْ لا يرجو أن يراكم أبداً ، فويلٌ لكم من هذا الوداع ،

فأقبلوا ، فجعل يوسف ينكب على كل واحد منهم ويقبله ويعانقه بيده وصدره ويقول : حفظكم الله وإن ضيعتموني ، آواكم الله وإن طردتموني ، رحمكم الله وإن لم ترحموني ، قال : فألقت الأغنام الحوامل ما في بطونها من هول ذلك التوديع ، وقيل في المعنى تخميساً :

وَالدَّمْعُ مُزْنٌ وَالضُّلُوعُ جَحِيمُ ... الشَّوْقُ خِدْنٌ وَالْغَرَامُ نَدِيمُ
أَزِفَ الْفِرَاقُ وَفِي الْفُؤَادِ كُلُومُ ... سَبَقَ الْقَضَاءُ فَمَنْ عَلَيْهِ أَلُومُ
وَدَنَا التَّرَحُّلُ وَالْحِمَامُ يَحُومُ
جِسْمِي مَعِي وَالْقَلْبُ أَضْحَى عِنْدَهُمْ ... عَجَبًا لَهُمْ صَارَ التَّفَرُّقُ قَصْدَهُمْ
قُلْ لِلأَحِبَّةِ : كَيْفَ أَبْقَى بَعْدَهُمْ ... نَادَيْتُهُمْ أَشْكُو إِلَيْهِمْ بُعْدَهُمْ
وَأَنَا الْمُسَافِرُ وَالْفُؤَادُ مُقِيمُ
وَحَكَتْ جُفُونِي بِالْبُكَاءِ سَحَابَةً ... بُدِّلْتُ مِنْ بَعْدِ السُّرُورِ كَآبَةً
قَالُوا : الْوَدَاعُ يَهِيجُ مِنْكَ صَبَابَةً ... وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْوَدَاعِ صُبَابَةً
وَيُثِيرُ مَا هُوَ فِي الْحَشَا مَكْتُومُ
وَسَقَوْا مُعَنَّاهُمْ بِكَأْسٍ مُرَّةٍ ... حَمَلُوا الْبُدُورَ عَلَى الْخُدُورِ بِسُحْرَةٍ
قُلْتُ : اسْمَحُوا لِيَ أَنْ أَفُوزَ بِنَظْرَةٍ ... فَنَشَدْتُهُمْ وَأَنَا مُصَعِّدُ زَفْرَةٍ
وَدَعُوا الْقِيَامَةَ بَعْدَ ذَاكَ تَقُومُ

قال : فاحتمله الأسود على ظهر بعير بلا غطاء ولا وطاء حتى ألحقه بالقافلة ، قال : فمر به على قبر أمه راحيل ، وكانت بمقابر آل كنعان ، فلما أبصر القبر لم يملك نفسه من كثرة الشوق أن رمى نفسه على قبر أمه ، فاعتنقه وجعل يبكي ويضطرب ، ويقول : يا أماه ، ارفعي رأسك من التراب تريْ ولدك مقيداً مغلولاً ، يا أماه إخوتي في الجُبِّ طرحوني ، وعن أبي فرقوني ، وبأبخس الأثمان باعوني ، ولم يرقُّوا لصغر سني ، ولم يرحموني ، وأنا أسأل الله أن يجمع بيني وبين والدي في مستقر رحمته ، إنه أرحم الراحمين ، وقيل في المعنى :

أَيَـا أُمَّـاهُ لَوْ أَبْصَرْتِ ذُلِّي وَمَـا أَلْقَـاهُ مِنْ قَيْدِي وَغُلِّي
وَبَيْعِي كَالْعَبِيدِ وَكُنْتُ حُرًّا وَحَمْـلِي كَالأَسِيرِ بِغَيْرِ مَهْلِ
وَمَا فِي إِخْوَتِي لِيَ مِنْ رَحِيمٍ لَقَدْ قَطَعُوا عُرَى رَحِمِي وَحَبْلِي
وَأَعْـلَمُ أَنَّ وَالِدَنَـا لِهَـذَا رَهِـينُ إِسَـاءَةٍ وَحَزِينُ وَيْلِ
فَيَا مَوْلايَ فَرِّجْ كَرْبَ عَبْدٍ يُؤَمِّـلُ مِـنْكَ فِي عَقْدٍ وَحَلِّ
بِنَائِلِكَ الذِي مَا زَالَ يُرْجَى وَعَفْـوًا شَامِلاً عَنْ قُبْحِ فِعْلِي

قال : فالتفت الأسود إلى البعير فلم يجده وكان يقوده فرجع يقفو أثره ، فإذا به على قبر أمه راحيل يبكي ، فقال : والله ، لقد صدق مواليكَ ، إنك لص آبق ، تدعو أمك مرة ، وأباك مرة أخرى ، هلا كان ذلكَ وأنت بينهم ؟ ثم لطمه لطمة شديدة في حر وجهه ، فتعفر وجهه في التراب ، فغُشي عليه ثم أفاق ، وقال : لا تؤاخذْ عليَّ ، فإني لما مررتُ بقبر أمي لم أتمالك أن رميتُ نفسي كما ترى ، ولا أعود إلى ما تكرهونه إن شاء الله ، ثم رفع طَرْفَه إلى السماء وقد تمرغ بالدموع والتراب وجهُه ، فقال : اللهم ، إن كانت لى خطيئةٌ أخلقتْ وجهي عندكَ ، فأسألك بحق آبائي الكرام إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أن تعفوَ عني وترحمني وتغفر لي يا أرحم الراحمين ، فضجت الملائكة إلى الله تعالى ضجيجاً بلغ العرش ، فقال الله تعالى : يا ملائكتي ، هو نبيي وابن أنبيائي ، وقد استغاث بي وأنا مُغيثه وغياث المستغيثين ، يا جبريل ، أدركه فترل جبريل ، وقال : إن الله تعالى يُقرئك السلام ويقول لك : يا صدِّيقُ ، مهلاً فقد أبكيتَ ملائكة السبع سموات ، أتريد أن أقلب السماء على الأرض ، فقال : لا يا جبريل ، ارفق بخلق الله ، فإنه حليم لا يعجل ، فضرب جبريلُ الأرضَ بجناحه ، وجعل يضرب بأجنحته بعضها على بعض ، ففي الساعة هبت ريحٌ حمراءُ ، وكسفت الشمس ، وأظلمت الغبراء ، وصار النهار ليلاً ، وانسدلت الظلمة ، فلم ير أهل القافلة بعضهم بعضاً ، فقال رئيس القافلة : انزلوا قبل أن تهلكوا يا قوم ، لي منذ كذا وكذا سنة أمرُّ بهذا الطريق فما رأيتُ كاليوم ، فمن أصاب منكم ذنباً فليتب منه ، فما أصابنا ما أصابنا إلا بذنب اقترفناه ، فتقدم إليه الأسود وقال : يا سيدي ، الذنب مني ، ضربتُ عبدكَ

العبرانيَّ ؛ لأنني لم أجده على البعير ، فرأيتُه قد رفع عينيه إلى السماء وحرك شفتيه ، فقال رئيس القافلة : ويحكَ ، أهلكتنا وأهلكتَ نفسكَ ، ثم تقدم إليه التاجر ، وقال : يا غلام ، لقد ظلمناكَ إذ ضربناكَ ، فإن شئتَ أن تقتصَّ منا فها نحن بين يديك[1] ، فقال : ما أنا من قوم إذا ظُلموا يقتصون ، إنما أنا من قوم إذا ظُلموا عفوا وغفورا ، ولقد عفوتُ عنكم رجاءَ أن يعفوَ الله عني ، فانجلت الظلمة ، وسكنتْ الريح ، وعاد الوقت كما كان ، وأشرقت الشمس ، فأضاءت مشارق الأرض ومغاربها[2] ، وقيل في المعنى :

أَخذَ الْوَلِيُّ بِثَأْرِ مَظْلُومٍ دَعَا ... وَأَتَى الْعَذَابُ إِلَى الْجَمِيعِ وَأَسْرَعَا
وَبَكَتْ مَلائكَةُ السَّمَاءِ لأَجْلِهِ ... طُرًّا وَأَجْرَتْ لِلصَّبَابَةِ أَدْمُعَا
وَأَتَاهُ جِبْرِيلُ الأَمِينُ وَقَالَ : مَهْ ... أَتُرِيدُ قَلْبَ الْعُلْوِ وَالسُّفْلِي مَعَا
فَأَجَابَهُ مَهْلاً عَلَى مَنْ قَدْ عَصَى ... فَلَعَلَّ عَفْوَ اللَّهِ يَأْتِي مُسْرِعَا
هَذِى شَمَائِلُ مَنْ رضاه إِلَهَهُ ... يَهَبُ الْجَرِيمَةَ مَنْ أَتَى مُتَضَرِّعَا

إخواني : السفر مكتوب علينا فما لنا نطلب الإقامة بدار ليست إلينا ، السنون منازل ، والشهور مراحل ، والأيام أميال ، والأنفاس خطوات ، والمعاصي قُطَّاع الطريق ، والربح الجنة ، والخسران النار ، خلقنا نتقلب في ستة أسفار إلى أن يستقر بنا المترل :

فالسفر الأول : سفر السُّلالة من الطين إلى الصُّلب .

والثاني : من الصُّلب إلى الرحم .

والثالث : من الرحم إلى ظهر الأرض .

والرابع : من ظهر الأرض إلى القبر .

---

(١) وهذه القصة ذكرها الإمام الآلوسي في تفسيره ، وفيها من الغرابة ما يؤكد أنها من الإسرائيليات .

(٢) ذُكرت هذه القصة في روح المعاني (١٢ / ٣٠٩ – ٣١٠) من أول قوله : ما أنا من قوم إذا ظُلموا يقتصون ... إلخ .

والخامس : من القبر إلى موقف العرض .

والسادس : من موقف العرض إلى دار الإقامة ، فإما إلى الجنة وإما إلى النار ، وقد قطعنا نصف الطريق وبقي الأصعب ، ولهذا الخَطْب شمر المتقون عن ساق الجدِّ في سوق المعاملة ، كلما مر مركب الحياة يخطرُ في بحر العمر ، شغلهم هول ما هم فيه عن التنزه في عجائب البحر ، فلم يكن إلا القليل حتى قدموا من سهر السفر واعتنقتهم الراحة في طريق التلقي ، فدخلوا بلاد الوصل وقد حازوا عز الدهر ، خذ حديث القوم جملة واقنع بالعنوان .

عُوتب بعضُهم في إمساك العصا ، فقال :

وَلَمْ يُمْسِكِ الْكَفُّ الْعَصَا عَنْ مَهَانَةٍ ... وَلا لاعْتِلالٍ نَالَنِي لا وَلا قِصَرْ
وَلَكِنَّنِي فِي حَقِّ نَفْسي مَلَكْتُهَا ... لأُعْلِمَهَا أَنَّ الْمُقِيمَ عَلَى سَفَرْ

الدنيا بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، والناس فيها على طبقات : فقوم غرقى وهم العوامُّ ، وقوم في السفن وهم العلماء ، وقوم على الشط وهم الزهاد ، نفسُكَ على الحقيقة هي السفينة ، وهي (بما كسبت رهينة) ، أحضرْ قلبكَ لديكَ لأقصَّ كلام أهل المعرفة عليكَ ، يا رئيس السياسة ، إذا وليتَ فلكَ الرياسة ، واستويتَ على سرير سير التدبير في فراسة الضمير ، فافتقدت قرابيسَ الأقدار وطوارمَ الأطوار وصواريَ الاغترار وتوليسَ الاختيار ومراسي الأسرار وأنكلية ترك الإنكار التي هي مجمع لمياه بحار الأقدار ، وخُذْ من سوسن الوسن ، وقلفط خروق الفتن بكتاب الكتمان وقار الوقار ومسمار المسامرة وقادوم تقدم المشاورة وقدم عشاري الانتعاش بين يدي سفينة تدبيرك إذا عاد البحر كالفراش ، وخط بإبرة الارتباط ، وخيوط الاختياط ما انفتق من أوصال طباع عقالك ، وأبرم حبال ترك احتيالك بيد الخروج من أحوالك ، واشتر مسمار مسامرتك من آكام إرادتك ، فإذا تقوى نسيم الأنين نفس المسكين ، وإذا هبت رياح الشرق نفس البرق ، وإذا كثرت رياح الإشارة حل عن نفس الإبارة ، وإذا دامت رياح الاستدلال ، ثبتت الحبال ، وإذا اختلف عليك في ذلك المحال ثبتت الأوصال ، وإذا تزعزعت الأركان دبر السكان ، وإذا خفت عليك المجاري حمل العشاري ، وإذا غابت عنك الدراري حط السواري ، وإذا هالت عليك البحار شد

الإزار ، واصطحب الزوار بقلة الأوزار ، وإذا تفتحت أوصال الفلك فأبشر بالهلك ، وإذا حملت ثقل الصرمات فقل ما يقال في الصدمات ؛ فأنت الرئيس وإن حفظت ما أوصيتكَ على الحقيقة ، وفي تدبيركَ يجب الحج على أهل الطريقة إذا بان لك منار الأنوار ، ومرسى الأسرار ، ومعالم المجاهدات ، وبر المبرات ، ومصر المصرات ، وإسكندرية المكاشفات ، وكعبة المشاهدات ، وقصر القصور المشرفات ، وركبت قلزم لزوم الواجبات ، ونزلت بجُدة الوجد عشية الوفاء بالعهد ، فشُدَّ الإزار ، واصحب الزوار بقلة الأوزار ، والبس إحرام قطع الحرام وحطَّ الذنوب العظام بتلك المشاهد العظام ، وادْخُلْ بإخوان الصفا عند الصفا ، واصدقْ في النجوى عند التضرع والشكوى ، وشُدَّ مقام القوام بوصايا الأقوام ، وطُفْ ببيت الألطاف ، وقف بعربات الاعتراف ، واعرِفْ من المشاهد في تلك المشاهد ، ومن المعاهد في تلك المعاهد ، فإذا رجعْتَ قافلاً ، وأصبحتَ في أثواب القبول رافلاً ، وجئتَ من مشرق اقترابكَ إلى مغرب اغترابكَ ، فاحملْ إلى إخوانكَ من كتاب كتمانكَ وماء ورد ائتمانكَ ، ولكَ توكُلُكَ ، ومندلُ تدلُلُكَ ، وعنبر عبارتكَ ، وشراب إشارتكَ ، وكتم أماراتكَ ، وكافور كفارتكَ وعود سعادتكَ ، وسكر شكر عبادتكَ ، وسنبل لطائفكَ ، وقرفة وظائفكَ ، فهذه سلع مشرق الإشراق اللائقة بمغرب الأشواق ، فما أحوجكَ إلى هذا الحج ، وما أغفلك عن هذا الفج ، وما أعماكَ عن هذه الدفائن ، وما أجهلكَ بهذه السفائن ، وما أقلَّ أموالكَ في هذه الخزائن ! سفينتك اعتقادكَ ، وسلعك اجتهادكَ ، ورئيسها عقلكَ ، ومرساها فعلُكَ ، وصاريها سرُّكَ ، وانكليتها صدركَ ، ومسينها إمساككَ ، ودفوفها إدراكك ، ورياحها نشاطكَ ، وحبالها ارتباطكَ ، وطريقها صراطكَ ، وسبب نجاتها رباطكَ ، وطريق هلاكها انبساطكَ ، وعشاريها إشارتكَ ، وقرونها شهادتكَ ، وأياديها براءتكَ ، والعمالُ فيها خطراتكَ ، والمقدمون عليها نظراؤكَ ، وسيمتها دينكَ ، وقرينها يقينكَ ، وقطونها قلبكَ ، وشراعها شوقكَ ، فإذا سلم الاعتقاد من الشك ، والسلامة من الإفك ، والرئيس من الفتور ، والمرسى من الهدور ، والصارى من الاصطرار ،والانكلية من الحقد ، والمسين من البؤس ، والدفوف من البلادة ، والرياح من الحبال ، والحبال من الاختبال ، والطريق من العدو ، والبحار من الأمن ، والأعراض والعشاري من الالتفات إلى الأغيار ،

والقرون من الغفلة ، والإبارة من نفس العبارة ، والعمال من العجب ، والمقدمون من النوم ، والسمار من غيم الشهوات ، والسمية من خبث الطوية ، والقرية من سوس سوء النية ، والقطوفونات من الكذب ، والشراع من شرك القصد ، فأبشر بنيل الوطر وتمام السفر ، فهناك تبين المعاهد للمعاهد ، وتظهر المشاهد للمشاهد ، وتلوح المنازل للنازل ، ويطيب الورد ويدوم السعد ، وتنفد السلاع ويرتفع النزاع ، ويعظم قدر العقود بنية نيل لمقصود ، فإذا كانت الشروط مختلفة والعقود منحلة ، فأقرب ما لهذه السفينة أن تتكسر برياح (لا يكلمهم الله) في بحار (ولا يزكيهم) في أمواج (ولا ينظر إليهم) في قيود (ولهم عذاب أليم) ، فاستيقظ من نوم اغترارك إن أردت الفوز بأوطارك ، وإن شئتَ ظهور آثارك ، فلا تغفُلْ عن إيثارك ، وإن رُمْتَ الحلول بدارِكَ فدارِكْ ، وإن شئتَ السفر في هذه السفائن ، فاسترزقِ اللهَ مما في هذه الخزائن ، وقيل في المعنى :

رَكِبَ الْمُحِبُّ إِلَى الْحَبِيبِ سَفِينَةً ... تَجْرِي مِنَ الْخَطَرَاتِ فِي أَمْوَاجِ
فِـــي سِـــرِّ سِرِّ السِّرِّ سِرًّا أَقْلَعَتْ ... فِي جُـنْحِ ليـلٍ مُدْلَهِمٍّ داجي
فِيهَـــا أُنَـــاسٌ طُهِّـــرَتْ أَسْرَارُهُمْ ... وَحُــبُوا بِقُــرْبٍ لَيْسَ ذَا إِدْلاجِ
نَظَـــرَتْ قُـــلُوبُهُمُ إِلَـــى مَوْلاهُمُ ... بِالــنُّورِ يُمْسِـــكُهَا بِغَيْرِ سِرَاجِ
وَسُقُوا مِنَ الصَّافِي الرَّحِيقِ مُدَامَةً ... مِـــنْ دُونِ كَـأْسٍ لا وَلا إِمْزَاجِ
يَـــا حُسْــنَهَا تَجْــرِي بِهِ مُتَفَرِّغًا ... بِهُمُومِـــهِ فِـــي جُنْحِ لَيْلٍ دَاجِي
فَالْقَـــلْبُ مِشْـــكَاةٌ وَفِيهِ زُجَاجَةٌ ... قَـــدْ عُـــلِّقَتْ بِسَلاسِلِ الْمِنْهَاجِ
مُـــتَوَقِّدٌ بِالـــنُّورِ مِـــنْ زَيْـــتُونَةٍ ... فَـــاقَتْ بِبَهْجَـــتِهَا لِكُلِّ سِرَاجِ
هَيْهَـــاتَ إِنَّـــكَ مِنْهُمُ يَا ذَا الْوَفَا ... لَيْـــسَ الْغِنَى هَيْهَاتَ كَالْمُحْتَاجِ

(حكاية) قال بعض السادة : بينما أنا أطوف بالكعبة في ليلة مظلمة إذ سمعتُ صوت حنين ينطق من قلب حزين وهو يقول : يا كريم ، لطفَكَ القديمَ ، إن قلبي على العهد مقيم . قال : فتطاير قلبي لسماع ذلك الصوت تطايراً أشرفت منه على الموت ، فقصدتُ نحوه فإذا هي امرأة ، فقلتُ : السلام عليكِ يا أَمَةَ اللهِ ، فقالت :

وعليكَ السلامُ يا عبد الله ، فقلتُ : أسألك بالله العظيم ما العهد القديم الذي قلبك عليه مقيم ؟ فقالت : لولا قسمُكَ بالجبار لما أطلعتكَ على الأسرار ، انظر إلى هذا الصبي النائم بين يديَّ ، فإذا صبيٌّ يغطُّ في نومه ، قالت : خرجتُ وأنا حاملة به لأحج هذ البيت ، فركبتُ البحر في سفينة فهاجت الأمواج علينا واختلفت الرياح وتكسرت السفينة ، فنجوتُ على لوح منها ، فوضعتُ هذا الصبي وأنا على ذلك اللوح ، فبينما أنا به في حجري والأمواج تضربني ، وإذا بملاح من خَدَمة السفينة قد وصل إليَّ وحصل معي على ذلك اللوح ، وقال لي : ما زلتُ أهواكِ وأنا في السفينة وقد حصلتُ معكِ ، فمكنيني من نفسكِ وإلا رميتُكِ عن هذا اللوح ، فقلتُ له : ويحكَ ، أما كان لكَ فيما رأيتَ تذكرَة ومعتبَر ، فقال لي : قد رأيتُ مثل هذا مراراً ولا أبالي ، ثم ألح عليَّ فخفتُ منه ، وأردتُ أن أصادمه ، فقلت : مهلاً حتى ينامَ هذا الصبي ، فأخذه من حجري ورماه في البحر ، فلما رأيتُ جراءته وما فعل بالصبي طار قلبي وزاد كربي ، فرفعت بصري إلى السماء وقلت : اللهم ، يا مَن يحولُ بين المرء وقلبه ، اللهم ، حُلْ بيني وبين هذا الشيطان ، فوعزته ، ما فرَغتُ من الكلام إلا ودابَّةٌ قد خرجت من البحر فاختطفته ، فبقيت وحدي وزاد إشفاقي على الصبي ووجدي ، وقيل في المعنى :

قُرَّةُ الْعَيْنِ حَبِيبِي وَلَدِي ... ضَاعَ مِنْهُ لِلتَّنَائِي جَلَدِي
إِنْ يَكُنْ جِسْمِي غَرِيقًا فَلَقَدْ ... صِرْتُ أَشْكُو بِاحْتِرَاقِ الْكَبِدِ
يَا إِلَهِي قَدْ تَرَى مَا حَلَّ بِي ... مِنْ غَرَامِي بِفِرَاقِ الْوَلَدِ
فَاجْمَعِ الشَّمْلَ وَكُنْ لِي رَاحِمًا ... فَرَجَائِي فِيكَ أَقْوَى عُدَدِي

قالت : فبقيتُ يومي ذلكَ إلى الليل ، فلما أصبح الصباح عليَّ إذا بقلاع بيض تلوح في البحر فما زالت الأمواج تقذفه والرياح تسوقه حتى وصلت السفينة إليَّ ، فأخذوني عن اللوح ووضعوني بينهم ، فنظرتُ فإذا الصبيُّ بينهم فتراميتُ عليه وقلت : يا قوم ، من أين لكم هذا الصبي ؟ فقالوا : بينما نحن نسير إذ حبست السفينة بنا فنظرنا فإذا دابَّةٌ كأنها مدينة عظيمة وعلى ظهرها هذا الصبي يمصُّ إبهامه ، فحدثتُهم بقصتي ، وشكرتُ ربي على ما أولاني ، وعاهدتُه أن لا أبرحَ عن بيته ، ولا أنثني عن خدمته ، وما سألته بعد ذلك شيئاً إلا أعطاني ، قال : فمددتُ

يدي إلى نفقة أعطيها ، فقالت : إليكَ عني ، يا بطالُ أحدثُكَ بأفضاله وكريم فعاله ، وآخذ الدراهم على يد غيره ؟ قال : فلما لم أقدر على أن تأخذ مني شيئاً تركتُها وانصرفتُ وأنا أُنشد هذه الأبيات :

وَكَــمْ لِــلَّه مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ   يَدِقُّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ
وَكَــمْ عُسْرٍ أَعَادَهُ اللَّهُ يُسْرًا   وَفَرَّجَ لَوْعَةَ الْقَلْبِ الشَّجِيِّ
وَكَــمْ هَــمٍّ تُعَانِيه صَبَاحًا   وَتُعْقِــبُهُ الْمَسَــرَّةُ بِالْعَشِيِّ
إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الأَسْبَابُ يَوْمًا   فَــثِقْ بِالْوَاحِدِ الصَّمَدِ الْعَلِيِّ

تاب الله علينا وهدانا وعصمنا ووقانا وأصلح لنا ديننا ودنيانا ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

المجلس الخامس

في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

الحمد لله الذي عَرَّفَ بعَرْف مندل رياح الروح قلوب المحزونين ، ونفس بأنامل التأمل في أسرار الألطاف خناق المكروبين ، وقرَّب الإجابة بوجيب لواعج الأوصاب في ساعة الاضطراب فأجاب دعوة المضطرين ، وأطلع غرر البراهين في أطباق آفاق الدلائل بسر تبيان البيان آيات للمعتبرين ، حامل السموات على كف كُنَّ بلا عمد من تحتها ولا علائق من فوقها ، وممسكها بلا ظهير ولا معين ، ورصَّعها بدرر الدراري ويواقيت الأنوار آيات للناظرين ، فلما نظر والرسوم رقوم رجوم النجوم فكوا رموز الأسرار من تلك الأسطار المرموزات ، ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر : ١٦] ، الملك الحي الذي تنزه عن كل شيء ، وتقدَّس عن الصاحب والصاحبة والقرين ، العزيز الجبار الذي قصم عنق كل جبار ، القهار الذي أعجز كل قهار ، القادر الذي أعجز كل قادر ، الظاهر الذي لا يخفى عليه باطن ولا ظاهر ، الشهيد الذي لا يغيب عنه غائب ولا حاضر ، المعين الذي لا يستظهر بمعين ، السميع الذي يسمع حنين ترنين البعوضة ولا يخفى عليه فَرِحٌ ولا حزين ، البصير الذي يبصر دبيب النمل على كثبان الرمل تحت حلك فلك الليل وهي تعلن بالتسبيح وترجِّع بالتلحين ، يغضب إذا ترك العبد سؤاله ، ويهبه إحسانه ونواله ، كما قال وهو أصدق القائلين : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] ، أحمده حمد صَبٍّ حزين ، وأسأله سؤال مستعطف مهين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ مسكين مستكين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين وإمام المتقين ، صلى الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين صلاةً تدوم وتقوم إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل في المعنى :

صَـــبٌّ بِــبَابِكَ وَاقِـــفٌ يَتمَــلْمَلُ ... أَضْـلاعُهُ خَوْفَ الْقَطِيعَةِ تُشْعَلُ

قَـــدْ كَـــادَ يَذْهَـــبُ فِيكَ لَوْلا أَنَّهُ ... بِنَسِـيمِ رُوحِ وِصَـــالِكُمْ يَتَعَلَّلُ

عَــذُبَ الْعَــذَابُ لَهُ فَلَيْسَ يُحِسُّهُ ... فَالْفَقْدُ وَجْدٌ وَالْمَصَاعِبُ تَسْهُلُ
مَــا ضَــرَّهُ مَــنْ كُنْتَ غَايَةَ قَصْدِهِ ... مَــاذَا يُلاقِــي فِيكَ أَوْ يَتَحَمَّلُ
أُفٍّ لِــذِي وُدٍّ يُذِيــعُ بِــوُدِّهِ ... وَيُضِــيعُ وُدَّكَ دَائِمًــا وَيُؤَمِّــلُ
أَحَــدًا سِــوَاكَ وَكُلُّ شَيْءٍ ذَاهِبٌ ... وَلَــكَ الْبَقَاءُ وَأَنْتَ أَنْتَ الأَوَّلُ
يَــا ظَاهِــرِي يَــا بَاطِنِي يَا حِيلَتِي ... يَــا مَــنْ عَلَيْهِ فِي الأُمُورِ أُعَوِّلُ
مَــا شِــئْتَ فَافْعَلْ أَنْتَ فِيَّ مُحَكَّمٌ ... وَلِسَــانُ حَالِي فِي الْهَوَى يَتَمَثَّلُ
أَمُعَذِّبِــي هَــذَا الْحُسَــامُ وَهَــذِهِ ... أَعْضَاءُ جِسْمِي كُلُّهَا لَكَ مِفْصَلُ
فَاضْرِبْ بِهِ حَيْثُ اشْتَهَيْتَ وَلا تَخَفْ ... ثَــأْرِي فَإِنَّكَ عَنْ دَمِي لا تُسْأَلُ
فَلَــرُبَّمَا كَانَــتْ هُــنَاكَ مَنِيَّــتِي ... فَارْتَاحَ جِسْمِي وَاسْتَرَاحَ الْعُذَّلُ

قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر : ٦٠] ، ذكر الله تعالى على سبع طاعات سبع كرامات ، ذكروا في السجود : القربة في قوله تعالى ﴿ **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾ [العلق : ١٩] .

وفي الصيام : التيسير في قوله تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ** ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

وفي الزكاة : الفلاح في قوله تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى** ﴾ [الأعلى : ١٤] .

وفي الحج : الأمن من النار في قوله تعالى : ﴿ **وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً** ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

وفي الجهاد : الجنة في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴾ [التوبة : ١١١] .

وفي الصدقة : التضعيف في قوله تعالى : ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ** ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

وفي الدعاء : الإجابة في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر : ٦٠] .

والناس في الدعاء على خمسة أصناف : فقوم قالوا : الدعاء تحكم ، والتحكم عليه لا يجوز ، وقال آخرون : يدعى بالحمد والثناء ، ولا تذكر له الحوائج ؛ لأنه عالم بها كما قال الخليل ﷺ : حسبي من سؤالي علمه بحالي . وقوم قالوا : لا ندعوه حياء من معصيته ، وقوم قالوا : ندعوه في حال الضرورة ونشكره في حال النعمة . وقوم قالوا : ندعوه في حال الرخاء والشدة والضرورة والنعمة ؛ لأنه أمرنا بذلك ، فقال تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر : ٦٠] ، وفي قوله تعالى :﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر : ٦٠] عشرةُ أقوال :

الأول : ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة .

الثاني : ادعوني بقلوب خالية أستجب لكم بالدرجات العالية .

الثالث : ادعوني بشفاه ذابلة أستجب لكم بكرامات كاملة .

الرابع : ادعوني أستجب لكم في حال الضراء .

الخامس : ادعوني بقلوب صافية أستجب لكم بدوام العافية .

السادس : ادعوني بالقلوب والجوارح أستجب لكم بالنجاة من الحوائج .

السابع : ادعوني بالإخلاص والتقوى أستجب لكم بجنة المأوى .

الثامن : ادعوني بالخوف والرجا أجعل لكم من كل هم فرجاً ومخرجاً .

التاسع : ادعوني بأسمائي الحسنى أستجب لكم ببلوغ المطلب الأسنى .

العاشر : ادعوني في دار الخراب أستجب لكم في دار البقاء والثواب . قيل : فما الحكمة في أن الله تعالى قال : ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر : ٦٠] ونحن ندعوه فلا يستجيب لنا ؟ قالوا : لثلاثة أشياء :

أحدها : ليبقى الرجاء عندنا متصلاً ؛ لأنه إن لم يُعطِ اليوم فقد يُعطي غداً .

الثاني : لو سألته فأعطاكَ مناكَ لم تسألْهُ بعد ذلك .

الثالث : لعلكَ تسأله ما فيه فسادُكَ فيعطيك ما فيه صلاحُكَ .

وفي بعض الكتب : إن الله تبارك وتعالى يقول : يا عبدي ، ادعوني لأسمع دعاءكَ ، فإن كان سؤالكَ صالحاً أعطيتُه لكَ ، وإن كان فساداً صرفتُه عنكَ ، فمنعنا هو العطاء ، وقيل في المعنى :

قِـــفْ عَــلَـى الْـبَــاب قَـلِيلا وَاجْـعَــلِ الـذِّكْـرَ سَـبِيلا
وَالْـتَــزِمْ ذِكْــرِي نَهَارًا وَغُـــدُوًّا وَأَصِـــيلا
هَلْ تَـــرَى أَكْـرَمُ مِـنِّـــي فَـارْضَ بِي عَـبْـدِي وَكِـيـلا
لا وَلا أَوْفَــــى بِـعَـهْــدِي لا وَلا أَقْـــوَم قِــيــلا
بَـــشِّـــرِ الْمُـسْـرِفَ بِالذَّنْبِ إِنَّ لِـــي عَــفْــوًا جَـمِـيــلا
وَأَبَــارِيــقًـــا وَظِـــــلا فِـي الْـفَـرَادِيـسِ ظَـلِـيــلا
أَوْلِــيَـــائِي أَصْــفِــيَـائِي لا تُــرِيـــدُوا بِي بَــدِيــلا
أَخْــلِصُـــوا نِـيَّــاتُـكُــمْ لِي وَاطْـلُـبُـوا مِـنِّي الْـقَـبُـولا
وَاتْـــعَـبُـوا اليومَ قَـــلِـيــلا تَـنْـعَـمُــوا دَهْـرًا طَـويــلا

واعلم أن إجابة الدعاء معجزة الأنبياء وكرامة الأولياء إذا أصابتهم النوازل رفعوا إلى الله المسائل ، فمنحهم الهدى وأراهم الأمل في العدا . « لما أكثرت قريش الأذية لرسول الله ﷺ واستعانوا عليه بالأموال والعدد قال : اللهم أجدب لهم بلادهم ، وأدخل الفقر بيوتهم ، وسلط عليهم سنين كسني يوسف ، اللهم اشدد وطأتكَ على مضر ، فأمسك اللهُ عنهم القطر حتى يبس الشجر وذهب الثمر وماتت المواشي ، فبعثوا زُرارةَ إلى كسرى يستأذنه في رعي إبلهم عنده فرماه بقوسه ، فما زال حالهم على ذلك حتى أكلوا العظام والميتة ، وكان الرجل ينظر إلى السماء فيُحال بينه وبينها بدخان من شدة خلو رأسه وتفرغ أعضائه ، وأكلوا العلهز ، وبعثوا وفدهم إلى رسول الله ﷺ يسألونه بالرحم ، فرحمهم ودعا لهم ، فأرسل الله عليهم المطر ، وأزال الجدب حتى هدمت بيوتهم ، وانقطعت معايشهم ، فشكَوْا إليه ﷺ ذلك ، فدعا الله عز وجل فرفعه عنهم ، ونحر أبو جهل - لعنه الله - يومئذ جزوراً ، ثم أخذ سلاها ، ورسول الله ﷺ ساجد فوضعه بين كتفيه ، فجاءت فاطمة رضي الله عنها بعد ساعة فطرحتْهُ عنه ، فقال عند ذلك : اللهم ، عليكَ بأبي جهل ابن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط ، قال ابن مسعود : فلقد رأيتُهم قتلى في قليب بدر ، وجاء عمر بن وهب ليقتله ، وكان قد استأجره على ذلك صفوانُ بن أمية ، فملأ سيفه سُمًّا ، ثم أتى إلى

المدينة ، فلما أناخ راحلته بباب المسجد ، قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، هذا عدو الله عمر بن وهب ، فقال : دعه يا عمر ، ودخل فقال : انعموا صباحاً ، فقال رسول الله ﷺ : يا عمر ، إن الله تعالى أكرمنا بتحية الإسلام ، ففيم جئت ؟ قال : جئتُ لتفادوني أسرايَ ، ورام أن يضرب رسول الله ﷺ بالسيف فلم يستطع ، فقال رسول الله ﷺ : ويحكَ ، إنما جئتَ لتقتلني ، والله يمنعني منكَ » ، وفي طريق أخرى أن رسول الله ﷺ قال : « ما جاء بكَ يا عمر؟ قال : جئتُ إلى هذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا إليه ، وكان ابنه قد أُسِر في يوم بدر ، قال : فما بالُ سيفكَ في عنقك ، قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : اصدقني ، ما الذي جاء بكَ ؟ قال : ما جئتُ إلا لذلك ، قال : بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلتَ : لولا دينٌ عليَّ وعيال عندي أخاف عليهم الضيعةَ بعدي لخرجتُ إلى محمد لأقتله ، فتحمل صفوان دَيْنَكَ وعيالكَ على أن تقتلني والله حائلٌ بيني وبينكَ ، فقال عمر : أشهد أنكَ رسولُ الله » ، والقصة أطول من هذا . ذكره ابن إسحاق . « وقدم عامر بن الطفيل على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به ، فقال لأربد بن قيس : إذا قدمنا على الرجل ، فإني أشغل وجهه عنكَ ، فإذا فعلتُ ذلك فاعْلُهُ بالسيف ، فلما وقفا على رسول الله ﷺ قال عامر : يا محمد ، حاببني ، قال : لا والله ، حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له ، قال : فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال : والله يا محمد لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً ، فقال رسول الله ﷺ : اللهمَّ ، اكفنا عامرَ بن الطفيل بغدة كغدة البعير ، فأصابه ذلك ، فأوى إلى بيت سلولية ، فصار يقول : أَغُدَّةٌ كغدة البعير ، ومكث في بيت سلولية حتى مات » . ودعا على الأسود بن عبد المطلب ، فقال : اللهم ، أعْمِ بصرَهُ وأثكله إلى ولده ، فكان كما قال . ودعا على أبي نزوان ، وكان راعياً في إبل عمرو بن تميم ، وذلك أن رسول الله ﷺ خاف من قريش مرة فخرج فارًّا يطلب موضعاً يخفي نفسه فيه ، فنظر إلى سواد الإبل فقصدها ودخل بين أرجلها وجلس ، فنفرت الإبل ، فقام أبو نزوان وطاف بإبله فرأى رسول الله ﷺ جالساً فقال له : من أنت ؟ قال : أنا رسول الله ، فقال له : اخرج ، فإنه لن تفلح إبل أنت فيها ، فدعا عليه فقال : اللهم أطل عمره وأكثر فقره فقبل ، ولقد رُؤي بعدُ شيخاً كبيراً فقيراً شقياً يتمنى الموت ، ودعا على أبي قتادة ابن أبي لهب ، وذلك أنه قال لرسول الله ﷺ يوماً : كفرتُ بالذي دنا فتدلى ثم تفل في وجهه ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ، وكان أبو

طالب حاضراً ففزع لها ، وقال : ما كان أغناك عن دعوة ابن أخي ، فرجع إلى أبيه وأخبره بذلك ، قال : وخرجوا إلى الشام تجاراً ، فنزلوا منزلاً من الأرض ، فأشرف عليهم راهب من دير ، وقال لهم : هذه أرض مسبعة ، فقال لهم أبو لهب : يا معشر قريش ، كونوا حولي ، فإني أخاف على ولدي دعوة محمد ، قال : فجمعوا أحمالهم وصفوا جمالهم ثم جعلوا أبا قتادة في أعلاها ، وناموا حوله يحرسونه ، فأرسل الله عليهم النوم ، فما أفاقوا إلا على صياحه من ضربة الأسد ، فضربه ضربة واحدة فقتله » (١) ، وقيل في المعنى :

سَهِرَتْ عُيُونُهُمُ بِدَاجٍ غَاسِقٍ خَوْفًا عَلَيْهِ مِنَ الدُّعَاءِ السَّابِقِ
رَامُوا حِمَايَتَهُ وَظَنُّوا حِفْظَهُ مِنْ غَائِبٍ يَأْتِي لَهُ أَوْ طَارِقِ
فَإِذَا الْقَضَاءُ أَتَى بِضِدِّ مُرَادِهِمْ أَيَرُدُّ مَخْلُوقٌ قَضَاءَ الْخَالِقِ
فَأَصَابَهُمْ يَوْمٌ أَضَلَّ جَمِيعَهُمْ لِيَبِينَ فِي الْمَطْرُودِ صِدْقُ الصَّادِقِ
مَا اسْتَيْقَظُوا إلا لِصَيْحَتِهِ وَقَدْ وَافَتْ مَنِيَّتُهُ كَسَهْمٍ رَاشِقِ
صَلُّوا عَلَى خَيْرِ الأَنَامِ فَإِنَّهَا أَسْنَى الْوَسَائِلِ عِنْدَ رَبٍّ رَازِقِ

وكذلك دعا نبي الله يوسف عليه السلام حين ضربه العبد الأسود ، فأراه الله الاعتناء به ، وأرسل إليه جبريل عليه السلام في تخييره بين هلاكهم والرفق بهم ، فأبى طبعه الكريم إلا الرفق بهم ، وخيره في القصاص أو العفو فاختار العفو ، وكان الجو قد اسود والظلام قد امتد ، فأزال الله عنهم ما نزل بهم ، وأمر التاجر غلامه أن يأتيه بيوسف في كل يوم بالغداة والعشي يزوره ويراه ، فكان يفعل ذلك حتى غاب بيوسف عن التاجر ثلاثة أيام ، فدعا الغلام فسأله عنه ، فأخبره أنه مريض ، فدعا التاجر بيوسف وقال له : ما الذي حدث بكَ حتى حبسك عني ، فقال له : إن القيد قد أضر بي وجرح ساقي والغُل في عنقي ، فقال التاجر : إنما بقيتْ لكَ ليلة واحدة ، وتصبح على مصر ، ونحل عنك قيدكَ وغُلكَ ، وتخرج من العهد الذي كان بيني وبين مواليكَ ، فلما أصبحوا إذا هم على مصر ، فضرب التاجر فسطاطاً على النيل وحل عنه قيوده وأزال غله وقال : يا يوسف ، ادخل النيل واغتسل ، فإني أريد أن أزينك بزينة العبيد ، قال : فدخل النيل واغتسل ، وزالت عنه كآبة السفر ، ورد الله تعالى

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى ٥ / ٢١١.

عليه حسنه وجماله وخرج كالبدر إذا انقشعت عنه السحابة ، أو الشمس إذا زال عنها الغيم ، وقيل في المعنى :

شَخْصٌ يُصَرِّفُ شَكْلَهُ فِي طَرْفِهِ فَسَبَا الْعُقُولَ بِحُسْنِهِ وَبِظَرْفِهِ
فَالشَّمْسُ تَقْبِسُ نُورَهَا مِنْ نُورِهِ وَالْحُورُ تَأْخُذُ وَصْفَهَا مِنْ وَصْفِهِ
جُمِعَتْ مَحَاسِنُهُ بِصَفْحَةِ خَدِّهِ فَجَمَعْنَ أَرْوَاحَ الْعِبَادِ بِكَفِّهِ
حَاشَا حَبِيبِي أَنْ يُشَبَّهُ وَجْهُهُ قمراً يُعاب بنقصه وبكسْفه
جلّت محاسن يوسفٍ وتلاطفتْ فَسَبَا الأَنَامَ بِحُسْنِهِ وَبِلُطْفِهِ
لا صَبْرَ لِي عَنْ أُنْسِهِ وَحَدِيثِهِ وَالإِلْفُ لَيْسَ بِصَابِرٍ عَنْ إِلْفِهِ
إِنِّي أَمُوتُ بِهَجْرِهِ وَبِصَدِّهِ وَكَذَا أَعِيشُ بِوَصْلِهِ وَبِعَطْفِهِ

فألبسه الديباج والحرير ورصع ذوائبه بالدر والياقوت ، وكان ليوسف عليه السلام شَعر ينعقد على جبينه كالخواتيم ، ثم حمله على أحسن بعير ، وأوطأ له أحسن الوطاء ودخل البلد به نهاراً ، وكان نهار غيم فوقع نوره على الجدران والحيطان ، فلما نظر الناس إلى ذلك تخيلوا أن الشمس قد ظهرت ، ثم نظروا إلى الغيم وحجاب السحب ، فقال بعضهم لبعض : ما هذا النور ؟ فقالوا : هو مِنْ وجه غلام قدم به مالك بن دعر الخزاعي ، فتسابقوا إليه وجعلوا يترامون عليه ، فقالوا للتاجر : هذا الغلام إنسي أم جني أم ملَك ؟ قال : هو عبد أريد أن أبيعه في غد على باب الملك الريان بن الوليد ، فتفرقوا عنه وقد أعجبوا من حسنه ، وشاع الخبر في مصر ، ودخل إلى الديار ، ووصل إلى البوادي الغريبة ، فلما كان من الغد ألبسه التاجر قراطق الحرير ، وزينه بأحسن زينة ، وقلده بقلائد العجم ، وأشخصه للناس على باب الملك الريان بن الوليد ، فامتلأت الطرق وضاقت المجانح وحملت الزمنى والمرضى في المحفات ، ولم يبقَ بمصر صغير ولا كبير ولا حر ولا عبد إلا خرج لينظره ، ونودي لا حجاب اليوم على مخدَّرة ، وكانت امرأة العزيز زليخا قد كثر شحمها ولحمها فركبت أفره الدواب ، وخرجت بين الخدم والأتراب ، وقيل في المعنى :

إِلَى حُبِّي مَشَى قَدَمِي أَرَى قَدَمِي أَرَاقَ دَمِي
فَمَا أَنْفَكُّ مِنْ نَدَمِي وَهَانَ دَمِي فَهَا نَدَمِي

فأجلس الصديق على كرسي ، ورفع البرقع عن وجهه ، ونادى الدلالُ : مَن يشتري ويزيد في العبد العاقل اللبيب الجميل الظريف النبيل ، فقال يوسف عليه السلام : لا تقل هذا ، ولكن قل : مَن يشترى العبد الذليل الحقير الغريب الفقير ، وقيل في المعنى :

أَوْقَفَــنِي أَمْــرُكَ يَا سَــيِّــدِي فِي مَــوْقِــفِ الــذُّلِّ وَنَعْتِ الْعَبِيدْ
شَتَّتَ شَمْلِي بَــعْــدَ تَــأْلِــيــفِــهِ صَــيَّــرْتَنِي عَــبْــدًا ذَلِيلا طَرِيدْ
فَــرَّقْــتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الَّــذِي أَصْبَحَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ شَدِيدْ
إِنْ كَانَ يُرْضِيكَ الَّذِي شَفَّنِي فَزِدْ نَعِيمِى فِي عَذَابِي يَزِيدْ
قَــدْ حَــضَــرَ الْــبَــائِعُ وَالْمُشْتَرِي وَالْــعَــبْــدُ مَوْقُوفٌ فَمَاذَا تُرِيدْ ؟

فقال الدلال : إذاً لا تُشترى ، قال : فبلغ وزنه ورِقاً ، ثم زاد فبلغ وزنه ذهباً ، ثم زاد فبلغ وزنه مسكاً وعنبراً ، ثم زاد فبلغ وزنه لؤلؤاً وجوهراً ، ثم بيع بشيء لا يعلم قيمته إلا الله تعالى ، فاشتراه العزيز وهو قهرمان الملك ، وصاحب جيوشه ، والمتولي على خزائنه ، فقال يوسف للدلال : عندما رأى تلك الحالة ، قُل مَن يشتري نبي الله ، صفي الله ، ابن ذبيح[1] الله ، ابن خليل الله ، فلما سمع التاجر مقالته عاد إليه

---

(١) القول بأن إسحاق عليه السلام هو الذبيح من أقوال أهل الكتاب الفاسدة التي أرادوا بها إبطال نبوة سيدنا محمد ﷺ ، وللأسف قد تلقف هذا الكلام منهم بعضُ مَن تكلم في التفسير من أهل العلم مثل : الطبري ، وابن جرير ، والبغوي ، وصاحب الدر ، وقالوا في هذا روايات كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين ، و لم يقفوا عند هذا الحد بل نسبوا بعض الأحاديث إلى الرسول ﷺ .
قال الإمام العلامة الشنقيطي – رحمه الله تعالى – : « اعلم – وفقني الله وإياك – أن القرآن العظيم قد دل في موضعين ، على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق : أحدهما في : (الصافات)، والثاني في (هود) .
أما دلالة آيات الصافات على هذا فواضحة جداً من سياق الآيات ، وإيضاح ذلك أنه تعالى قال عن نبيه إبراهيم : ﴿ **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين ، رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ، سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ** ، =

ووقف بين يديه ، وقال : أعدْ عليَّ كلامكَ ، فأعاده عليه ، فقال : أسألكَ بالله إلا ما عرفتني بجميع أحوالك : مَنْ أنت ؟ وابن مَنْ أنت ؟ وبأي سبب طُرحتَ في الجُبِّ ؟ فقال يوسف عليه السلام : اعلم أني يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله ، وإخوتي حسدوني وطرحوني في الجُبِّ ، وباعوني منكَ ، فلما فرغ من كلامه ، جعل التاجر يبكي ويقبِّل قدميه ، ويقول : العفوَ العفوَ مما كان مني إليك ، فقال : عفا الله عنكَ ، وقيل في المعنى :

إِنِّي وَهَبْتُ لِظَالِمِي ظُلْمِي وَغَفَرْتُ ذَلَّتَهُ عَلى عِلْمِي
وَرَأَيْتُهُ أَسْدَى إِلَيَّ يَدًا لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِه حِلْمِي
مَا زَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحَمُهُ حَتَّى بَكَيْتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

ثم تقدم التاجر إلى العزيز ، وقال له : اردد عليَّ غلامي ، وأردد عليكَ أموالك ، فقال له العزيز : لئن فعلت ذلك لآمرن بالغارة على جميع أموالك ، ولأنكلنك نكالاً تملك به ، فقال التاجر : إذا لم أقدر على رده ، فأنا أقدر على رد ثمنه ، فرد التاجر جميع ما كان أخذه في يوسف إلا القَدْرَ الذي دفعه إلى إخوته ، فقال يوسف

=**كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الصافات:٩٩و١١٠]. قال بعد ذلك عاطفاً على البشارة الأولى : ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [الصافات:١١٢]. فدل ذلك على أن البشارة الأولى شيء غير المبشر به في الثانية ؛ لأنه لا يجوز حمل كتاب الله على أن معناه : فبشرناه بإسحاق ، ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضاً : وبشرناه بإسحاق فهو تكرار لا فائدة فيه يتره عنه كلام الله ، وهو واضح في أن الغلام المبشر به أولاً الذي فُدي بالذبح العظيم ، هو إسماعيل ، وأن البشارة بإسحاق نصَّ الله عليها مستقلة بعد ذلك .

أما الموضع الثاني الدال على ذلك الذي ذكرنا في سورة (هود) ، فهو قوله تعالى : ﴿**وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ**﴾ [هود:٧١]. لأن رسل الله من الملائكة بشرتها بإسحاق ، وأن إسحاق يلد يعقوب ، فكيف يُعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه ، وهو صغير ، وهو عنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب . فهذه الآية — أيضاً — دليل واضح على ما ذكرنا ، فلا ينبغي للمصنف الخلاف في ذلك بعد دلالة هذه الأدلة القرآنية على ذلك . والعلم عند الله تعالى » . انظر الموضوعات والإسرائيليات في كتب التفاسير قديماً وحديثاً ، ص ١٢٧ ، للأستاذ / سعد يوسف محمود ، المكتبة التوفيقية. المصنف ذكر أن إسحاق هو الذبيح في مواضع عديدة من الكتاب ، فانتبه إلى ذلك .

للتاجر : هل لك من حاجة أدعو الله لك في قضائها ؟ قال : نعم يا يوسف ، إن لي اثنتي عشرة جارية لم تلد قط واحدة منهن شيئاً ، وأريد أن تدعوَ الله أن يرزقني غلاماً ذكراً ، قال : فدعا له يوسف عليه السلام بطول العمر وكثرة البنين ، فحَملتْ كل واحدة من جواريه في السنة بولدين توأمين ، فولد له في العام الواحد أربعة وعشرون ولداً ذكراً ، وبارك الله له في أمواله ، ومَنَّ عليه بصلاح أحواله ، وقيل في المعنى :

رَفَــعَ الدُّعَاءَ إِلَى الإِلَهِ الْوَاحِدِ لَمَّــا أَلَــحَّ بِهِ لِسَانُ الْمَاجِدِ
وَبَدَتْ عَلَى مَا قَدْ رَآهُ شَوَاهِدٌ أَنْوَارُهَـــا تَبْدُو لِعَيْنِ مُشَاهِدِ
أَعْطَـاهُ مَوْلاهُ الْبَنِينَ تَفَضُّلاً عِشْـرِينَ وَارْبَعَـةً بِغَيْرِ تَزَايُدِ
فَكَـأَنَّ أَجْمَعَهُمْ لآلِي فُتِّحَتْ أَصْـدَافُهَا عَنْهَا بِوَقْتٍ وَاحِدِ
وَكَأَنَّ وَالِدَهُمْ مَرِيضٌ مُدْنَفٌ زَمِناً وَيُوسُفَ كَالطَّبِيبِ الْعَائِدِ
يَشْفِي السَّقِيمَ بِلا عِلاجٍ ظَاهِرٍ بَلْ كَانَ لَحْظاً مِنْ بَصِيرٍ نَاقِدِ

فقيل ليوسف : إن كنت لا ترضى من ثمنك بهذا المقدار يا يوسف ، هلا ذكرت ذلك في أول الأمر ، ولا أتعبت المشتري كل هذا التعب ؟ فقال : خفت أن يرغب فيَّ كل سفلة ، ولذلك وضع الله الكعبة بين المفاوز حتى لا يصل إليها إلا من سمح بنفسه وماله ، قال : فاحتمله العزيز إلى منزله ، وسُر به سروراً عظيما ، وغبطه به رؤساء مصر وملوكها ، وقالوا : قد ملك العزيز مملوكاً ما ملكه أحد قبل ، فدخل به على زوجته زليخا ، وقال لها : ما أخبر الله عنه (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا) في ضياعنا (أو نتخذه ولداً) ؛ لأنا ليس لنا ولد تقر به أعيننا ، ونجده في وقت كربنا، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾[يوسف:٢١] ، يعني أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ من تَأْوِيلِ الأَحَادِيث ﴾ [يوسف:٢١] ، يعني علم الرؤيا ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ [يوسف:٢١] ، وذلك أن يعقوب عليه السلام قال لابنه : ﴿ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ [يوسف:٥]. فغلب أمر الله عليهم : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ [يوسف:٢١] ، وحذره كيدهم ، فغلب أمر الله فكادوه والله غالب على أمره ، وتشاوروا على أن يطرحوه في الجب ، فيصير منسيًّا ، فغلب أمر

الله فصار مذكوراً ، والله غالب على أمره ، ودبروا أن يترلوه مترلة العبيد ، فغلب أمر الله فترل مترلة الملوك ، والله غالب على أمره ، وظنوا أن يكونوا تائبين من بعده، فغلب أمر الله فلم يكونوا تائبين إلا معه حين قالوا ﴿ **إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ** ﴾ [يوسف: ٩٧]. والله غالب على أمره ، وقالوا ﴿ **يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ** ﴾[يوسف: ٩٠]، فغلب أمر الله فزادوا لغيابه بعداً ، والله غالب على أمره ، وقالوا : نخدع أبانا بالبكاء والقميص ، فغلب أمر الله فلم ينخدع به ، فقال لهم ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً** ﴾[يوسف: ١٨] ، والله غالب على أمره ، ودبروا أن يزيلوا محبته من قلب يعقوب ، فغلب أمر الله ، فزاد حباً ، وصار بعد سبعين سنة يقول : يا أسفا على يوسف ، والله غالب على أمره ، وحرَصتْ زليخا على أن تزيل التهمة عنها بقولها : ﴿ **مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [يوسف: ٢٥] ، فغلب أمر الله ، فشهد شاهد من أهلها ، والله غالب على أمره ، وطمع يوسف في أن يذكره الساقي عند الملك ، فغلب أمر الله ، فنسي إلى أن خلصه الله بمنه وفضله ، ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف :٢١] . يتعلقون بالأسباب دون المسبِّب ، وبالخلائق دون الخالق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أني أنا المنجي ، وأنا المهلك ، وأنا المعز ، وأنا المذل ، وقيل في المعنى :

قَــدَر اللهِ مُحيــط بِالْعِبَاد — مَا لِمَخْلُوقٍ مَعَ الْحَقِّ مُرَادْ
قَــدَرُ الجـبار مــا قــدْ شاءَهُ — قَبْلَ خَلْقِ الأَرْضِ وَالسَّبْعِ الشِّدَادْ
فَهْوَ يَجْرِي شَاءَ عَبْدٌ أَوْ أَبَــى — صَحَّ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ خَيْرِ الْعِبَادْ

قال : فكانت زليخا تلبسه الديباج وقراطق الحرير ، وتوقفه على رأسها ، وتأمره بما تريد من أمرها ، وكان كلما فرغ من خدمتها خرج يتجسس الأخبار ، فبينما هو يمشي ذات يوم في أزقة مصر إذ هو بأعرابي بدوي راكب على قعود له وهو ينشد ويقول :

حَمِدْتُ رَبِّي وَهُوَ الْمَجِيدُ — بِالْخَيْرِ يُبْدِي وَبِهِ يُعِيدُ
لَيْسَ لَهُ ضِدٌّ وَلا عَنِيدُ — يَفْعَلُ فِي الأَشْيَاءِ مَا يُرِيــدُ

فلما سمع يوسف مقالته علم أنه غريب فأقبل عليه وقال : يا أعرابي ، ما سمعتُ بهذا الكلام في هذه البلاد إلا منك كأنك لست منها ، قال الأعرابي : نعم ، لستُ منها، قال : فمِن أين أنت ؟ قال : من وادي كنعان ، قال : من أيها ؟ قال : من وادي الأردن ، قال : من أيها ؟ قال : من مراعي آل يعقوب ، فلما سمع يوسف باسم يعقوب صاح صيحة ، وخر مغشياً عليه ، وقيل في المعنى :

شَوْقِي وَإِنْ بَعُدَ الْمَدَى فَيَطُولُ وَجَوَانِحِي لَكَ مَرْتَعٌ وَمَقِيلُ
وَلَئِنْ نَأَيْتَ عَنِ الْعِيَانِ وَلَحْظِهِ فَلأَنْتَ فِي الْقَلْبِ الْمَشُوقِ تَجُولُ
أَشْتَاقُ لِلذِّكْرَى وَأَصْبُو نَحْوَهَا وَأَصِيحُ مِنْ طَرَبٍ بِهَا وَأَمِيلُ
فَكَأَنَّ أَعْضَائِي نَدَامَى جُمِّعُوا وَكَأَنَّ ذِكْرَهُمُ اللَّذِيذَ شَمُولُ
أَوَ مَا عَلِمْتَ بِأَنْ تَكُونَ مُجَالِسِي وَأَنَا لِمَا أَلْقَاهُ عَنْكَ سَئُولُ
وَأُحِـبُّ عُذَّالِي لِكَثْرَةِ ذِكْرِهِمْ وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يُحَبَّ عَذُولُ

فلما رأى الأعرابي ما ناله رق لحاله ونزل عن قعوده ، وجعل يمسح العرق عن وجهه ، وجعل رأسه في حجره حتى أفاق وقال له : ما بالكَ يا غلام ؟ فقال : ذكرت بلاداً أودعتني وإلى الغربة رمتني ، فلم أتمالكْ أن حل بي ما ترى ، فهل تعرف الشيخ يعقوب ؟ قال : ومَن لا يعرفه وهو نبي الله ابن ذبيح الله ابن خليل الله به نتوسل إلى ربنا وبحرمته نستسقي إلى قحطنا ؟[1] قال : فأسألكَ بالله إلا ما

(١) الولي كل من آمن بالله واتقاه ففعل ما أمره سبحانه به وانتهى عما نهاه عنه ، وعلى رأسهم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال تعالى : ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ** ﴾ [يونس:٦٢و٦٣] ، والتوسل إلى الله بأوليائه أنواع : الأول : أن يطلب الإنسان من الولي الحي أن يدعو الله له بسعة رزق ، أو شفاء من مرض ، أو هداية وتوفيق ونحو ذلك ، فهذا جائز ؛ ومنه طلب بعض الصحابة من النبي ﷺ حينما تأخر عنهم المطر أن يستسقي لهم ، فسأل ﷺ ربه أن يترل المطر ، فاستجاب دعاءه وأنزل عليهم المطر ، ومنه استسقاء الصحابة بالعباس في خلافة عمر ﷺ وطلبهم منه أن يدعو الله بترول المطر فدعا العباس ربه ، وأمن الصحابة على دعائه ، إلى غير هذا مما حصل زمن النبي ﷺ وبعده من طلب مسلم من أخيه المسلم أن يدعوَ له ربه لجلب نفع ، أو كشف ضر . والثاني :أن ينادي الله متوسلاً إليه بحب نبيه واتباعه إياه وبحبه لأولياء الله بأن يقول اللهم =

أخبرتني كيف تركته ؟ قال : تركته وقد انحنى صُلبه ، وتقوس ظهره ، وتضعضع ركنه ، وكابده الشيب قبل أوانه ، وقد ترك أهله ، وهجر أولاده ، وبنى على تل كنعان بيتاً سماه بيتَ الأحزان يبكي فيه وينوح على قرة عين له يُسمى يوسف اختُلس من بين يديه ، وقيل في المعنى :

قَالَتْ لِـــزَائِرِهَا لَمَّــا أَلَــمَّ بِـــهَا : بِاللَّهِ صِفْهُ وَلَا تَنْقُصْ وَلَا تَزِدِ
فَقَـــالَ : خَلَّفْتُهُ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ وَقُلْتِ : قِفْ عَنْ وُرُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدِ
قَالَتْ صَدَقْتَ الْوَفَا فِي الْحُبِّ شِيمَتُهُ يَا بَرْدَ ذَاكَ الَّذِي قَالَتْ عَلَى كَبِدِي

فلما سمع يوسف ذلك زاد بكاؤه ونحيبه ، وعلا عويله ووجيبه ، وقال : يا ليت أمي لم تلدني وليت السباع أكلت لحمي ورَضَّتْ عظمي ، ولا يصيب حبيب قلبي ما أصابه من أجلي ، فرقَّ له الأعرابي ، وجعل يبكي معه ، فقال له يوسف ﷺ : إني محمِّلُكَ رسالةً وهي رسالة الأمانة والبركة والدعوة ، وقيل في المعنى :

بِاللَّهِ عَلَيْكَ يَا فَتَى الأَعْرَابِي إِنْ جُزْتَ عَلَى مَوَاطِنِ الأَحْبَابِ
بَلِّغْ أَشْوَاقِي وَقُلْ لَهُمْ عَمَّا بِي ذَاكَ الضَّنِيُّ يَمُوتُ بِالأَوْصَابِ

= إني أسألكَ بحبي لنبيك واتباعي له وبحبي لأوليائك أن تعطيني كذا ، فهذا جائز ؛ لأنه توسل العبد إلى ربه بعمله الصالح ، ومن هذا ما ثبت من توسل أصحاب الغار الثلاثة بأعمالهم الصالحة . والثالث : أن يسأل الله بجاه أنبيائه ، أو ولي من أوليائه بأن يقول : اللهم ، إني أسألك بجاه نبيك ، أو بجاه الحسين مثلاً ، فهذا لا يجوز ؛ لأن جاه أولياء الله وإن كان عظيماً عند الله وخاصة حبيبنا محمد ﷺ إلا أنه ليس سبباً شرعياً ولا عادياً لاستجابة الدعاء ، ولهذا عدل الصحابة حينما أجدبوا عن التوسل بجاهه ﷺ في دعاء الاستسقاء إلى التوسل بدعاء عمه العباس ، مع أن جاهه ﷺ فوق كل جاه ، ولم يُعرف عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم توسلوا به ﷺ بعد وفاته ، وهم خير القرون وأعرف الناس بحقه وأحبهم إليه . والرابع : أن يسأل العبد ربه حاجته مقسماً بوليه ، أو نبيه ، أو بحق نبيه ، أو أوليائه بأن يقول : « اللهم ، إني أسألك كذا بوليكَ فلان ، أو بحق نبيكَ فلان » ، فهذا لا يجوز ؛ فإن القسم بالمخلوق على المخلوق ممنوع ، وهو على الله الخالق أشد منعاً ، ثم لا حق لمخلوق على الخالق بمجرد طاعته له سبحانه حتى يقسم به على الله ، أو يتوسل به . هذا هو الذي تشهد له الأدلة ، وهو الذي تصان به العقيدة الإسلامية ، وتُسد به ذرائع الشرك . انظر فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١/ ٣٣٤ –٣٣٥). واعلم أنه سيأتي ذكر ذلك كثيراً في مواضع مختلفة من الكتاب فانتبه لذلك جيداً.

فقال الأعرابي : كيف ذلك ؟ قال : أما الأمانة فأن تؤديها إلى آل يعقوب دون أحد من الناس ، وأما البركة فتصيبكَ بركة آل يعقوب ، وأما الدعوة فإني أدعو الله أن يكثر مالكَ وولدكَ ويطيلَ عمركَ ، فقال الأعرابي : فاذكرها إذاً ، فقال يوسف : إذا وصلتَ إلى كنعان وقد سألتُ الله أن يبلغكَ سالماً ، فائت باب يعقوب إذا أتى هدوٌّ من الليل ، وجاء وقت قيام الأنبياء لرب الأرض والسماء ، ثم قف واستمع صوت يعقوب ومناجاته وتسبيحه ودعاءه وبكاءه ، فناد بأعلى صوتك وقل : السلام عليك أيها المكظوم المغموم ، يُقرئ عليك السلامَ المهمومُ المغمومُ الذي بيع بيع العبيد وصُير حيرانَ طريدْ ، ويقول لكَ : إني حرمتُ على نفسي أن أنام على فراش واطئ حتى أراكَ ، وأن أتوسد وساداً حتى ألقاكَ ، فكن أنت كذلك ، وقيل في المعنى :

يَـــا صَاحِ إِنْ جُزْتَ بِوَادِ الأَرَاكْ فَانْشُـــدْ فُؤَادًا ضَاعَ مِنِّي هَنَاكْ
وَقِـــفْ عَلَى الْوَادِي وَلُذْ بِالْحِمَى وَاسْتَنْشِـــقِ الرِّيحَ وَعَجِّلْ سَرَاكْ
وَأَبْـــلِغْ إِلَـــى وَفْدِهِـــمُ قِصَّـــتِي وَقُـــلْ لَـــه : ذَاكَ الْمُعَنَّى فِدَاكْ
حَاشَـــاكَ أَنْ تُخْرِبَ قَلْبَ امْرِئٍ مَـــا حَـــلَّهُ قَطُّ حَبِيبٌ سِوَاكْ
إِنْ يَحْجُبُوا شَخْصَكَ عَنْ نَاظِرِي لِـــي نَاظِرٌ فِي الْقَلْبِ دَأْبًا يَرَاكْ
عَـــذْبٌ بِمَـــا شِـــئْتَ فَـــإِنِّي بِهِ أَرْضَـــى إِذَا كَانَ عَذَابِي رِضَاكْ
وَكُـــلُّ مَـــا يَفْعَـــلُ مِـــنْ ذِلَّـــةٍ مَغْفُـــورَةٌ فِي الْحُبِّ إِلا جَفَاكْ
وَإِنَّـــنِي أَقْـــنَعُ فِـــي غُرْبَـــتِي بِأَنْ أَرَى مَنْ قَدْ رَأَى مَنْ رَآكْ

فقال الأعرابي : سبحان الله ، ومن يطيق أن يؤدي هذه الرسالة ؟ قال : من يريد الأجر والبركة ، فركب الأعرابي قعوده ، ودخل الطريق حتى أتى كنعان ليلاً ، ففرح به أهله فرحاً شديداً ، وحط رحله ، فقال له : انزل واسترح ، فقال : والله لا نزلتُ ، ولا رأيتُ أحداً منكم ، ولا عملتُ عملاً حتى أؤدي رسالة المغموم إلى المكظوم ، ثم أتى البيت فقعد عنده ينتظر الوقت الذي وقّته له يوسف ، فلما سمع حركة الشيخ ونحيبه رفع صوته ونادى : السلام عليكَ أيها المكظوم ، يقرأ عليكَ السلامَ المهمومُ المغمومُ ، وكان ليوسفَ أختٌ من أبيه وأمه ، وقد بنت لها بيتاً بإزاء

بيت أبيها ، وآلت على نفسها أن لا تضحكَ حتى تراه ضاحكاً ، فلما سمعتْ النداءَ أسرعتْ إلى المنادي ، وقالت له : مه يا هذا ، فإني أخشى أن ينفطر قلب الشيخ ، فإن كنتَ حملتَ رسالة فأدها إليَّ أؤدها إليه في حينها ، فقال : والله ، لا أؤديها إليك ، ولا أؤديها إلا لَمَنْ أُرسلتُ بها إليه ، فتقدمتْ إلى الباب وقالت : السلام عليكَ يا أبتِ ، فلما سمع صوتها عرَفها ، فقال : وعليك السلامُ يا بنيةُ ، ما الذي جاء بكِ في هذا الوقت ؟ فقالت : البشارة ، قال : أما المال فلا حاجة لي به ، وأما الأولاد فلا سبيل لي إليهم ، فقالت : بل البشارة بقُرة عينكَ وحبيب قلبكَ ، قال : يوسف ؟! قالت : نعم ، فقام وخرج يسقط مرة ، ويقع أخرى حتى أتى الباب ، وقيل في هذا المعنى :

أَهْلَ وُدِّي وَلَوْ عَلِمْتُمْ بِحَالِي ... لَرَثَيْتُمْ لِغُرْبَتِي وَاعْتِلالِي
مَرَضٌ لازِمٌ وَسُقْمٌ شَدِيدٌ ... حَمَّلانِي مَا لا يُطِيقُ احْتِمَالِي
وَاللَّيَالِي تَجِدُّ فِي نَثْرِ شَمْلِي ... ضَاقَ ذَرْعِي بِحَادِثَاتِ اللَّيَالِي
كُلَّ يَوْمٍ تَغَرُّبٌ وَانْزِعَاجٌ ... لَيْتَ شِعْرِي مَا لِلزَّمَانِ وَمَالِي
إِنْ قَضَى اللَّهُ بَيْنَنَا بِاجْتِمَاعٍ ... بَعْدَ نَأْيٍ فَمَا بِشَيْءٍ أُبَالِي

فوصل باب البيت ، وخر صعقاً ، كأنه ميت ، فلما أفاق أدى الأعرابي الرسالة على نص ما تقدم ، فقال له يعقوب عليه السلام : أيها الأعرابي ، صفه لي ، فقال : يا نبي الله ، قد أراني بنانه وساقيه والشفة التي ظهرت من كثرة تقبيلكَ عليها ، قال : فما بالكَ لا تصف لي الخالَ الذي كان على خده ؟ فقال : يا نبي الله ، قال لي : إذا سألك عن ذلك فقل له : محته الدموع لكثرة بكائه عليكَ ، فقال يعقوب عليه السلام : وأنا أيضاً عيناي قد فقدتهما لكثرة بكائي عليه ، وقيل في المعنى :

لَئِنْ فُقِدَ الْخَالُ الَّذِي كَانَ زِينَةً ... فَمَدْمَعُ عَيْنِي فَوْقَ خَدِّيَ يَنْهَلُّ
وَقَدْ فَقَدَتْ عَيْنِي عَلَيْكَ مِنَ الْبُكَا ... ضِيَاهَا فَعُمْرِي كُلُّهُ بِالأَسَى لَيْلُ
وَأُفْرِدْتُ بَعْدَ الأُنْسِ حَتَّى كَأَنَّنِي ... غُرَابٌ بِغُصْنٍ مَالَهُ فِي الْوَرَى أَهْلُ

ثم قال يعقوب عليه السلام : يا أعرابي ، لا أجد ما أكافئكَ به ، فهل أبصرتَ قُرة عيني بعينكَ ؟ قال نعم ، قال : قدمهما إليَّ لأقبلهما ، فجعل يقبل عيني الأعرابي ويقول :

إن العينين اللتين رأتا وجه حبيبي يوسف لا تمسهما النار ، ثم قال : أيها الأعرابي ، سَلْ ما شئتَ من أمر الدنيا والآخرة أجمعهما لكَ ، فقال : يا نبي الله ، سل الله أن يهونَ عليَّ سكراتِ الموت ، وأن يجعلني رفيقكَ في الجنة ، وأن يكثرَ مالي وولدي ، فإن بني عمي يعيروني بالفقر وقلة الأولاد ، فادعُ الله أن يكثر لي الأولاد ، قال : فرفع يعقوب عليه السلام يديه وقال : اللهم ، إن كنت رحمتَ لي عبرةً ، وأجبتَ لي دعوةً ، فاجعل هذا الأعرابي رفيقي في الجنة ، وهَوِّنْ عليه سكراتِ الموت ، وكثِّر ماله وولده ، وقيل في المعنى :

كَتَبْتُ وَلِي قَلْبٌ إِلَيْكَ يَمِيلُ ... وَدَمْعٌ كَمَا شَاءَ الْغَرَامُ يَسِيلُ
وَإِنْ يَسْأَلُوا عَمَّا أُلاقِي مِنَ الأَسَى ... فَشَرْحُ غَرَامِي وَالْحَدِيثُ يَطُولُ
يُرَوِّعُنِي مَرُّ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى ... وَيَبْهَتُنِي بَيْنٌ عَلَيَّ يَصُولُ
وَأَرْجُو مِنَ الأَيَّامِ تَمْنَحُ وَصْلَكُمْ ... فَتَمْنَعُ عَمَّا رُمْتُهُ وَتَحُولُ
أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إِلَيْكَ مَعَ النَّوَى ... سَبِيلٌ وَهَلْ لِي فِي ذُرَاكَ مَقِيلُ
وَقَدْ ضَعْضَعَ الإِبْعَادُ رُكْنَ تَصَبُّرِي ... عَلَى أَنَّ ظَنِّي بِالْحَبِيبِ جَمِيلُ

إخواني ، إذا انقطعت رسائل المحبين ، ووقع النسيان فاذكروني أذكركم ، لو بعثت الرسائل مع من يريد هل من سائل ، لرجع الرسول إليكَ بقبول الوسائل ، في كل يوم يبعث إليكَ مولاكَ رسالة وأنتَ على أولكَ في الإعراض والبطالة . قيل لأحدهم : أههنا شيء نستأنس به ؟ قال : نعم ، ومد يده إلى كتاب بإزائه ، وقال هذا ، وقيل في المعنى :

وَكُتْبُكَ عِنْدِي لا تُفَارِقُ مَضْجَعِي ... وَفِيهَا شِفَاءٌ لِلَّذِي أَنَا كَاتِمُ

ذكر صاحب كتاب اللؤلؤة يرويه عن أبي عمر بن عبد البر ، قال : إن الله تعالى أنزل كتاباً في صحف إبراهيم عليه السلام فيه مكتوب : من العزيز الحميد إلى من أبق من العبيد ، سلام عليكم ، هذه رسالتي إليكم بما خصصتكم به من نور العلم وذكاء الفهم ، فأول ذلك أني اخترعتُ لكم الحدود ، وأخرجتكم من العدم إلى الوجود ، وأنشأتُ لكم الأبصارَ فأبصرتم ، والأسماعَ فسمعتم ، والألسنَ فنطقتم ، والقلوبَ فعلمتم ، والعقولَ ففهمتم ، وخاطبتكم بألسنة العبر ففهمتم ، وأشهدتكم على أنفسكم بالإقرار لي بالوحدانية فشهد ، ثم بعد الإقبال أدبرتم ، وبعد الإقرار

أنكرتم ، ونقضتم عهدنا وغدرتم ، فلا يوحشكم ذلك منا ، فإنكم إن عدتم عدنا ، وزدنا في الكرم وجُدْنَا ، فمن عثر أَقَلْنا ، ومن انقطع وصلنا ، ومن تاب قبلنا ، ومن نسي ذكرنا ، ومن عصى سترنا ، ومن عمل قليلاً شكرنا ، ونعطي ونمنح ، ونجود ونسمح ، ونعفو ونصفح ، كرمنا مبذول ، وسترنا مسدول ، عبدي ، انظر إلى السماء وارتفاعها ، والشمس وشعاعها ، والنجوم وأنوارها ، والبدور وأسرارها ، والرياح وهبوبها ، والأمطار وسكوبها ، والأضداد واختلافها ، والسحاب وائتلافها ، والرعد وصولته ، والبرق ومخافته ، والبسيطة والفلك ، والنور والحلك ، والليل والنهار ، والمساء والإبكار ، والذباب والأطيار ، والأرض وأقطارها ، والأمواج وبحارها ، والأودية ووضعها ، والعيون ونبعها ، والحيتان وسبحها ، والأزهار ونفحها ، والفصول وأزمانها ، والأوقات وإتيانها ، والأشجار وثمراتها ، والأغصان ونضرتها ، والأنعام ولحومها ، والوحوش وهجومها ، والفواكه ومذاقها ، والكمائم وانشقاقها ، وما هو ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن ، ورطب ويابس ، وواقف وجالس ، ومتحرك وجامد ، ومستيقظ وراكد ، وراكع وساجد ، وما قرب وما بعد ، وما هو بائن وما هو كائن ، وما غاب وما حضر ، وما خفي وما ظهر ؛ الكل يشهد بجلالي ، ويقر بكمالي ، ويسبح بحمدي ، ويشكر إحساني ورفدي ، ويعلن ذكري ، ولا يغفُل عن شكري ، عبدي ، أرأيتَ حين بارزتني بهواك ، واختفيتَ من أصحابك وأخلاك ألم تكن عيني تراك ؟ عبدي ، أذكركَ وتنساني ، وأستركَ ولا ترعاني ، لو أذنتُ للسموات لوقعتْ عليكَ ، ولو أذنتُ للجبال لجاءتْ إليكَ ، ولو استطاعتْ الأرضُ لابتلعتكَ من حينها ، ولو قدرتْ البحار لأغرقتكَ في معينها ، ولكني أحميكَ بقدرتي ، وأمدُّكَ بقوتي ، وأؤخركَ إلى أجل مسمى أجَّلتُه ، ووقت وقَّتُّه ، فلابد لكَ من الورود عليَّ ، والوقوف بين يديَّ ، أعدد عليكَ أعمالكَ ، وأذكركَ أفعالكَ ؛ فإذا أيقنتَ بالبوار ، وقلتَ : لا محالة لابد لي من النار ، أوليتكَ غفراني ، ومنحتُكَ رضواني ، وأحللتكَ دار جنتي وأماني ، وغفرتُ لكَ الذنوبَ والأوزارَ ، وقلتُ : لَا تحزن ، فلأجلكَ سميتُ نفسي الغفارَ ، وقيل في المعنى :

أَتُعْـرِضُ عَـنَّا وَالْجَـنَابُ فَسِيحُ ... وَتَهْــرُبُ مِـــنَّا إِنَّ ذَا لَقَــبِيحُ
وَيَبْدُو لَنَا مِنْ نَحْوِكَ الصَّدُّ وَالْجَفَا ... وَمِــنْ نَحْوِنَـا وُدٌّ إِلَيْكَ صَحِيحُ
وَنَدْعُوكَ لِلْحُسْنَى وَنَمْنَحُكَ الرِّضَا ... وَأَنْــتَ لأَسْـبَابِ الْبِعَادِ طَمُوحُ

وَكَمْ مَرَّةٍ جَاءَتْكَ مِنَّا رَسَائِلٌ وَفِيهَا خِطَابٌ لَوْ سَمِعْتَ فَصِيحُ
فَيَا أَيُّهَا السِّرُّ الْمَصُونُ حِجَابُهُ وَفِيهِ لَنَا سِرٌّ يُصَانُ وَرُوحُ
إِلَيْكَ أَشَرْنَا بِالْوِدَادِ فَكُلَّمَا يُعَدُّ قَبِيحًا فَهْوَ مِنْكَ مَلِيحُ

(حكاية) قال السبتي : قال بعض السادة : كنتُ أسكن بغداد ، وكانت لي بها دويرةٌ خراب احتجتُ لبناء حائط سقط منها ، قال : فجزتُ إلى موقف البنائين لأنظر رجلاً يعمل فيه ، قال : فوقعتْ عيني على شابٍّ نحيف ، ذي وجه نظيف ، فجئتُ إليه ، ووقفتُ عليه ، وقلتُ : حبيبي ، أتريد الخدمة ؟ قال : نعم ، قلت : قم ، قال لي : بشروط أشترطها عليكَ ، قلتُ : حبيبي ، وما هي ؟ قال : الأجرة درهم ودانق ، قلت : نعم ، قال : وإذا أذن المؤذن تتركني حتى أصلي مع الجماعة ، قلت : نعم ، قال : فحملتُه إلى المترل ، فخدم خدمةً لم أرَ مثلها ، وذكرتُ له الغداء ، فقال : لا ، فعلمت أنه صائم ، فلما سمع المؤذن قال لي : الشرط ، قلتُ : نعم ، قال : فخرج ، وحل حزامه ، وتفرغ للوضوء ، وتوضأ وضوءًا ما رأيتُ أحسن منه ، ثم خرج للصلاة ، وصلى مع الجماعة ، ثم عاد فخدم خدمة كثيرة إلى العصر ، فلما سمع أذان العصر قال لي : الشرط ، قلت : نعم ، فحل حزامه ، وخرج ، فصلى مع الجماعة ، ثم عاد إلى خدمته ، فقلتُ : حبيبي ، إنما خدمة البناء إلى العصر ، فقال : سبحان الله ، إنما كانت خدمتي إلى الليل ، قال : فخدم إلى المغرب ، وأعطيته درهمين ، فقال لي : ما هذا ؟ قلت : والله ، بعض أجرتكَ لاجتهادكَ في خدمتي ، فرمى بهما إليَّ ، وقال : لا أزيد على ما كان بيني وبينكَ شيئاً ، فرغَّبْتُه فلم أقدرْ عليه ، فأعطيتُه درهماً ودانقاً ، وسار ، فلما كان من الغد أتيتُ الموقف فلم أجده ، فسألت عنه ، فقيل لي : إنه لا يجيء هنا إلا من السبت إلى السبت ، قال : فتعلقَ به قلبي ، وقلتُ : لا أعمل شيئاً إلى يوم السبت ، فلما كان يوم السبت الثاني أتيتُ الموقف فوجدتُه ، فقلتُ له : باسم الله ، فقال لي : الشرط ، قلت : نعم ، قال : فحملتُه ، فخدم يومه ذلك ، وزاد على ما تقدم ، فلما كان الليل دفعتُ له أجرته ، فأخذها وسار ، فلما كان يوم السبت الثالث ، أتيتُ الموقفَ ، فلم أجده ، فسألتُ عنه ، فقيل لي : إنه مريض في خيمة فلانة ، وكانت المذكورة عجوزاً لها خيمةٌ من قصب بالجبانة ، تشتهر بالصلاح ، قال : فسِرْتُ إلى الخيمة ، ودخلتُ عليه ، فإذا هو مضطجعٌ على الأرض ، وليس تحته

شيء ، وتحت رأسه لبنة ، ووجهه يبدو تهللاً ، فسلمتُ عليه ، فرد عليَّ السلامَ ، وقعدتُ عند رأسه أبكي لغربته ، وصغر سنه ، وما ناله ، ثم قلتُ له : ألكَ حاجة ؟ قال : نعم ، قلتُ : ما هي ؟ قال : إذا كان في غد فتعالَ إليَّ عند الضحى تجدني ميتاً ، فغسِّلْني واحفرْ قبري ، ولا تعلم بذلك أحداً ، وكفنِّي في هذه الجبة التي عليَّ بعد ما تشقُّ جيبها ، وتخرج ما فيه ، وتمسكه عندك ، فإذا صليتَ عليَّ وواريتني في التراب ، تصل إلى هارون الرشيد ، وتدفع له ما تجد في الجيب ، وتقرأ عليه مني السلام ، وقيل في المعنى :

بَلِّغْ أَمَانَةَ مَنْ وَافَتْ مَنِيَّتُهُ إِلَى الرَّشِيدِ فَإِنَّ الأَجْرَ فِي ذَاكَا
وَقُلْ غَرِيبٌ لَهُ شَوْقٌ لِرُؤْيَتِكُمْ عَلَى تَمَادِي الْهَوَى وَالْبُعْدِ لَبَّاكَا
مَا صَدَّهُ عَنْكَ كُرْهٌ لا وَلا مَلَلٌ لأَنَّ قُرْبَتَهُ فِي لَثْمِ يُمْنَاكَا
وَإِنَّمَا أَبْعَدَتْنِي عَنْكَ يَا أَبَتِي نَفْسٌ لَهَا عِفَّةٌ عَنْ نَيْلِ دُنْيَاكَ
إِنْ فَاتَنِي الْجَمْعُ فِي دَارِ الدُّنَا بِكُمُ فَإِنَّنَا نَلْتَقِي فِي يَوْمِ أُخْرَاكَا

قال : فلما كان من الغد ، وصلتُ إلى الخيمة فوجدتُه ميتاً رحمه الله تعالى ، فحفرت قبره بيدي ، وغسلته ، ثم شققتُ الجيبَ الذي للجبة ، فإذا ياقوتة تساوي ألفاً من الدنانير ، فقلتُ : لقد زهد هذا في الدنيا ، قال : ثم دفنتُه ، وصرتُ أترقب خروج هارون الرشيد إلى أن خرج ، فتعرضتُ له ببعض الطريق ، ودفعتُ له الياقوتة ، فلما رآها خر مغشياً عليه ، قال : فاحتوشتني الخدم ، فلما أفاق قال : خلُّوا عنه ، فخلَّوْا سبيلي ، فقال لي بعد ما حملني إلى قصره وأدخلني بيته : يا أخي ، ما فعل صاحب هذه الياقوتة ؟ فقلتُ له : إنه قد ماتَ ، ووصفتُ له حاله ، فجعل الرشيد يبكي ويصيح : فاز الولد ، وخاب الوالد ، ثم نادى : يا فلانة ، فخرجتْ امرأة ، فلما رأتني أرادت الرجوعَ ، فقال : لا عليك منه ، فسلَّمَتْ ودخلتْ ، فرمى لها الياقوتةَ ، فلما رَأَتْها صاحت صيحةً غُشيَ عليها ، وقالت : يا أمير المؤمنين ، ما فعل ولدي ؟ فقالت : صف لي حاله ، فوصفتُ لها قصته ، فجعلتْ تبكي وتصيح : ما أشوقني إلى لقائكَ يا قُرة عيني ، ليتني كنتُ أسقيكَ إذا لم تجد ساقياً ، أو أؤانسكَ إذا لم تجد مؤنساً ، وقيل في المعنى :

أَبْكِي غَرِيبًا أَتَاهُ الْمَوْتُ مُنْفَرِدًا لَمْ يَلْقَ إِلْفًا لَهُ يَشْكُو الَّذِي وَجَدَا

مِـــنْ بَعْدِ عِزٍّ وَشَمْلٍ كَانَ مُجْتَمِعًا ... أَضْحَى فَرِيدًا وَحِيدًا لا يَرَى أَحَدَا

نَبْـــنِي إِلَـــى النَّاسِ مَا الأَيَّامُ تُخْلِقُهُ ... وَالـــرَّبُّ يَبْنِي الَّذي يَبْقَى لَهُ أَبَدَا

يَـــا غَائِـــبًا قَدْ قَضَى رَبِّي بِفُرْقَتِه ... فَصَـــارَ مِـــنِّيَ بَعْدَ الْقُرْبِ مُبْتَعِدَا

إِنْ أَيْأَسَ الْمَوْتُ مِنْ لُقْيَاكَ يَا وَلَدِي ... فَإِنَّـــنَا نَلْـــتَقِي يَوْمَ الْحِسَابِ غَدَا

فقال أمير المؤمنين : يا أخي ، كان هذا ولدي ، وكان معي قبل ولايتي هذا الأمر يزور العلماء ويجالس الصلحاء ، فلما وليتُ هذا الأمرَ نفر مني ، وباعد نفسه عني ، فقلتُ لأمه : هذا ولد منقطع إلى الله تعالى ، ولابد أن تصيبَه الشدائد ، ويكابد المحن ، فادفعي إليه هذه الياقوتة ليجدها في وقت الاحتياج ، فدفعتْها إليه ، وعزمتْ عليه أن يمسكها ، ثم غاب عنا حديثُه إلى أن رمى إلينا بدنيانا ولقي الله نقيًّا ، ثم قال : يا أخي ، أرني قبرَهُ ، فخرجتُ معه إليه ، فباتَ عنده يبكي عليه طويلاً ، ثم سألني الصحبة ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، لي في ولدكَ عظةٌ وعبرة ، وقيل :

أَنَـــا الْغَرِيبُ فَلا آوِي إِلَى أَحَدٍ ... أَنَا الْغَرِيبُ وَإِنْ أَمْسَيْتُ فِي بَلَدِي

أَنَا الْغَرِيبُ وَلا أَهْلٌ لِي وَلا وَلَدٌ ... وَلَيْـــسَ لِي قَلْبٌ يَأْوِى إِلَى أَحَدِ

ضَيْفُ الْمَسَاجِدِ آوِيهَا وَأَعْمُرُهَا ... فَـــلَنْ يُفَارِقَهَـــا قَلْبِي وَلا جَسَدِي

فَـــالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى ... إِفْضَـــالِهِ بِبَقَاءِ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ

ونحن نسأل الله عز وعلا أن يرزقنا العافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة .

المجلس السادس

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾[التوبة : ١١١] .

الحمد لله المعروف بإبداء الدلائل والبرهان ، الموصوف بإسداء الفضائل والإحسان ، الخبير بما يخطر في الضمائر ويختلج في الجنان ، الرحيم الذي يترل الغيث بعد قنوط الإنسان ، وينشر رحمته فيعم الإنس والجان ، أبكَى السحابَ بمزن الغمام فسالت دموعها من غير حدقة ولا أجفان ، وأضحكَ الأرض بالأزهار المختلفة الألوان ، فتشققت عن كمائم الورد والبنوفر وشقائق النعمان ، والبنفسج والأقاح والياسمين والسوسن والأقحوان ، وأخرجت حبوها وثمارها وفواكهها وأزهارها فرقرقت الظلال وتمايلت الأغصان ، وقامت خطباء الأطيار على منابر أغصان الأشجار تثني على مولاها بأصوات حسان ، فكأن الجداولَ عبد قد لبس معصفراً ومدثراً ومدبجاً ومدملجاً ومخلخلاً ومسرولاً ومبيضاً ومصفصفاً ، وجلس على كراسيِّ الأكوان ، وكأن الفلاة عنبر أُلقي في مجمرة المشيئة فسطع وفاح بكل مكان ، وكأن السماء قبة لازوردية ضُربتْ على هذا البساط فقامتْ دون عمَد ولا أركان ، وكأن النجوم مصابيحُ في أيدي المقتبسين يبصر بها المفارق رفيقه والمسافر طريقه في كل مكان ، وكأن الشمس والقمر فرسان يتسابقان في ميدان التسخير يجريان، الكل يدل من نظره على من فطره ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢] والأذهان ، وصبِّروا نفوسَكم على ما اعتراها وسلموها لمن اشتراها على علمه بما فيها من العيوب الكامنة والخذْلان ؛ أما سمعتم قوله إذ يقول سبحانه في محكم القرآن: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ [التوبة : ١١١] . أحمده حمداً لا يعتريه النسيان ، وأشكره شكراً يثقل الميزان ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك المنان ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وخليله الداعي إلى الإيمان ، الغني بعصمة ربه عن الحجاب والحراس والأعوان ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام البررة الشجعان ، صلاة تدوم وتقوم ما تأوَّه لهفان ، واشتاق لورود الماء ظمآن ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل في

المعنى :

هَــوِّنْ عَلَيْكَ الَّذي تَلْقَى مِنَ الزَّمَنِ ... وَاصْبِرْ لِمَا نَالَ مِنْ ضُرٍّ وَمِنْ مِحَنِ
فَكُــلُّ مَــا أَنْتَ فِيه الْمَوْتُ يَقْطَعُهُ ... حَــتَّى كَأَنَّ الَّذي تَشْكُوهُ لَمْ يَكُنِ
وَمَــنْ يُــرِيدُ مِــنَ الدُّنْيَا مُسَالَمَةً ... فَــرَأْيُهُ رَأْيُ مَجْــنُونٍ وَمُفْتَــتِنِ
أَلَــيْسَ قَــدْ خُلِقَ الإِنْسَانُ فِي كَبَدٍ ... نَعَــمْ وَعُــرِّضَ لِلآفَاتِ وَالْمِحَنِ
وَقِــيلَ دُنْــيَاهُ سِــجْنٌ فِيه مَحْبِسُهُ ... فَكَيْفَ يَسْلَمُ مَحْبُوسٌ مِنَ السِّجْنِ
وَكُــلُّ أَرْزَائِــهِ فِــيهَا تُطَهِّــرُهُ ... نَعَــمْ وَتُنْقِــيهِ مِنْ وِزْرٍ وَمِنْ دَرَنِ
وَالتِّبْرُ فِي السَّبْكِ يَبْدُو مِنْهُ جَوْهَرُهُ ... بِقَــدْرِ تَخْلِيصِــهِ يَزْدَادُ فِي الثَّمَنِ
وَالضَّعْفُ فِي الشَّاةِ فِي إِبْقَائِهَا سَبَبٌ ... وَرُبَّمَــا عُولِجَــتْ لِلذَّبْحِ لِلسِّمَنِ
خَــلِّ الْمُدَبِّــرَ يَقْضِي مَا يَشَاءُ فَمَا ... يُفِــيدُكَ الْحِرْصُ فِي مَالٍ وَلا بَدَنِ
قَــدِ اشْــتَرَاكَ فَعَــبْدٌ أَنْتَ يَا بَطِرٌ ... فَافْخَــرْ بِــهِ فَشِرَاهُ أَعْظَمُ الْمِنَنِ
سُكْنَاهُ فِي الْقَلْبِ لَكِنْ أَنْتَ تَتْرُكُهُ ... وَتَــأْلَفُ الْغَــيْرَ هَــذَا غَايَةُ الْغَبْنِ
لِلَّــهِ دَرُّ أَدِيــبٍ قَــالَ مُــرْتَجِلاً ... فِي مِثْلِ حَالِكَ يَا ذَا اللُّبِّ وَالْفِطَنِ
لَــيْسَ التَّغَرُّبُ أَنْ تَشْكُو نَوَى سَفَرٍ ... وَإِنَّمَــا ذَاكَ فَقْــدُ الْحُبِّ وَالْوَطَنِ

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴾ [التوبة :١١١] . قيل : ما الحكمةُ في أن الله اشترى المؤمن وهو عبده ؟ قيل ذلك : على معنى التكرم والانبساط كسيد يقول لعبده : أقرضني كذا وكذا ، وبع مني كذا وكذا ، والعبد وماله إنما هو لسيده حقيقة ، لكن يقول له ذلك على معنى المؤانسة والانبساط ، وقيل : إنما قال ذلك ليعلمَهُ اللهُ أنه لا يفارقه ؛ لأنه اشتراه وهو غير محتاج إليه ولا إلى ثمنه ، وقيل : إنما قال ذلك ليكون له الفخر على من سواه ؛ لأنه ليس العجب أن تكون عبده ؛ لأن عبيده كثيرة ، وإنما العجب والفخر أن يكون مولاكَ ، وقيل : إنما اشتراه ليعلمه أنه يحبه ويرضاه ؛ لأن السيد لا يشترى عبداً يكرهه ، وقيل : إنما قال ذلك ليشعره أنه لا يخدم سواه ولا يأوي لغيره ولا يشكو ضره ؛ لأن المولَى لا يريد ذلك من عبده ، وقيل : إنما قال ذلك ليؤمنه من الرد ؛

لأنه اشتراه وهو يعلم عيوبه ، ومن اشترى عبداً على عيوب يعلمها ، لم يكن له الرد ، قالوا : فما الحكمةُ في أنه اشترى النفوس ولم يذكر القلوب ؟ قيل : النفوس معيبة والقلوب حبيبة ، فاشترى المعيب ليصلحه ؛ لأنه قادر على إصلاح العيوب وإذهاب أمراض القلوب ، وقيل : إنما اشترى نفس المؤمن لييأس منها إبليس ، فإن ادعى فيها دعوى صارت دعواه باطلة ؛ لأن المشتري الأول أحقُّ بسلعته ممن سواه ولا شيء أنفسُ من نفس المؤمن ، وإذا كان المشتري جليلاً ، والدلال نبيلاً ، والثمن جزيلاً ؛ كانت السلعة نفيسة لا قيمة لها ، وهذه صفة نفس المؤمن : الله مشتريها ، ومحمدٌ ﷺ دلالها ، والجنة ثمنها . واعلم أن من سلم المبيع لمولاه وشكره على ما أولاه ، رفق بالأمة والمملوك والضعيف والصعلوك . قالت أم سلمة : كان رسول الله ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه : « الصلاة وما ملكتْ أيمانكم » (١) ، ذكره النسائي ، وقال أبو مسعود : كنتُ أضرب غلاماً لي إذ سمعتُ صوتاً من خلفي يقول : « اعلم أن الله أقدر عليك منكَ على هذا الغلام ، قال : فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ ، فقلتُ : يا رسول الله ، هو حر لوجه الله تعالى ، فقال : أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار يوم القيامة » (٢) ، ذكره مسلم . وقال رافع بن مكيث : إن رسول الله ﷺ قال : « حسن الملكة نماء ، وسوء الخلق شؤم ، والصدقة تدفع ميتة السوء ، والبر زيادة في العمر » (٣) ، ذكره أبو داود ، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن قهرماناً له أتاه ، فقال له : أعطيتَ الرقيق قوتهم ؟ قال : لا ، قال : انطلق ، فأعطهم ، قد قال رسول الله ﷺ : « كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته » (٤) ، ذكره مسلم ، وعن علي رضي الله عنه قال : « وهب لي رسول الله ﷺ غلامين أخوين فبعتُ أحدهما ، فقال لي رسول الله ﷺ : ما فعل غلاماكَ ؟ فأخبرتُه ، فقالَ : رُدَّه رُدَّه » ، ذكره الترمذي ، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ:«ثلاث من كن فيه كان في ستر الله وكنفه وأدخله الجنة : رفق بالضعيف ، وشفقة في آل الدين،وإحسان إلى المملوك»،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣ / ١١٧ ، والنسائي في الكبرى ٤ / ٢٥٨ ، وابن ماجة في سننه ١ / ٥١٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٣ / ١٢٨١.

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨ / ٢٢.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٠ /٥٢ ، وليس في صحيح مسلم .

ذكره الترمذي في الغريب . وعن أبي أُمامة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ وهب علياً غلاماً ، وقال : لا تضربه ، فإني نُهيتُ عن ضرب المصلين ، وقد رأيته يصلي »[١] ، ذكره النسائي ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، كم نعفو عن الخادم ؟ فصَمَتَ ، فأعاد عليه ثانياً وثالثاً، فقال رسول الله ﷺ : اعفُ عنه في كل يوم سبعين مرة » ، ذكره أبو داود والترمذي ، وعن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « مَن لاءمكم من مماليككم ، فأطعموه مما تأكلون ، وألبسوه مما تلبسون ، ومَن لا يلاءمكم فبيعوه، ولا تعذبوا خلق الله »[٢] ، ذكره أبو داود . وقال رسول الله ﷺ : « للمملوكِ طعامُه وشرابُه وكسوتُه ، ولا يُكلف من العمل ما لا يطيق »[٣] ، ذكره مسلمَ ، وقال رسول الله ﷺ : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه ، فليعنه عليه »[٤] ، ذكره البخاري ومسلم ، وقال رسول الله ﷺ : « إذا صنع لأحدكم خادمُه طعاماً ثم جاء به ، وقد ولي حره ودخانه ، فليُقعدْه فليأكلْ معه ، فإن كان الطعام نزراً — أي قليلاً — فليضعْ منه في يده أكلة أو أكلتين »[٥] ، يعني لقمة أو لقمتين ، ذكراه في الصحيحين ، وقال ﷺ : « مَنْ قذف مملوكه وهو بريء جُلد يوم القيامة ، إلا أن يكونَ كما قال » ، ذكراه في الصحيحين . وقال رسول الله ﷺ : « من فرق بين أمة وولدها ، فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » ، ذكره أبو داود . وقيل في المعنى :

تَرَفَّقْ عَلَى الْمَمْلُوكِ رِفْقَ الَّذي يَجْرِي ... لِمَا وَعَدَ الْمَوْلَى مِنَ الْفَوْزِ وَالأَجْرِ
تُحَمِّــلُهُ مَــا لا يُطِيــقُ تَعَدِّيًــا ... وَتَظْــلِمُهُ مَــا ذَاكَ فِعْلُ أُولِي الْبِرِّ
أَخٌ هُــوَ فِي الإِسْلامِ وَالأَبُ وَاحِدٌ ... وَلا فَرْقَ بَيْنَ الْعَبْدِ فِي الأُمِّ وَالْحُرِّ

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٧ / ١٦٨ .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣ / ١٠٩٤ ، ومسلم في صحيحه ٤ / ١٩٧٥ .
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٣ / ١٢٤٨ ، وأبو عوانة في مسنده ٤ / ٧٣ .
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢٢٤٨ ، ومسلم في صحيحه ٣ / ١٢٨٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢٠٧٨ ، وأبو عوانة في مسنده ٤ / ٧٥.

تَمَلَّكْـتَهُ تَقْضِـي عَـلَيْهِ بِمَا تَشَا وَتَحْكُمُ فِي الأَمْثَالِ بِالْجَوْرِ وَالْقَهْرِ
وَقَـدْ كَـانَ خَيْرَ الْخَلْقِ طُرًّا يُعِينُهُ وَيُوزِعُـهُ الرِّفْقَ الْمَدِيدَ لَدَى عُسْرِ
وَيُوصِـي بِـهِ رَبًّـا وَصِيَّةَ مُشْفِقٍ رَحِيمٍ بِخَلْقِ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ
فَـرِفْقًا بِـهِ فَالـرِّفْقُ أَكْرَمُ خَصْلَةً تَجِـدْهُ غَدًا نُورًا لَدَى ظُلْمَةِ الْقَبْرِ
وَشُـكْرًا لِفَضْـلِ الـلَّهِ جَلَّ جَلالُهُ فَـإِنَّ مَزِيدَ الْخَيْرِ يَحْصُلُ بِالشُّكْرِ
فَكَـمْ بَيْـنَ عَـبْدٍ رِقُّهُ عِنْدَ غَيْرِهِ وَبَيْـنَ مُعَـافًى لا يُبَالِي مِنَ الْغَيْرِ
فَهَـذَا عَـتِيقٌ أَمْـرُهُ فِـي يَمِينِـهِ وَهَذَا طَلِيقٌ مِثْلَ مَنْ هُوَ فِي الأَسْرِ

تزوج حارثة امرأة في الجاهلية من آل طيئ ، فأولدها جبلة وأسماءَ وزيداً ، فتُوفيتْ أمهم ، وبقُوا في حجْر جدهم لأمهم ، فأراد حارثة حملهم فأبى الجد ، وقال : عندنا خير لهم ، فتراضَوْا بذلك ، فحمل الأبُ جبلةَ وأسماءَ ، وخَلَّفَ زيداً ، فجاءت خيلٌ من تِهامةَ ، وأغارتْ على طيئ ، وسبتْ زيداً ، وساروا به إلى سُوق عُكاظ ، وعرضوه للبيع ، فرآه رسول الله ﷺ من قبل أن يُبعث ، فأتى خديجةَ رضي الله عنها وقال : رأيتُ في السوق غلاماً وضيئاً ، له عقلٌ وأدبٌ ، ولو كان لي مالٌ لاشتريتُه ، فبعثتْ خديجةُ ورقةَ بنَ نوفلٍ ، فاشتراه بمالها ، فقال رسول الله ﷺ : يا خديجة ، هبي لي هذا الغلام بطيبة من نفسك ، فإني أريد أن أتبناه ، فقالتْ : قد وهبتُه لكَ ، فأخذه رسول الله ﷺ وتبناه حتى كان يُدعى : زيدَ بنَ محمد ، فجاء رجل من حي طيئ ، فرأى زيداً ، فقال له : أنتَ زيدُ بنُ حارثةَ ، وأنتَ تشبه أخاكَ وأباكَ وعمَّكَ ، وإنهم قد أنفقوا الأموال في طلبكَ ، وإنهم قد أتعبوا عليكَ الجياد ، ثم إن الرجل سار إلى حارثةَ فأخبره ، فأتى حارثةُ بأخيه وابنه قاصداً إلى مكة ، فإذا النبي ﷺ في فناء الكعبة مع نفر من أصحابه وزيدٌ بينهم ، فلما نظروا إليه عرفوه وعرفهم ، ودعوه فلم يجبهم انتظاراً منه لرأي رسول الله ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : يا زيدُ مَنْ هؤلاء ؟ فقال : يا رسول الله ، هذا أبي ، وهذا عمي ، وهذا أخي ، وهذه عشيرتي ، فقال له رسول الله ﷺ : سِرْ إليهم ، وسَلِّمْ عليهم ، فقام وسلم عليهم ، وسلموا عليه ، وقالوا : امضِ معنا يا زيدُ ، فقال : ما أبتغي برسول الله ﷺ بدلاً ، ولا أُوثر عليه أحداً ، فقالوا : يا محمد ، إنا معطوكَ في هذا الغلام دياتٍ ، فساومنا فيه بما شئتَ ، فإنا نأخذه منكَ ، فقال لهم : أسألكم فيه أن

تشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، فأبَوْا ونكلُوا وتلجلجُوا وقالوا : اسأَلْ منا غير هذا يا محمد ، فقال : قد بقيت خصلة واحدة إن شاء أقام معي ، وإن شاء سار معكم ، فقالوا : يا محمد ، ما بقي شيء ، ولقد قضيتَ الذي عليكَ ، وظنُّوا أنهم وصلُوا إلى حاجتهم ، وقالوا : يا زيدُ ، سرْ معنا ، فلقد أذن لك محمدٌ في ذلك ، فقال : ما أبغي برسول الله ﷺ بدلاً ، ولا أُوثر عليه أحداً ولا أهلاً ولا والداً ولا ولداً ، فطافوا به واستعطفوه فلم يقدروا عليه ، وقيل في المعنى :

أَأَتْـــرُكُ مَحْـــبُوبِي وَأَصْبُو إِلَيْكُمُ   وَصَدْرِي لَهُ مَثْوًى وَقَلْبِي لَهُ مَأْوَى
فَـــنَظْرَةُ عَيْـــنِي لَمْحَةٌ مِنْ حَبِيبِهَا   أَلَذُّ وَأَشْهَى لِي مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى
لَقَدْ صَبَرَتْ نَفْسِي عَلَى كُلِّ شِدَّةٍ   وَلَكِنْ عَلَى وَقْعِ التَّفَرُّقِ لا تَقْوَى
جَمِيعُ الْوَرَى جِسْمٌ وَأَحْمَدُ رُوحُهُ   وَأَفْضَلُهُمْ طُرًّا لِذِي السِّرِّ وَالنَّجْوَى
فَسِـــيرُوا جَمِيعًا وَاتْرُكُونِي وَمَا أَنَا   عَلَـــيْهِ فَـــإِنِّي قَدْ فَخَرْتُ بِهِ زَهْوَا

فقال حارثةُ : أما أنا يا بُنيَّ ، فإني أواسيكَ بنفسي ، وأسلمُ كما أسلمتَ ، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فآمن حارثة ، وأَبى الباقون ، ورجعوا إلى البرية ، ثم إن جبلةَ جاء فأسلم ، وأول لواء عَقده النبي ﷺ لواءُ زيد ، وأول شهيد كان بالشام زيد ، ثم جعفر الطيار ، ثم عبد الله بن رواحة ، وآخر لواء عقده رسول الله ﷺ لواءُ أسامة بن زيد ، وأَمَّره على اثني عشرَ ألفاً ، وكان يُدعى : الحِبَّ بنَ الحِبِّ ؛ لمحبة رسول الله ﷺ له ولأبيه .

وقيل : لما تفرس العزيز في يوسفَ الخيرَ والصلاحَ ، لم يُنزله منزلةَ العبيد ، بل قال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [يوسف : ٢١] ، كذلك قال الله تعالى لما رأى من عبده المؤمن إيثاره لطاعته وتركه لمناهيه ، سماه وليًّا ، قال الله تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] ، وذلك أن الملك ساق يوسف لأهله ، وهو يومئذ ابن سبع سنين .

قيل : إن يوسف عليه السلام لما فارق أهله كان ابن سبع سنين فيما قاله ابن عباس . وقال الحسن : أُلقيَ يوسفُ في الجُبِّ وهو ابنُ سبع عشرة سنة ، وجمعَ اللهُ شملَهُ بأبيه وهو ابن ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة . وقال مجاهد : إن يوسفَ عليه السلام خرج مِنْ عند أبيه وهو ابن ست سنين ، وجمعَ اللهُ بينه وبين أبيه وهو ابن

أربعين سنة ، والله أعلم أيَّ ذلك كان ، فكانت زليخا تمشِّطُ شَعره بيدها ، وتخدمه بنفسها ، قال الله تعالى :﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً** ﴾ [يوسف:٢٢] ، قال ابن عباس : أشده ثمانية عشرة سنة . قال وهب بن منبه : مكث يوسفُ في دار العزيز ثلاثَ سنين ، وحينئذ بلغ الحُلُمَ ، وقال أبو سعيد الخدري : ما زالت زليخا في كل يوم تحسن إلى يوسفَ ، وتتولى أمره ، حتى مال قلبها إليه ، وتكاثر وجدها عليه ، وهو مع ذلك لا يلتفت إليها بعينه حياءً من ربِّه ، ولا ينظر إليها حتى تكاثر همها ودق عظمُها ، وكابدها الشجون ، وواصلها النحول ، وقيل في المعنى :

وَقَائلَة مَاذَا النُّحُولُ وَذَا الضَّنَا ... فَقُلْتُ لَهَا قَلْبُ الْمَشُوقِ الْمُتَيَّمِ
هَوَاكَ أَتَانِي وَهْوَ ضَيْفٌ أُجِلُّهُ ... فَأَطْعَمْــتُهُ لَحْمِي وَأَسْقَيْتُهُ دَمِي

فلما عيل صبرُها ، وضاق صدرُها ، دخلت حاضنتها ، فقالتْ لها : يا سيدتي ، أرى غصنك ذابلاً ، وجسدَك ناحلاً ، وقلبَك مائلاً ، فقالتْ لها : وكيف لا أكون كذلك وأنا أَخدم هذا الغلامَ العبرانيَ منذ سبعَ سنين ألاطفه بلساني ، وأتحبب إليه بإحساني ، فكلما زدتُ ميلاً إليه ، زاد إعراضاً عني ، وكلما قربت منه ، تباعد مني ، وقيل في المعنى :

تَعَشَّــقْتُهُ وَاهِــي الْمَوَاثِقِ بِالْعُلا ... يُرِي كُلَّ يَوْمٍ فِي الْهَوَى مِنْهُ أَخْلاقَا
شَــدِيدُ التَّجَنِّي كلما زَادَ قَسْوَةً ... عَــلَى عَاشِقِيهِ زَادَهُ الْحُسْنُ عُشَّاقَا
تَحَــلَّى عَــلَى خَدَّيْهِ سُودُ غَدائِرٍ ... كَمَا انْتَفَضَ الأَغْصَانُ لِلرِّيحِ أَوْرَاقَا
وَفِــي خَدِّهِ لِلْحُسْنِ نَارٌ تَضَرَّمَتْ ... يُخَالِطُــهُ مَــاءُ الشَّــبِيبَةِ رَقْــرَاقَا
أَجِيرَانَنَا بِالْفَوْزِ لَوْ أَنْصَفَ الْهَوَى ... جَزَيْــنَاكُمُ فِيــهِ دُمُوعًا وَأَشْوَاقَا
عَلَيَّ لكمْ أَنْ يَنْجَلِي الرَّبْعُ بَعْدَكُمْ ... بِدَمْعِــيَ إِنْ أَبْقَى لِيَ الدَّمْعُ آمَاقَا
وَلا غَــرْوَ أَنْ تَجْرِي بِلُجَّةِ أَدْمُعِي ... غَــرَامٌ بِوَجْهِهِ يُظْهِرُ الشَّمْسَ إِشْرَاقَا
إِذَا مَا تَعَشَّقْتَ الْحِسَانَ وَلَمْ تَكُنْ ... صَبُورًا عَلَى الْبَلْوَى فَلا تَكُ عَشَّاقَا

فقالت لها الحاضنة : يا سيدتي ، لو نظر إليك لكان أسرعَ إليك منك إليه ، ولو نظر إلى حسنكِ وجمالكِ وصفاء لونكِ ، لما قرَّ له قرارٌ دونكِ ، فقالتَ : وكيف لي

به ؟ قالت : مكنيني من الأموال ، فقالت : ها خزائني بين يديك ، خذي منها ما شئت ، ودعي ما شئتِ ، لا حسابَ عليكِ في ذلك ، فتمكنَتْ من الأموال ، ودعتْ أهل البناء والهندسة ، وقالت : أريد بيتاً ترى الوجوه في سقفه وحائطه كما ترى في المرآة المصقولة ، فقالوا : نعم ، ثم بنَوْا لها بيتاً سمته : القيطوم ، فلما تم بناؤه وتكامل إتقانه ، دعت بمصور حاذق ، فصور صورة يوسف وزليخا متعانقين ، و لم تدع من صورهما شيئاً إلا صورته ، وأمرت بسرير من ذهب مرصع بالدر والياقوت واللآلئ ، فوضعته في صدر البيت وجعلت عليه أفرشة الديباج وأنواعَ ألوان الحرير ، ثم فرشت البيتَ ، وأرخت الستورَ ، ثم ألبستْ زُليخا من أنواع الحلل غير قليل ، وحلتْها بالحلي الكثير ، وأجلستْها على مرتبة عظيمة مما يليق بمثلها ، ثم خرجتْ إلى يوسفَ وهي مستعجلة ، فقالت : يا يوسف ، أجبْ سيدتكَ زليخا ، فإنها تدعوكَ في بيتها القيطوم ، وكان سامعاً لها مطيعاً ، وكان في يده قضيب من ذهب يلعب به ، فرمى القضيب من يده ، وأسرع إلى باب البيت ليدخل ، فنادته مستعجلة بالدخول ، فظن ذلك في نفسه ، وأراد الرجوع بعد أن وضع رجله داخل العتبة ، فتوقف عند ذلك ، فكأن قلبَه أحس بالشر ، فأراد الرجوع ، فأسرعتْ إليه ، وجذبته إلى السرير ، وقالت : هيت لكَ ، فأغمض عينيه ، وكف يديه ، وولى رأسه ، ونكسها حياءً من الله تعالى ، وقيل :

كَــأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَرْعَى خَوَاطِرِي ... وَآخَرُ يَرْعَى نَاظِرِي وَلِسَانِي
فَمَــا نَظَــرَتْ عَيْنِي لِغَيْرِكَ مَنْظَرًا ... يَسُوءُكَ إِلا قُلْتُ : قَدْ رَمَقَانِي
وَلا بَــدَرَتْ مِــنْ فِيَّ دُونَكَ لَفْظَةٌ ... لِغَيْــرِكَ إِلا عَــرَجًا بِعَــنَانِي
وَإِخْوَانُ صِدْقٍ قَدْ عَهِدْتُ حَدِيثَهُمْ ... وَأَلْهَيْتُ عَنْهُمْ نَاظِرِي وَلِسَانِي
وَمَــا الْــبُعْدُ أَلْهَى عَنْهُمُ غَيْرَ أَنَّنِي ... وَجَدْتُكَ مَشْهُودًا بِكُلِّ مَكَانِ
فَخَاطَــبْتُ مَوْجُــودًا بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ ... وَلاحَظْــتُ مَعْلُومًا بِغَيْرِ عِيَانِ

قالت : يا يوسف ، ما أحسنَ وجهكَ ! قال : اللهُ صوَّره في الأرحام ، قالت : ما أحسنَ عينيكَ ! قال : هما أول ما يسقطانِ مني في قبري ، قالت : ما أحسنَ شَعركَ ! قال : هو أول ما يبلى مني ، قالت : يا يوسف ، ما أطيبَ ريحكَ ! قال : لو شممتِ رائحتي بعد ثلاث لفررتِ مني ، قالت : يا يوسف ، أتقرب إليك وتتباعد

مني ؟ قال لها : أرجو بذلك التقربَ من ربي ، قالت : انظر إليَّ نظرة واحدة ، قال لها : أخشى العمى من ربي في آخرتي ، قالت : ضع يدكَ على فؤادي ، قال لها : إذًا تُغَلُّ في النار يدي ، قالت : اشتريتكَ بمالي وتخالفني ؟ فقال : الذنبُ لإخوتي إذ باعوني حتى ملكتيني ، قالت : اصبر معي ساعة واحدة في البيت ، قال لها : ليس فيه شيء يسترني من ربي ، وقيل في المعنى :

وَمَا عَرَضَتْ لِي لَحْظَةٌ مُذْ عَرَفْتُهُ ... فَأَنْظُرُ إلا كَانَ لِي حَيْثُ أَنْظُرُ
أَغَارُ عَلَى طَرْفِي لَهُ فَكَأَنَّنِي ... إِذَا رَامَ طَرْفِي غَيْرَهُ لَسْتُ أُبْصِرُ
فَيَا مَنْ هَوَاهُ مِلْءُ سَمْعِي وَنَاظِرِي ... وِدَادُكَ فِي قَلْبِي إِلَى يَوْمِ أُحْشَرُ

قالت : يا يوسف ، بأي وجه تخالفني ، وبأي حكم ترجع عن مرادي ولا ترعى صنيعي ؟ قال لها : حكم إلهي الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه وبطشه ، وإكراماً لسيدي الذي أكرم مثواي ، وأنزلني منزلة الأولاد ، فقالت : أما إلهكَ الذي في السماء ، فإني أفتحُ بيوت الأموال ، وأتصدق عنك بها ، وأهديها إليه حتى يرضى عنك ويغفر لك ، ولا أبالي أنا بما يفعل في حقي لمرادي وقضاء حاجتي ، وأما سيدكَ الذي أكرم مثواكَ ، فأنا أطعمه السُّمَّ حتى يتنثر لحمه ، ويسقط عظمه ويموت جهداً وكمداً ، وأكون أنا وأموالي وما ملكت يدي ملكُكَ وطوع يمينك ، قال لها : إذًا فما يكون عذري يوم القيامة بين يدي ربي ؟ وقيل في المعنى :

هَبِي السِّتْرَ مُرْخيًا وَبَابُكِ مُغْلَقٌ ... أَلَيْسَ مَعِي رَبِّي يَجُودُ وَيَرْزُقُ
وَيُعْطِي عَطَايَاه وَيَمْنَحُ جُودَهُ ... وَيُجْرِي قَضَايَاهُ عَلَيْنَا وَيَخْلُقُ
أَيَجْمُلُ أَنْ أُرْضِي الْخَلائِقَ دُونَهُ ... وَأُسْخِطَهُ وَهْوَ الَّذِي بِيَ يَرْفُقُ
دَعِينِي فَإِنِّي لا أُخَالِفُ سَيِّدِي ... فَعِصْيَانُ مَنْ يَفْنَى وَيَذْهَبُ أَلْيَقُ

فقام وبادر الباب من غير أن يكون بينه وبينها سببٌ من الأسباب ، وقد شهد الحق له بذلك في محكم الكتاب العزيز فقال عز وجل : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف:٢٤] . السوء : السبب المؤدي إلى الفحشاء ، والفحشاء : المعصية المؤدية إلى سخط الله تعالى ، ولا يجوز ذلك على

نبي من الأنبياء وحسن الظن بالصالحين أمر مندوب إليه وسنن معول عليه ، فكيف بنبي من الأنبياء ، وهو ابن صفي الله ، ابن ذبيح الله ، ابن خليل الله ؟ وقد أجمع العلماء قاطبة على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الكبائر ، واختلفوا في الصغائر ، وليس الأمر كما يقوله القصاص والمختلقون والكذابون والمتشدقون إنه حل العقدة لكنه همَّ بها وهمّتْ به حتى صرفه الله عنها بالبرهان . قال بعض أهل العلم : الهم همانِ : هم فكرة وهي مغفورة ، وهم إرادة وهي غير مغفورة ، فهمة الفكرة ليوسف ، وهمة الإرادة لزليخا ، وقال الحسين بن الفضل : في الكلام تقديم وتأخير ، ومعناه : لقد همتْ به ، ولولا أنْ رأى برهان ربه لهمَّ بها ، قال ابن عمر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله » ، ذكره مسلم ، وقال أبو هريرة : « سُئل رسول الله ﷺ أيُّ الناس أكرم ؟ قال أكرمهم عند الله أتقاهم ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ؟ قال : فأكرم الناس نبي الله يوسف عليه السلام ابن نبي الله يعقوب ابن نبي الله إسحاق ابن إبراهيم خليل الله صلواتُ الله عليهم أجمعين » ، وذكر الحديث بطوله ذكره البخاري ، وقيل :

أَلا عَظِّمُوا قَدْرَ النَّبِي الْمُكَرَّمِ ... فَتَعْظِيمُهُ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمِ
فَمَنْ مِثْلُهُ أَصْلاً وَفَرْعًا وَمَحْتِدًا ... وَمَنْ ذَا يُضَاهِي فِي الْعُلا وَالتَّقَدُّمِ
لَـهُ ثَـبَتَ الْفَخْرُ الْمُؤَثَّلُ أَنَّهُ ... لَمَـنْ فَرْعِ بَرْهَامَ الْخَلِيلِ الْمُعَظَّمِ
وَلِلأَنْبِيَاءِ الْمُكْرَمِينَ مَرَاتِبٌ ... يَفُـوقُ سَـنَاهَا كُلَّ بَدْرٍ مُتَمَّمِ
حَبَاهُمْ إِلَهُ الْعَرْشِ مِنْهُ بِعِصْمَةٍ ... وَبَـاعَدَهُمْ مِـنْ كُلِّ فِعْلٍ مُذَمَّمِ
فَظُنُّوا بِهِ خَيْرًا وَحِبُّوا جَمِيعَهُمْ ... فَحُـبُّهُمْ يُـنْجِي غَدًا مِنْ جَهَنَّمِ

واختلف الناس في البرهان ، فقال قوم : البرهان عصمة الله له من الفحشاء ، وصرف السوء عنه ، فلولا أنْ عصمه الله لم يكن معصوماً ، ولولا أنْ رحمه الله لم يكن مرحوماً . وقال قوم : البرهان كف من غير ذراع بدا بينهما فيه مكتوب **﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾** [يونس: ٦١] . وقيل : البرهان أن الحائط فُرج له فرأى صورة يعقوب عاضاً على إبهامه يقول : يوسف ، يوسف ، وقيل : البرهان أن هاتفاً هتف به يقول : يا يوسف ، لا تعمل

عمل السفهاء ، وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء ، وقيل : البرهان أن صنماً كان لها في ركن البيت ، فأرخت ستراً لها تغطيه به ، فسألها يوسف عن ذلك ؟ فقالت : أستحي منه أن يراني على هذه الصفة ، فقال لها : أنت تستحين من جماد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فكيف لا أستحي أنا من رب يراني ويرى مكاني ، ومطلع عليَّ ؟ فبادر الباب هارباً ، وإليه ذهب من قال : همت زليخا بالقرار وهمَّ يوسف بالفرار ، فلما رأته يريد الباب جذبتْ قميصه من خلفه فتمزق القميص[1] ، وهو قوله تعالى :﴿ **وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ** ﴾ [يوسف : ٢٥] ، وقيل في المعنى :

خَرِسَ اللِّسَانُ وَلِي دُمُوعٌ تَنْطِقُ ... إِنَّ الْهَـوَى بِحُشَاشَـتِي مُتَعَلِّقُ
لَمَّـا رَأَيْتُ أَحِبَّتِي يَوْمَ النَّوَى ... شَـدُّوا الرِّكَابَ لِبَيْنِهِمْ وَتَفَرَّقُوا
سَلَّطْتُ طُوفَانَ الدُّمُوعِ عَلَيْهِمُ ... وَبَعَـثْتُ أَنْفَاسِي مَخَافَةَ أَغْرَقُ
فَتَأَوَّهَ الْحَادِي وَقَالَ لَهُمْ : قِفُوا ... فَبِظَعْـنِكُمْ لا شَكَّ مَنْ يَتَعَشَّقُ
فَأَجَبْتُهُمْ مَا بَيْنَ صَوْتٍ خَاشِعٍ ... قَـامَتْ قِيَامَـةُ عَبْدِكُمْ فَتَفَرَّقُوا
رُدُّوا الضِّـيَاءَ لِنَاظِرَيَّ فَلا أَرَى ... إِلا سُـيُوفَ الْبَيْنِ حَوْلِيَ تَبْرُقُ
فَكَأَنَّمَـا امْـرَأَةُ الْعَزِيزِ تَعَلَّقَتْ ... بِقَمِيصِ يُوسُفَ وَالْقَمِيصُ يُمَزَّقُ

ووافق ذلك الوقت أن العزيز مر بالباب في بعض حوائجه ، فإذا الوجبة فالتفت العزيز ، فإذا الباب يحمل ويساق فدفع الباب وقال : مه ، فإذا يوسف مقدود

---

(١) قال الإمام العلامة الفخر – رحمه الله – : « إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه ، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول ﷺ المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة ! ... » ، ثم أردف قائلاً : « إن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة ، استعظموا ذلك ، وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والتواضع ، ولو كان يوسف عليه السلام أقدم ها هنا على هذه الكبيرة المنكرة ، لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ، ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها ، كما في سائر المواضع ، وحيث لم يوجدْ شيء من ذلك ، علمنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنبٌ ولا معصية » . انظر الموضوعات والإسرائيليات في كتب التفاسير قديماً وحديثاً المكتبة التوفيقية ، (ص : ١٤٠) .

الثوب ، باكي العين ، وإذا زليخا ناشرة الشعر محمرة الوجه باكية العين ، قال العزيز : فيم أنتما ؟ فقالت زليخا : يا سيدي ، غلامكَ العبراني الذي ائتمنته على أهلك ، ومننتَ عليه بفضلكَ ، وأحللته محل ولدك يريد أهلك بالسوء ، فأقبل العزيز على يوسف بوجهه وقال : يا يوسف : ما هذا جزائي منكَ ، ائتمنتُك على أهلي ، وأحللتكَ محل الأولاد المكرمين ، ورجوتُ الخير والانتفاع بكَ ، فصرت تخونني في أهلي ؟ فقال يوسف : معاذ الله أن أخونكَ في أهلكَ ، وأرضى بذلك بل هي راودتني عن نفسي ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي** ﴾ [يوسف : ٢٥ و ٢٦] ، فوقف العزيز متحيراً ينظر إليها تارة ، وإليه تارة أخرى ، فقال يوسف عليه السلام : لي شاهد يشهد ببراءتي ، فقال : من الشاهد وليس معكما في البيت ثالث إلا هذا الطفل ؟ وكان في البيت طفل معلق في الركن في مهده ، وهو رضيع لبعض قرابة لزليخا ؛ لأنها كانت لا ولد لها ، وكانت تحب الأولاد ، ويساقون إليها على وجه الأنس ونظر السرور ، فرفع يوسف طَرْفه إلى السماء ، وقال : إلهي وسيدي ، ترى مكاني ، ولا يخفى عليك حالي ، وأنت أرحم الراحمين، وقيل في المعنى :

إِلَيْكَ مَدَدْتُ الْكَفَّ فِي كُلِّ شِدَّةٍ ... وَمِنْكَ وَجَدْتُ اللُّطْفَ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
وَأَنْتَ مَلاذِي وَالأَنَامَ بِمَعْزَلِ ... وَهَلْ مُسْتَحِيلٌ فِي الرَّجَاءِ كَوَاجِبِ
وَإِنِّي لأَرْجُو مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ ... وَإِنْ كُنْتُ خَطَّاءً كَثِيرَ الْمَعَايِبِ
رَجَاءُكَ رَأْسُ الْمَالِ عِنْدِي وَرِبْحُهُ ... وَزُهْدِيَ فِي الْمَخْلُوقِ أَسْنَى مَنَاقِبِ
فَحَقِّقْ رَجَائِي فِيكَ يَا رَبِّ وَاكْفِنِي ... شَمَاتَةَ خَبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ صَاحِبِ
وَمِنْ أَيْنَ أَخْشَى مِنْ عَدُوِّي إِسَاءَةً ... وَسِتْرُكَ ضَافٍ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ
فَيَا مُحْسِنًا فِيمَا مَضَى أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَى اللُّطْفِ مِنِّي فِي حُلُولِ الْعَوَاقِبِ

فأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام : أن اهبط إلى هذا الطفل ، وشُقَّ لسانه حتى يشهد بالبراءة لنبيي يوسفَ ، فنزل جبريلُ عليه السلام على الطفل وشق لسانه ، وأبلغه أمر ربه ، فنادى الطفل من المهد : أيها العزيز ، إن لك مما أنت فيه فرجاً ومخرجاً ، فلما سمع العزيز كلام الصبي ، لهَا عن جميع ما كان فيه ، وأقبل على الطفل متعجباً منه ،

فقال : انظر إلى شق قميص الغلام ، فإن كان قُدَّ من قُبُلٍ فصدقتْ وهو من الكاذبين ، وإن كان قُدَّ من دُبُرٍ فكذبتْ وهو من الصادقين ، وختم الله على فيه إلى وقت كلامه ، وقيل في المعنى :

مَـــا إِنْ يَضِـــيعُ لَدَى الإِلَهِ وَسِيلَةٌ جَـــلَّ الْمُهَـــيْمِنُ أَنْ يُخَيِّبَ رَاجِيَا
لَمَّـــا دَعَـــاهُ بِقَلْـــبِهِ صِـــدِّيقُهُ أَلْفَـــاهُ رَبًّـــا لا يَـــرُدُّ الدَّاعِـــيَا
شَـــهِدَ الرَّضِـــيعُ لَهُ وَأَنْطَقَهُ الَّذِي يُجْـــرِي مَشِـــيئَتَهُ وَيُظْهِـــرُ خَافِيَا
أَوْحَـــى إِلَى جِبْرِيلَ انْزِلْ مُسْرِعًا فَمِـــنَ الصَّـــبِي يَكُونُ بَدْءُ قَضَائِيَا
شَـــقَّ اللِّسَـــانَ لِيَسْـــتَبِينَ كَلامَهُ وَيَلُـــوحَ لِلصِّـــدِّيقِ صِـــدْقٌ بَادِيَا
فَـــإِذَا بِـــهِ يَدْعُـــوهُ عِنْدِيَ رَاحَةٌ مِمَّـــنْ دَهَـــاكَ فَكُنْ لِقَوْلِيَ وَاعِيَا
لَـــكَ فِـــي الْقَمِيصِ دَلالَةٌ وَعَلامَةٌ فَانْظُـــرْ إِلَـــيْهِ تَـــرَى دَلِيلاً شَافِيَا
إِنْ كَـــانَ مِنْ دُبُرٍ فَيُوسُفُ صَادِقٌ أو كَـــانَ مِـــنْ قُـــبُلٍ تَبَيَّنَ بَاغِيَا
سُبْحَانَ مَنْ يَقْضِي وَيَحْكُمُ مَا يَشَا فَـــيُعِزُّ مَقْهُـــورًا وَيَقْهَـــرُ طَاغِـــيَا

إخواني ، الدنيا تشبه قصر مصر ، فاستبق الباب فيها يوسفُ الصبرَ وزليخا الهوى ، وقميص الأعمال يعرض على يعقوب الشفاعة ، فمن رأى قميصه قُد من قبل قال : سحقاً سحقاً ، ومَن رأى قميصه قُد من دبر قال : ادخرت شفاعتي يا عبد شهوته ، يا مملوك لذته ، ويا أسير غفلته ، يا قتيل بطالته ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ [يوسف:٣٩] . يا عبد الطبع ، طالع دستور الأحرار ، والمملوك لا يعترض الأحكام ، والمذنب لا يختصم الحكام ، كيف يصيبُ قلبَهُ خشوعٌ ورقةٌ مَنْ ملكت الدنيا رقَّه ، تضرب عبدك إن عصاكَ ، وتعصي مولاكَ مراراً ، فإذا نزلتْ بكم نازلة قلتم : أنَّى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم . اشترى إبراهيم بن أدهم غلاماً فلما وقف بين يديه قال : ما اسمكَ ؟ قال: ما سميتني ، قال : ما شغلكَ ؟ قال ما شغلتني ، قال : ما لباسكَ ؟ قال : ما ألبستني ، قال : فما اختياركَ ؟ قال : وكيف للمملوك مع مالكه اختيار ، فكان ذلك سبب توبته ، وقيل في المعنى :

لا تَغْضَبَنَّ عَلَى قَوْمٍ تُحِبُّهُمُ فَلَيْسَ يُدْنِيكَ مِنْ أَحْبَابِكَ الْغَضَبُ
ولا تُخَاصِمْهُمُ يَوْمًا إِذَا حَكَمُوا إِنَّ الْقُضَاةَ إِذَا مَا خُوصِمُوا غَلَبُوا

ادعى أحد المحبين حب شخص ، ورغب أن يكون مملوكه ، فقال المحبوب : قد قبلتكَ على أن تعقد لي عقداً يخصمكَ بين يدي قاضي المحبين ، فساروا إلى أديب ماهر ، وموثق قاهر ، فكتب بينهما عُقد يقول فيه : بسم الله الذي جعل الحب وسيلة لأهل القلوب ، وصلواته على سيدنا محمد شفيع أهل الذنوب ، هذا ما اشترى فلان بن فلان الفلاني ، اشترى منه في عقد واحد وصفقة واحدة جميع المحبة المعروفة بمودة القلب من مدينة الإخلاص ، بالمحبة المعروفة الدائمة إلى الممات بجملتها وكليتها من حدودها وحقوقها ومجاري مياه الرعاية ، والكلأ فيها ، وكل حق هو لها داخل فيها أو خارج عنها من المراعاة والملاحظة والذب والنظر ، فالحد الأول ينتهي إلى الخلة والصفاء ، والحد الثاني ينتهي إلى المراعاة والوفاء ، والحد الثالث ينتهي إلى المساعدة والولاء ، والحد الرابع ينتهي إلى المشاهدة واللقاء ، وإليه يشرع بابها ، اشترى منه في عقد واحد وصفقة واحدة شراءً جائزاً عند أهل الحب ، ماضياً في شرع الإخلاص ، تاماً عند أهل الإخاء والمودة بألف ألف في ألف ألف مدى الأنفاس والأرواح في الأجسام والأشباح والأنفس والرءوس ، وشرط كل واحد منهما لصاحبه بذل قلبه وصفاء حبه وفداء نفسه وماله وحسه ورد التهيمة والعدل ، ثم تعاهدا على ذلك بينهما ، ونقد كل واحد منهما لصاحبه هذا الثمن ، ووقَّع التسليمَ لما وقع العقد عليه ، واعترفا بالبراءة على ما يشترطان لأنفسهما ، ولا يقبل السوء والشناعات ، وقبض كل واحد منهما لصاحبه ، واعترف بالبراءة ، وكل واحد منهما لصاحبه الدرك والرجوع عليه على ما يوجبه حكم الإخلاص والصفاء، ويقتضيه موجب الشرع والوفاء ، فمتى ادعيا أو ادعى أحدهما ما يخالف هذه الوثيقة ظاهراً وباطناً في سرائر سره وخفي ضمائره أو مضمون هواجس إحساس نفسه وهيئته ، فروح صفائهما نقية من الغش وقلوب وفائهما بريئة من الخيانة ، ومحبتهما محروسة بعين المحافظة ، ومعرفتهما مصقولة بهمم المحافظة والملاحظة ، لا تدنس بوهم ولا خوف فكر - فدعوى ذلك زور وبهتان وظلم وعدوان ، والمخالف لهذه الوثيقة خارج عن ذمام التحقيق ، داخل في زمرة أهل الدعاوى والتمحيق ، مخالف لأهل المعرفة والفتوة ، مجانب لأهل المحبة والمروءة والحق والصدق ، ما تضمنته هذه الوثيقة ، ووقعت عليه شهادة سادات الطريقة ، وإلى ذلك ترافعا في صحته إلى

حاكم من حكام المسلمين المحققين ، جائز بسائر الحكم عند أهل المعرفة والدين ، فوقف على تلك الشروط فأثبتها وأمضاها وحدها ، وأجراها في مجلس حكمه وقضائه ، وولائه ورضائه ، وأشهدا على أنفسهما طوعاً في يوم اللقاء من شهر المواصلة والبقاء سنة تحسين الأعمال وبلوغ الآمال ، أشهد عليهما بذلك الألفة والميل ، والمساعدة والنيل ، وزوال الملق وحسن الخلق ، وكتب في التاريخ أعلاه ، وقيل :

كَتَبُوا عَلَيْكَ وَدَقَّقُوا مَا قَدْ مَضَى — وَجَرَى عَلَيْكَ الْحُكْمُ فيه بِمَا قَضَى
وَزَعَمْتَ أَنَّكَ مُعْرِضٌ عَنْ بَابِهِمْ — مَــنْ غَلَّقَ الأَبْوَابَ كَانَ الْمُعْرِضَا
أَرَفَضْتَ عَهْدَهُمْ وَخُنْتَ وِدَادَهُمْ — حَاشَــا لِــرَبْطِ وَفَائِهِمْ أَنْ يُنْقَضَا
قِــفْ عِــنْدَ بَابِهِمْ وَلُذْ بِحِمَاهِمُ — فَعَسَى هُمُ أَنْ يَسْمَحُوا لَكَ بِالرِّضَا
مَــا لِلْعَــلِيلِ إِذَا تَعَــلَّلَ بُــرْؤُهُ — إِلا بِــأَنْ يَــأْتِي الطَّبِيبَ الْمُمْرِضَا

(حكاية) قال مالك بن دينار رضي الله عنه : احتبس عنا المطر بالبصرة ، فخرجنا نستسقي مراراً فلم نر أثر الإجابة ، فخرجتُ أنا وعطاء السلمي وثابت البناني ويحيى البكائي ومحمد بن واسع وأبو محمد السختياني وحبيب الفارسي وحسان بن أبي سنان وعتبة الغلام وصالح المري ، حتى صرنا إلى المصلى بالبصرة ، وخرج الصبيان من المكاتب ، واستسقينا فلم نرَ أثر الإجابة ، فانتصف النهار ، وانصرف الناس ، وبقيت أنا وثابت البناني بالمصلّى ، فلما أظلم الليل إذا بأسودَ مليحِ الوجه ، رقيق الساقين ، عظيم البطن ، عليه مئزر صوف ، قُوِّمَ جميعُ ما عليه بدرهمين ، فجاء بماء فتوضأ ، ثم جاء إلى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين ، كان قيامه وركوعه وسجوده سواء ، ثم رفع طرْفَه إلى السماء ، فقال : سيدي ، إلى كم ترى عبادك فيما لا ينقصكَ ، أنفدَ ما عندكَ أم نقصتْ خزائنُ ملككَ ؟ أقسمتُ عليكَ بحبكَ لي إلا ما سقيتنا غيثكَ الساعة ، فما تم الكلام حتى تغيمت السماءُ ، وجاءت بمطر كأفواه القرَب ، ولم نخرج من المصلى إلا ونحن نخوض في الماء إلى الركب ، وبقيتُ أتعجب من الأسود ، قال مالك : ثم رحتُ له ، وقلتُ : يا أسودُ ، أما تستحي مما قلتَ ؟ قال : وماذا قلت ؟ قال : قولكَ : بحبك لي ، وما يدريكَ أنه يحبكَ ؟ فقال : تنحَّ عني يا مَن اشتغل عنه بنفسه ، أين كنتُ أنا حين خصني بالتوحيد بمعرفته ؟ أفتراه بدأني بذلك إلا لمحبته ، ثم قال : محبته لي على قَدْره ، ومحبتي له على قَدْري ، فقلت

له : يرحمكَ الله ، ارفق قليلاً ، قال : أنا مملوك ، وعليَّ فرض مِن طاعة مالكي الصغير ، قال : فجعلنا نقفو أثره على البعد حتى دخل دار نخاس ، وقد مضى من الليل نصفه ، فطال علينا النصف الثاني ، فلما أصبحنا أتينا النخاس ، فقلت له : عندكَ غلام تبيعه منا للخدمة ، فقال : نعم ، غلام ومائة كلهم للبيع ، قال : فجعل يعرض عليَّ واحداً بعد واحد ، حتى عرض على سبعين غلاماً ، و لم أرَ صاحبي فيهم، فقال : ما عندي غير هؤلاء ، فلما أردنا الخروج دخلنا حجرة خربة خلف داره ، فإذا أنا بالأسود قائم يصلى ، فقلتُ : صاحبنا ، ورب الكعبة ، فخرجت إلى النخاس ، وقلت له : بعني هذا الغلام ، فقال : يا أبا يحيى ، هذا غلام شؤم ونكد ، ليس له في الليل همة إلا البكاء ولا بالنهار إلا الصلاة والنوم ، قلت : لذلك أردته ، قال : فدعاه فخرج وهو يتناعس ، فقال لي : خذه بما شئتَ بعد أن تبرئني من عيوبه كلها ، فاشتريتُه منه بعشرين ديناراً ، وقلتُ له : ما اسمه ؟ قال : ميمون ، قال : فأخذتُ بيده ، أريد المنزل ، فالتفتَ إليَّ ، وقال : يا مولايَ الصغير ، لماذا اشتريتني ، وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين ؟ فقلتُ له : إنما اشتريتكَ لأخدمكَ بنفسي وعلى رأسي ، قال : ولِمَ ذلك ؟ فقلتُ : ألست صاحبنا البارحة بالمصلى ، فقال : وقد اطلعتَ عليَّ ؟ قلتُ : أنا الذي اعترضتُكَ البارحة في الكلام ، قال : فجعل يمشي حتى أتى مسجداً ، فدخله ، وصلى فيه ركعتين ، وقال : إلهي وسيدي سرٌّ كان بيني وبينكَ أطلعتَ عليه المخلوقين ، وفضحتني به بين العالمين ؛ فكيف يطيب الآن عيشي ، وقد وقف على ما كان بيني وبينك غيرُكَ ؟ أقسمتُ عليكَ إلا ما قبضتَ روحي الساعة ، ثم سجد فانتظرتُه ساعة ، فلم يرفع رأسه ، وحركتُه ، فإذا هو ميت ، قال : فمددتُ يديه ورجليه ، فإذا وجهه ضاحك وقد غلب البياض السواد ، وصار الوجه كالقمر ، قال : وإذا شابٌّ قد أقبل من الباب فقال : السلام عليكم ، أعظم الله أجرنا وأجركم في أخينا ميمون ، هاكم الكفنَ فكفنوه فيه ، فناولني ثوبين ما رأيتُ مثليهما فكفنته فيهما ، قال مالك : بقبره إلى الآن نستسقي، ونطلب الحوائج من الله تعالى ، وقيل في المعنى :

مَجَالُ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ بِرَوْضَةٍ ... سَمَاوِيَّةٍ مِنْ دُونِهَا حُجُبُ الرَّبِّ
فَعَسْكَرُهَا فِيهَا وَمَجْنَى ثِمَارِهَا ... تَنَسُّمُ رُوحِ الأُنْسِ بِاللَّهِ مِنْ قُرْبِ
تُكَفِّفُهَا مِنْ عَالَمِ السِّرِّ قُرْبَةٌ ... فَلَوْلا مَدَى الآجَالِ ذَابَتْ مِنَ الْقُرْبِ
وَأَرْوَى صَدَاهَا صِرْفُ كَاسَاتِ حُبِّهِ ... وَبَرْدُ نَسِيمٍ جَلَّ عَنْ مُنْتَهَى الْخَطْبِ

فَيَـا لَقُـلُوبٍ قُـرِّبَتْ فَـتَقَرَّبَتْ ... لَـدَى الْعَـرْشِ مِمَّنْ زَيَّنَ الْمُلْكَ بِالْقُرْبِ
لَهَا مِنْ لَطِيفِ الْعَزْمِ عَزْمٌ سَرَتْ بِهِ ... وَيُهْـتَكُ بِالأَسْـتَارِ مِـنْ دَاخِلِ الْحُجْبِ
رَضَاهَا فَأَرْضَاهَا فَحَارَتْ يَدُ الْعُلا ... وَحَـلَّتْ مِـنَ الْمَحْبُوبِ بِالْمَنْزِلِ الرَّحْبِ
فَـإِنْ فَقَدَتْ خَوْفَ الْفِرَاقِ لإِلْفِهَا ... أَدَامَـتْ حَنِيـنًا تَطْـلُبُ الأُنْسَ بِالْقُرْبِ
سَـرَى سِرُّهَا بَيْنَ الْحَبِيبِ وَبَيْنَهَا ... فَأَضْحَى مَصُونًا عَنْ سِوَى الْحُبِّ فِي الْقَلْبِ

نسأل الله عز وعلا أن يرزقنا العافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

المجلس السابع

في قوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾ [آل عمران:٤٥].

الحمد لله مطلعِ آقمار البراهين من قعر بحر ظلمات الغيوب في طباق آفاق قلوب العارفين ، ومُنبتِ أزهار أنوار المكاشفات في روضات جنات أفئدة أفهام المتأملين بإدرار مدرار ما رُوي عن المختار « إن من أمتي لمحدثين » ، باعث رياح ركبان الارتياح في ضحضاح بطاح صدور سدرة الأسرار ، نشراً بين يديْ غيب غيبة ﴿ **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [التوبة:٢١و٢٢] ، مطهرِ ورود الأوراد وأقاح الحق ونسرين السر وسوسن الأجر ، يُعجب الزُّرَّاع ليغيظ بذلك قلوب الكافرين ، مُنطقِ أطيار الأوطار على أفنان أبيان بيان البيان بألحان الشهادة له بالجلال والعظمة والكبرياء والعلم واليقين والريحان ، يترنح من سُلاف مُدام الغمام والنعمان ، يتمايل من خَندريس الواردات في مدرسة الأُوام على الدوام ، والرعد يُسبحه ويُسعد تسبيحَهُ نوحُ الحمام ، ويسري بركائب النجائب في ميدان المسبحين ، فانظر أيها المعتبر إلى ازدحام ركائب نجائب العجائب ، وكل تسبيح في تيار قدرته ، ويقول بلسان فطرته : لا إله إلا الله ، الملك الحق المبين ، خلق آدمَ من ماء وطين ، وجعله أبا البشر أجمعين ، وصور عيسى بكلمته ، ونفخ فيه من روحه ، فإذا به من جيبها يتحرك في بطن أمه ويستبين ، وجعله ﴿ **وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [آل عمران:٤٥و٤٦]. أحمده حمد الشاكرين وأسأله ثواب الذاكرين ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الذي تبرأ من الآباء والأبناء والأزواج والأصهار ، والأعوان والأنصار ، والحدود والأقطار ، والحلول والقرار ، والصاحبة والقرين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله النبي العربي المكي الأبطحي الزمزمي القرشي سيد المرسلين ، وإمام الملائكة المقربين ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وقيل في المعنى :

وَحِّـــدْ إِلَهَــكَ أَيُّهَــا الْمُـتَوَانِي	فَهُــوَ الْمُـنَزَّهُ فِي الْعُلا عَنْ ثَانِي
وَاذْكُــرْهُ ذِكْــرَ مُعَظِّــمٍ لِجَلالِهِ	وَاشْــكُرْهُ فِــي الإِسْرَارِ وَالإِعْلانِ
وَانْظُــرْ بِعَيْــنِ الْقَــلْبِ فِي آيَاتِهِ	وَمِــنَ الْعَجَــائِبِ خِلْقَةُ الإِنْسَانِ
فَــلَكَمْ لَــهُ مِــنْ آيَــةٍ وَدَلالَــةٍ	ومــن العجلـئب خلقةُ الإنسانِ
سَــوَّاهُ مِــنْ مَــاءٍ مَهِــينٍ خَائِرٍ	وَغَــنِيْ بِقَوْلَةِ : كُنْ ، عَنِ الأَعْوَانِ
قُلْ كَيْفَ يُجْحَدُ مَنْ عَوَارِفُ فَضْلِهِ	تَــبْدُو رَوَائِحُهَــا بِكُــلِّ مَكَــانِ
أَبَــدًا تُخَالِفُــهُ وَتَعْصِــي أَمْــرَهُ	وَمَــعَ الْخِــلافِ يَمُدُّ بِالإِحْسَانِ
هَــذَا الدليــلُ عَــلَى كَمَالِ إِلَهِنَا	وَتَــدُلُّ فَعْلَتُــنَا عَــلَى النُّقْصَــانِ

قوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾ [آل عمران:٤٥]. وهب الله لعيسى عليه السلام عشرة أشياء :

أولها : الولادة بغير أب ، قيل : إن جبريل عليه السلام نزل على مريم فنفخ في جيبها، فلم يصل برد النفخة إلى الجلد إلا والجنين يتحرك في البطن .

الثاني : تكليمه للناس في المهد ، كما كان يكلمهم كهلاً ، قال الله تعالى : ﴿ **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً** ﴾ [آل عمران:٤٦] .

الثالث : آتاه الكتاب فحفظه في بطن أمه ، وكان يدرس القرآن في بطنها ، وهي تسمع قراءته .

الرابع : يُبْرِئُ الأكمه والأبرص بإذن الله .

الخامس : يحيي الموتى بإذن الله .

السادس : يخلق من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله . قيل : إنه كان مع الصبيان ، فقال : ما تشتهون أن أصور لكم من الطين ؟ قالوا : الخفاش ؛ لأنه أعجب الخلق ؛ لأنه لا عَظْمَ له ، فأخذ تراباً جعله في يده ، وبصق عليه ، ثم قال : كن طيراً بإذن الله ، فإذا به خفاش يطير كما عَنَوْهُ .

السابع : الزهادة في الدنيا ، فإنه كان يلبس الشَّعر ، ويتوسد الحجر ، ويستنير بالقمر ، كان له قدح يشرب فيه الماء ويتوضأ ، فرأى رجلاً يشرب في الوادي بيده ، فقال عيسى عليه السلام : هذا أزهد مني ، فرمى القدح فكسره ، ولقد ساح يوماً في بعض البراري ، فلحقتْهُ الشمسُ ، واشتدَّ عليه الحرُّ ، وإذا بخيمة عجوز ، فجاء إليها ، واستظل بظلها ، فخرجت العجوز إليه ، وطردته ، فقام وهو يضحك ، وقال : يا مسكينة ، ما أنت التي أقمتني ، بل أقامني الذي لم يُرد أن يجعل لي نعيماً في الدنيا .

الثامن : الخط كما جاء في الخبر : « إن الله تعالى قسم الخط إلى عشرة أجزاء فأعطى الخلق كلهم جزءاً واحداً ، وأعطى عيسى عليه السلام تسعة أجزاء » .

التاسع : رفعه إلى السماء قوله تعالى : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء:١٥٨] .

العاشر : نزوله إلى الأرض في آخر الزمان ، قال النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله تعالى عنه : « ذكر رسول الله ﷺ عيسى عليه السلام ونزولَهُ في آخر الزمان عند انفجار الصبح ما بين مهرودتين ، وهما ثوبان مصبوغان بالزعفران ، أبيض الجسم ، أصهب الرأس ، أفرق الشعر ، كأن رأسه يقطر منه الدهن ، عليه بُرنس وبيده حربة ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويُهلك الله على يديه المسيح الدجال ، ويفيض المال فيضاً ، وترتفع حمة كل ذي حمة ، ويبعث الله أهل الكهف فيغزون معه ، ويحجون معه ، ويبسط الأمن في المشرق والمغرب حتى يرتع الأسد مع الإبل ، والنمر مع البقر ، والذئب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات ، ويتزوج عيسى عليه السلام امرأة من غسان حتى يعلم مَنْ كان يقول فيه البهتان أنه من ولد آدم يأكل مما يأكلون ، وينكح كما ينكحون ، ويحج ويعتمر في سبعين ألفاً منهم أصحابُ الكهف ، ويستخرج الكتب من غار أنطاكية حتى يحكم بين أهل التوراة بالتوراة ، وبين أهل الإنجيل بالإنجيل ، وبين أهل الزبور بالزبور ، وبين أهل الفرقان بالفرقان ، ويكشف الله له عن مدينة كانت الجن بنتها لسليمان بن داود عليهما السلام لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، فلما مات سلط الله الريح على الرمل حتى سترها ، فيقسمها عيسى عليه السلام بين المسلمين ، ويخرج اللهُ عز وجل التابوتَ الذي أمر أرمياءَ

أن يرميَهُ في بحيرة طبرية فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون ورضاضة الألواح وعصا موسى وقباء هارون ، وعشرة آصع من المن ، وشرائح السلوى ادخرها بنو إسرائيل لمن بعدهم ، فيستفتح بالتابوت على عدوه ، كما كان يستفتح مَنْ قبله ، وينشر الإسلام في المشرق والمغرب والجنوب والقبلة ، ويُعَمَّر عيسى عليه السلام أربعين سنة ، السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة كاليوم ، واليوم كالساعة ، ثم تقبل ريح باردة ، ألين من الحرير ، وأفيح من المسك ، فتقبض روح عيسى عليه السلام ومن معه من المسلمين حتى لا يبقى على وجه الأرض مسلم ، ثم تطلع الشمس من مغربها ، ويُغلق باب التوبة » (١) ، هذا من كتاب العجائب وإظهار الغرائب ، وقيل : إن مريم عليها السلام حين حملتْ بعيسى عليه السلام دخلتْ عليها أختُها لتزورَها في محرابها ، وكانت أختُها زوجةَ زكريا ، وكانت حاملاً بيحيى ، فقالت : يا مريم ، أفي بطنك شيء ؟ قالت : وما سؤالك عن ذلك ؟ قالت : إني أجد هذا الجنين الذي في بطني يسجد للجنين الذي في بطنك(٢) ، وقيل في المعنى :

أَظُـنُّك حُبْـلَى أَمْ بِبَطْنِكِ آيَةٌ ... أَلا فَاخْبِرِينِي وَاصْدُقِي فِي التَّكَلُّمِ
أُحِسُّ جَنِينِي سَاجِدًا لِلَّذِي ثَوَى ... بِبَطْنِكِ فَاصْغَيْ قولتي وتفَهَّمي
فَـنَادَى لِسَانُ الْحَالِ هَذَا نَبِيُّكُمْ ... وَرُوحُ إِلَهِ الْعَرْشِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمِ
فَكَـمْ مَيِّتًا يُحْيِي وَيُبْرِئُ أَكْمَهًا ... وَكَـمْ حِكْمَـةً يُبْدِي بِغَيْرِ تَعَلُّمِ

وقيل : لما أرادتْ وضعَهُ صعُبَ نفاسُها عليها ، فبقيتْ أياماً في طَلْقها ، ولم يتزل بأحد من النساء بعد حواءَ ما نزل بها ، فلما وضعتْهُ تفكَّرت في لوم قومها واختلاف أقوالهم : ﴿**قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً**﴾ [مريم:٢٣] ، وإذا به يناديها ﴿ **أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياً ، وَهُزِّي**

---

(١) الحديث به فقرات صحيحة جاءت بها الأحاديث المتواترة ، كترول المسيح عليه السلام ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، والريح التي تقبض روح المؤمنين ، ولكنه غريب بهذا السياق .

(٢) لم نقف على سند يُعوَّل عليه .

إِلَيْك بجذْعِ النَّخلَة تُساقطْ عَلَيْك رُطَباً جَنياً ، فَكُلي وَاشْرَبي وَقَرِّي عَيْناً فَإمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً فَقُولي إِنِّي نَذَرْتُ للرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنسياًّ ﴾ [مريم:٢٤- ٢٦] . قال : فهزتِ النخلةَ ، وكانت تلك النخلةُ لم تثمر شيئاً ، فطلع جريدها وأثمرت وأطعمت من ساعتها ، وتهصرت أوراقها عليها ، فأظلت وجرى عليها عين ماء بارد ، فأكلت من الثمر ، وشربت من الماء ، وغسلت جنينها ، فأتاها قومها يُهرعون إليها ، ويسطون ألسنة الملامة إليها ، فإذا بالولد قد توكأ على يمينه ، وقال : ﴿ **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَني نَبياً ، وَجَعَلَني مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ** ﴾ [مريم:٣٠ – ٣١] ، أي نَفَّاعاً للخلق ﴿ **وَأَوْصَاني بالصَّلاة وَالزَّكَاة مَا دُمْتُ حَياًّ ، وَبَراً بوَالدَتي وَلَمْ يَجْعَلْني جَبَّاراً شَقياً ، وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وَلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبعَثُ حَياًّ** ﴾ [مريم:٣١ – ٣٣] ، وقيل في المعنى :

أَتَوْهَا وَقَدْ رَاشُوا سِهَامَ مَلامِهِمْ ... وَفَوَّقَ كُلٌّ مِنْهُمُ نَحْوَهَا سَهْمَا
وَظَنُّوا ظُنُونًا وَالظُّنُونُ كَوَاذِبٌ ... بِهَا اسْتَوْجَبُوا الإِبْعَادَ وَالطَّرْدَ وَاللَّوْمَا
فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهَا أَشَارَتْ إِلَى ابْنِهَا ... وَقَالَتْ : سَلُوهُ إِنَّهُ قَدْ بَدَا خَصْمَا
فَنَادَاهُمُ فِي الْمَهْدِ مِنْ بَعْدِ مَا اتَّكَا ... أَلا إِنَّنِي عِلْمٌ لِمَنْ عَلَّمَ الأَسْمَا
هَدَانِي وَأَهْدَانِي سَبِيلَ رَشَادِهِ ... وَأَنْطَقَــنِي فِي الْمَهْدِ مِنْ أَمْرِهِ حَتْمَا
وَخَصَّصَنِي بِالنَّفْعِ مِنْهُ فَهَا أَنَا ... بِقُدْرَةِ رَبِّي أُبْرِئُ الأَبْرَصَ الأَعْمَى

وهو أحد السبعة الذين تكلموا في المهد في أوان رضاعهم ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : «لم يتكلم في المهد إلا **ثلاثة** : عيسى ابن مريمَ ، وصاحب جُريجَ ، وكان رجلاً عابداً ، فاتخذ صومعةً ، وكان فيها فجاءتْه أمه وهو يصلي فقالت : يا جُريج ، فقال : يا رب ، أمي وصلاتي ! وأقبل على صلاته فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي ، فقالت : يا جُريج ، فقال : يا رب ، أمي وصلاتي ! وأقبل على صلاته ، فقالت : اللهمَّ ، لا تُمتْهُ حتى ينظرَ إلى وجوه المومسات ، فتذاكر بنو إسرائيل جُريجاً وعبادتَهُ ، وكانتَ هناك امرأة بغيٌّ

فقالت : لئن شئتُمْ فتنتُهُ لكم ، قال : فتعرضتْ له ، فلم يلتفتْ إليها ، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته ، فمكنتْهُ من نفسها ، فوقع عليها فحملتْ ، فلما وضعتْهُ قالت : هو من جُريج ، فأتوا إليه واستنزلوه ، وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : زنيتَ بهذه البغي ، وقد ولدتْ منكَ ، فقال : أين الولد ؟ فجاءوا به ، فقال : دعوني حتى أصلي فصلى ، فلما فرَغ من صلاته أتى الصبي ، فطعن في بطنه بأُصبعه ، فقال : يا غلام ، مَنْ أبوكَ ؟ قال : فلانٌ الراعي ، فأقبلوا على جُريج يُقبِّلُونه ، ويتمسَّحُون به ، وقالوا له : نبني صومعتكَ من ذهب قال : لا ، بل أعيدوها من طين كما كانت ، ففعلوا . وبينما صبي يرضع من أمه ، فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة ، فقالت أمه : اللهم ، اجعل ابني مثل هذا ، فترك الثدي ، وأقبل عليه ينظر إليه ، وقال : اللهم ، لا تجعلني مثله ، ثم أقبل على ثديه ؛ فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي رضاعه بأُصبعه السبابة في فمه ويمصها ، قال : ومر بجارية وهم يضربونها ويقولون : زنيتِ وسرقتِ ، وهي تقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقالت أمه : اللهم ، لا تجعلَ ابني مثلها ، فترك الرضاع ونظر إليها ، وقال : اللهم ، اجعلني مثلها ، فهنالك تراجع الحديث ، فقالت أمه : مر بي رجل حسن الهيئة ، فقلتُ : اللهمَّ ، اجعلْ ابني مثلَهُ ، فقلتَ : اللهم ، لا تجعلني مثله ، ومر بهذه الأمة وهم يضربونها ، ويقولون : زنيتِ وسرقت ، فقلتُ : اللهم ، لا تجعل ابني مثلها : فقلتَ : اللهم ، اجعلني مثلها ، فقال : إن الرجل كان جباراً ،فقلتُ : اللهم ، لا تجعلني مثله ، وإن هذه الأمَةَ يقولون لها : زنيتِ وسرقتِ ، ولم تزنِ ولم تسرقْ ، فقلتُ : اللهم ، اجعلني مثلها»(١)، ذكره مسلم .

الرابع : صاحب الأخدود « بينما رسول الله ﷺ جالس ذات يوم إذ رفع رأسه إلى السماء ، ثم أرسل عينيه بالبكاء ، وقال : ماذا نزل ، ثم تلا عليهم ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ** ﴾ [البروج:١] إلى قوله : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ** ﴾ [البروج:٤،٣] ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : أخبرني جبريل عليه السلام أن ملكاً جباراً كان صاحب سحر ونجوم وكهانة ، وكان له شيخٌ ساحرٌ كاهنٌ لا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣ / ١٢٦٨ ، ومسلم في صحيحه ٤ / ١٩٧٧ .

يصدر الملك إلا عن رأيه ، فقال الشيخ : أيها الملك ، قد كبرَ سني ودقَّ عظمي ، وأرى أن تنظر إليَّ غلاماً أديباً ، أعلمه العلم ، فيكون خلفاً بعدي ، فأرسل الملك إليه غلاماً كان عنده ، فصار يختلف إلى الكاهن ، فمر ذات يوم فنظر بكاء من تحت الأرض ، فنظر فإذا هو بسرب تحت الأرض ، فدخل فإذا هو برجل راهب عليه ثوبان من شَعر ، فقال له : من أدخلكَ عليَّ ؟ فأخبره بخبره فرغَّبه في الخير ، فأقام عنده يومه إلى الليل ، فقال له الراهب : أعطني مَوْثقاً أن لا تدلَّ عليَّ أحداً وإن قُتلتَ وإن حُرقتَ بالنار ، فأعطاه مَوْثقَهُ ، وانصرفَ إلى الملك ، فسأله عن حاله وغيبته ، فخشي أن يُفشي على صاحبه ، وكره أن يكذب ، فضربوه وأوجعوه ، ثم وجهوه إلى الكاهن ، فدخل على الراهب ، وأخبره بخبره ، وخبر ما لقي ، فقال له : إذا سرْتَ إلى الكاهن ، فقل له : كنت عند أهلي ، وإذا سرتَ إلى أهلكَ ، فقل لهم : كنت عند الكاهن ، فمكثَ على ذلك زماناً إلى أن استفرغ علم الكاهن ، وفاق فيه ، فمر يوماً ببعض وزراء الملك ، وكان قد عمي ، فقال له الصبي : أرأيتَ إن رَدَّ الله بصرَكَ ، أتؤمن بالله ؟ قال : نعم ، فمر الصبي على عينيه فعادتا كما كانتا ، فآمن بالله تعالى ، ثم دخل على الملك ، فقال : من أبرأك ؟ قال : مولاي ، قال : ومن مولاكَ ؟ قال : الله تعالى ، فاغتاظ الملك ، وعرض عليه أن يرجع إلى دينه فأبى ، فقال : من دلكَ على هذا ؟ قال : الشابُّ ، فأمر بإحضاره ، وقال له عندما رآه : ويحكَ ، ما يقول هذا ؟ قال : يقول الحقَّ ، الله الذي أبرأه ، وهو على كل شيء قدير ، فأمر بصَلْبه ، وطعنه بالرماح ، فلم يقدر عليه ، فأمر بحَرْقه وهو على خشبة فلم يُحرق ، فأمر يومئذ بجعله في خندق ، وأن يرموه بالسهام فلم تصل السهام إليه ، وقيل في المعنى :

لَـئِنْ أَضْرَمَ الأَعْدَاءُ نَارَ عِنَادِهِمْ ... وَجَـاءُوا جَمِيعًـا بِالْمَضَرَّةِ وَالْكَيْدِ
وَإِنْ عَقَدُوا عَقْدَ الْخِلافِ بِزَعْمِهِمْ ... وَرَاشُوا سِهَامَ الْبَغْي فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ
فَلَسْـتُ أُبَـالِي بِالَّذِي يَفْعَلُونَهُ ... إِذَا كُـنْتَ مَـوْلايَ غَلَبْتُهُمْ وَحْدِي
وَإِنَّ غَـرَامِي فِيكَ عَذْبٌ مَذَاقُهُ ... وَمَطْعَمُهُ فِي الْقَلْبِ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ
وَمَا فَقْدُ نَفْسِي فِيكَ صَعْبٌ لأَنَّنِي ... وَجَـدْتُ لَذِيذَ الْوَصْلِ يَحْصُلُ بِالْفَقْدِ

« فمكث كذلك سبعة أيام ، ثم قال : أيها الملك : إنكَ لا تقتلني حتى تأخذ سهماً من كنانتكَ ، ثم تقول : اللهم ربَّ هذا الغلام ، اقتله ، فأخذ الملك السهم ، وقال :

اللهم ربَّ هذا الغلام ، اقتله ، وضرب بالسهم نحوه ، فسال دمه ، والناس ينظرون إليه ومات ، فقال الناس : آمنا برب هذا الغلام ، فخَدَّ في الأرض أُخدوداً ، وأضرم النار فدعا بالناس ، فكل مَنْ آمن بالله أحرقه ، ومَنْ رجع عن الإسلام تركه ، فجيء بامرأة معها صبي رضيعٌ ، فعرض عليها الكفر فأبتْ ، فأمر بها إلى الأخدود ، فلما نظرتْ إلى النار ، أشفقتْ على الصبي ، وهمَّتْ أن ترجع ، فأنطق الله الصبيَّ وقال : يا أماه ، لا تكفري بعد إيمانك ، فإن الله يجعلها عليك برداً وسلاماً ، فرمت بنفسها مع ولدها في النار »[١] ، ذكره مسلم والبخاري بهذا اللفظ .

والخامس : صبي ماشطة بنت فرعون ، لعنه الله تعالى ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « كان لفرعونَ خازنٌ من بني إسرائيل اسمُه حزقيل ، وكان مؤمناً يكتم إيمانه مائة سنة ، وكان قد لقي ما لقي من أصحاب موسى ﷺ وكانت امرأته ماشطة ابنة فرعون ، فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها ، فقالت : تعس مَنْ كفر بالله ، فقالت لها بنت فرعون : وهل لك إلهٌ غير أبي ، فقالت : إلهي وإله أبيكِ ، وإله مَنْ في السموات والأرض واحد لا شريكَ له ، فقامت فدخلت على أبيها وهي تبكي ، فقالت : يا إلهي ، إن الماشطة زوجة حزقيل تزعم أن إلهكَ وإلهها واحد ، فأرسل إليها وأوقفها بين يديه وسألها عن ذلك ؟ فقالت : صدقتْ ، فقال لها : ويحك ، ارجعي إلى عبادتي ، فقالت : لا أفعل ، فأمر بأربعة أوتاد من حديد فسمرت يداها ورجلاها ، وأرسل عليها الحيات والعقارب وقال لها ، لا أُزيل عنك ما نزل بكِ من العذاب حتى ترجعي إلى عبادتي ، فقالت : والله ، لو عذبتني مُدَّةَ الدنيا ما رجعتُ عن ديني ، وكان لها ابنان ، فأتى بالكبير فقال : إن لم ترجعي عن دينكِ وإلا ذبحتُهُ ، فقالت : لا أفارق ديني ، فذبحه على صدرها ، ثم أتى برضيع لها فوضعه على صدرها ، وقال : إن لم ترجعي عن دينكِ وإلا ذبحتُهُ ، فنظرتْ إلى الصبي، وأدركها الإشفاقُ عليه فسكتتْ ، وقيل في المعنى :

بِعَيْنِكَ مَا أَشْكُو مِنَ الْبَثِّ وَالْبَلْوَى ... فَعِلْمُكَ أَغْنَانِي عَنِ الشَّرْحِ وَالشَّكْوَى
وَقَدْ أَنْفَدَ الْبَيْنُ الْمُشَتِّتُ مُقْلَتِي ... وَصَيَّرَنِي مَا قَدْ بُلِيتُ بِهِ نِضْوَى
أُقَلِّبُ طَرْفِي فِي الْوُجُودِ فَلا أَرَى ... سِوَى مَنْ يَرَى قَتْلِي أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى

(١) انظر السابق .

وَحَقِّكَ مَا أَعْيَا بِمَا فِيكَ نَالَنِي ... إِذَا كُنْتَ تَرْضَانِي فَقَدْ صَحَّتِ الدَّعْوَى
وَمَا الشَّهْدُ إِلا أَنْ أَكُونَ شَهِيدَةً ... عَسَى نَاظِرِي يَوْمًا يُشَاهِدُ مَنْ يَهْوَى

فأنطق الله الصبي ، وقال : يا أماه ، لا تحزني ، واصبري على ما نالكِ ، فالله قد بنى لكِ بيتاً في الجنة » ، ذكره وثيمة .

والسادس : مبارك اليمامة ، قال أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه : « كان رسول الله ﷺ قاعداً يوماً إذ دخلتْ امرأة على يديها صبى رضيع ، وكانت من أهل اليمامة ، فجعل الصبي ينظر إلى رسول الله ﷺ ، فأقبل عليه النبي ﷺ وقال : يا غلام ، من أنا ؟ فقال الصبي بلسان فصيح : أنت رسول الله وخاتم النبيين ، فقال له النبي ﷺ : أحسنتَ أيها الصبي ، بارك الله فيكَ ، وأمسكَ اللهُ على لسانه إلى وقت كلامه » ، قال أنس رضي الله عنه : فكان الصبي بعد ذلك لا يدخل بيتاً ولا يقصد موضعاً إلا ظهرتْ بركته في أهل ذلك الموضع حتى سُمي : مباركَ اليمامة ، ذكره صاحب كتاب الغرائب في إظهار العجائب ، وقيل :

نَطَقَ الصَّبِيُّ وَنُطْقُهُ بُرْهَانُ ... وَبَدَا الدَّلِيلُ لِمَنْ لَهُ إِنْسَانُ
نَادَاهُ خَيْرُ الْخَلْقِ قُلْ لِي مَنْ أَنَا ... فَالصِّدْقُ مِنْ وَقْعِ الْعَذَابِ أَمَانُ
فَأَجَابَهُ أَنْتَ الرَّسُولُ الْمُرْتَضَى ... أَنْتَ الْخِتَامُ وَحُبُّكَ الْقُرْبَانُ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَأَسْمِعُونِي ذِكْرَهُ ... فَلَهُ لَدَى رَبِّ الْبَرِيَّةِ شَانُ

والسابع : شاهدُ يوسفَ عليه السلام حين شهد ببراءة يوسف ، ودله على تمزيق القميص ، ولما رأى العزيز القميص قُدَّ من دُبر ، قال لها ما أخبر الله تعالى عنه : **﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٢٨]** . قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان ، ثم تلا قوله تعالى : **﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [يوسف:٢٨]** . وقوله تعالى **﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾** » ثم أقبل على يوسف ، فقال : يا **﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾** [يوسف : ٢٩] ، أي اكتمه ، ثم قال لها : **﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾** [يوسف : ٢٩] ، فقالت له : يا يوسفُ فضحتني ، والله ، لأسلمنكَ

للمعذّبين يعذبونكَ حتى ينسل جسمكَ كما سللتَ جسمي ، فقال لها : إن كنتِ احتقرتني لغربتي ، فالله حسبي ونعم الوكيل ، فاشتغلتْ عن ذلك بكلفها به ، فشاع الخبر بمصر أن امرأة العزيز راودت فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا ، كان الحسن يقول : لو شغفها لماتت ؛ لأن الشغاف الحجاب، وهو سويداء القلب ، فلو وصل الحب شغافها لماتت ، يقال : إن الشغاف الجلدة الملاصقة للكبد ، وهي جلدة بيضاءُ ، فلصق حبها بقلبها كالتصاق الجلدة بالكبد . وقال عكرمة ومجاهد : قد شغفها ، دخل حبه شغاف قلبها . وقال الضحاك : معناه هلكت عليه حبًّا . وقال السدي : الشغاف جلدة على القلب ، يقال لها : شغاف القلب ، ويقال : المحبة على ضربين : محبة تزيد بالقرب وتنقص بالبعد ، وصاحبها يملك أمره ويكتم سره . ومحبة خرقت حجاب الشغاف ، واستولت على عرش القلب ، وسَرَتْ في سر سُويدائه ، فالعين تدمع ، والقلب يخشع ، والكبد يُمزق ، والقدم يشطح ، واللسان يبوح ، وربما باح لسانه في موقف الحياء ، فيُقتل بسيف الغيرة ، وقيل في المعنى :

مَـــنْ لَـــمْ تَكُنْ أَعْلامُهُ وَاضِحَهْ ... فَـلَـوْعَةُ الْـحُـبِّ لَـهُ فَـاضِحَهْ
إِذَا الْهَـوَى لاحَ عَـلَى عَارِفٍ ... قَـطَّـعَـهُ جَـارِحَـةً جَـارِحَـهْ

فاجتمعت نساء الملوك والقادة في مجلس فتذاكرنَ أمرها ، وأشعن خبرها، وقلن ما أخبر الله عنهن : ﴿ **إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾ [**يوسف:٣٠**]. أي في تيه وحيرة ، فبلغ ذلك زليخا ، وعظُم عليها ، فأرادت أن تبين عذرها لهن به ، وقيل في المعنى :

أَحْبَابُ قَلْبِيَ مَا الأَحْبَابُ غَيْرُكُمُ ... إِذَا اسْتَحَالَتْ مِنَ الأَحْبَابِ أَحْوَالُ
كَمْ تَهْجُرُونَا بِلا ذَنْبٍ وَلا سَبَبٍ ... وَتَــزْعُمُونَ بِــأَنَّ النَّاسَ قَدْ قَالُوا
لا خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِنْ هُمُ سَكَتُوا ... مَــا لَذَّةُ الْحُبِّ إِلا الْقِيلُ وَالْقَالُ

فصنعت صنيعاً ، وأرسلت إليهن رسلاً يدعوهن إلى ضيافتها ، وهيأت لهن مجلساً ، وقيل : دعت عشرة نسوة ذوات أزواج على هيئات الملوك ، وعشرة عذارى من بنات الملوك ، وجعلت بين يديْ كل واحدة صفحةً من عسل وأترجةً وسكيناً حادًّا ، وقيل : دعت أربعين نسوة من بنات الملوك ، وهو قوله تعالى ﴿ **فَلَمَّا**

سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ [يوسف : ٣١] أي طعاماً وشراباً . وقال السدي : متكأ اتكأن عليه . وقال معمر بن المثنى : هي النمارق . وقال الضحاك : المتكأ كل شيء يقطع بالسكين مثل الموز والخيار ونحوه . وقال زيد : آتت كل واحدة منهن سكيناً وأترجة ، وجعلت بين أيديهن عسلاً ، فكنَّ يقطعن الأترج بأيديهن ، ويأكلن بالعسل ، فقالت لهن : ما حقي عليكن ؟ فقلن لها: أنت سيدتنا وكبيرتنا والمطاعة فينا نسمع لك ونطيع ، قالت : بحقي عليكن إذا خرج عليكن فتاي يوسف إلا ما قطعتن له مما في أيديكن ، وأعطيتهن يأكل ، فقلن لها : حبًّا وكرامة ، فأقبلتْ على يوسفَ ، وقالت : يا يوسف ، أطعني اليوم واعصني أبداً ، قال : أما ما لم يكن فيه سخط ربي فلا أبالي ، فقالت له : دعني حتى أزينكَ وإن كنت مُزيناً ، قال : اصنعي ما بدا لك ، فرصعت ذوائبه بالدر والياقوت ، وكللت جبينه بالجوهر ، وألبسته قباء أخضرَ ، ومنطقته بمنطقة من ذهب أحمر ، ووضعتْ على عاتقه منديلاً من السندس ، وكأساً من ذهب في يده ، وقالت : اخرج عليهن ، فلو رأين منك ما رأيتُ لذهلن عن أنفسهن ، ولتركن الطعام والشراب ولُمْنَ أنفسهن كما لُـمْتَنِي ، وقيل في المعنى :

يَـا عَـاذِلِينَ وَلَـمْ يَرَوْا مَحْبُوبِي ... رِقُّـوا لِـقَـلْـبٍ وَالِهٍ مَـغْـلُوبِ
مَـا عَذْلُكُمْ فِي الْحُبِّ عِنْدِيَ نَافِعٌ ... لَـيْـسَ المخـيَّـرُ فِيهِ كَالْمَغْلُوبِ
أَنَا قَدْ خَرَجْتُ عَنِ الْعِتَابِ وَسَمْعِهِ ... وَخَـلَـعْـتُ طَوْقَ تَعَرُّضِي لِحَبِيبِي
وَلَـبِسْتُ ثَـوْبَ تَـذَلُّلِي لِجَلالِهِ ... وَفَنِيـتُ عَـنْ بُـعْدِي وَعَنْ تَقْرِيبِي
فَـلَـوَ انَّكُمْ أَبْصَرْتُمُوهُ عَذَرْتُمُ ... وَعَـجِبْـتُمُ لِـتَثَبُّـتِ الْمَكْـرُوبِ
مَـلَّـكْـتَ رِقِّيَ قَـاتِلِي مُتَعَمِّدًا ... فَنَعِيمُ قَـلْبِيَ ظَـلَّ فِي الـتَّعْـذِيبِ

قال : فخرج عليهن ، وهن قعود ، يقطعن في الأترج ، فلما رأينه ظنن أنه صنم زليخا الذي تعبده ، وكن يسمعن به ، ويتمنين أن ينظرن إليه ، فلما بدا لهن يوسف أكبرنه ، أي أجللنه ، وصرن شبهَ السُّكارى والحيارى من كثرة تعجبهن ، والإمعان في نظرهن إليه ، ورُمْنَ أن يقطعن ما في أيديهن ، كما شرطتْ زليخا عليهن ، فصرن يقطعن أيديهن ، فصارت الدماء تسيل في حجورهن ، وهن لا يجدن ألَمَ القطع ولا حدةَ السكاكين ولا وقوعَ الدم على الأجساد ويوسف ، يقول : ويحكن

ماذا تصنعن بأنفسكن ؟ إنما أنا عبد من عبيد ربي ، وزليخا تضحك مما تراه منهن من تقطع أيديهن وذهاب عقولهن ، فلما غاب عن عيونهن رجعن إلى أنفسهن ، فقالت لهن زليخا : ويحكن ، من لحظة واحدة فعلتن بأنفسكن هذا ! وأنا منذ سبع سنين أقاسي منه ما أقاسي ، وأخدمه على أطراف البنان ، وهو لا يعيرني طرفة ولا يلتفت نحوي [فقلن] لها : ﴿ **حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ [يوسف:٣١] ، يعني ما هذا من الآدميين ، إن هو إلا ملك من ملائكة السماء مر بنا ، فقالت لهن : ما هذا الذي فعلتن بأنفسكن ، فلما رأين ما نزل بهن أدركهن الخجل ، وذكرن ما لمنها به، وهو قوله تعالى : ﴿ **قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾[يوسف : ٣٢] قيل : أقرت بأمرها لما رأت ما رأت من عذالها ، وقيل: فاستعصم ، يعني بربه ، فقلن : إنكِ لمعذورة ، فمُرينا نكلمه في أمرك ، ونوبخه في إعراضه عنكِ ، وقيل في المعنى :

يَا عُذَّلي إنْ أَطَلْتُمْ فِي الْهَوَى عَذَلِي ... وَلَـمْ تَـرَوْا مُسْعِدًا مِنِّي فَخَلُّونِي
كُفُّـوا إِلَى أَنْ تَرَوْا مَا قَدْ بُليتُ بِهِ ... فَـإِنْ وَجَدْتُمْ إِلَى لَوْمِي فَلُومُونِي
ظَـبْيٌ كَـلِفْتُ بِهِ لَكِنْ يُكَلِّفُنِي ... مَـا لا أُطِيـقُ فَيَسْبِينِي وَيُضْنِينِي
يَمُـرُّ وَالْحُسْـنُ يَدْعُونِي فَأَتْبَعُهُ ... فَالْحُسْـنُ يُغْرِيهِ وَالأَشْوَاقُ تُغْرِينِي

فأذنت لهن في الخلوة به طمعاً في أن يُملنه إليها ، فجعلتْ كل واحدة منهن إذا خلت به تدعوه إلى نفسها ، وتشكو إليه وجدها ، فقال يوسف : يا رب ، كانت واحدة ، فصرن جماعة : ﴿ **رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ** ﴾ [يوسف : ٣٣] . عَدَّ السجن نعمة من الله عليه إذ هو سبب البعد منهن ، وقوله : أصبُ إليهن : من الصبوة ، وهي الميل إلى الأمر المكروه ، فاختار السجن على صحبتهن ، واستغاث بربه في صرفهن عنه وبعدهن منه ، قال الله تعالى : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ** ﴾[يوسف:٣٤ ، ٣٥] وقيل :

رفـعـت قِـصَّةَ أَشْوَاقِي وَأَشْجَانِي ... وَجِـئْتُ نَحْوَكَ يَا مَنْ جَلَّ عَنْ ثَانِي

كَمْ رُمْتُ أُبْدِيَ مَا قَدْ حَلَّ فِي جَلَدِي ... لَـكِـنَّ عِـلْمَكَ بِالأَسْرَارِ أَغْنَانِي
أَنْـتَ الْـعَـزِيزُ وَلِي ذُلٌّ وَمَسْكَنَةٌ ... أَنْـتَ الْقَـرِيبُ وَبَذْلُ الرُّوحِ قُرْبَانِي
رَضِيتُ بِالسِّجْنِ فِي نَيْلِي رِضَاكَ وَمَا ... أَعْيَـا بِمَـا نَالَنِي إِنْ كُنْتَ تَرْضَانِي
قَالَ الْـعَـوَاذِلُ أَقْـلِـلْ مِنْ تَذَكُّرِهِ ... وَكَـيْـفَ أَنْسَى حَبِيبًا لَيْسَ يَنْسَانِي
أَصُـدُّ عَـنْـهُ فَـيُدْنِينِي عَلَى عِلَلِي ... نَـعَـمْ وَيَـمْـنَحُنِي لُطْفًا وَيَرْعَانِي
إِذَا سَـأَلْـتُ سِـوَاهُ صَـدَّنِي وَإِذَا ... نَـادَيْـتُـهُ بِـخَـفِيِّ الْوَهْمِ لَبَّانِي
فَـكَـيْفَ يَـسْلُو فُؤَادِي عَنْ مَحَبَّتِهِ ... لَـهُ الْـبَـقَـاءُ وَكُـلٌّ هَالِكٌ فَانِي

يا متصرفون في إطلاق الأبصار ، جاء توقيع العدل ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** ﴾ [النور:٣٠] ، إطلاق البصر ينقش في القلب صورة المحبوب ، والقلب بيت ويسعني ، وما يرضى المعبود مزاحمة الأصنام ، واعجبا لزليخا أمكنها أن ترى محبوبها يوم ﴿ **اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ** ﴾ [يوسف:٣١] ، فكيف يصنع محب الخلق وهو لا يقدر أن يُري العذالَ ما رأى ، ما رأى ليلى على الحقيقة إلا قيس المحبوب ، ولو رآها مَنْ عذل عذر ، وقيل في المعنى :

عَـذَلَ الْـعَـوَاذِلُ حَوْلَ قَلْبٍ تَائِهِ ... وَهَـوَى الأَحِـبَّـةِ مِنْهُ فِي سَوْدَائِهِ
أَأُحِـبُّـهُ وَأُحِـبُّ فِـيـهِ مَـلامَةً ... إِنَّ الْمَـلامَـةَ فِـيـهِ مِـنْ أَعْدَائِهِ
فَـوَ مَنْ أُحِبُّ لأَعْصِيَنَّكَ فِي الْهَوَى ... قَـسَـمًـا بِـهِ وَبِـحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ
الْـقَـلْبُ أَعْـلَـمُ يَا عَذُولُ بِدَائِهِ ... وَأَحَـقُّ مِـنْـكَ بِخَـفْـيِهِ وَبِمَا بِهِ
لا تَـعْـذُلِ الْـمُـشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ ... حَـتَّى تَـكُونَ حَشَاكَ مِثْلَ حَشَائِهِ
إِنَّ الْـمُـحِـبَّ مُـضَـرَّجٌ بِدُمُوعِهِ ... مِـثْـلَ الْـقَـتِيلِ مُضَمَّخٌ بِدِمَائِهِ

لما لعبت يد الأوامر وغاص سماء فَلَك فُلك الإدارة في أبحر المقادر ، وأطلعت بدور الإرادات في أفلاك سماء السعادات ، أظهرت مخبآت عرائس الأسرار نُهودها ، وأبرزت شواهد الإرادة مقصودها ، كُورت شمس الظهور ، فبدا من كمين الغيب ما كان مسطوراً ، أظهر جمال يوسف ريان أشرف وسط ميدان كنعان ، واستبان

طمع الإخوة في إخفاء من قد ظهر ، وأراد كلهم أن يغالب القدر فما قدر ، قصدوا أن يبالغوا في غمه ، وبرز البدر من سجف سمائه وغيمه ، باعوه بأبخس ثمن ، وكلهم لا يعرف البيع لمن ليس له ناقد بصير فيعرفه ، وآفة التبر ضعف منتقده ، فضلت السيارة تستسقى وما علمت أن الدر تنتقى ، تدلي الدلو فلقف ، كأن يوسف الدر والدلوَ الصدف ، حمل إلى قصر المسرات ، أجلس على كرسى المبرات، بسطت زليخا سُفرة الملاحظة ، صنعت بياديق المعارضة ، قدمت رخ دعواها ، ظنت أنه لا يبقى معها أحد سواها ، أوقفت خيول الإحسان ، أبرزت أفيال خدمتها في ذلك الميدان ، أبدلت شاه حبها بالفرزان ، امتدت من الصديق كف الاختيار ، قدم لرحبها بيارق الأخيار ، أجرى خيول صدقه في ميدان الخروج عن رق الأغيار ، كف عن شاه عزمها بفرزان مساعدة الأقدار ، صاح لسان الغلط في المكرمات ، وكان جواب جاءكم الحق شاه مات ، يا زليخا ، لا يصل كف عدوانك إليه ؛ لأنا حفظناه من خلفه ومن بين يديه ، ليس يبلغ عندنا مراد من نوى غيرنا بالَوداد ، أنت واقفة موضع صورته وحسنه ، وهو يشاهد ما حصي لدينا من تأييده وصونه ، رُمت هلكته فقد أسعدناه ، وأردت حطه وقد رفعناه ، إن كان مرادكِ منه الدنو والتقريب فمرادنا منه العلو والتشبيب ، يا مَن رام غيرنا جهلتَ قدرنا ، يا مَن نقض عهدنا كل شئ لو عرفت ، إن رمت قربنا في دار ليس لها زوال ، فافتقد نفسك وتعال ، وقيل في المعنى :

دِنْـتَ بِالإِعْـرَاضِ عَـنِّـي فَلَكَمْ ... قَـدْ رَأَيْـتَ الْـبِرَّ مِـنِّـيَ وَالْوَفَا
هَـــلْ تَـرَى دُونِي مَـنْ تَـقْصِدُهُ ... فَـالْتَفِتْ نَـحْـوِي وَدَعْ مَا سَلَفَا
أَنَا لا أَرْضَـى شَـرِيـكًا فِي الْوَرَى ... كُـلُّ خَـلْـقٍ بِـجَـلالِي اعْتَرَفَا
وَقُـلُـوبُ الْخَـلْـقِ طُـرًّا بِيَدِي ... مِـنِّـيَ الـسُّـقْمُ كَمَا مِنِّي الشِّفَا

(حكاية) كان في بنى إسرائيل رجل من خيارهم قد اجتهد في العبادة لربه ، وزهد في دنياه ، وأزالها عن قلبه ، وكانت له زوجة مساعدة له في شأنه ، مطيعة له في كل زمانه ، وكانا يعيشان من عمل الطباق و المراوح ، يعملان النهار كله ، فإذا كان عشي النهار ، خرج وبيده مراوحُ يمشي بها في الأزقة والطرق يلتمس مَن يبيع له ذلك ، وكانا يديمان الصوم ، فأصبحا في يوم من الأيام صائمين ، فعملا يومهما ذلك ، فلما كان عشي النهار خرج وبيده تلك المراوحُ يطلب مَن يشتريها ، فمر بباب من أبواب بنى الدنيا وأهل الرفاهية والجاه ، وصاحب الدار غائب ، وكان

العابد وضيءَ الوجه وحسن الصورة ، فرأته امرأة صاحب الدار فتعشقت به ، ومال قلبها إليه ميلاً شديداً ، وكان زوجها غائباً فدعت خادمتها ، وقالت لها : لعلكِ أن تتحيلي لي في دخول هذا الرجل عندنا هذه الليلة ، فإني قد ملتُ إليه بكليتي ، قال فخرجتْ الجارية إليه ودعته لأنْ تشتريَ منه ما بيده ، وردته من طريقه ، وقالت له: ادخل واقعد في الأسطوان ، فإن سيدتي تريد أن تتخيره وتنظر إليه ، فتخيل للرجل أنها صادقة في قولها ، ولم تُرِد بذلك بأساً ، فدخل الأسطوان ، فلما دخل فيه أغلقت الجارية الباب ، وخرجت سيدتها ، فجذبت الرجل بثيابه وأدخلته كرهاً ، وقالت له : إلى كم أطلب أن أخلوَ بكَ وقد عِيل صبري من أجلكَ ، وهذا البيت متخذ ، والطعام محتضر ، وصاحب البيت غائب في هذه الليلة ، وأنا قد وهبت نفسي لكَ ، وكم طلبني من الملوك والرؤساء ، وأصحاب الدنانير ، فلم أملْ إلى أحد منهم ، وقالت وزادت ونقصت ، والرجل لا يرفع رأسه حياء من الله تعالى وخوفا من عقابه ، وقيل في المعنى :

وَرُبَّ كَـــبِيرَةٍ مَـــا حَالَ بَـــيْنِي وَبَـــيْنَ رُكُـــوبِهَا إلا الْـــحَـــيَـــاءُ
فَـــكَـــانَ هُـــوَ الـــدَّوَاءَ لَهَا وَلَكِنْ إِذَا ذَهَـــبَ الْـــحَـــيَـــاءُ فَلا دَوَاءُ

فعالج أن ينفلت منها بنفسه فلم يقدر على ذلك ، فقال : أريد منك شيئاً ، قالت : وما هو ؟ قال : أريد ماء طاهراً ، وأصعد به إلى أعلى موضع في دارك أقضي به أمراً ، وأغسل به درناً لا يمكنني أن أطلعك عليه ، فقالت : الدار متسعة ، ولها خبايا وزوايا ، وبيت مطهرة معد ، قال ما غرضي إلا الارتفاع ، فقالت لخادمتها : اصعدي به إلى المنظرة العليا من الدار ، قال : فصعدت به إلى أعلى موضع في الدار ، ودفعت له الإناء بالماء ، ونزلت عنه ، فتوضأ وضوءاً جيداً ، وصلى ركعتين أتم ركوعهما وسجودهما ، ثم علا على سطح المنظرة ، ونظر إلى الأرض فرآها بعيدة ، فخاف أن لا يصل إلى الأرض إلا وقد تمزقت أشلاؤه ، ثم تفكر في معصية الله وعذابه وأليم عقابه ، فهانت بذلك عليه نفسه ، وسفك دمه ، وقال : إلهي وسيدي ، ترى ما نزل بي ، ولا يخفى عليك حالي ، وبَذْلُ نفسي في رضاكَ يسير ، وأنت على كل شيء قدير ، وقيل :

أَشَارَ الْقَلْبُ نَحْوَكَ وَالضَّمِيرُ وَسِـــرُّ السِّـــرِّ أَنْتَ بِهِ خَبِيرُ
وَإِنِّـــي إِنْ نَطَقْتُ بِكُمْ أُنَادِي وَفِي وَقْتِ السُّكُونِ لَكُمْ أُشِيرُ

أَيَــا مَنْ لا يُضَافُ إِلَيْه ثَانٍ   أَتَــاكَ الْوَالِــهُ الصَّبُّ الْفَقِيرُ
وَلِــي أَمَــلٌ تُحَقِّقُهُ ظُنُونِي   وَلِــي قَلْبٌ كَمَا تَدْرِي يَطِيرُ
وَبَذْلُ النَّفْسِ أَصْعَبُ مَا يُلاقِي   فَــإِنْ تَرْضَى بِهَا فَهُو الْيَسِيرُ
وَإِنْ تُنْجِي وَتَمْنَحْنِي خَلاصِي   فَأَنْــتَ عَلَــيْهِ يَا أَمَلِي قَدِيرُ

قال : ثم رمى بنفسه من أعلى المنظرة ، فبعث الله ملكاً التقفه بجناحه ، وأنزله سالماً دون أن يناله شيء يؤذيه ، فلما حصل الأرض سالماً حمد الله تعالى على ما أولاه من عصمته ، وأناله من رحمته ، وسار دون شيء إلى زوجته ، وكان قد أبطأ عليها ، فلما دخل عليها ، سألته عن بطئه وعما خرج به في يده ، وما فعل به ، وكيف رجع دون شيء ، فأخبرها عما عرَض له من الفتنة ، وكيف رمى بنفسه ، فأنجاه الله من ذلك الموضع ، فقالت : الحمد لله الذي صرف عنك المحنة ، وأزال عنكَ الفتنة ، ثم قالت : إن الجيران قد تعودوا منا أن نضرم تنورنا في كل ليلة ، فإن رأونا الليلة دون نار علموا أننا دون شيء ، ومن شُكر الله تعالى كتْم ما نحن فيه من الخصاصة ، ووصال صوم هذه الليلة باليوم الماضي وقيامهما لله تعالى ، ثم قامت إلى التنور ، فأضرمت ناراً لتغالط الجيران ، وقيل في المعنى :

سَأَكْتُمُ مَا بِي مِنْ غَرَامِي وَأَشْجَانِي   وَأُضْرِمُ نَارِي كَي أُغَالِطَ جِيرَانِي
وَأَرْضَى بِمَا أَمْضَى مِنَ الْحُكْمِ سَيِّدِي   عَسَاهُ يَرَى ذُلِّي لَدَيْه فَيَرْضَانِي
أَيُؤْلِمُنِي جُوعٌ وَقُوتِيَ ذِكْرُهُ   وَيَرْهَنُنِي ضَجَرٌ وَبِالصَّبْرِ أَوْصَانِي
فَقُمْ لِنُؤَدِّي شُكْرَ مَا قَدْ أَنَالَنَا   فَأَعْظَمُ مِنِّي لَوْ تَرَى صَرْفُ عِصْيَانِي
وَمَا يَفْعَلُ الْمَوْلَى هُوَ الْخَيْرُ كُلُّهُ   وَيَا رَبِّ مَتِّعْ طَيَّهُ كُلَّ إِحْسَانِ

قال : فتوضآ جميعاً ، ثم قاما إلى الصلاة ؛ فإذا امرأة من جيرانها تستأذنها في أن توقد من نارها فقالت لها المرأة : شأنَك والتنورَ ، فلما دنت من التنور نادت : يا فلانة ، أدركي خبزكِ قبل أن يحترق ، فقالت لزوجها : أسمعتَ ما تقول هذه المرأة؟ فقال : قومي وانظري ، فقامت المرأة إلى التنور؛ فإذا به قد امتلأ خبزاً أبيض نقيًّا، فأخذت الأرغفة ، ودخلتْ إلى زوجها وهي تشكر الله تعالى على ما أولاهما من الخير العميم والمن الجسيم ، فأكلا من الخبز ، وشربا من الماء ، وشكرا الله تعالى ،

ثم قالت المرأة لزوجها : ادعُ ربنا أن يمُنَّ علينا بشيء نستعين به على كد العيش وتعب العمل ، ويعيننا به على عبادته والقيام بطاعته ، فقال : نعم ، ثم دعا الله عز وجل ، وأمَّنت المرأة على دعائه ، فإذا بسقف البيت قد انشقَّ ، ونزلتْ ياقوتة أضاء لها البيت من النور ، فزادا الله تعالى ذكراً وشكراً ، وسُرَّا بتلك الياقوتة سروراً عظيماً ، وصليا ما شاء الله ، فلما كان في آخر الليل ناما ، فرأت المرأة كأنها دخلت الجنة ، ورأت منابرَ كثيرة مصفوفة وكراسيَّ موضونة ، فقالت : ما هذه المنابر ؟ قيل لها : منابرُ الأنبياء ، قالت : فما هذه الكراسي ؟ قيل لها : كراسيُّ الصديقين و الصالحين ، قالت : وأين كرسيُّ زوجي فلان ؟ فقيل لها : هو هذا ، فنظرت فإذا هو في جانبه ثلمة ، فقالت : وما هذه الثلمة ؟ فقيل لها : هي الياقوتة التي نزلت عليكما من سقف بيتكما ، فانتبهت المرأة من نومها وهي باكية حزينة على نقص كرسيِّ زوجها وثلمه من بين كراسيِّ الصديقين ، فقالت : أيها الرجل ، ادعُ ربكَ أن يردها إلى موضعها ، فمكابدة الجوع والمُسكة في الأيام القلائل أهون عليَّ من ثلم كرسيكَ بين أصحاب الفضائل ، قال : فدعا الرجل ربه ، فإذا الياقوتة قد طارت إلى السقف وهما ينظران إليها ، وما زالا على فقرهما وكثرة عبادهما حتى لقيا الله تعالى ، وقيل في المعنى :

يَـا مُعْرِضـاً عَنَّا يَصُدُّ وَيُعْرِضُ ... هَـلا إِلَـى نَفَحَاتِـنَا تَـتَعَرَّضُ
إِنْ كَـانَ أَعْيَـاكَ السَّقَامُ وَطَيُّهُ ... فَالْجَـأْ إِلَيَّ أَنَا الطَّبِيبُ الْمُمْرِضُ
أَوَ لَيْسَ قَدْ رَاشَتْ جَنَاحَكَ أَنْعُمٌ ... مِـنَّا فَمَـا لَكَ نَحْوَنَا لا تَنْهَضُ
وَلَقَدْ شُهِرْتَ بِحَلِّ نَقْضِ عُهُودِنَا ... كَـمْ ذَا تُعَـاهِدُ بِالْوَفَاءِ وَتَنْقُضُ
انْـزِلْ بِسَـاحَتِنَا وَلُـذْ بِجَنَابِنَا ... فَـنَزِيلُ سَـاحَةِ رَبْعِنَا لا يُرْفَضُ
مَـا حَلَّ سَاحَتَنَا أُنَاسٌ أَعْرَضُوا ... عَـنَّا وَلاذُوا بِالرِّضَـا إِلا رَضُوا
سَـبَقُوكَ فِـيمَا تَدَّعِيهِ وَكَابَدُوا ... كَـدُّوا الْمَطَايَـا نَحْوَنَا وَتَفَوَّضُوا
وَرَضِيتَ وَيْحَكَ حَالَةً لا تُرْتَضَى ... فَصَـحِيفَةٌ سَـوْدَا وَشَيْبٌ أَبْيَضُ
فَهُمُ الْكِرَامُ فَنَادِ فِي عَرَصَاتِهِمْ : ... أَضْـحَى بِبَابِكُمُ الْمَرِيضُ فَمَرِّضُوا

تاب الله علينا أجمعين ، وجنَّبنا موارد الظالمين ، وأدخلنا برحمته في عباده الصالحين ، والحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

المجلس الثامن

في قوله تبارك وتعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر:١] .

الحمد لله منشئ أصناف الفطَر ، ومحيي الأرض بوابل المطر ، مقدِّر النفع والضرر ومصور الأنثى والذكر ، الذي علا فقهر ، وعبد فشكر ، وعصى فغفر ، واطلع على الذنوب والمعاصي فستر ، وأخرج جواهر الأسرار من قعر بحر ظلمات الفكَر ، وجعل لكل نبأ مستقرْ ، الكريم الذي يقبل الجاني إذا رجع إليه واعتذر ، يترل إلى السماء الدنيا في كل ليلة ، فيقول : هل من تائب ؟ هل من راغب ؟ كما جاء في الخبر ، ونزوله نزول مَنٍّ وفضل وإحسان لا كترول الأجسام والصُّور ، خلق آدم من تراب ، وجعله أبا البشر ، وأبرز من صُلبه النبيين والمرسلين ، وخصهم بسابقة القدرْ ، وصير محمداً ﷺ آخرهم في الخلق ، وأولَهم في السبق ، فبان فضله بذلك وظهر ، وأرسله رحمة لمن آمن ونقمة على من كفر ، وأيَّده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة والعبر ، فكلما أبدى آية قال المشركون : كذب وسحر ، ولقد قسمَ غنيمة فقال بعض المنافقين لمن شهدها وحضر : والله ، ما أراد بذي القسمة وجه الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : قد أُوذي أخي موسى بأكثر من هذا فصبر، وهم الذين وصفهم الله في كتابه العزيز الذي نهى فيه وأمر ، فقال تعالى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ، وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : ١،٢]. أحمده حمداً كثيراً في الورود والصَّدَر ، وأشكره شكراً يدني الأمل ويقرب الوطر ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أنجو بها من سقر، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله الذي حن له الجذْع وكلمه الحجر ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه السادة الغرر ، صلاةً تدوم وتقوم ما شرد ظبي ونفر ، وانصدع فجر وأسفر ، وسلم تسليما كثيراً ، وقيل في المعنى :

إِنَّ الْقُلُوبَ لَهَا عُيُونٌ تَنْظُرُ ... فَبِهَا الْمُطِيعُ يَرَى الرَّشَادَ وَيُبْصِرُ
فَإِذَا عَلاهَا الآنَ أَذْهَبَ نُورَهَا ... وَغَدَتْ بِظُلْمَة جَهْلِهَا تَتَحَيَّرُ
وَلَرُبَّ ذِي بَصَـرٍ صَحِيحٍ قَلْبُهُ ... أَعْمَى فَرَبْعُ الصَّدْرِ مِنْهُ مُقْفِرُ
فَتَـرَاهُ حَيَّـا إِنْ بَدَا وَفُؤَادُهُ ... مِنْ كَثْرَةِ الْغَفَلاتِ مَيْتٌ مُقْبَرُ

فَالْجِذْعُ حَنَّ لِبُعْدِهِ وَفِرَاقِهِ ... وَجْدًا وَشُقَّ لَهُ الْهِلالُ الْمُقْمِرُ
وَشَكَا إِلَيْهِ الْجَيْشُ مِنْ فَرْطِ الظَّمَا ... فَإِذَا الأَصَابِعُ مَاؤُهَا يَتَفَجَّرُ
وَالذِّئْبُ يَنْطِقُ وَالظِّبَا تَأْتِي لَهُ ... وَالْوَحْشُ وَالأَنْعَامُ عَنْهُ تُخْبِرُ
وَأُولُو الضَّلالَةِ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ ... طُرًّا جَمِيعُهُمُ يَصُدُّ وَيُنْكِرُ
وَإِذَا تَبَدَّتْ آيَةٌ قَالُوا لِمَنْ ... وَالاهُمُ هَذَا مُحَمَّدُ يَسْحَرُ
وَيَجِيءُ سَلْمَانُ الْبَعِيدَةُ دَارُهُ ... وَكَذَاكَ شُقْرَانُ الْغَرِيبُ الْمُقْهَرُ
وَصُهَيْبُ وَالثَّقَفِيُّ لا تَنْسَاهُمَا ... كُلٌّ يُوَحِّدُ رَبَّهُ وَيُكَبِّرُ
وَالْعَمُّ يَكْفُلُهُ وَيَأْبَى دِينَهُ ... فَيَمُوتُ وَهْوَ بِمَنْ يَرَاهُ يَكْفُرُ

قوله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ [القمر : ١] الآيات ، الاقتراب في القرآن على ثمانية أقسام :

أولها : قرب الإجابة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

الثاني : قرب العصمة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق : ١٦] .

الثالث : قرب المنة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ** ﴾ [الواقعة : ٨٥] .

الرابع : قرب الوعد ، وهو قوله تعالى : ﴿**وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ** ﴾ [الأنبياء : ٩٧] .

الخامس : قرب السؤال ، وهو قوله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ** ﴾ [الأنبياء : ١] .

السادس : قرب الإجابة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾ [العلق : ١٩] .

السابع : قرب الرحمة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

الثامن : قرب الساعة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ [القمر : ١] ، بَعْثُ النبي ﷺ من علامات الساعة ، وانشقاق القمر من علامات الساعة ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : « سأل أهلُ مكةَ رسولَ الله ﷺ أن يُرِيَهم آية ، فأراهم القمر شقتينِ حتى رأوْا حراءَ بينهما » ، ذكره مسلم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « انشقَ القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين : فلقةً فوق الجبل ، وفلقةً دونه ، فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا » ، ذكره البخاري . وفي طريق أخرى أن المشركين لما رأوا ذلك منه ، قالوا : إن محمداً سحر أعينكم ، فاسألوا غداً من يَرِدُ عليكم من البلاد : هل رأوا من القمر ما رأينا ، فلما كان من الغد استقبلوا الركبانَ، فسألوهم عما كان ، فأخبروهم بانشقاق القمر ، فقالوا : هذا سحرٌ مستمر ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ، وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ** ﴾ [القمر : ١ ، ٢] . وقال علي كرم الله وجهه : لما نزل قوله تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، قال لي رسول الله ﷺ : يا علي ، إن الله عز وجل قد أمرني أن أنذر العشيرة الأقربين ، فاصنع لنا يا عليُّ شاة على صاع من طعام ، وأعدَّ لي قعب لبن ، ثمِ اجمعْ لي بني عبد المطلب ، قال : ففعلت ، فاجتمعوا له وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً ، وكان فيهم عمُّه أبو طالب وحمزةُ والعباسُ وأبو لهب ، فقدمت إليهم جفنة ، وأخذ الرسول ﷺ لحمة ففتتها بأسنانه ، ثم رماها في نواحيها ، ثم قال : كلوا باسم الله ، فأكل القوم حتى امتلئوا ، والله ، ما يُرى إلا آثار أصابعهم ، وايم الله ، إن الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال : اسقهم يا عليُّ ، فجئتُ بالقعب ، فشربوا منه حتى امتلئوا جميعهم ، وايمِ الله إن الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد النبي ﷺ الكلام بادرهم أبو لهب ، وقال : ويحكم ، أما تروْن صاحبكم كيف سحركم ؟ فتفرقوا عنه قبل أن يكلمهم ؛ فلما كان من الغد قال : يا علي ، أعدَّ لنا ما صنعتَ بالأمس من الطعام والشراب ، فإن هذا قد بدرني بالكلام قبل أن أكلمِ القوم ، قال : فجمعتُهم وفعلتُ لهم كما فعلتُ بالأمس ، فأكلوا حتى امتلئوا جميعاً منه ، ثم سقيتُهم فشربوا من ذلك القعب حتى امتلئوا منه جميعاً ، وايمِ الله ، إن الرجل ليأكل مثلها ويشرب مثلها ، ثم قال رسول الله ﷺ : « إني والله ما أعلم شابًّا من العرب جاء قومه بأفضلِ مما جئتُكم به من أمور الدنيا والآخرة ، قال : فتفرقوا عنه ، ولم يقبلوا منه شيئاً » . وذكر ابن إسحاق في كتابه وغيره أنه كان

بمكة رجل شديد القوة يحسن الصراع ، وكان الناس يأتونه من البلاد للمصارعة فيصرعهم ، قال : فبينما هو ذات يوم في شعب من شعاب مكة إذ لقيه رسول الله ﷺ فقال له : يا ركانة ، اتقِ الله ، واقبل ما أدعوكَ إليه ، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً يدعوه إلى الله تعالى ، فقال له ركانة : يا محمد ، هل من شاهد يدل على صدقكَ ؟ قال : أرأيتَ إن صرعتكَ أتؤمن بالله ورسوله ؟ قال : نعم يا محمد ، تهيأْ للمصارعة ، قال : قد تهيأتُ ، ثم دنا من رسول الله ﷺ ، فأخذه النبي ﷺ فصرعه ، فتعجب ركانةُ من ذلك ، ثم سأله الإقالةَ ولا عودةَ ، ففعل به ذلك ثانياً وثالثاً ، فوقف ركانة متعجباً ، وقال : يا محمد ، إن شأنكَ لعجيب ، فقال له النبي ﷺ : أتريد أن أُريَكَ ما هو أعجب من هذا ؟ قال : وما ذاكَ ؟ قال : أدعو تلك الشجرةَ، وأشار إلى شجرة قريبة منهما حتى تقبل إليَّ ، وتشهدَ لي بالرسالة ، قال : افعلْ ، فأومأ رسول الله ﷺ إلى الشجرة ، ثم قال : أيتها الشجرة ، أقبلي إليَّ ، قال : فجعلت الشجرة تخط الأرض خطًّا مستوياً كأن سائقاً يسوقها ، وأصولها تتقطع من الأرض حتى وقفتْ بين يديه ، وركانة ينظر إليها ، فقال لها النبي ﷺ : أيتها الشجرة، من أنا ؟ فقالت : أنت رسول الله ﷺ ، فلما سمع ركانة ذلك ولى مدبراً ، ثم أتى قريشاً وهم في ظل الكعبة ، وقال : يا معشر قريش ، سَاحِرُوا بصاحبكم أهل الأرض ، فما رأيتُ أسحرَ منه»[(١)] . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال: مرض أبو طالب عمُّ النبي ﷺ فقال : يا ابن أخي ، ادعُ ربكَ الذي تعبده أن يعافيَني، فقال رسول الله ﷺ : اللهم ، اشف عمِّي ، فقام كأنما نشط من عقال ، فقال : يا ابن أخي ، إن إلهكَ الذي تعبده ليَطيعكَ ، قال : وأنت يا عم لو أطعتَ الله لأطاعكَ . وقيل : لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم ضجت جبال الدنيا بالتسبيح حتى سمع الناس تسبيحها ، فقالت قريش سحر محمد الجبال ، وسمع رجل من ثقيف منادياً ينادي : أيها الناس ، ما قعودكم وقد بعث الله نبيًّا من ولد لؤي بن غالب ، اسمه محمدُ بنُ عبد الله ، فأخذ الرجل عشرةً من النوق ، وأتى مكة ليدخل في الإسلام الذي سمعه ، فقالوا : وما سؤالكَ عنه ؟ فأخبرهم بما سمعه ، فقالوا : إنما هو صوت شيطان استهوى عليكم . والقصة معروفة ، وذكرها ابن سبع وغيره ، وفيها أن النبي ﷺ سار مع الثقفي إلى باب أبي جهل ، وناداه : انزل إليّ يا أبا جهل، فنزل إليه وقد اصفر لونه ، وتغير وجهه ، فقضى حاجته ، ودفع إليه ما

---

(١) وردتْ رواياتٌ أخرى تفيد أن ركانة هذا قد أسلم .

سأله، فلما علمت قريش بذلك ساروا إليه وعاتبوه ، فقال : والله ، إنه أتاني وأنا أنظر إليه فرأيت الأرض تُطوى له ، فقلت : هذا قليل في سحر محمد ، ثم دعاني فلم ألتفت إليه ، فإذا حسٌّ خلفي ، فالتفت فإذا بثعبان قد ملأ البيت ، فقال لي : لئن لم تنزل إليه وتقضي حاجته ، وإلا ابتلعتُكَ ، فنزلتُ إليه مقهوراً ، أما واللاتِ والعزى، لو تأخرتُ لابتلعني . وقال جابر بن عبد الله : « قال أبو جهل في ملأ من قريش : قد شغلَنا أمرُ محمد ، لو ابتغيتم رجلاً ممن يعلم السحرَ والكهانةَ يكلمه ويأتينا بأمره، فقال عتبة بن ربيعة : والله ، لقد سمعتُ السحرَ والشعرَ والكهانة ، وعلمتُ من ذلك علماً ، وما يخفَى عليَّ أن أكونَ كذلك ، وسآتيه حتى أكلمَهُ ، قال : فأتاه ، فلما خرج عليه النبي ﷺ قال له : يا محمد ، أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فلمَ تضللُ آباءنا وتشتمُ آلهتنا ؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك ألويتها ، فكنت رأساً ما بقيتَ ، وإن كان بكَ الباءة زوجناكَ عشرَ بنات من أي بنات قريش شئتَ ، وإن كنتَ تريد المال جمعنا لكَ من أموالنا ما يغنيكَ أنت وعقبَكَ من بعدكَ ، قال : ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم ، فلما فرغ عتبة من قوله ، قرأ رسول الله ﷺ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم ، تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ، قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ، قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ ، فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾

[فصلت :١ – ١٣] .

فأمسكَ عتبة على فيه ، وناشده بالرَّحِمِ أن يسكتَ فسكتَ ، ورجع عتبةُ إلى مترله فلم يخرجْ ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، ما نرى عتبةَ إلا قد صبأ ، فانطلقوا بنا إليه ؛ قال : فلما ساروا إليه خرج عليهم ، فقال أبو جهل : يا عتبة ، أظنكَ إلا قد صبوت مع محمد ، وأعجبكَ أمرُهُ ، قال : فغضب عتبة لذلك ، وقال : والله ، لا كلمتُ محمداً أبداً ، ولقد علمتُم نصحي ورغبتي عنه ، ولكني أتيتُه فكلمتُه ، فقرأ عليَّ كلامًا ما هو والله بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة ، وقرأ : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ حم ، تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ﴾ ، فأمسكتُ على فيه ، وناشدته بالرحم أن يسكتَ ، ولقد علمتُم أنه ما قال شيئاً إلا صدق في قوله ، فخفتُ أن يترل بكم العذاب» [1] ، وقيل في المعنى :

عَمَـتِ الْقُلُوبُ وَضَلَّتِ الأَحْلامُ   وَجَـرَى الْقَضَاءُ وَجَفَّتِ الأَقْلامُ
وَدَعَـا إِلَـى إِنْعَامِـهِ مَوْلاهُـمُ   فَـإِذَا هُـمُ يَـا وَيْحَهُـمْ أَنْعَامُ
مَهْمَـا أَتَـتْهُمْ آيَـةٌ قَالُوا : لَقَدْ   سَـحَرَ الْعُـيُونَ فَقَوْلُـهُ أَوْهَامُ
وَلَقَـدْ رَأَوْا أَنَّ الْحَقِـيقَةَ قَوْلُـهُ   لَكِـنَّهُمْ عِـنْدَ التَّـيَقُّظِ نَـامُوا
هَيْهَاتَ يَجْرِي الطَّرْفَ وَهْوَ مُقَيَّدٌ   إِنَّ الدُّنُـوَّ عَلَـى الْبَغِيضِ حَرَامُ
حَرَصَ الرَّسُولُ عَلَى هُدَاهُمْ وَالَّذِي   يَهْدِيهُـمُ مِـنْهُ جَـرَتْ أَحْكَامُ
إِنَّ الْجَمِـيعَ إِلَى الْعَذَابِ مَصِيرُهُمْ   وَلَهُـمْ أُعِدَّتْ فِي السَّعِيرِ ضِرَامُ

إخواني ، سابقةُ القدر قضت لقوم بعز سبقت لهم منا الحسنى ، وعلى قوم بذل غلبت علينا شقوتنا ، نوَّرتْ قلوب الجن فقالوا : ﴿ **إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً** ﴾ [الجن:١] ، وعميَتْ أبصار قريش فـ ﴿ **قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾ [النحل:٢٤] ، إذا هوت صوارم القدر تقلقلت رقاب المقربين ، غضب على قوم فلم تنفعهم الحسنات ، ورضي على آخرين فلم تضرَّهم السيئات ، ما نفعت عبادة بلعامَ ، ولا ضر عناد السَّحَرَة ، هبتْ عواصفُ الأقدار بيد الأكوان فقيدتِ الوجود ، فلما

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٣ / ٣٥٠ ، وعبد بن حميد ١ / ٣٣٧.

ركدت الريحُ إذا أبو طالب غريقٌ في لُجَّة الهلاك ، وسَلْمَانُ على ساحل السلامة ، سبق التَدبير ، ونفذ الحكم من القدير ، وجرت القسْمَة ، ففريقٌ في الجنة ، وفريقٌ في السعير ؛ لو كان الأمر أُنفاً لامتدت الأطماع إلى الجبل ، وضروبُ المكايد في العمل، لكن الطامة الكبرى ارتباط الأَمر بمشيئة مَن لا يبالي « هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي » ، ميزت الجنُّ القرآنَ ، وأنكرتْهُ قريش ، من آثر القعود في البيت لم يكن له حظ في الغنيمة ، إنما يعالج الرمد لا الكمد ، سبقت السعادة لسيدنا محمد ﷺ ، ومضت الشقاوة لأبي جهل قبلَ وجوده ، خوفُ العارفين من سوابق الأقدار ، قلقل الأرواح هيبته ، أنكرت قريش القرآن ، وكانوا نَقَدَةَ الكلام وصَيَارِفَةَ البلاغة ؛ هذا ، وقد ظهر عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله، رضُوا بقتل الأنفس وسبي الذراري والخروج عن الأوطان ، ولم يقدروا على الإتيان بذلك ، وميزتْهُ الجن في الحين والوقت لما قررت قلوبهم الشقاوة الكبرى شقاوة لا سعادة بعدها خلود في النار ألف ألف سنة ، من كان حظه الخيبة من الوصال طبع على أقبح الخصال ، لما طلعت الشمسُ قال الخفاش لأهله : أسرجوا القنديل ، فقد انسدلت الظلمة ، فقالوا له : الآنَ طلعتِ الشمسُ ، فقالوا : ارحموا من النهار عنده ليل ، وقيل في المعنى :

وَإِنَّ نَهَـارِي لَيْـلَةٌ مُدْلَهِمَّةٌ ... وَلَيْـلِي سُـهَادٌ كُـلُّهُ وَعَوِيلُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُرْسَلٌ ... فَـرِيحُ الصَّبَا مِنِّي إِلَيْكَ رَسُولُ
فَمَا كُلُّ حِينٍ لِي إِلَيْكَ تَوَصُّلٌ ... وَلا كُلُّ وَقْتٍ لِي عَلَيْكَ دُخُولُ

واعلمْ أنَّ القلبَ إذا عمي لم يُفد نظرُ العين ؛ أما سمعتَ أصحاب النار حين قالوا : ﴿ **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [الملك:١٠] . وكانوا يَرَوْنَ الآيات ، ويسمعون الأصواتَ ، ولكنهم أحياء كالأموات ؛ ألا ترى أن يوسف عليه السلام حينَ بدتْ له الآياتُ العظام لم يُفد ذلك عند اللئام ، قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ** ﴾ [يوسف : ٣٥] . قيل : رؤية الآيات هي شق القميص من دُبر ، ونطق الصبي في المهد ، ومن الآيات بلوغ ثمنه في وقت البيع إلى مالا غاية له ، لكنهم أعرضوا عن هذه الآيات كلها وأبوا إلا أن يسجن مع علمهم أنه لا يستحق السجن ، وهذا دأب الآدمي : يرى

الآيات ويعرض عنها ، قال الله تعالى ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ [يوسف : ١٠٥] ؛ وذلك أنَّ زُلَيْخَا لما يئستْ من يوسفَ ﷺ قالتْ لزوجها : إن هذا الغلامَ فضحني بين الناس ، ونكس رأسي بين نظرائي ، وقد شاع خبري وخبرُه في مصر ، ولا براءةَ لي عندهم إلا أن أحبسه في السجن ، فقال لها زوجها : لا يحبسه إلا الملكُ الريانُ بنُ الوليد ، وكان مراده بذلك أن يخرج أمره من يديها ؛ لأنه إذا كان أمره بيدها ، فربما حَنَّتْ عليه وأخرجته ، فلبستْ ثيابها وجعلتْ تاجها على رأسها وأقبلت حتى أتت الريان بن الوليد ، وكان في بيته الأعظم ، وهو بيت من الحديد والنُّحاس ، مُرصع بالدر والجواهر ، وكان إذا أراد أحد الدخول إليه ينظر إليه الملك من الكُوَّة قبل أن يدخل عليه ، فلما رأى زليخا مقبلة استوى جالسا وأمر الغلمان أن تفتح الأبواب ، ففتحوا لها ، وكانتْ ذاتَ قَدْرٍ عظيم عنده ، وكانت مطاعةً إذا أمرتْ ؛ لأنها كانت من بنات الملوك ، فلما دخلت على الملك خرت له ساجدة ، فقال لها الملك ارفعي رأسك ، فأنت المقربةُ الرضية ، وحاجتك عندي مقضية ، فرفعتْ رأسها إليه وأخذت في الَثناء عليه ؛ لأن من آداب السؤال الَثناء على المولَى ، وقيل في المعنى :

إِذَا شِـئْتَ أَنْ تُقْضَى إِلَيْكَ الْحَوَائِجُ ... وَتَنْفَتِحَ يَا هَذَا إِلَيْكَ الْمَنَاهِجُ
فَخُذْ فِي الثَّنَا وَاخْضَعْ إِلَى مَنْ لَهُ الْغِنَى ... فَمَـوْلاكَ يَا مِسْكِينُ لِلْكَرْبِ فَارِجُ
أَتُثْـنِي عَلَى الْمَخْلُوقِ وَهْوَ بِضِدِّ مَا ... تَقُـولُ لَقَدْ سُدَّتْ عَلَيْكَ الْمَخَارِجُ
وَتَـتْرُكُ مَنْ أَوْلَـى لَهُ الْحَمْدُ وَالثَّنَا ... وَتُعْـرَجُ بِالشَّكْوَى إِلَيْهِ الْمَعَارِجُ

فقالتْ زليخا : أيها الملك ، دام لك العز والبقاء ، وأُلبستَ ثوب النعمة والرخاء ، لم تزل لي مكرماً ، وإلى حوائجي مسرعاً ، وأن عبدي العبراني قد استعصى عليَّ ، وأحب أن تأذن لي في حبسه في سجن المجرمين حتى يتأدب ولو بعد حين ، فقال لها : قد جعلت أمر السجن بيدك فانطلقي فأطلقي مَنْ شئت ، واحبسي مَنْ شئت فأخذتْ إذنَهُ ، ورجعتْ إلى منزلها ، وأمرتْ بإحضار الحَدَادين إليها فمثلوا بين يديها ، فقالت لهم : إني أريد أن تصنعوا لي قيداً محكماً لعبدي يوسفَ العبراني ، فقالوا : أيتها الملكة المطاعة في أمرها ، والعظيمة في قومها ، إنا نرى بدناً ناعماً ، وساقاً رقيقاً ، ووجهاً أنيقاً ، ولا يخفى أنه رُبي في نعمة شاملة ، وعافية كاملة ، وكيف يقوى هذا على ثقل الحديد ، وثِقاف التقييد ، فقالت : قيدوه ولابد ، فقال

يوسف عليه السلام للحدادين : افعلوا ما أمرتكم به ، فإني من أهل بيت البلاء ، فقيَّدُوه وحمَلُوه على الأكتاف ، وانطلقوا به إلى السجن ، وتسامع الناس به ، فأقبلوا إليه من كل مكان ، وصعدوا على الجدران ، وامتلأت الطرق ، فلما كثر نظر الناس إليه ، نكس رأسه ، وألقى يده على صدره ، والناس يقولون عصى سيدته الملكة ، وهو يقول : هذا خير من عصيان رب العالمين ، ومن مقاساة النيران وسرابيل القطران بين حميم آن ، والناس يقولون : يا يوسف ، تركتَ بيت الرخاء والسرور والنعمة والحبور ، واخترتَ السجن ، لو اخترت القتل لكان أهون لكَ من هذا كله ، ويوسفُ يقول : اخترتُ ما اختاره اللهُ لي إذا كان راضياً عني فلا أبالي ، وقيل في المعنى تخميس :

بِفِعْلِكَ عَيْنِي مَا حَيِيتُ قَرِيرَةٌ وَآيَاتُ صِدْقِي فِي هَوَاكَ شَهِيرَةٌ
وَإِحْنَاكَ ظَهْرِي وَالضُّلُوعِ مسيرة فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ
وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ

تَحَكَّمْ بِمَا تَرْضَى فَإِنِّيَ صَابِرُ وَمَا لِيَ إِلا أَنْتَ مَوْلًى وَنَاصِرُ
يُهَوِّنُ مَا أَلْقَاهُ أَنَّكَ نَاظِرُ فَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرُ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

عَلَيَّ مَوَاثِيقٌ تَشُدُّ وَثَاقِيَا فَكَيْفَ أُرَى بَيْنَ الْمُحِبِّينَ شَاكِيَا
فَمَا أَعْذَبَ الْبَلْوَى إِذَا كُنْتَ رَاضِيَا وَيَا لَيْتَ شُرْبِي مِنْ وِدَادِكَ صَافِيَا
وَشُرْبِيَ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ سَرَابُ

بِعَيْنِكَ ذُلِّي فِي الوُجُودِ وغُرْبَتِي وشَوْقِي وَتَوْقِي وانْفِرَادِي ولَوْعَتِي
وَلِي مُقْلَةٌ لَوْ حَقَّقَتْ حَقَّ نَظْرَتِي لَنِلْتُ مُرَادِي فِي الوُجُودِ وبُغْيَتِي
وَكَيْفَ وَنَفْسِي دُونَ ذَاكَ حِجَابُ

أَأُخْفِي غَرَامِي وَهْوَ عِنْدَكَ بَيِّنُ وأَشْكُو سَقَامِي والدَّوَاءُ مُعَيَّنُ
جَمِيعُ الوَرَى كَوْنٌ وأَنْتَ مُكَوِّنُ إِذَا صَحَّ مِنْكَ الوُدُّ فَالْكُلُّ هَيِّنُ
وَكُلُّ الذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

فلما وصلوا السجن قالوا : للسجان : خذ هذا الغلام ، واحبسه فإن سيدته غضبت عليه ، وأمرت أن يحبس في سجن المجرمين ، فأدخله السجان إلى السجن ، وأقعده بين أهل الدعوات وأصحاب الكبائر والجنايات ، ودخل العزيز على زليخا ، فقال لها : ما فعلت بيوسف ؟ فقالت : قيدتُه وحبستُه ، وكان مرادها أن تخرجه عن قريب ، فقالَ العزيز : أقسمتُ عليك بحرمة الملك الريان بن الوليد ورأسه إلا ما أبقيتيه في السجن ما دام الملك حيًّا ، فَلم يمكنها إلا إبرار القسم ، وأدركها الندم ، ولم تجد عذراً تخرج به عن الذي فعلتْه ، وكانت تصعد إذا جن الليل إلى أعلى قصرها ، وتنظر إلى السجن وتبكي وتقول : حبيبي يوسف ، ليت شعري أنائم أنت أم يقظان ؟ ليت شعري أجائع أنت أم شبعان ؟ وقيل في المعنى :

بِعَيْنِكَ يَوْمَ البَيْنِ عَهْدِي وَمَشْهَدِي ... وذُلُّ مَقَـــامِي فِي الخَلِيطِ وَمَقْعَدِي
وَقَوْلِـــي وَقَدْ صَاحُوا بِهِ يَعْجِلُونَهُ ... نَشَـــدْتُكُمُ فِـــي طَـــارِقٍ لَمْ يُزَوَّدِ
أَقَـــامَ بِكُـــمْ مُسْتَشْفِيًا بَعْضَ عِلَّةٍ ... وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ المَوْتَ مِنْهَا ضُحَى الغَدِ
أَعِـــنْدَكُمُ يَـــا قَائِـــلينَ بَقِيَّـــةٌ ... عَـــلَى مُهْجَةٍ إنْ لَمْ تَمُتْ فَكَأَنْ قَدِ
وَيَا أَهْلَ نَجْدٍ كَيْفَ بِالغَوْرِ عِنْدَكُمْ ... بَقَـــاءِ تِهَـــامِيٍّ يَهِـــيمُ بِمُـــنْجِدِ
مَلَكْـــتُمْ عَزِيـــزًا رِقَّـــةً فَـــتَرَفَّقُوا ... عَـــلَى مُـــنْكِرٍ لِـــلذُّلِّ لَـــمْ يَتَعَوَّدِ
وَكُـــنْتُ أرَى أنَّ الفِـــرَاقَ يُرِيحُنِي ... فَـــلَمَّا تَفَرَّقْـــنَا عَدِمْـــتُ تَجَلُّدِي
وعَـــنَّفَنِي سَعْدٌ عَلَى فَرْطِ مَا رَأَى ... فَقُـــلْتُ : أَتَعْنِيفٌ وَلَمْ أَرَ مَسْعَدِي
وَمَـــا هُـــوَ إلا أنْ عَجِلْتُ بِلَفْظَةٍ ... قَتَـــلْتُ بِهَـــا نَفْسِـــي وَلَمْ أَتَعَمَّدِ

فكانت زليخا لا تزال الليل كله تبكي وتنتحب حتى ينفجر الصباح وجداً عليه ، وشوقا إليه ، وقد أنحلها الغرام ، وخالطها الهُيام ، وداخلها السُّقام ، وهجرها المنام، وتَعَذَّر على ناعتها إثباتُها . ورُويَ أنه مات من النسوة اللاتي رأين يوسفَ تسع نسوة شوقًا إليه ، ووجدًا عليه ، فكانت زليخا لا تشكو إلا بذكره ، ولا تسأل إلا عن أمره ، وقيل :

يَا يُوسُفَ الحُسْنِ صِلْ يَعْقُوبَ حُزْنُكَ قَدْ ... أَضْنَى النَّوَى جَسَدِي وَالحُبُّ أفْنَانِي
قَـــالَتْ زُلَيْخَـــا لِمَـــنْ قَدْ جَاءَ زَائِرَهَا ... بِاللهِ قُصُّوا عَلَى السَّجَّانِ أشْجَانِي

فَإِنْ وَصَلْتُمْ إِلَى مَنْ قَدْ عَلِقتُ بِهِ   فَخَبِّرُوهُ بِأَشْوَاقِي وَأَحْزَانِي
وَعَرِّفُوا قَلْبَ قَلْبِي أَنَّنِي دَنِفٌ   عَسَى يَرِقُّ لِقَلْبِي قلبيَ الثَّانِي

فكان يوسف ﷺ يطبُّ المسجونين ، ويؤنس المحزونين ، ويداوي المرضى ، ويُرجِّي القانطين ، حتى أحبه أهل السجن حبًّا شديداً ، وأقبلوا عليه بكليتهم ، فلما انقضت الأربع سنين من سجنه ، أوحى الله عز وجل إلى جبريل ﷺ : انزل على عبدي يوسف بتعبير الرؤيا ، فإني قد رحمته لغربته ، واستجبتُ دعاءه ، قال : فهبط عليه الأمين جبريل ﷺ وقال : السلام عليك يا رأس الصديقين ، فقال : وعليك السلام يا أمين رب العالمين ، قال : افتح فاك ، وخذ ما أتحفكَ به مولاكَ ، قال : ففتح فاه، فألقى جبريل ﷺ في فيه لؤلؤةً صفراءَ ، فلما استقرت في جوفه خرج من بين عينيه نور كالشمس يتشعشع[(١)] ، فعلم في الوقت تعبير الرؤيا جميعها بقدرة الله عز وجل من غير دراسة ولا تعليم ، فكان يعبِّر الرؤيا لأهل السجن ، فزادهم ذلك حبًّا له ، ووجداً به ، حتى أحبه السجان ، ووسَّع له في السجن ، وكان إذا خرج أحد من السجن يتمنى أن لا يكون يفارق يوسف ويعود إليه ، فقال له السجان : لقد أحببتكَ حبًّا شديداً ، فقال له يوسف : لا تفعل ، فاني أعوذ بالله من محبتك ، قد أحبني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوا ، وأحبتني سيدتي زليخا فكان من أمري ما تراه ، قال : ولم يزل في السجن حتى حبس الملك غلامين ، أحدَهما طباخه ، والآخرَ صاحب شرابه ، فلبثا معه في السجن ، فكانا ينظران في تأدبه ، وحسن خلقه ، وتعبيره لرؤيا الناس ، فتمنى كلٍ واحد منهما لو رأى رؤيا ، وكان كل واحد منهما يستعمل النوم لعله أن يرى شيئاً ، وقيل في المعنى :

رَأَيْتُكَ فِي المَنَامِ أَقَلَّ بُخْلاً   وَأَجْوَدَ مِنْكَ فِي حَالِ القِيَامِ
فَأَغْمَضْتُ الجُفُونَ عَسَى خَيَالٌ   يُوَافِي مِنْكَ فِي جُنْحِ الظَّلامِ
فَلَيْتَ الصُّبْحَ غَابَ فَلا أَرَاهُ   وَلَيْتَ الفَجْرَ أُخِّرَ أَلْفَ عَام
فَلَوْ أَنَّ النُّعَاسَ يُبَاعُ بَيْعًا   لَغَلَّبْتُ النُّعَاسَ عَلَى الأَنَامِ

فلما استحكمتْ المودةُ والمحبة ووقعتِ المؤانسةُ نام الساقي ليلةً ، فانتبه فرحاً

---

(١) هذه القصة فيها من الغرابة ما يأكد إنها من الإسرائيليات .

مسروراً ، وقال للطباخ : يا أخي ، لقد رأيتُ رؤيا ، وأخبره بالرؤيا التي يأتي ذكرها ، فقال الطباخ : أما أنا فلم أرَ شيئاً ، لكن أبتدع رؤيا من عند نفسي ، فانطلقْ بنا إلى يوسف لنقصَّ عليه ما رأينا حتى يعبِّرَها لنا ، ونعلم صدقه ، فأتياه وقعدا بين يديه ، فقال الساقي : يا يوسف ، إني رأيت في المنام كأن بين يديَّ ثلاث طشوت من ذهب ، في كل طشت ثلاثة أصول من الكَرْم ، وعلى كل أصل ثلاثة عناقيد من العنب ، فأخذت العناقيدَ فعصرتُها خمراً ، وسقيتُ الخمر للملك الريان ابن الوليد ، وهو قوله تعالى : ﴿ **قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً** ﴾ [يوسف : ٣٦] ، فقال الآخر : وأنا أيضا رأيتُ كأن فوق رأسي ثلاثة تنانير من حديد ، مضرمة بنار ، فخبزتُ فيه خبزاً كثيراً ، وملأتُ منه ثلاث سلات ، وحملتهم على رأسي ، وكانت السلة الفوقانية مكشوفة ، والطير يسقط عليها من الهواء ، فيأكل من ذلك الخبز ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف : ٣٦] أي بتعبير ما رأيناه من الرؤيا ﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف : ٣٦] ، يعني تحسن إلينا ، وتداوي أسقامنا ، نبئنا بتأويله ، أي بتعبير ما رأيناه من الرؤيا ؛ فلما سمع يوسف عليه السلام كلامهما طمع في إسلامهما ، فقدم من ذكر الله وشكره ما ينبه القلوب ، ويذكر العقول في الناسية ، فقال كما قال الله تعالى عنه : ﴿ **قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي** ﴾ [يوسف : ٣٧] وذلك أنه أراد أن يُريهما من معجزاته ما يستدلان به على صدقه ونصحه فيما يدعوهما إليه ، فقال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا أعلمتكما به قبل أن يصل إليكما ، وما هو عليه من حارٍّ أو بارد ، أو حلو أو حامض ، أو قليل أو كثير، ذلكما مما علمني ربي ، وكانا يظنان أنْ لا ربَّ إلا ملكهما ، فقالا : ومَن ربُّكَ ؟ ومَنْ علَّمكَ علم الغيب ؟ وبأيِّ شيء توصلتَ إلى هذا ؟ فقال : ﴿ **إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [يوسف :٣٧] أي لا يوحدون الله ﴿ **وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٣٧] ، يعني بالبعث منْ بعد الموت ، قالا : وما دينُكَ ؟ وما تعبد ؟ قال ﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ [يوسف : ٣٨] قالا : أفلا عبدتَ إلهنا ؟ قال : ﴿ **مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن**

﴿ شَيْءٍ ﴾ [يوسف : ٣٨] أن نجعلَ له شريكاً إذ هو الله وحده لا شريك له ﴿ **ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ** ﴾ [يوسف : ٣٨] أي لا يهتدون إلى شكره ، ولا يؤدون حقه ، ولا يستطيعون ذلك أبداً ، وقيل في المعنى :

سَأَشْكُرُ مَا أُولِيتَ مِنْ نِعَمٍ غُرٍّ ... وَأَهْدَيْتَ مِنْ نُعْمَى وأَسْدَيْتَ مِنْ بِرِّ
وَمَنْ لِي بِأَنْ أَحْصِي أَيَادِيْكَ سَيِّدِي ... وَأَنْتَ الذي تُعْطِي وتُلهِمُ للشُّكْرِ
وَأَلْهَمَكَ الشُّكْرَ الذي أنْتَ أَهْلُهُ ... لأفْضَلِ مَا تُوْلِيهِ فِي السِّرِّ والجَهْرِ

وكانت قصة الساقي أن قوماً من أهل مدينَ أرادوا أن يسقوا الملك سمًّا فيقتلوه ، وضمنوا للساقي والخباز مالاً على أن يجعل السم في طعام الملك وشرابه ، فقَبلا ذلك منهم ، فانتهى خبرهما إلى الملك ، وكان الساقي فطناً كيِّساً فراجع عقله ، وقال : أنا لا أعجل بإلقاء السم ، فلعل الملك قد سمع بذلك ، فإذا قدمتُ إليه شرابه أمرني أن أشربه ، فإن لم أشربه افتضحتُ ، وإن شربته متُّ ، فجعل السم بين ظفرين من أظافره وقال : إن بلغه ذلك ، وأمرني أن أشربه شربتُ ، وإن لم يبلغه وأمرني أن أناوله شرابه ناولتُه ، وجعلت السم فيه من أظافري ؛ وأما صاحب الطعام فإنه لم يتدبرْ شيئاً ، وألقى السم في طعام الملك قبل تقديمه إليه ، وإنما كان هذا كله ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وقيل في المعنى :

أَيَا مَنْ يُعَوِّلُ فِي المُشْكِلاتِ ... عَلَى مَا رَآهُ ومَا دَبَّرَهْ
إذا اسْتُشْكِلَ الأمْرُ بَادِرْ بِهِ ... إِلَى مَنْ يَرَى مِنْهُ مَا لَمْ تَرَهْ
تَكُونُ بِعِزٍّ يَقِيكَ المَخَافَ ... وَفِكْرٍ يُهَوِّنُ مَا قَدَّرَهْ
فإنْ كُنْتَ تَجْهَلُ عُقْبَى الأمُورِ ... فَمَا لَكَ حَوْلٌ ولا مَقْدرَهْ
فَكَمْ ذَا العَمَى وعَلامَ الأسَى ... وَمِمَّ الحذَارُ وفِيمَ الشَّرَهْ

وكان الملك قد علم الخبر ، ورُفعت له بذلك القصة ، فلما قدم الساقي الشراب قال له : اشربه ، فشربه ، ورمى السم من يده ، ولم يضرَّه شيء ؛ ولما قدم الخباز طعامه المسموم ، قال الملك : كله ، فتغير لونه واضطربت مفاصله ، واصطكت ركبتاه ،

وامتنع من الأكل ، فأمر الملك بثور فأحضره ، ثم أمر بتقديم ذلك الطعام إليه ، فأكله ، فتهرَّى من ساعته ، وانتفخ وتناثر لحمه ، فأمر بهما إلى السجن ليرى رأيه فيهما ، فقال يوسف : ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ** ﴾ [**يوسف** : ٣٩] . خاطبهما بالصحبة التي بينهما في السجن ، فأعاب عليهما أصنامهما ، ومدح ربه تعالى : ﴿ **أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ [**يوسف** : ٣٩] . أي عبادة الله خير أم عبادة أصنامكم التي تعملوها بأيديكم وتتركون مَنْ هو الواحد في ألوهيته الذي خلقكم بمشيئته وقهركم بقدرته ؟ فهو أحق أن تعبدوه ، ثم ذم أصنامهم ، فقال : ﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ﴾ [**يوسف** : ٤٠] أي سميتُموها بأسماء الإلهية ، وهي لا تنفعكم إن عبدتموها ، ولا تضرُّكم إن تركتموها ؛ لأنها لا حول ولا قوة ولا حكم ولا مشيئة ولا سمع ولا بصر لها ، إنما فعلتم هذا أنتم وآباؤكم الكفار الذين كانوا من قبلكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، أي من دليل ولا حُجة ، ولم يأمر بعبادتها ولا رضيَها ، إنِ الحكم إلا لله يفعل في خلقه ما يشاء ، ويقضي ما يريد ، ذلك الدين القيم : يعنيَ عبادة الله ، والدين القيم الصراط المستقيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ؛ ثم إنه بعدما استمال قلوبهما ، وذكر لهما قدرة الله تعالى ، وبين لهما خطأ الكفار في عبادة الأصنام ، فلم يرَ منهما رغبة ولا قبولاً للإسلام - اشتغل بتعبير رؤياهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً** ﴾ [**يوسف** : ٤١] ، وهو صاحب شراب الملك يقول : أما الذي رأيتَ من العناقيد الثلاثة من العنب وعصرُكَ إياها ، وسقيُكَ للملك ، فإن مكثُكَ في السجن ثلاثة أيام بعد يومكَ هذا ، ويخرجك ربُّكَ ، ويردُّكَ على عملكَ الذي كنتَ عليه ، ويوليكَ أمر شرابه ، ويحسنُ حالك عنده ؛ وأما صاحب الرؤيا الثانية فإن السلات الثلاث التي رآها فوق رأسه مملوءة خبزاً ، فإن مكثه بعد هذا ثلاثة أيام في السجن ، ثم يخرجه الملك ، فيأمر بصَلْبه على جذع ، فتقطع الطير لحم رأسه ، وتأكل دماغه ، فغضب الخباز ، وقال : لم نرَ شيئاً ، إنما جئناكَ لنعلم العلم الذي تعلمه وتدعيه . ورُوِي عن ابن مسعود ومجاهد والسدي ، أنهما قالا : لم نرَ شيئاً ، وإنما أتيناه من جهة الاختبار لـــيُرِيَنا علمَه وحقيقة كلامه ، فقال لهما : ﴿ **قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** ﴾ [**يوسف** : ٤١] أي مضى الحكم والتدبير في صَلْب أحدكما ، ونجاة

الآخر ، وقيل في المعنى :

مَضَى الحُكْمُ والتَّدْبِيرُ لا تُكْثِرَا عَذْلِي	أقـلا فمـا تَجْرِي المَقَادِيرُ بالهَزْلِ
وَكَـمْ نَاطِقٍ أَبْدَى الذي فيه حَتْفُهُ	وَظُـنَّ بأنْ قَدْ جَاءَ بالمَنْظَرِ الفَصْلِ
وَمِـنْ قَـبْلِ خَلْقِ العَبْدِ قُدِّرَ أمْرُهُ	وَخُطَّ الذي يُبْدِي مِنَ القَوْلِ والفِعْلِ
أَيَخْـرُجُ خَلْقُ اللهِ مِنْ تَحْتِ سَمْكِهَا	وَكَيْفَ وإنَّ القَهْرَ يَلْتَاحُ فِي الحَمْلِ
كَذَاكَ القَضَا لا يَخْرُجُ العَبْدُ مِنْهُ فِي	صَبَاحٍ ولا مَمْسَى ولا حَنْدَسِ اللَّيْلِ
لأنَّ الـذِي يَجْـرِي عَلَيْهِ قَضَاؤُهُ	تَعَـالَى عَنِ الإدْرَاكِ والعَجْزِ والمِثْلِ

ولما فرَغ من كلامه علمَ الصديق أن صاحب الشراب سيعود إلى منزلته التي كان عليها من تقريب الملك إياه ، فخطر بباله ما يخطُر بقلب البشر ، فظن أن الناجي يذكر براءته عند الملك من الجُرم ، فقال له : أيها الفتى الجليل قدْرُه ، البينة نجاتُه ؛ إذا خلّي الملكُ سبيلكَ ، وردَّكَ إلى عملكَ ، فقل له : إن في السجن غلاماً عبرانيًّا مظلوماً ، قد حُبس منذ خمس سنين ، ونُسب إليه ما هو بريء منه ، وهو قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ [يوسف : ٤٢] ؛ وذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يصدر منهم أمر يُسيء إلا بنسيان من الشيطان وخدعة ، قال الله تعالى مخبرا عن آدم عليه السلام : ﴿ **فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً** ﴾ [طه : ١١٥] ، والنسيان عذر يُسقط العقاب ، ويغتفره الأحباب ، لكن بعد التنبيه والعتاب ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام : أن اهبطْ إلى عبدي يوسف ، وعاتبه فيما صدر منه ، وقل له : كيف استجرتَ بمخلوقَ دوني وعبد لا يعرفني ؟ قد وكلتُه إلى الملك الريان بن الوليد سبع سنين ، فهبط جبريل عليه السلام ، ونادى : السلام عليكَ يا أطيب الطيبين ، يقرأ عليك السلامَ ربُّ العالمين ، ويقول لكَ : مَنْ خلقكَ و لم تك شيئاً ؟ قال : الله تعالى ، قال : ومَن أنجى أباكَ يعقوب من أخيه عيص بعد ما همَّ بقتله ؟ قال : الله تعالى ، قال : ومَن فدى عمَّكَ بذبح عظيم ؟ قال : الله تعالى ، قال : ومَن أنجى جدكَ إبراهيمَ من النار وصيرها عليه برداً وسلاماً ؟ قال : الله تعالى ، قال: ومَن خلصكَ من أيدي إخوتكَ حين همُّوا بقتلكَ ؟ قال الله تعالى ، قال : ومَن أخرجكَ من ظلمات الجب وجاءك بالسيارة ؟ قال : الله تعالى ، قال : ومَن عطف عليكَ قلب العزيز حتى أنزلكَ منزلة الأولاد ؟ قال : الله تعالى ، قال : ومَن صرف

عنكَ كيد النسوة ؟ قال : الله تعالى ، قال : يا يوسف ، انظر إلى الأرض ، فنظر فانشقت الأرضون السبع ، فرأى تحت الأرض حجرا أبيض ، فضربه جبريل ، فانشق فخرج منه دودة معها في فمها ورقة خضراء ، فقال جبريل : يا يوسف ، يقول لك ربكَ : أنا الذي قدرتُ خلقَها ، وأوصلتُ إليها رزقها ، ولم أنسها ، ولم أنسَ أحداً من خلقي ، والكل يشملهم علمي ، ويقهرهم حكمي ، ولم أنسَكَ وأنت نبيي ، وابن صفيي ، وابن ذبيحي ، وابن خليلي ، حتى تقول لعبد لا يعرفني، ولا يملكُ لكَ ولا لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ، ولا خفضاً ولا رفعاً : اذكرني عند ربِّكَ ؟ بقاؤكَ في السجن عدد حروف كلماتك ، وقيل في المعنى :

أَمَوْلًى سِوايَ فِي الضَّرُورَةِ يُقْصَدُ ... وَتَطْلُبُ ذِكْرًا عِنْدَهُ وَتُؤَكِّدُ
وَتَتْرُكُ مَنْ أَوْلاكَ مِنَّا نِعْمَةً ... وَإِحْسَانُهُ مَا زالَ مُذْ كُنْتَ تُعْهَدُ
وَكَمْ قَبْلَكَ الإِخْوَانُ رَامُوا وَدَبَّرُوا ... ورَاشُوا سِهَامَ المَكْرِ طُرًّا وشَدَّدُوا
فَمَنْ ذَا الذي أَنْجَاكَ مِنْ وَقْعِ كَيْدِهِمْ ... أَكَانَ وَلِيٌّ دُونَنَا لَكَ تَقْصِدُ
فَأَرْسَلْتُ قَوْمًا أَخْرَجُوكَ بِدَلْوِهِمْ ... وَكَانُوا عُدَاةً كُلُّهُمْ فَتَوَدَّدُوا
وَرَامَتْ زُلَيْخَا أَنْ تُخَالِفَ أَمْرَنَا ... فَجَاءَكَ بُرْهَانٌ مُبِينٌ مُؤَيِّدُ
وَسَبَّبَ أَسْبَابًا تَقِيكَ مِنَ الرَّدَى ... وَتُدْنِيكَ مِنْ إِحْسَانِنَا وتُسَدَّدُ
لأَنْتَ لِذِي سُقْمٍ نَأَى عَنْ طَبِيبِه ... وَوَاصِلِ مَنْ فِي رَأْيِهِ الدَّهْرَ يُجْهَدُ
فَظَاهِرُهَا ذُلٌّ وسِجْنٌ وغُرْبَةٌ ... وبَاطِنُهَا عِزٌّ جَدِيدٌ مُؤَيَّدُ
أَنَا مَلِكُ الأَمْلاكِ فاخْضَعْ لِعِزَّتِي ... فَمُلْكِي قَدِيمٌ دائِمٌ لَيْسَ يَنْفَدُ
وَحُكْمِي جَرَى فِي الخَلْقِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِمْ ... وإِنْفَاذُهُ أَمْرٌ لَدَيَّ مُؤَكَّدُ

يا من يعتمد على الخلائق في كل الأحيان ، هذا عتاب لفظة جرت بنسيان ، كم تشكو إلى الخلائق بالنوائب والشجون ، ويحكَ ، تعلقُ المخلوق بالمخلوق كتعلق المسجون بالمسجون . في بعض الكتب أن الله تعالى يقول : وعزتي وجلالي لأقطعنَّ أمل كل مَن يؤمل غيري باليأس ، وألبسنَّه ثوبَ المذلة بين الناس ، ولأقطعنَّه من قربي ، ولأبعدنَّه من وَصْلِي ، أيؤمل غيري في الشدائد ، والشدائد كلها بيدي ،وأنا الحي ، ويُرجى سواي ، ويُطرق باب غيري ، والأبواب كلها مغلقة ، ومفاتيحها

بيدي ، وبابي مفتوح لمَنْ دعاني ، من ذا الذي أملني لنوائبه ، فقطعتُ به دونها ، ومَن ذا الذي رجاني لعظم جُرمه فلم يجدني عندما رجاني ، ومَن ذا الذي قرع بابي فلم أفتح له ؟ جعلتُ آمال عبيدي متصلة فقَطَعْتُها ، وجعلت أجورهم مدخرة عندي فلم يرضَوْا بحفظي ، وملأتُ أرضي وسمواتي ممَّنْ لا يملُّونَ من ذكري ، وأمرتُهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي ، فلم تثق الآدميون بقولي ، ألم يعلم من طرقتْه نائبةٌ من نوائبي أنه لا يملك أحد كشفَها إلا مَنْ بعد إذني ؟ ما لي أرى عبدي معرضاً عني ، أعطيه مالاً يسألني، ثم أنتزعه منه فلا يسألني ردَّه عليه ، ويسأل غيري ، أفتراني ابتدأته بالعطية قبل المسألة ، ثم أُسألُ فلا أجيب ؟ يا سائلاً غيري أبخيل أنا فتتركني ؟ أليس الدنيا والآخرة لي ؟ أليس الجود والكرم لي ؟ أليس الفضل والرحمة محل الآمال فمَنْ يقطعها غيري ؟ وبماذا يستحسنُ المؤملونَ أن يؤملوا غيري، فلو أن أهل سمواتي وأرضي أمَّلُوني ، فأعطيتُ كلَّ واحد منهم ما أمَّلَ ما نقص ذلك من مُلكي ، وكيف ينقص مُلْكٌ أنا قيومه ؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتي ، ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني ، وثبتَ على محارمي ولم يستغفرني ، وقيل في المعنى :

أيُّهَا المُعْرِضُ عَنَّا ... لَيْسَ بُدٌّ مِنْ لِقَانَا
وَيَرَى كُلُّ الذي قَدْ ... نَدَمُ المَرْءِ عِيَانَا
كَمْ تَرَكْنَاكَ وَمَا تَهْـ ... ـوَى فَخَالَفْتَ هَوَانَا
وَرَأَيْنَاكَ عَلَى الذَّنْـ ... ـبِ فَهَلْ أَنْتَ تَرَانَا
وَدَعَوْنَاكَ فَلَمْ تُصْـ ... ـغِ إِلَيْنَا وَنِدَانَا
فَإِلَى كَمْ تَتَمَادَى ... وَإِلَى كَمْ تَتَوَانَى
يَا خَبِيثَ الفِعْلِ يَا مَنْ ... نَقَضَ العَهْدَ وَخَانَا
فَإِذَا لَمْ تَرْضَ مِنَّا ... فَاتَّخِذْ رَبًّا سِوَانَا

(حكاية) يُروى أنه سيق إلى الحجاج رجل من الأكابر كان يطلبه زماناً ؛ فلما حضر بين يديه ، قال : يا عدو الله ، لقد أمكن الله منكَ ، احملوه إلى السجن ، وقيدوه بقيد ضيِّق ثقيل ، وابنُوا عليه بيتاً لا يخرج منه ، ولا يدخل إليه فيه أحد ، فاحتُمل الرجلُ إلى السجن ، وأحضر الحداد والقيد ، فكان الحداد كلما ضرب بمطرقته يرفع الرجل رأسه إلى السماء ، ويقول : ألا له الخلق والأمر ، فلما فرَغ منه

بنى السجان عليه بيتاً ، وتركه فيه وحيداً فريداً ، فداخله الوجد والذهول ، وجعل لسان حاله يقول :

يَا مُرَادَ المُرِيدِ أَنْتَ مُرَادِي ... وَعَلى فَضْلِكَ العَمِيمِ اعْتِمَادِي
لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ مَا أَنَا فِيهِ ... لَحْظَةً مِنْكَ بُغْيَتِي واقْتِصَادِي
سَجَنُونِي وبَالَغُوا فِي امْتِحَانِي ... وَيْحَ نَفْسِي لِغُرْبَتِي وانْفِرَادِي
إنْ أَكُنْ مُفْرَدًا فَذِكْرُكَ أُنْسِي ... وَسَمِيرِي إِذَا منعْتُ رُقَادِي
إنْ تَكُنْ رَاضِياً فَلَسْتُ أُبَالِي ... أَنْتَ تَدْرِي الذي ثَوَى بِفُؤَادِي

فلما جن الليل ألقى السجان حرسَه وعَسَسَه حتى أَصبحَ ، فتفقد البناء فإذا القيد مطروح ، والرجل ليس له خبر ، فخاف السجان ، وأيقن بالموت ، وسار إلى منزله، وودع أهله ، وأخذ كفنه وحنوطَهُ في كُمِّه ، ودخل على الحجاج ، فلما وقف بين يديه شمَّ الحجاج رائحة الحنوط ، فقال : ما هذا ؟ قال : يا مولاي ، أنا جئتُ به ، قال : وما حملكَ على هذا ؟ فأخبره بالحال ، فقال الحجاج : ويحكَ ، أسمعتَهُ يقول شيئاً ؟ قال : نعم ، كان إذا ضرب الحداد بالمطرقة ينظر إلى السماء ، ويقول : ألا له الخلق والأمر ، فقال الحجاج : ويحكَ أما علمتَ أن الذي ذكره وأنتَ حاضر سَرَّحه وأنتَ غائب ، وقيل في المعنى :

يَـــا ربُّ كَمْ مِنْ بَلاءٍ قَدْ ذَهَبْتَ بِه ... عَنِّي ولَوْلاكَ لَمْ أَقْعُدْ ولَمْ أَقُمِ
وَكَمْ وَكَمْ مِنْ أُمُورٍ لَسْتُ أَحْصُرُهَا ... نَجَّيْتَنِي مِنْ بَلاهَا كَمْ وَكَمْ وَكَمِ
فَلَسْتُ أُحْصِي الذي أَوْلَيْتَ مِنْ مِنَنٍ ... عـــندي ولا بالذي أَسْدَيْتَ مِنْ نِعَمِ
إلا بِفَهْمٍ خَفــيٍّ مِنْكَ تُلْهِمُهُ ... يـــا ذَا المَعَالِ ويا ذا الجُودِ والكَرَمِ
يـــا حَامِلَ الثِّقْلِ عمَّنْ قَدْ تَحَمَّلَهُ ... وكَاشِفَ الكَرْبِ والبَلْوَى مَعَ السَّقَمِ
جُدْ لِي بِعفْوِكَ عَنْ جُرْمِي وَعَنْ زَلَلِي ... يَا مَـــنْ تَفَرَّدَ بالإيجَادِ والعَدَمِ

اللهم ، فارجَ الهم ، وكاشفَ الكرب ، مجيبَ دعوة المضطر ، رحمنَ الدنيا والآخرة ورحيمهما ، ارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة مَنْ سواكَ ، يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلم تسليما كثيراً .

المجلس التاسع

في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩] الآية .

الحمد لله منور أسرار الأبرار بأنوار آثار العلم واليقين ، ومطهر أفكار الأخيار من أقذار الإنكار والشك والترنين ، وكاتب أسطار الأقدار على صفح لوح جبين الجنين بالسعادة أو الشقاوة والأجل والاكتساب فصارت تلوح على جبهته وتستبين ، فلابد من جريان حكمه على ما سبق في علمه ؛ هذا من أصحاب الشمال ، وهذا من أصحاب اليمين ، ثبت قدمُه وبقاؤه ، وجرى حكمه وقضاؤه ، فما يفيد الجزع ولا يغني التلوين ، عجباً للعبد كيف يتحكم ويفكر ومولاه يحكم ويقدر ؟ ! هيهاتَ هذا بعيد في القياس ومعاب عند المتقين ، لقد لاح لنا الصراط المستقيم وبين لنا مولانا في كتابه المبين ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩] ، أحمده على نعم عمت الخلائق أجمعين ، وأنزِّهه عن أقوال الفجرة والمبتدعين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، المنفرد بالإنشاء والابتداع والخلق والاختراع والتصوير والتكوين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله الذي زال له الشجر من مواضعه ونبع من بين أصابعه الماء المعين ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وعترته وأحبابه الأصفياء الأتقياء الموحدين ، الذين أظهروا منار الدين ، وجاهدوا الملحدين ، صلاةً تدوم وتقوم ما ناح قُمْرِيٌّ وسما لعيون الناظرين ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل في المعنى :

يـــا وَاحِدًا قَدْ جَلَّ عَنْ تَقْدِيري ... إِنِّـي بَرِئْتُ إِلَيْكَ مِنْ تَدْبِيري
وَخَلَعْتُ طَوْقَ تَعَرُّضِي وَأَزَلْتُهُ ... وَفَــنِيتُ عَنْ جدِّي وَعَنْ تَقْصِيري
وَبَــرِئْتُ مِنْ حَوْلِي إِلَيْكَ وَقُوَّتي ... عِــلْمًا بِأَنَّكَ خَالِقِي وَنَصِيري
هَيْهَــاتَ هَلْ يَخْتَارُ عَبْدٌ عَاجِزٌ ... أَوْ هَــلْ يَلِيقُ تَعَزُّزٌ بِفَقِيرِ
رَبِّــي إِلَيْكَ تَزَلُّلِي وَتَخَضُّعِي ... والــعزُّ عندي أنْ تكونَ مُجيري
وَجَّهْتُ كُتْبَ تَضَرُّعِي لِجَلالِكُمْ ... فمــتى يوافي بالقَبولِ بشيري

أَنْتَ الْجَلِيسُ إِذَا عَدِمْتُ مُؤَانِسِي وَلَذِيذُ ذِكْرِكَ فِي الظَّلامِ سَمِيرِي
وَرِضَاكَ سُؤْلِي وَالتَّقَرُّبُ بُغْيَتِي وَرَجَاءُ جُودِكَ فِي الْخُطُوبِ ضَمِيرِي
لَوْ كُنْتَ تَسْمَحُ لِلْعَبِيدِ بِنَظْرَةٍ مَا كَانَ فِي هَذَا الْوُجُودِ نَظِيرِي

قوله تعالى : **﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾** [يونس:٩٩] ، هذه الآية سيوفٌ وخناجرُ على حناجر المعتزلة ؛ لأن إبليسَ جدَّ في إذلالهم حتى ادعَوْا خلق أفعالهم ، فلما صدر ذلك منهم صار إبليسُ خيراً منهم ؛ لأن إبليسَ قال : **﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾** [الأعراف:١٦] ، وهم يقولون : أغوينا أنفسنا ، ولقد برئ من قدرة الله وحوله مَن ادعى خلق فعله ؛ وذلك لأنهم احتجوا بأن الله تعالى أمر عباده بالطاعة ، وأرادها منهم ، ونهاهم عن المعصية ولم يُردها منهم ، وقالوا : هل تقولون : إن الله قادر على منع المعصية أو غير قادر ؟ فإن قلتم : إنه غير قادر فقد كفرتُم ، وإن قلتم : إنه قادر فهلا منع من المعصية ، إذ هو لا يريدها على زعمكم ؟ قيل لهم : لو جاز أن يكونَ الكفر والمعصية ليستا بإرادة الله تعالى لأدَّى ذلك إلى أن يكون الله تعالى عاجزاً عن أكثر المخلوقات ؛ لأن الكفرَ أكثر من الإيمان ، والمعصيةَ أكثر من الطاعة ، فيؤدي إلى أن يكون في مملكته ما ليس باختياره ، وهذا مما لا يرضاه رئيس قرية ، فكيف مالك الملوك ؟ والناس في هذه المسألة على ثلاثة مذاهب : مذهب القَدَرية وهم الذين تقدم ذكرُهم ، والجبرية وهم الذين يقولون : إن أفعال المخلوق كلها ليست له ، والإنسان إنما هو في فعله مجبورٌ كالباب يُفتح ويُغلق ، وكالخيط يُحل ويُربط . قيل لهؤلاء الآخرين : لو كان الأمر كما تزعمون ، لبطلَ العقاب والثواب ، إذ المجبورُ ليس له ثواب في الطاعة ؛ لأنه لم يفعلها بإرادته ، ولا عقابَ عليه في المعصية ؛ لأنه لم يفعلها بإرادته ، وبطلانُ الثواب والعقاب محالٌ ، وهو تعطيل للشريعة ، ولكان إنزالُ الكتب وإرسالُ الرسل لهؤلاء لا فائدةَ فيه ، ولما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ، لأنَّ إرسال الرسل وإنزال الكتب للإعذار والإنذار، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . والثالث من هذه الطوائف السنية ؛ لأنهم سلكوا طريقاً بين طريقين لا يعتقدون أن المكلفين في أفعالهم مضطرون ، ولا يقولون بأنهم مهملون ؛ لأن الإنسان لو كان مهملاً لكان سُدى ، ولو كان مضطراً لكان غير معاقَب ، وضربوا في ذلك مثلاً : حمل ثقيل أنت قادر

على حمله ، ومعك آخرُ عاجزٌ ، رفعتما الحمل جميعاً ، فينسب الرفع للقوي ، ولكن للآخر نوع فعل ، فذلك النوع من الفعل هو كسب العبد مع خلق الحق تعالى ، وعليه يقع الثواب والعقاب ، فقالوا : لأي شيء قدر الله المعصية على المؤمنين ؟ قيل: ليكون سبباً لمعاتبته له ؛ لأن المحب يحب طول معاتبته لحبيبه . وقيل : إن للمؤمنين عدوًّا وحبيباً ، فعدوهم أشد الأعداء ، وهو إبليس ، وحبيبهم أجل الأحباء ، وهو نبيُّهم ، فمراده أن يغيظ العدو بمغفرته لهم ، ويطيل سرورهم بنبيِّهم ؛ لأن المحب يدخل السرور على حبيبه . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « كتبَ اللهُ مقاديرَ الخلق قبل أن يخلق السموات بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء »[1] ذكره مسلم . وقال عمران بن حصين : « قال رسول الله ﷺ : كان الله عز وجل ، ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر الأول كل شيء »[2] ذكره البخاري . وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « أول ما خلق الله تعالى القلم ، فقال له اجْرِ ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة » ذكره البزار . وقال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما : قال رسول الله ﷺ :« كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » ذكره مسلم ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « تحاجَّ آدمُ وموسى ، فقال موسى : أنتَ آدمُ الذي أغويتَ البشر ، وأخرجتَهم من الجنة ؟ فقال آدم : وأنتَ موسى الذي أعطاكَ الله علم كل شيء ، واصطفاكَ على الناس برسالاته وبكلامه ، قال : نعم ، قال : أقرأتَ التوراة ؟ قال : نعم ، قال : فمنذ كم وجدتَ ذلك مقدَّراً عليَّ ؟ قال : منْ قبل أن تُخلق بأربعين عاماً ، قال : أفتلومني على أمر قد قدره الله عليَّ قبل أَن أخلق ، فحجَّ آدمُ موسى »[3] ذكره مسلم ، ولقد ذُكر هذا الحديث يوماً بين يدي الرشيد ، فقال بعض وزرائه : كيف لقي موسى آدمَ وبينهما ما بينهما من المدة ؟ فقال الرشيد : ويحكَ ، يحدثكَ النبي ﷺ وتقابله بكيف ؟ اخرجْ ، فلا أراكَ بين يدي . وقال ابن عباس رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « صِنفانِ من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيبٌ : القَدَرية

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢٠٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٦ / ٢٦٩٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢٠٤٢ .

والمُرْجئة » [١] ذكره الترمذي ، وقد جاء في هذا الباب من الآيات والأحاديث ما لا يُحصى ، وقد أفردتُ له مجلساً في كتابي المسمى بـ (فائدة المتعلم وبغية المتكلم) ، وقيل في المعنى :

قُـلْ لِلْمُكَـذِّبِ بِـالْمَقْدُورِ يَجْهَلُهُ ... ضَـلِلْتَ عَنْ قَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ وَالرَّشَدِ
إِنْ كُنْـتَ تَخْلُـقُ أَفْعَـالاً وَتَكْسِبُهَا ... فَلَـمْ يُرَى فِيكَ وَهْنُ الشَّيْبِ وَالْفَنَدِ
وَلَـمْ تُصَـابُ بِمَكْـرُوهٍ تُسَـاءُ بِهِ ... أَأَنْـتَ شِـئْتَ وُقُوعَ الضُّرِّ وَالْكَمَدِ
بَـلِ الْمُقَـدِّرُ مَوْلانَـا وَخَالِقُـنَا ... سُـبْحَانَهُ مِـنْ مَلِـيكٍ وَاحِدٍ أَحَدِ
وَإِنْ أَصَـابَكَ ضُـرٌّ مِـنْهُ مَعْدَلَـةً ... فَقُـلْ : ذُنُوبٌ وَفِعْلٌ قَدْ جَنَتْهُ يَدِي
هَـذَا اعْـتِقَادُ أُولِـي التَّحْقِيقِ قَاطِبَةً ... قَـدْ صَـحَّحُوهُ مِنَ الأَخْبَارِ وَالسَّنَدِ
وَإِنْ أَصَـابَكَ إِحْسَـانٌ تُسَـرُّ بِـهِ ... فَقُـلْ : بِفَضْلِكَ يَا مَنْ جَلَّ عَنْ عَدَدِ

أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : ادرك لطف الفطنة وخفيَّ اللطف ، فإني أحب ذلك ، قال : يا رب ، وما لطفُ الفطنة وما خفيُّ اللطف ؟ قال : لطف الفطنة هو إن وقعتْ عليك ذبابة فما فوقها ، فاعلم أني أوقعتُها عليكَ فسَلْني دفعَها عنكَ ، وأما خفيُّ اللطف فهو إن وردتْ على قلبكَ قولةٌ مشوشة فاعلمْ أني قدرتُها عليكَ فسلني دفعَها عنكَ ، وجاء رجل إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فسأله عن القدر ، فقال : سر خفيٌّ فلا تنظره ، فقال : بَيِّنْهُ لي ، قال : أخلقكَ كما تشاء أو كما يشاء ؟ قال : بل كما يشاء ، قال : فكل الأشياء فَقِسْهَا عليه ، فقال : زدني بياناً ، قال : مشيئتكَ مع مشيئته أم فوقها أم دونها ؟ إن قلتَ : فوق مشيئته فقد غالبْتَهُ ، وإن قلتَ : مع مشيئته فقد أشركْتَهُ وليس لله شريكٌ ، وإن قلتَ : دون مشيئته فقد عاليْتَهُ ، ثم قال : أتقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ قال : نعم ، قال : أتدري ما معناها ؟ قال : لا ، قال : لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلابتوفيق الله ، ثم قال : أوقعتْ على قلبك السكينة وثلج اليقين ؟ قال : نعم ، قال : فصافحوا أخاكم فقد أسلم إسلاماً جديداً ، وقال وهب ابن منبه : لما خرَّبَ بختنصر بيت المقدس وحرق التوراة وسبى الذراري والنساء ،

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١ / ١٤٧ ، والطبراني نحو معناه في الأوسط ٤ / ٢٨١ .

وأسر الأنبياء عليهم السلام ، كان فيهم عزير عليه السلام ، فبلغ عمره أربعين سنة وهو أسير بأرض بابل ، فسهر ليلة من الليالي وتفكر في محنة الأنبياء وخراب بيت المقدس وتمزيق كتبه ، فقال : اللهم ، إنكَ أنت خلقتَ الأرض فكانت على مشيئتك ، ثم أنبتَّ آدم منها بشراً سويًّا ، وأسجدتَ له ملائكتكَ بعد أن نفختَ فيه من روحكَ، وأسكنتَهُ جنتكَ ، وعهدتَ إليه عهدكَ ، فلما ضيعته أخرجتَه من جنتك وأسكنته الأرض ، وصنعت إليه المصانع وقضيت عليه الموت ، ثم تخيرتَ رسلكَ ، وعينتَ أنبياءك ، وبوأتَ بني إسرائيل الأرضَ المقدسة ، فلما كثر العاصون منهم سلطتَ عليهم عدوهم ، وأنزلت عليهم عقوبتكَ ، فقتل أنبياءهم ، ومزق كتبهم ، وخرب بيت عبادتهم ، فقلت : هم قوم أخطأوا فعذبوا من لا خطايا لهم ، فنظرت منذ ثلاثين سنة فإذا الذين من بعدهم أكثر منهم في الخطايا والصد منهم عن بابكَ والكفر منهم بآياتكَ ، فأرسل الله إليه ملَكاً فسلَّم عليه ، وقال : يا عزير ، لقد أهمتكَ الدنيا ، وأحزنكَ شأنها ، أتريد أن تعلم سر قضاء الله تعالى ؟ قال : نعم ، قال : ألا إن الله تعالى قد أرسلني إليكَ لأسألكَ فتخبرني ، وأقولَ لكَ فتسمعَ ، يا عزير ، أريد أن تصرَّ لى صرةً من الشمس ، وتكيل لي مكيالاً من النور ، وتزنَ لي مثقالاً من الريح ، وتردَّ لي يوم أمس ، قال : ومن يطيق هذا ؟ فقال : من يسأل من لا يصل إليه علمه ، ولا يكلف النظر فيه ، يا عزير ، إذا كنت تعجز عن هذا ، فكيف لو سألتكَ عن الأرض كم تحتها من ينبوع ؟ وكم فيها من مثقال ؟ وكم في البحر من نقطة ؟ وكم عدد ما أنزل الله من السماء من قطرة ؟ وكم أرواح الموتى ؟ وكم حُفَرُ القبور ؟ وكم أبواب السماء ؟ وكم عمق البحار ؟ وأين طريق الجنة ؟ فقال : لا علمَ لي بهذا ، قال : إذا لم تعلمه وأنت تدركه ببصرك ، وتعرفه بعقلكَ ، فكيف تريدُ تعلم علم الله تعالى الذي توحده ، وغيبه الذي حجبه عن خلقه لنفسه ؟ ثم قال الملَك : يا عزير ، سلِ الأرض لـمَ تطولُ أشجارها وتخضر أوراقها وتظهر ثمارها في وقت أوانها ، فإذا بلغتْ حدَّها رُدت بزمام القهر وزال ذلك منها ؟ أليس الماء من تحتها يجري والهواء من فوقها يسري ؟ يا عزيرُ ، وسلِ البحار ما بالها تعلو أمواجها ويندفع أجاجها ، فإذا بلغتْ حدها رُدت بخطام القهر إلى القعر ؟ يا عزيرُ ، أرأيت لو اختصمتْ إليكَ الأرضُ والبحارُ ، فقالت الأرض : قد ضقتُ بجبالي وأشجاري وما فيَّ من خلق ربي ، وأريد أن أمتدَّ في البحر وأتوسعَ فيه ، وقال البحر : قد ضقتُ بأمواجي ومياهي وحيتاني ودوابِّي ، وأريد أن أمتدَّ في الأرض وأتوسع فيها ، ما كنت تقضي بينهما ؟ قال : عزيرُ : كنتُ أقول لهما :

كل منكما أتى بحُجة تنفعه ، وإن لكل واحد منكما حدًّا بالغه ومدةً لا يتعداها ، قال المَلَك : نعْمَ ما وصفتَ وقضيتَ ، كما قضيتَ على غيركَ اقضِ به على نفسكَ، إن الله تعالى قد أجَّلَ لأهل الدنيا أجلاً هم بالغوه ، وحدًّا لابد لهم أن يصلوه ، فلا ينبغي لأحد من أهل الأرض أن يسأل عن علم السماء الذي حجبه عن عباده ، وخص به نفسه ، وقيل في المعنى :

عِلْمُ الْمَشِيئَةِ سِرٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ   جَمِيعُ هَذَا الْوَرَى عَنْ عِلْمِهِ وَقَفُوا
فَكُــلُّ مَــنْ رَامَ أَنْ يَرْقَى بِهِمَّتِهِ   أَدْرَاجَ سُـلَّمِهَا أَوْدَى بِـهِ اللَّهَفُ
ضَلَّتْ عُقُولُ أُولِي الأَلْبَابِ كُلِّهِمُ   أَقَــرَّ جَمْعُهُــمُ بِالْعَجْزِ وَاعْتَرَفُوا
فَبَيْنَ كَافٍ وَبَيْنَ النُّونِ أَوْجَدَهَا   وَكُــلُّ مَــا نَحْنُ نُبْدِيهِ وَنَقْتَرِفُ
فَلَيْسَ مِنْ خَلْقِنَا شَيْءٌ بَدَا وَخَفِي   إلا بِعِــزِّ جَــلالِ الــلَّهِ يَعْـتَرِفُ

واعلم أن الماء لا يغرق ، والنار لا تحرق ، والحديد لا يقطع ، والتراب لا يدفع ، بل الأقدار تجري كما شاء مجريها ، وتنفذ كالسهام إلى مراميها ، فقد ضرب الله لبني إسرائيل في البحر طريقاً ، وأُضرمتِ النارُ لإبراهيم فلم تُبد حريقاً ، وفُلَّت السكينُ على حلق الذبيح فكان إبراهيم ينادي ويصيح : يا سكينُ احتجتُ إليك مرة ، فلم تقطعي شعرة ، فقالت السكين بلسان حال : يا خليل ، لا تترل الأوحال ، الذي أزال منك حنة الطبع ، أزال مني حدة القطع ، وطئ الرسول عليه الصلاة والسلام بين درعين فأصابت تحفظه العين فشُجَّ جبينُه ، وكُسرت رباعيته ليصيب نصيباً من قوله : « ولنبلونكم » ، يا درع العصمة انكشفْ ليقع في الشجاع نبله ، وفي هذا المعنى بيت من الميمنة :

فَسَلَكْتُ بِالرُّمْحِ الطَّوِيلِ بَنَانَهُ   لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ

وقيل لما أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما أُلقي في النار لم تحرقه فعجب الخلائق من ذلك ، فأراد إله إبراهيم أن يُريهم ذلك عياناً ، فقال : ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا** ﴾ [مريم:٧١] ، فإذا وردوا النار صاروا فرقتين : فرقةً يستغيثون من النار فلا يغاثون ، وفرقة تستغيث منهم النار ، وإن لله تعالى عباداً إذا جازوا على النار خمد لهبها ، وذهب حرها حتى تناديه جهنم : جز يا مؤمن فقد أطفأ نورُك لهبي ، وقيل في المعنى :

يَا مَنْ مَضَى عُمْرُهُ فِي الْجِدِّ وَالنَّصَبِ   أَسْرِعْ مُرُورَكَ إِنِّي قَدْ مَضَى لَهَبِي
كَمْ بِتَّ تَجْأَرُ مِنْ قَوْلِي فَهَا أَنَا قَدْ   جَأَرْتُ مِنْكَ فَإِنِّي الْيَوْمَ فِي تَعَبِ
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الْحَرْقَ لِي فَإِذَا   مَوْلايَ يَخْلُقُ مَا يَبْدُو مِنَ الْعَجَبِ
يَا مَنْ يُشَاهِدُ أَسْبَابًا وَيَلْحَظُهَا   إِنَّ الْمُسَبَّبَ يَبْدُو مِنْكَ فِي السَّبَبِ
لِيُخْرِجَ الضِّدَّ مِنْ ضِدٍّ وَيُبْرِزَهُ   وَكَمْ رَأَيْتُ سُرُورًا جَاءَ مِنْ كُرَبِ

وقيل : إن الله تعالى إذا أراد أمراً وقدر تقديرا ، قدَّر له أسباباً يتوصل بها إلى ذلك الحكم المقدر ؛ ألا ترى أنه لما أراد أن ينزع ملك مصر من أيدي الفراعنة ويملِّكها بني إسرائيل كيف قدم إلى ذلك أسباباً ؟ فجعل محبة يعقوب لأحد بنيه سبباً لحقد الإخوة ، ثم جعل رؤياه سبباً لحسدهم إياه ، ثم جعل حسدهم سبباً لرميه في الجُبِّ ، ثم جعل رميَهُ في الجُبِّ سبباً لإخراجه على يد السيارة ، ثم جعل إخراجه على يد السيارة سبباً لبيعه ، ثم جعل بيعه سبباً لوصوله مصر ، ثم جعل وصوله مصر سبباً لشراء العزيز له ، ثم جعل شراء العزيز له سبباً للمراودة ، ثم جعل المراودة سبباً لقول النسوة ، ثم جعل قول النسوة سبباً لدخوله في السجن ، ثم جعل دخوله في السجن سبباً لتعبير رؤيا الساقي والخباز ، ثم جعل تعبير رؤيا الساقي والخباز سبباً لتعبير رؤيا الملك ؛ وانظر إليه إنما أصابه ما أصابه من السجن من أجل الرؤيا ، ومن أجلها وجد ما وجد من الملك والسلطان ، فبرؤيا هَلَك وبرؤيا مَلَك ؛ فالرؤيا التي هلك بها قوله تعالى : ﴿ **إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** ﴾ [يوسف:٤] ، والرؤيا التي ملك بها قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ** ﴾ [يوسف:٤٣]؛ فرؤيا كانت سبب ترحه ، ورؤيا كانت سبب فرحه ، ورؤيا كانت سبب محنته ، ورؤيا كانت سبب محبته ، وكذلك كان سبب عمي يعقوب قميص قوله تعالى : ﴿ **وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف:١٨] ، وكان السبب في رد بصره قميص قوله تعالى ﴿ **فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾

[يوسف:٩٣] ، وكذلك وجد فرعون أيضاً المملكة بالماء حيث قال : **﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾** [الزخرف:٥١] ، ووجد الهلكة من الماء ، وهو قوله تعالى **﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾** [الأعراف:١٣٦] ، فسبحان من يخرج الضد من الضد ، ويسرح الأسير من القيد ، وقيل في المعنى :

بِلَذِيذِ ذِكْرِكَ يَطْرَبُ الْمَسْجُونُ ... وَخَفِيُّ سِرِّكَ فِي الضَّمِيرِ مَصُونُ
وَإِلَيْكَ يَصْبُو قَلْبُهُ وَفُؤَادُهُ ... وَكِلاهُمَا مُلْقَى لَدَيْكَ رَهِينُ
إِنْ كَانَ يُرْضِيكَ الَّذِي قَدْ شَفَّنِي ... فَجَمِيعُ مَا أَلْقَى عَلَيَّ يَهُونُ
زَعَمُوا بِأَنَّكَ غَائِبٌ عَنْ مُقْلَتِي ... جَهْلاً وَأَنَّكَ لا تَرَاكَ عُيُونُ
وَجَمِيعُ مَا يَبْدُو يُخَبِّرُ أَنَّهُ ... خَلْقٌ فَعَنْكَ عَلَى الدَّوَامِ يَبِينُ
أَتَخِيبُ آمَالِي وَأَنْتَ مُؤَمَّلِي ... وَيَنَالُنِي وَهَنٌ وَأَنْتَ مُعِينُ
إِنِّي رَفَعْتُ إِلَيْكَ وَقْعَ تَضَرُّعِي ... أَتُرَى جَوَابِي مِنْكَ كَيْفَ يَكُونُ
وَلَقَدْ سُرِرْتُ بِطُولِ كَرْبٍ شَفَّنِي ... وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يُسَرَّ حَزِينُ
لَمَّا عَلِمْتُ بِأَنَّ مِنْكَ وُقُوعَهُ ... حَقًّا وَأَنَّكَ لِلثَّوَابِ ضَمِينُ
سَلَّمْتُ لِلأَحْكَامِ تَسْلِيمَ امْرِئٍ ... رَضِيَ الْقَضَاءَ فَشَأْنُهُ التَّهْوِينُ

قال : أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : لما كملتْ ليوسف في السجن اثنتا عشرة سنة ، وانقضت المدة ، ومضى وقت الشدة ، أرسل الله عز وجل جبريل إليه في صورة حسنة وهيئة جميلة ، فدخل السجن ، وتصور للصديق على باب بيته ، فجعل الصديق ينظر إليه ، ويتعجب من حسن صورته ، وأنكر أن يكون مثله في السجن ، فسلم عليه فرد يوسف السلام ، فقال : هل تعرفني أيها الصديق ؟ فقال يوسف عليه السلام : أرى صورة حسنة ، وريحاً طيبة لاتشبه أرياح الخاطئين ، فمن أنت يرحمكَ الله ؟ قال : فأنا أخوكَ جبريل ، فكيف أنت يا أطيب الطيبين ورأس المقربين ويا ابن الطاهرين ؟ فقال : حبيبي يا جبريل ، كيف تشبهني بالصالحين وتسميني بأسماء الصديقين وعددتني مع آبائي الطاهرين وأنا بين هؤلاء المجرمين وقد دخلتُ

مدخل المذنبين ؟ قال : أما علمتَ أن الله يطهر البيوت بتطهير النبيين ؟ فإن البقعة التي تحل بها أطهر الأرضين ، وأن الله تعالى قد طهر هذا السجن وما حوله من أجلكَ يا حبيب رب العالمين ، وأن الله تعالى قد جعلك رأس الصديقين ؛ لأنه لم يغير خلقك بالبلاء ، ولم يدنس حريتك بالرق ، ولم يعظم عليك السجن في الله عز وجل ، ولم تطأ فراش سيدك في طاعة ربك ، ولم يُنسكَ بلاء الدنيا بلاء الآخرة ، فقد سماكَ الله بأسماء الصديقين وعدكَ مع آبائك المخلصين ، وأوجب لك جزاء الصابرين ، وألحقك بآبائكَ الصالحين ، وإن الله تعالى يقرأ السلام عليكَ ، ويقول : كيف حالكَ وهو أعلم بكَ منكَ ؟ فقال : يا أخي يا جبريل ، ظاهر حالي يشهد بما أنا فيه ، فلربي الحمد على كل حال ، وقيل :

سِجْنِي طَوِيلٌ وَقَيْدِي ضَيِّقٌ حَرِجُ ... كَأَنَّهُ أَرْقَمٌ فِي السَّاقِ يَخْتَلِجُ
مَهْمَا أَرَدْتُ إِلَى نَهْضٍ يُثَبِّطُنِي ... وَلَيْسَ بِي عِلَّةٌ تَبْدُو وَلا عَرَجُ
وَجِيرَتِي فِيهِ أَقْوَامٌ قَدِ افْتَضَحُوا ... أَحْيَاءُ لَكِنْ مِنَ الأَحْيَاءِ قَدْ خَرَجُوا
إِذَا أَتَى لَهُمُ السَّجَّانُ دَاخَلَهُمْ ... خَوْفٌ تَطِيرُ لَهُ الأَكْبَادُ وَالْمُهَجُ
وَلَيْسَ لِي زَائِرٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلا ... أَرَى عَلَى بَابِ بَيْتِي مُشْفِقًا يَلِجُ
وَلا تُشَاهِدُ عَيْنِي مَا يَسُرُّ وَلا ... أُذْنَايَ تَسْمَعُ قَوْلاً مِنْهُ أَبْتَهِجُ
فَاللَّيْلُ قَدْ صَارَ عِنْدِي وَالنَّهَارُ سَوَا ... لا اللَّيْلُ يَفْنَى وَلا الإِصْبَاحُ يَنْبَلِجُ
كَأَنَّنِي طَائِرٌ مَثْوَاهُ فِي قَفَصٍ ... قُصَّتْ جَنَاحَاهُ فَالأَعْضَاءُ تَخْتَلِجُ
وَلِي حَبِيبٌ نَأَى عَنِّي وَفَارَقَنِي ... فَحَالُهُ مِثْلَ حَالِي مَا بِهِ عِوَجُ
يَبْكِي عَلَيَّ وَأَبْكِي حِينَ أَذْكُرُه ... يَا لَيْتَ شِعْرِي مَتَى يَأْتِي لَنَا الْفَرَجُ ؟

ثم قال : يوسف عليه السلام : هل لكَ علم بيعقوب أيها الروح الأمين ؟ قال : نعم ، وهب الله له الصبر الجميل ، وابتلاه بالحزن فهو كظيم ، وقد عدل حزنُهُ عليكَ حزنَ مائة ثكلى ، وبلغ من صبره ما استوجب أجر مائة شهيد[1] ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الله كتم عنه أمرك فلم يدرِ أحيٌّ أنت فيرجوكَ أم ميتٌ

(١) ليس له أصل ، ولعله من الإسرائيليات ، والله أعلم .

فيحتسبكَ، وإنما كتم الله عليه أمركَ ليشتد عليه البلاء حتى يبلغ أجر مائة شهيد ، كما أن إبراهيم ﷺ لما عرض عليه إحراق جسده وذبح ولده وفراق أحبته والجلاء عن قومه اختاره الله ورضيه وكان أعظم في صدره من ذلك كله ، فأوجب الله له بذلك الخلة ، ومتعه بابنه ، وجعل صدره موضعاً لسره ، وبوأه موضع بيته ، وجعل في ذريته الكتاب والحكمة إلى يوم القيامة ، وهذا أوان الزمان الذي وعدك الله أن يعطيكَ اليد العليا على إخوتك والظفرَ بهم ، ويزيل عنكَ رِقَّكَ ، ويظهر للناس حريتكَ ، ويصدق رؤياكَ ، وينصفكَ ممن ظلمكَ ، ويهب لَكَ مُلك مصر تخضع لكَ أعزتها ، وتذل لك جبابرتها ، ويلبسكَ الهيبةَ والمودة في قلوب الخلق حتى يبلِّغَكَ برحمته ما بَلَّغَ آباءك الصالحين ؛ وسبب ذلك أن الملك الريان بن الوليد يرى الليلة رؤيا وهي كذا وكذا ، وتأويلها كذا وكذا ، فأبشر فأنت صديق الله ، وابن صفيه، ابن ذبيحه ، ابن خليله ، قال : ثم خرج عنه وتركه ؛ فلما جن الليل نام الملك الريان بن الوليد ، وكان معه حاجبه ومضحكه وساقيه ومسامره وطائفة من عظماء قومه ورؤساء مملكته ، وكان منامه في الثلث الأخير من الليل ، فانتبه من نومه مرعوباً ، فقالوا له : ما الذي أفزعكَ أيها الملك ؟ جعلنا الله فداءك ، فقال لهم : عليَّ بملأ عظيم من علماء قومي وعظمائهم ومنجميهم وكهانهم والعقلاء منهم ؛ فإني رأيتُ رؤيا أفزعتني ، أعلم أن لها شأناً عظيماً ، وأريد أن أقصَّها عليهم حتى يعبِّروها ، فإني من ذلك على وجل ، فتسارعوا لأمره ، وأشفقوا على فزعه وضجره، فحضر أهل العلوم وأرباب العقول وأصحاب الكهاني والنجوم ؛ وكيف يصلون إلى علم القدر ، وقد جاء توقيع ﴿ **وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ﴾ [يوسف:٥٠] وقيل في المعنى :

بَيْـنَ الْعِبَادِ وَبَيْنَ الْغَيْبِ أَسْتَارُ ... وَفِـي حِجَابِهِمُ عَنْ ذَاكَ أَسْرَارُ
فَـلَيْسَ عِنْدَهُمُ عِلْمٌ وَلا خَبَرٌ ... وَقَدْ جَرَتْ قَبْلَ كَوْنِ الْكَوْنِ أَقْدَارُ
فَكَـيْفَ لِلنَّجْمِ تَأْثِيرٌ وَخَالِقُهُ ... بِأَمْرِهِ فَهْوَ إِخْفَاءٌ وَإِظْهَارُ
وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ وَالأَكْوَانُ أَجْمَعُهَا ... وَالْفَوْقُ وَالسُّفْلُ لِلْجَبَّارِ قَدْ صَارُوا
مُلْكًا يُصَرِّفُهُمْ فِيمَا يَشَاءُ بِـ "كُنْ" ... فَيَـبْرُزُ الأَمْرُ مَا فِي الْكُلِّ مُخْتَارُ
فَكَـيْفَ يَحْكُمُ قَوْمٌ بِالنُّجُومِ وَقَدْ ... ضَـلُّوا فَإِقْرَارُهُمْ جَحْدٌ وَإِنْكَارُ

لَوْ يَعْلَمُونَ لِمَا نِيلُوا بِرَاحَتِهِ وَلا اعْتَرَتْهُمْ مُسِيئَاتٌ وَأَضْرَارُ
أَوْ يَسْأَلُونَ عَنِ الأَرْضِينَ مَا عَلِمُوا فَكَيْفَ تَعْلَمُ آثَارٌ وَأَنْوَارُ
تَبًّا لأَجْمَعِهِمْ خَابُوا وَقَدْ خَسِرُوا وَكُلُّهُمْ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ كُفَّارُ

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أتى كاهناً » ، وفي رواية : « مَنْ أتى عرافاً فسأله عن شيء لا يقبل الله منه صلاة أربعين يوماً »(١) ذكره مسلم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : مَن اقتبس علماً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر ، رواه أبو داود : وقال ﷺ : « مَنْ أتى كاهناً فصدق بما يقول ، أو أتى امرأة حائضاً أو امرأة في دُبرها ، فقد كفر بما أُنزل على محمد »(٢) . فلما حضروا بين يديه ، ونظروا إليه قال لهم : إني رأيتُ في منامي كأني على شاطئ النيل إذ نضب الماء ، وخرج من النيل سبع بقرات سمان قد مُلئت ضروعها لبناً ، وكأهن حُشين لحما ولبناً وسمناً ، فبينما أنا كذلك إذ خرج من النيل سبع بقرات مهازيل عجاف خراطيمهن كخراطيم السباع ، فأكلن لحم السمان ، ومزقن جلودهن ، ولَحَسْنَ دماءهن ، فلم يبقَ منهن بقرة ، ولم يظهر في البقرات العجاف زيادة ، فبينما أنا أنظر إذا بسبع سنبلات خضر ناعمات مملوءات حَبًّا ، فنبتت تحت كل واحدة منهن سنبلة يابسة بيضاء لا خضرة فيها ولا ماء ولا حَبّ ، فالتوت السنبلاتُ اليابساتُ على السنبلات الخضر ، فمصصنَ ما فيهن من الماء والخضرة حتى يبسن ، ولم يظهر في السنبلات اليابسات خضرةٌ ولا ماء ، ويبسنَ كلهن ، فعجبتُ كيف غلبت المهازيل السمان ، واليابسات الخضر الناعمات ، وقيل في المعنى :

لا تَحْقِرَنَّ ضَعِيفًا فِي تَقَلُّبِهِ إِنَّ الْبَعُوضَةَ تُدْمِي جَانِبَ الأَسَدِ
وَلِلشَّرَارَةِ حَقْرٌ حِينَ تَنْظُرُهَا وَرُبَّمَا أَضْرَمَتْ نَارًا عَلَى بَلَدِ

قال : ﴿ **أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ** ﴾ [يوسف:٤٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يصيب العبد شيء إلا رآه في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٧٥١.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه ١ / ٢٤٣ ، والدارمي في سننه ١/ ٢٧٥ ، والحاكم في مستدركه ١ / ٤٩ ، والبيهقي في الكبرى ٨ /١٣٥.

منامه ، حفظه مَن حفظه ، ونسيه مَن نسيه . وقال ابن عمر : مَن بات على وضوء وطهارة كان فراشه مسجداً ، وجسده نوراً ، وغشيه ملَك ، فإذا رأى رؤيا كانت حقًّا ، ومَن بات على غير وضوء وطهارة كان فراشه حفرةً ، وجسده جيفةً ، وعانقه الشيطان ، فما رآه فهو حلم . وقال جابر بن عبد الله : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، رأيتُ في المنام كأن رأسي قُطعت ، فضحك رسول الله ﷺ وقال : إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يحدث به الناس » ذكره مسلم وأبو داود (١) ، وقال ابن عباس : الأحلام الرؤيا الصادقة ، والأضغاث الرؤيا الكاذبة . ﴿ **فقالوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ** ﴾ [يوسف:٤٤] ، وكان هذا الجواب بعد أن بُهتوا وتحيروا ، ونظر بعضهم إلى بعض ، فلما لم يكن عندهم علمٌ منها أجابوه بهذا الجواب ذبًّا عن أنفسهم ليسكنوا غضبه ، فوصفوا الحق بالباطل ، وقالوا: ما رأيتَ من هذه الرؤيا ، فهو أضغاث أحلام ، فلا تشغل قلبكَ بها ، فإنها أباطيل كاذبة ، و الضغث : هو الشيء المجتمع من الحشيش والعيدان الدقاق ، ويجمع بعضها إلى بعض ، فتُسمى أضغاثاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ** ﴾ [ص:٤٤] ، ثم رجعوا إلى الحق فقالوا : ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ** ﴾ [يوسف:٤٤] ، وقيل في المعنى :

شَمِّرْ إِلَى طَلَبِ الْعُلُومِ ذُيُولا ... وَانْهَضْ لِذَلِكَ بُكْرَةً وَأَصِيلا
وَصِلِ السُّؤَالَ وَكُنْ هُديت مَبَاحِثاً ... فَالْغَبْنُ عِنْدِي أَنْ تَكُونَ جَهُولا
يَا مَنْ يُزَاحِمُ بِالْجَهَالَةِ عَالِماً ... وَيَرُومُ بِالإِدْبَارِ مِنْهُ قَبُولا
هَيْهَاتَ أَخْطَأْتَ الطَّرِيقَ وَقَلَّمَا ... مُنِحَ الَّذِي ضَلَّ الطَّرِيقَ وُصُولا

فسكت الملك ، وظن أن الأمر على ما وصفوه ، فلما سمع الساقي الذي كان مع يوسف في السجن ، ورأى الرؤيا فعبَّرها له ، وقال : اذكرني عند ربكَ ، وشاهد صدق قوله وتعبيره تذكره ، فقال الله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾ [يوسف:٤٥] ، يعنى بعد نسيان ، وقيل : بعد مدة ﴿ **أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٧٧٧ ، وابن ماجة في سننه ٢ / ١٢٨٧ .

فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف:٤٥] ، قال : ثم إن الساقي وقف بين يدي الملك ، وقال : أيها الملك ، أما قول هؤلاء : أضغاث أحلام فباطل ، وإن في تأويلها العجبَ العجابَ ، ثم قال : أيها الملك ، إن في سجنكَ غلاماً حكيماً عليماً عنده من رؤياكَ علم عجيب ومعنى غريب ، وقد كنتُ أنا وصاحبي في السجن في المدة التي غضبتَ علينا فيها ، ورأينا كذا وكذا ، ففسرها لنا ، وكان كما قال : ، فقال الملك وما منعكَ أن تعرِّفني بأمره ؟ فقال : أيها الملك ، خفتُ أن تذكر جريمتي المتقدمة ، فتكونَ سبباً للمعاقبة والمغاضبة ، فقال له : انطلقْ إليه فقد أذنتُ لكَ ، فانطلق الساقي إلى السجن ، ودخل على يوسف ، وجعل يتملق بين يديه ، ويعتذر إليه ويقول : لا تأخذني بنسياني وتقصيري ، فلم يكن ذلك مني عمدًا ولا عصيانًا ، وإنما كان غفلة ونسياناً ، قال : فقال يوسف : صدقتَ ، وإني لأعلم أن ذلك من سؤالي لغير ربي ، ثم قال : ما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ **يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف:٤٦] ، يعني أرجع إلى الملك وخواصِّه ، لعلهم يعلمون ويتحققون ما ذكرتُ من علمكَ وشرفكَ ، فلما سمع يوسف هذه الرؤيا لم يمتنع من شرحها . قال رسول الله ﷺ : « رحم الله أخي يوسف عبَّر لهم الرؤيا قبل خروجه من السجن ، لو كنت أنا لبادرتُ الخروج ، رحم الله أخي لوطًا حيث قال : لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركن شديد ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد »(١) ، فقال له يوسف : قل للملك إن رؤياك هذه بلية تدخل على رعيتكَ ، فانظر لهم فيها قبل نزولها ؛ لأن الملك بالرعية ، والرعية بصلاح الأحوال ، وحاجة الملك بالخدم كحاجة الرأس إلى القدم ، وانتفاع الملك بأعوانه كانتفاع الجسد بعيانه ، وقيل في المعنى :

الأَرْضُ إِنْ شَـفَّ الصَّـدَا إِنْدَاءَهَـا ... فَشِـفَاؤُهَا صَـوْبُ الْغَمَامِ الْهَاطِلِ
وَالـنَّاسُ إِنْ ظَـلَمُوا فَـإِنَّ شِفَاءَهُمْ ... مِـنْ ظُـلْمِهَا عَـدْلُ الإِمَامِ الْعَادِلِ
لا شَـيْءَ أَحْسَـنُ مِـنْ هِلالٍ طَالِعٍ ... لَـمْ تَخْـشَ عَيْـنٌ مِنْهُ حَجْبَةَ مَائِلِ

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس ٢ / ٢٦٣ .

قل للملك : أما البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر فهي سبع سنين خصبة كثيرة الخير والربيع ، لو أُلقي الحب على حجر يابس لنبت وخرج الحب الكثير ، فلا تحط حبة في الأرض إلا ونبتت ؛ وأما البقرات العجاف والسبع سنبلات اليابسات اللاتي أكلن الناعمات ، فهي سبع سنين تتصل بالماضيات ، وهي قحطات لا تنزل من السماء قطرة ، ولا تنبت الأرض حبة واحدة يأكلن ما كان من غلات السبع المقبلات المواخر ، كما أكل البقراتُ العجافُ البقراتِ السمانَ وأنت تنظر إليها في المنام ، فعليكم أن تبالغوا في السنين الخصبة بالزراعة في كل سنة ، فإذا أدركتْ غلاتكم ، وكثر خيركم فذروا كل ما تحصدونه في سنبله ، ولا تدرسُوا منه إلا ما يقوتكم ، واعلموا أن إبقاءه في سنبله سبب لبقائه ، فلا يسرع إليه الفناء ، ولا يدخله العفن ، ويكون السنبل علفاً للدواب ، واستودعُوها في المخازن ، واصنعوا في الأرض الأهراء حتى تتم السبعة الخصبة ، ثم يأتي بعد ذلك سبع شداد يُحتاج فيها إلى استعمال ما جمعتم من الطعام ، ويفنى فيها ما أعددتم من الحَبِّ والزرع ، فإذا تمت الأربع عشرة سنة صلح الأمر ، وزال العذاب والجوع ، وتدارك الله الخلق وهو قوله تعالى﴿ **ثُـمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْـصِـرُونَ** ﴾ [يوسف:٤٩] وقيل في المعنى :

بَذْلُ النَّصِيحَةِ سُنَّةُ الْفُضَلاءِ ... لا يَبْـخَلُونَ بِهَا عَلَى الأَعْدَاءِ
يُولونَهَـا مَنْ جَاءَهُمْ مُسْتَرْشِدًا ... لا يَبْـتَغُونَ بِذَاكَ نَيْلَ جَزَاءِ
يُبْدُونَ إِشْفَاقًا عَلَى كُلِّ الْوَرَى ... مِـنْ كُلِّ دَانٍ مِنْهُمُ أَوْ نَائِي
وَيَرَوْنَ فِي الْمَصْنُوعِ صَنْعَةَ خَالِقٍ ... أَلْطَافُهُ تَلْتَاحُ فِي الأَشْيَاءِ
فَهُمُ الْبُدُورُ إِذَا الْمَكَارِمُ أَظْلَمَتْ ... وَهُمُ الشِّفَا مِنْ كَثْرَةِ الأَدْوَاءِ

قال : فرجع الساقي إلى الملك ، وأخبره بما قال يوسف عليه السلام من تعبير الرؤيا ، فتعجب الملك وخاصَّته من قوله ، وأقروا بفضله ، وعلموا ما هو عليه من فطنته وحكمته وعقله ، وقال الملك : مثل هذا لا يُهان ولا يُحبس ، فقال الملك : أحضروه إليَّ ، ومَثِّلوهُ بين يديَّ ، وهو قوله تعالى ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي** ﴾ [يوسف:٥٤] ، يعني هذا الرجل العالم الكريم أريد أن أكرمه وأشرفه ، وأنزله منزلة أمثاله ، فمثل هذا لا يُهان ولا يُحبس فجاءه الرسول برسالة

الملك وقال له : إن الملك يدعوكَ ليكرمكَ ويشرفكَ ، فإنه قد أيقن بفضلك وحرمتك وشرفك ، فقال له يوسف : وكيف أخرج وأنا في سجنه منذ سنين ، وهو لا يعرف براءتي ، ارجع إليه ﴿ **فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف:٥٠] ، قال رسول الله ﷺ : « رحمَ اللهُ أخي يوسف إنه كان حليماً ذا أناة ، لو كنت أنا لبادرتُ الخروجَ من السجن سريعاً » ، وقيل : إنما أراد يوسف أن يعرف الملك ببرائته مما نُسب إليه ، فجمع الملك النسوة وزليخا معهن ﴿ **قال : مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ** ﴾ [يوسف:٥١]، وكيف دعوتنه إلى الفاحشة ؟ فأقررن عند ذلك ﴿ **قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ** ﴾ [يوسف:٥١] ، ولا كانت له رغبةٌ فينا ، ولا دعوة إلى الزنا ، وإنه لبريء الساحة ، طاهر الذيل ، فقالت امرأة العزيز : هذا وقت بيان الحق واضمحلال الباطل ، إن مراد حبيبي إقراري ، فأنا أقر بذنبي ﴿ **الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ** ﴾ [يوسف٥١، ٥٢] ، وقيل في المعنى :

وَلَوْ قُلْتَ طَأْ فِي النَّارِ أَعْلَمُ أَنَّهَا ... رِضَاؤكَ أَوْ مُدَّتْ لنا مِنْ وِصَالِكَا
لَقَدَّمْتُ رِجْلِي نَحْوَهَا فَوَطِئْتُهَا ... سُـرُورًا لأَنِّي قَدْ خَطَرْتُ بِبَالِكَا

فلما أقررنَ أتاه الرسول ، وعرَّفه بإقرارهن ، وقيل : إن جبريل عليه السلام نزل عليه في تلك الساعة فقال : ما حملكَ على ما صنعتَ ؟ فقال : ﴿ **لِيَعْلَمَ** ﴾ [يوسف:٥٢] الملك ﴿ **أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ** ﴾ [يوسف:٥٢] ، يعني في السر ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ** ﴾ [يوسف:٥٢] ، فقال له جبريل : ولا حين هممتَ فعصمكَ اللهُ ؟ فعند ذلك قال : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [يوسف:٥٣] ، يعني إلا ما عصم الله . وقيل لو خرج يوسف قبل بيان العذر لبقي في نفس الملك منه شيء ، فعندما زالت التهمة وظهرت النعمة ، خرج من السجن ، ودعا لأهل السجن دعوة مستجابة تعرف فيهم إلى يوم القيامة ، فقال : اللهم عَطِّفْ عليهم قلوب الأخيار ، ولا تعمَّ عليهم الأخبار ، وكتب على باب السجن حين خرج ، هذا قبر الأحياء ، ومترل البلاء ،

وشماتة الأعداء ، وقيل في المعنى :

لا تَجْزَعَنَّ لِعُسْرٍ قَدْ دُهِيتَ بِهِ فَكُلُّ عُسْرٍ كَرِيهٍ سَوْفَ يَنْصَرِمُ
وَهَوِّنِ الأَمْرَ يَحْلُو ذَوْقُ مَطْعَمِهِ هَلْ غَادَرَ الدَّهْرَ إِلا مَنْ لَهُ كَرَمُ
إِنَّ النُّجُومَ لَتَبْدُو كُلَّ آوِنَةٍ وَالْبَدْرُ يُكْسَفُ أَحْيَانًا وَيَنْكَتِمُ
فَانْظُرْ إِلَى يُوسُفَ الصِّدِّيقِ كَيْفَ غَدَا رَهِينَ قَيْدٍ شَكَا مِنْ ثُقْلِهِ الْقَدَمُ
وَكَمْ بِسِجْنٍ ثَوَى يَشْكُو صَبَابَتَهُ وَالْقَلْبُ مُحْتَرِقٌ وَالدَّمْعُ مُنْسَجِمُ
كَأَنَّهُ دُرَّةٌ إِذْ سِجْنُهُ صَدَفٌ وَالْمِسْكُ فِي صُرَّةٍ يَبْدُو وَيَلْتَثِمُ
فَكَانَ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ السِّجْنِ مَا سَمِعَتْ أُذْنَاكَ مِنْ فَرَحٍ يَجْرِي بِهِ الْقَلَمُ
وَصَارَ مَمْلُوكُهُمْ بِالْقَهْرِ مَالِكَهُمْ مِنْ بَعْدِ ذِلَّتِهِ تَعْنُو لَهُ الأُمَمُ
هَذَا دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ خَالِقِنَا وَأَنَّهُ خَالِقٌ مَا شَاءَ يَحْتَكِمُ

يا مسجوناً في حبس نفسه ، يا مقيداً بقيود طرده ، إن أردتَ التسريح من جواكَ ، فخالف هواكَ ، لولا إيثار يوسف السجن أحبّ إليَّ لم يخرجْ إلى راحة مكنا له في الأرض ، من تذكر خنق الفخ هان عليه ترك الحبة ، لما جعل الزيت نفي القنديل علا الزيت على الماء ، فناداه الماء بلسان الحال : كيف تعلو عليَّ ويا طالما كانت ثمرتكَ محتاجة إليَّ فسقيتُها من معين السلسال ، ورويتُ عروقها بالماء الزلال ، فبعد إنفاقي عليكَ من رأس مالي صرت تعلو عليَّ ولا تبالي ؟ فناداه الزيت : يا من عتا وتكبر ، وعدَّ فضائله وما تدبر ، ما لعيوبكَ خفا ؛ لأنكَ إذا ألفت المصباح انطفا ، وأنا لما صبرتُ على طحن الرحا وفراق الأغصان ، علوتكَ في هذا المكان ، وقيل : جاوبه بأسحن من هذا ، فقال : لما عرفه الماء بفضله قال : نعم ، ولما علمت ذلك منك ، وكنت لي كالوالد البارّ فتلقيتُ عنكَ النار . سم عقاب العقاب مندرج في لقم الهوى . فكيف تطيب يا مسكين وأنت مقيم في مناخ الراحلين ، فاغتنم أيام القدرة قبل صحة الإزعاج ، فما أقرب ما ينتظر ، وأقل المكث فيما يزول ويتغير ، ما نيلت فضيلة قط إلا بتعب ، من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة إليه ، كم صبر بشر على شهوة حتى سمع كلمة ، كل يا مَنْ لم يأكل ، واشربْ يا مَنْ لم يشرب ، ما مد سجاف نعَم العبد على قبة ، ووهبنا له حتى جرت في أمانه إنا وجدناه صابراً . كان بعضَ النجارين يبيع الخشب وكان عنده قطعة آبنوس ملقاة تحت الخشب فاشتُريتْ منه ، فدخل دار الملك بعد مدة فإذا بها قد جُعلت في سرير

الملك ، فقال : سبحان الله ، لقد كنت لا أعبأها ، فكيف وصلت إلى هذه المنزلة ؟ فهتف به لسان الحال : لا تنظر في الحال إلى الثمرة وتنسَ صبر الأصل ، كم صبرت على ضرب القادوم ، ونشر المنشار ، والتغرب عن الأوطان حتى وصلت إلى هذا المكان ، وقيل في المعنى :

وَالْعِزُّ فِي كَلَفِ الرِّجَالِ وَلَمْ يُنَلْ عِزٌّ بلا تَعَبٍ وَلا تَكْلِيفِ
وَالْمَجْدُ مَعْنًى لِلأَعِزَّةِ دَارُهُ وَالذُّلُّ يَنْبُتُ فِي مَكَانِ الزِّيفِ

(حكاية) قال أحد السادة : دخلتُ بلداً من البلاد ، وكنت بحال فاقة شديدة واضطراب كثير ، فبينما أنا أمشى في بعض الأزقة إذ نازعتني نفسي ، فقالت: لو تزوجت ، فقلت : أعلى ما أنا فيه من الفاقة وأنت تحدثيني بما لا يكون ؟ ! فبينما أنا أمشي وأختصم مع الخاطر إذا أنا بالعسس قد لقيني ، وقالوا : أنت سرقتَ كذا وكذا ديناراً ، فقلت هي عقوبة الخاطر ، اللهم إني أستغفركَ ، فإذا برجل قد لقيني ونظر إليَّ ، وقال لهم : أطلقوه فليس هذه سيمة اللصوص ، قال : فأطلقوني ، فقلتُ في نفسي : إني لكريم على الله حيث قَبل استغفاري وعجَّل لي البرهان ، فقلتُ : والله ، هذا أشد من الخاطر الأول ، وعقوبته أشد ، فعملتُ على نفي الخاطر فلم ينتف ، قال : وإذا بهم قد لحقوني مرة أخرى ، وقالوا : أنت اللص لا محالة ، فاحتَملوني إلى صاحب الشرطة ، فأوقفوني بين يديه ، وقالوا : هذا سرق كذا وكذا ديناراً ، فقال : كيف وعليه سيما الصالحين وثبات المريدين ؟ فتِّشوه ، قال : ففتشوني ، فأخرجوا صُرة من الذهب من تحتي ، والله ما أدري لها خبراً ، فقال لي : ويحكَ ، تتشبه بالصالحين ، وتتشبث بالمريدين ، وأنت من اللصوص المفسدين ؟ احملوه إلى السجن ، وقيِّدوه وغُلُّوه حتى تُرفع مسألته إلى السلطان فيُمثلَ به ، فاحتملوني إلى السجن ، وقيدوني وغلوني ، فبقيتُ يومي ذلك في وثاق عظيم ، فصليتُ الصلوات الخمسَ إيماء ، فلما جن الليل ، وهدأت الأرجل ، ونامت العيون، رفعتُ بصَري إلى السماء ، وقلتُ : سيدي في أضيق المحابسِ حبستني ، وبين المجرمين أجلستني ، إلهي أطلق وثاقي حتى أؤدي فرائضكَ ، فترْكُها أشدُّ عليَّ من كل ما أصابني ، وقيل :

هـــذَا جَسَدِي وَدِيعَةً قَدْ أَقْوَى هَلْ يَحْسُنُ بِي إِلَى سِوَاكَ الشَّكْوَى
أَنْــتَ الْمُبْلِي فَكُنْ مُزِيلَ الْبَلْوَى لا يَرْفُقُ بِالضَّعِيفِ إِلا الأَقْوَى

غيره :

يَا مَنْ بِحِبَالِ وُدِّهِ أَعْتَصِمُ أُبْدِي جَلَدًا وَأَدْمُعِي تَنْسَجِمُ

الْعَبْدُ لَكُمْ فَمَا تَشَاءُوا احْتَكِمُوا   هَـلْ يَجْمُلُ بِالْكَرِيمِ إِلا الْكَرَمُ

غيره :

أَيَّـامُ نَوَاكَ غَيَّرَتْ أَشْكَالِي   أَسْيَافُ قِلاكَ قَطَّعَتْ أَوْصَالِي
يَـا غَايَةَ بُغْيَتِي وَيَا آمَالِي   ارْحَمْ ذُلِّي فَأَنْتَ أَنْتَ الْوَالِي

قال : فإذا بالغُل قد انحل ، والقيد قد وقع ، وبقيتُ سارحاً ، فقمتُ إلى البئر ، فاستقيتُ ماء ، وتوضأتُ وصليتُ ، واستغفرتُ الله تعالى على ما سلف مني ، وإذا بالغل قد رجع إلى عنقي ، والقيد إلى رجلي ، فبقيتُ مكاني أنتظر الأمر الرباني ، فإذا بباب السجن يُقرع قرعاً عنيفاً ، ومنادٍ ينادي : أخرجوا وليَّ الله المظلوم ، وقيل :

أَخْرِجُوا مِنْ سِجْنِكُمْ مَنْ سُجِنَا   إِنَّ فِـي السِّجْنِ رُمُوزًا بَيْنَنَا
مَـا تَرَكْـنَاهُ وَلا نُسْـلِمُهُ   كَيْفَ وَالْمَسْجُونُ حَقًّا عَبْدُنَا
مَـنْ أَرَادَ الْقُرْبَ فِي حَضْرَتِنَا   وَحُصُـولُ الأَمْنِ فِيهَا وَالْغِنَى
فَـلْيَغِبْ عَـنْهُ يُـنَاجِي رَبَّهُ   كُـلُّ مَـا يَصْدُرُ مِنَّا حَسَنَا
يَجِدُ التَّعْذِيبَ عَذْبًا فِي الْهَوَى   ثُـمَّ يَـرْمِي خَـلْفَهُ لَفْظَ أَنَا
عِـنْدَهَا نَمْـنَحُهُ مِنْ وَصْلِنَا   كُـلَّ مَا شَاءَ وَنُعْطِيهِ الْمُنَى

ففتحوا باب السجن ، وفكوا قيدي ، وأزالوا غُلي ، واحتملوني على أعناقهم ، وأدخلوني على السلطان ، فقام إليَّ وعانقني ، وقال : يا أخي ، ما كانت هذه الوحشة التي وجب بها ما ظهر عليكَ ؟ فقلتُ : خطرة أوجبت ما ترى ، فقال : يا أخي ، إني كانت لي بداية صالحة ، ثم امتُحنت بالدنيا وأهلها ، ولذلك طردني من جنابه ، أُشهدكَ أني قد خرجتُ عنها إلى ربي ، فترك الإمارةَ ، وخرج عن الملك منقطعاً إلى الله عز وجل ، ثم لم يزل في أعداد المنقطعين حتى جاءه الموت . فنسأل الله عز وجل أن يرزقنا حُبَّهم ، وحُبَّ مَنْ يحبهم ، وحُبَّ مَنْ يقربنا إلى حبهم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس العاشر

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب:٧٢] .

الحمد لله فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً ، خالق الأرواح ومقدر الأشباح لها وطناً ، القائم بأرزاق العباد فما لمخلوق عنه غنى ، الدائم الذي لا يعتريه الزوال ولا يصيبه الفنا ، الشاهد على كل مخلوق بما كسب وجنى ، الواحد الذي أحاط علمه بالأشياء فسواه عنده ما بعُدَ وما دنا ، السميع الذي يسمع دعاء المضطر إذا دعاه ويريحه من الضنا ، البديع الذي ما زال يستر قبيحاً ويظهر حسنا ، الكريم الذي يقبل توبة التائب وإن أرسل في مخالفته رسنا ، الحليم الذي لا يعجل على من عصاه وينيله الرغبة والغنى ، حامل السموات والأرض على كاهل الاقتدار ولا يُنسب إليه الكسل ولا العنا ، كلم موسى على جبل الطور فقال : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ﴾ [طه:١٤] ، وعرج بمحمد ﷺ إلى قاب قوسين أو أدنى ، فتناول من ثمارها ما قرب وجنى ، ورجع إلى فراشه والليل على حاله ، وقد ألبس حلة التشريف وتوج بتاج الوقار والسنا ، فقلده رسالته وحمله أمانته وحاز البغية والمنى ، فطوبى لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ولم يصحبه الفتور ولا الونا ، ويا ويح من ضيعها وتشاغل عنها بزهرة الدنيا فكان ممن أخبر الله عنه في كتابه العزيز وكنى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب:٧٢] ، ماذا أراد حيث ضيع عهدنا، أحمده على نعمائه سرًّا وعلنا ، وأشكره على نعمه التي بها عمنا ، وأسأله أن يفرج كربنا وغمنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مبرئة من الشك والريب والونا ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي شاد به منار التوحيد وبنى ، وهدم جدار الكفر وكسر وتنا ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أظهروا سُنناً وهدوا سَنناً ، صلاةً تدوم وتقوم ما اكتحل جفن وسنا ، ولزم طائر فننا ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل في المعنى :

حَمْـلُ الأَمَانَـةِ حُظْـوَةٌ وَأَمَـانُ ... فيـه عَـلَى تَفْضِيلِهَا بُرْهَانُ
عُرِضَـتْ عَلَى الأَكْوَانِ طُرًّا أَجْمَعاً ... فَتَكَاسَـلَتْ عَنْ حَمْلِهَا الأَكْوَانُ
وَبَـدَا عَـلَيْهَا الْعَجْزُ فِيمَا حُمِّلَتْ ... وَالْوَهْـمُ وَالإِشْـفَاقُ وَالْخِذْلانُ
لَـوْ أُيِّدَتْ حَمَلَتْ وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ ... أَهْـلاً لِـذَاكَ فَشَـأْنُهَا الإِذْعَانُ
وَحَـبَا بِهَـا رَبُّ الْـبَرِيَّةِ آدَمًـا ... فَـتَأَكَّدَ الإِيـثَارُ وَالإِحْسَـانُ
هَـبْ أَنَّـهُ أَبْدَى الَّذِي لا يُرْتَضَى ... وَأَصَـابَهُ مِـنْ فِعْـلِهِ النِّسْيَانُ
هَيْهَـاتَ لَـوْ لَـمْ تَبْدُ مِنْهُ جَهَالَةٌ ... مِـنْ أَيْـنَ كَـانَ يَنَالُهُ الْغُفْرَانُ
وَلَوْ أَنَّ مَنْ فِي الأَرْضِ يُظْهِرُ طَاعَةً ... مَـا كَانَ مَعْنًى لاسْمِهِ الرَّحْمَنُ
لِـلَّهِ سِـرٌّ فِـي الْخَـلِيقَةِ كَائِنٌ ... فَانْظُـرْ بِقَلْـبِكَ أَيُّهَـا الإِنْسَانُ
أَنْـتَ الْمُدَبَّـرُ لا الْمُدَبِّرُ يَا أَخِي ... وَالإِعْـتِرَاضُ عَلَى الْقَضَا عِصْيَانُ

قوله تعالى ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ [**الأحزاب:٧٢**] الآية . اعلم أن لله تعالى سبعَ خزائن كائنة بين الكاف والنون : خزانة المطر في السماء ، وخزانة النبات في الأرض ، وخزانة اللؤلؤ في البحر ، وخزانة الذهب والفضة في الجبال ، وخزانة النار في جهنم للكفار ، وخزانة الرحمة في الجنة للمؤمنين ، وخزانة معرفته في قلوب العارفين . والعرض ينقسمُ على أربعة أقسام :

الأول : عرض الكرامة للملائكة ، قوله تعالى ﴿ **ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ** ﴾ [**البقرة:٣١**] .

الثاني : عرض المحاسبة قوله تعالى ﴿ **وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً** ﴾ [**الكهف:٤٨**] .

الثالث : عرض العقوبة ، قوله تعالى ﴿ **وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً** ﴾ [**الكهف:١٠٠**] .

الرابع : عرض الأمانة ، قوله تعالى : **﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾** [الأحزاب:٧٢] . وقيل : عرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال عَرْضَ عرضٍ ، وعرضها على الإنسان عرضَ فرضٍ ، فكَلَّ صاحبُ العرض ، وأجاب صاحب الفرض . وقيل : عرض الله الأمانة على السموات والأرض وهي أجرام بلا قلوب ولا أرواح ، فأشفقن وأبين ، وعرضها على آدم وهو قلب وروح ، فقبِلَها بالقلب والروح ، لا بالجسم والجِرْم . وقيل : عرض الله الأمانة على السموات مفردةً وعلى الأرض مفردة فضعُفت الأفراد ، فقبض قبضة آدم من الأرض والجبال ، وخمرها بالماء ، وأسكنها الجنان ، فاجتمع المفترق فحملها ، وقال الحسن وابن جُريج : قالت السموات : ربِّ ، زينتني بالكواكب ، وأجريتَ فيَّ الشمس والقمر حسباناً ، وقدَّرْتَ الليل والنهار برهاناً حتى لا أحمل فريضة ، ولا أتقيد لثواب ولا عقاب ، وكذلك قالت الأرض والجبال، ثم عرضها على آدم بما فيها ، ثم قال : إن أطعتني فلكَ ثوابي ، وإن عصيتني فعليكَ عقابي ، فقال : يا رب ، قد حملتُها بما فيها بين أُذنيَّ وعينَيَّ وقلبي ، فلم يسكن الجنة إلا بقدر ما بين الظهر والعصر حتى أخرج منها ، قال الله تعالى :**﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾** الآية . وقيل : عرضها على الملائكة والوحوش والبهائم ، فأما الملائكة فعرَفت جلاله ، وخافتِ المكر والاستدراج ، وعرَفت أن ضمان الحمل يعرض للدعاوى ، فلم تتعرض لذلك ، وأشفقتْ منه ، وأما الوحوش والبهائم فقالت : اللهم ، إنكَ خلقتنا من التراب ، فرُدَّنا إليه ، ولا تحمِّلْنا هذه الأمانةَ ، فإنا لا نطيقها . وقيل : إن الله تعالى استخلف آدم عليه السلام في الأرض ، وسلطه على الطير والوحوش والبهائم ، وأمره ونهاه ، وحل له وحرم عليه ، فكان على ذلك إلى أن جاءه الموت ، وأراد أن يعرض ما حمله على مَن استخلفه بعده ، فعرضها على السموات والأرض والجبال ، فأبينَ أن يحملنها ، وفررن منها ، فعرضها على ولده بما فيها فحملها ، قال الله تعالى : **﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾** الآية . وقيل : الأمانة الفرائض التي في فعلها الثواب ، وفي تركها العقاب ، عرضها على السموات والأرض والجبال . وقيل لهن : احملن الأمانة بما فيها ، فمَن أداها فله الثواب ، ومن

تركها فعليه العقاب ، فقلن : لا ، وهو قوله تعالى :﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ [الأحزاب:٧٢] . وقيل : الأمانة المعرفة بالله . خفاش تعاطى رؤية الشمس ، فقيل له : ارجع إلى ذكر الحدوث ، واخرج من الظلمة ولا تَعُدْ ، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الزمر:٦٧] . لما أُسري بالنبي ﷺ قال الله تعالى : يا محمد ، أشكو إليك التقيَّ مِنْ عبادي والمؤمنَ والكافرَ والبرَّ والفاجرَ ، فقال : يا رب ، هذا الكافر والفاجر ، فما بال المؤمن والبر ؟ فقال : يا محمدُ ، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الزمر:٦٧] . وقيل : الأمانة حفظ الجوارح ، « كلكم راعٍ ، وكلكم مسئول عن رعيته » . وفي الحديث "البصر أمانة ، والسمع أمانة ، والقلب أمانة ، فليحفظ أحدكم أمانته" . وقيل : إن لله تعالى في ظاهر العبد سبعَ أمانات ، وفي باطنه سبعَ أمانات ، فأما أماناتُ الظاهر فالسمع والبصر والفؤاد ، ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء:٣٦] ، وأمانة على لسانه ، قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء:٣٦] ، وأمانة على بطنه ، قوله تعالى : ﴿ لا تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ [البقرة:١٨٨] ، وأمانة على يديه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ [الإسراء:٢٩] ، وأمانة على رجليه ، قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾ [الإسراء:٣٧] ، وأمانة على فرجه ، قوله تعالى : ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور:٣٠] ، فإن حفظتَ سمعكَ فثوابكَ أن تسمع كلام الله ، قوله تعالى ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس:٥٨] ، وثواب حفظ عينيكَ ، ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢ ، ٢٣] ، وثواب حفظ لسانكَ قولكَ في الجنة ، ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ [الزمر:٧٤] ، وثواب حفظ يديكَ ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ

بِيَمِينِهِ ﴾ [الحاقة:١٩] ، وثواب حفظ بطنكَ ، ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة:٢٤] ، وثواب حفظ رِجْليكَ ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾ [مريم:٨٥] ، وثواب حفظ فرجكَ ﴿ زَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الدخان:٥٤] . والأمانات التي بباطنكَ : همتكَ وإرادتكَ ونيتكَ وفكرتكَ وخطراتكَ وعَقدكَ وعهدكَ ، وثواب حفظها رضي الله عنهم ورضُوا عنه . وقيل : الأمانة الفعل الصادر من الإنسان ، إن قال : فعلتُه بقوتي وحولي فقد خان الأمانة ، وإن قال : فعلته بحول الله وقوته فقد أدى الأمانة . وقيل الأمانة الإخلاص في العمل ، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينه:٥] . وقال أبو القاسم القشيري التسكري : سألتُ أبا عبد الرحمن السلمي عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألتُ عليَّ بنَ سعيد عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألتُ محمدَ بنَ زكريا عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألتُ محمدَ بنَ جعفر الخفاشِ عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألتُ أبا يعقوب الشريطي عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألتُ محمد بن غسان عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألتُ أحمد ابن يسار عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألتُ عبد الرحمن بن زيد عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألتُ حذيفة عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألتُ النبي ﷺ عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألتُ جبريل عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألتُ ربَّ العزة عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : يا جبريل ، الإخلاص سر مِنْ سري استودعتُه قلب مَنْ أحببتُ من عبادي . وقيل : الأمانة الحكم بين الناس ، فمن عدل في أحكامه فقد أدى الأمانة ، ومن جار في أحكامه فقد خان الأمانة . وقال أبو ذر : « قلتُ : يا رسول الله ، ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي وقال : يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وهي يوم القيامة خزي وندامة إلا مَنْ أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها » . وقال الضحاك : الأمانة الفرائض ، فمَنْ كملها فقد أدى الأمانة ، ومن نقصها فقد خان الأمانة . وقال رسول الله ﷺ قبل أن تنزل الحدود : « ما تقولون في السرقة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هي فاحشة ، وأسوأ السرقة الذي يسرق صلاته ، فلا يتم ركوعها وسجودها » .

وقيل : الأمانة ترك الغش ، وبذل النصح للمسلمين . قال رسول الله ﷺ :« من غشنا فليس منا » . وقال رسول الله ﷺ : « ينام الرجل النومة ، فتُقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت ، ثم ينام النومة ،فتُقبض فيبقى أثرها في قلبه مثل أثر المجل ، كجمر دحرجته على رجلك فنفط ، فتراه منتبراً فيصبح الرجل وليس في قلبه شيء من الأمانة ، فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحد أن يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، وحتى يقال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفه ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان » ، وقيل في المعنى :

يَـا مَـنْ خِيَانَـتُهُ عَلَيْهِ تَهُونُ ... أَقْصِـرْ فَنَفْسُكَ لَوْ عَقِلْتَ تَهُونُ
يُـلْقِي إِلَيْكَ الْمُسْلِمُونَ أُمُورَهُمْ ... فَـلَهُمْ لَدَيْـكَ بَضَـائِعٌ وَدُيُونُ
وَيَجِـيءُ كُـلُّهُمْ إِلَيْـكَ بِقَلْبِهِ ... فَتَغُشُّـهُمْ عَمْـدًا نَعَمْ وَتَخُونُ
وَتَـزِينُ مَا تُبْدِيهِ وَيْحَكَ وَالَّذِي ... تُخْفِيـهِ يُوهِـنُ فِعْـلُهُ وَيَشِينُ
مَـا أَنْتَ إِلا كَالسَّرَابِ رَآهُ ذو ... ظمـأ فَظَـنَّ بِـأَنَّ ذَاكَ مَعِينُ
وَافَاهُ كَيْ يَشْفِي الْغَلِيلَ فَلَمْ يَجِدْ ... شَـيْئًا وَخَـابَتْ عِنْدَ ذَاكَ ظُنُونُ
يَـا جَـاهِلاً خَفَّتْ عَلَيْهِ ذُنُوبُهُ ... وَالـثِّقْلُ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ يَكُونُ
لا تَصْـغُرَنَّ إِلَيْـكَ قَدْرُ خَطِيئَةٍ ... إِنَّ الْمُحَاسَـبَ سِـجْنُهُ سِجِّينُ

وقيل : إنه ليس شيء أنفس قدراً ، ولا أعلى خطراً من الأمانة ، فإن استعمالها يقرب من الملوك في الدنيا ويُدني من ملك الملوك في العقبى ؛ ألا ترى أن الملك الريان بن الوليد لم يجد رتبة يخص بها يوسف عليه السلام أنفسَ منها ، حيث قال : ﴿ **إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** ﴾ [يوسف:٥٤] ، يعني قد ظهرتْ لي أمانتكَ حيث كنتَ في دار العزيز ، فلم تخنه في أهله ، ولا نسيتَ ما سلف من إحسانه وفضله . قال : أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : لما تحقق للملك براءته ، وتيقن أمانته ، زاد عنده حظوةً ، وكثر شوقه إليه ، وقال ما أخبر الله عنه : ﴿ **ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي** ﴾ [يوسف:٥٤] ، فأرسل إليه عجلته التي كان يركب عليها ، وكانت من ذهبٍ ، وشُدت العجلة على أعناق الفيلة بسلاسل الذهب ، وأحاطت الفرسان

بالعجلة ، واصطفت الرجال خلف الفرسان ، وضربوا له سماطين من السجن إلى باب الملك ، فخرج يوسف في موكب عظيم ، فلما أقبل ونظر الملك إليه وقد ألقيت الهيبة عليه ، وقيل في المعنى :

إِذَا مَــا بَــدَا لِي تَعَاظَمْتُهُ فَأُصْدِرُ فِي حَالِ مَنْ لَمْ يَرِدْ
جَمَعْتَ وَفَرَّقْتَ عَنِّي بِهَمّ فَمَعْــنَى التَّوَاصُلِ فَرْدُ الْعَدَدْ

فتزحزح الملك عن مكانه تعظيماً لشأنه ، ولم يتزحزح قبل ذلك لأحد قط ، وأقعده معه على السرير ، فلما كلمه يوسف قال : ﴿ **إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** ﴾ [يوسف:٥٤] ، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً ، فأجابه يوسف بكل لسان كلمه به ، فلما فرغ تكلم يوسف بالعبرانية ، وكان الملك لا يحسنها ، فازداد الملك عجباً وبهجاً به ، وأعجب به ، وأقر بحكمته ، فقال : يا يوسف ، عبِّرْ لي رؤياي ، فإني أحب أن أسمعها منكَ ، فقصَّ عليه الرؤيا على أتم ما رآها ، فقال الملك : يا يوسف ، أما الرؤيا فعجب ، وأعجب منها قصُّكَ لها ، وفهمكَ لمعانيها ، وعلمكَ بمبانيها ، فحق لك الفخار ، وعلو المقدار ، فبُورِكَ فيكَ وفي علمكَ وفهمكَ ، فلقد حفظتَ وأحصيتَ ؛ فمَنْ أخبركَ بها على هذا الوجه ؟ قال : أخبرني بها أمينٌ يأتيني من عند ربي يقال له : جبريل ، وقيل :

حُــقَّ الْفَخَارِ لِمَنْ لَهُ جِبْرِيلُ يَــأْتِي فَعَــنْهُ يَصْدُرُ التَّأْوِيلُ
عُــلِمَتْ مَكَانَــتُهُ فَعَزَّ مَكَانُهُ وَتَــأَكَّدَ التَّــنْزِيهُ وَالتَّفْضِيلُ
لَمَّــا رَآهُ عَــدُوُّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ ثَبْتًا وَحَلَّ الْقَلْبَ مِنْهُ ذُهُولُ
لَــمْ يُغْــنِ عَنْهُ وَيْحَهُ سُلْطَانُهُ وَسَــرِيرُهُ وَالتَّاجُ وَالإِكْلِيلُ
مَلِكُ الْمُلُوكِ أَعَزَّهُ فَجَمِيعُ مَا يَلْقَاهُ مِنْ هَذَا الْوُجُودِ ذَلِيلُ
يَا نَاظِرِينَ لَهُ فَأَصْغُوا وَاسْمَعُوا وَتَبَصَّــرُوا إِنَّ الْكَلامَ طَوِيلُ
يَكْفِيكُمُ مَا قَدْ بَدَا مِنْ صِدْقِهِ وَالصِّدْقُ بِالْعِزِّ الْمَدِيدِ كَفِيلُ
هَــذَا الَّذِي سَبَقَ الْقَضَا بِعُلُوِّهِ وَلَــهُ سَــبِيلٌ لائِحٌ وَدَلِيلُ

اللَّهُ قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ بِمِصْرِكُمْ ... مَـلِكًا لَهُ أُسْدُ الْكِفَاحِ تَمِيلُ
وَبِعَدْلِـهِ تَحْيَا الْبِلادُ وَذِكْرُهُ ... يَبْقَى مَدَى الأَيَّامِ لَيْسَ يَحُولُ

فقال الملك : ما ترى في هذا الأمر الذي ذكرتَ لنا ؟ وكيف يكون الخلاص منه ؟ فقال يوسف ﷺ : أرى أن تجمعَ الطعام في سني الخصب ، ثم تبنيَ له الأهراء ، وتتركَه في سنبله ؛ لأنه يكون قشره علفَ الدوابِّ في سِنِي الجدب ، ويكون الحَبُّ للناس ، فقال له الملك : وكم أجمع من ذلك ؟ فقال له يوسف : اجمع عبيدكَ وأهلَ مصر كلهم وما حولها من الآفاق والقرى يمتارون بحكمك ؛ لأن سني القحط تعمُّ الأرضَ كلها ، فإذا فعلتَ ذلك لم يوجد الطعامُ يومئذ إلا عندكَ ، وفيه حياة للناس ، فيكون أمر الناس يومئذ بيدكَ ، ويَجتمع لك من الكنوز ما لم يجمعه ملك قط ، فقال : يا يوسف ، كيف هذا ؟ ومن يكون القائم عليه ؟ ومن يدبره ؟ ومن يجمعه ويحصيه ولو جمعتُ أهل الأرض كلهم ما أطاقوه ، ولا بلغوا منه كل الذي تقول ؟ فقال له يوسف : ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف:٥٥] ، وإن الله تعالى قد قضى بذلك ، أوحى به إليَّ ، وأمرني أن أكون القائم بها ، والمدبر لأمر الناس ، فقال الملك : صدقتَ ، إني لا أعلم أحداً أحقَّ به منكَ ، فدونكَ ، وهذا الخاتم ، وهذا التاج والسرير فبهما يقوم ملكي ، ويشيد أمري ، فلَعَمْرِي ، إن الذي أعطاكَ إلهُكَ وشرفكَ به لقليل في حقكَ ، ويسيرٌ في خطركَ ، فأنت الذي تحيا به مصرُ بعد موتها وأهلها ، فقال له يوسف : أما الخاتم فأشدُّ به أمركَ ، وأما السرير فأظهرُ به سلطانك ، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي ، فقال الملك : صدقتَ ، فإن لم تلبسه فأنا أضعه عن رأسي حتى يعلمَ الناس أني قد وضعتُه إجلالاً لكَ ، وأني فضلتكَ على نفسي ، وآثرتكَ بسلطاني ، وقيل في المعنى :

سَأَخْرُجُ عَنْ حَوْلِي وَأُظْهِرُ إِنْتَاجِي ... وَأَنْـزِلُ عَـنْ مُـلْكِي وَأَزْهَدُ فِي التَّاجِ
وَمَـاذَا يُفِيـدُ التَّاجُ وَالْعَجْزُ بَيِّنٌ ... وَأَقْـبَحُ شَـيْءٍ لَـوْ تَـرَى عِزَّ مُحْتَاجِ
إِذَا كَـانَ جَبَّارُ السَّمَاوَاتِ قَاضِيًا ... فَمَـا أَحَـدٌ مِمَّـا يُـرِيدُ بِـهِ نَاجِي
وَهَـلْ أَحَـدٌ مِنْ بَعْدِ عَيْشٍ رَأَيْتُهُ ... إِذَا الشَّمْسُ لاحَتْ أَذْهَبَتْ ظُلْمَةَ الدَّاجِي
أَلا فَـاقْضِ فِيـنَا مَا تَشَاءُ فَكُلُّنَا ... لإِظْهَـارِ مَـا تُـبْدِيهِ فِي مِصْرِنَا نَاجِي

قال : فوضع الملك التاج على رأس يوسف ، وختمه بخاتمه ، وأجلسه على سريره ثم قال له : رضينا بكَ ، وسمعنا كلامكَ ، وأقررنا بعلمكَ وشرفكَ وأدبكَ والخصال المجموعة فيك التي لا تُحصى ، والحكم حكمُكَ والأمرُ أمركَ ، والقول قولكَ ، وأنت المقدم ونحن التبع ، راضون بقضائكَ ، سامعون لكَ ، مطيعون لرضاكَ ، وقد وليتكَ على مملكتي أربع عشرة سنة قَدْرَ أيام السعة والضيق والرخص والشدة ، وشرطي عليك أنه إذا مضت هذه المدة وحسُنَ أمر الناس وعادت الأمور إلى رسومها رددتَ عليَّ مملكتي كما وليتكَ ، وأعود أنا فيها كما كنتُ ، فتكون أنت إذ ذاك أعز مَنْ في مملكتي ، لا أمنعكَ شيئاً تريده ، ولا حكماً تنفذه ، قال : فشارطه على ما تقدم ذكره ، واستوثق منه وفاءً وعهداً ، وأشهدُ اللهَ تعالى على ذلك ، ثم اعتزل الملكُ عن ملكه ، وفوَّضَه إليه ، وأجلس يوسف ﷺ ، وجلس هو بين يديه ، وقيل في المعنى :

هَــذَا خَدِّي بِبَابِكُمْ مَبْسُوطُ ... هَذَا رَأْسِي لِحُكْمِكُمْ مَحْطُوطُ
هَــذَا حَرْفِي بِحُبِّكُمْ مَنْقُوطُ ... مَا الْقَلْبُ عَلَيْكَ إِنْ صَبَا مَغْلُوطُ

غيره :

الــنَّاسُ لَدَيْكَ كُلُّهُمْ قَدْ صَارُوا ... عَــبِيدًا تَقْضِي فِيهِمُ بِمَا تَخْتَارُ
قَالُوا وَالكُلُّ مِنْ جَمَالِكَ حَارُوا ... هَــذَا نُــورٌ تَهَابُــهُ الأَقْمَــارُ

غيره :

أَنْــتَ الْمَأْثُورُ بِالْجَمَالِ الْبَارِعِ ... أَنْتَ الْمَوْصُوفُ بِالضِّيَاءِ اللامِعِ
اصْــنَعْ مَا أَنْتَ بَعْدَ هَذَا صَانِعُ ... الْكُــلُّ لَدَيْــكَ مُسْتَهَامٌ خَاضِعُ

قال : فلما طلع هلال أول ليلة من السنين الصالحة ، جمع يوسف أهل مصر دانياً وقاصياً ، وأمرهم أن يصلحوا الأراضي ، ولا يتركوا شبراً من الأرض التي تُزرع ، فاستعدوا لعمارة الأرض وإصلاحها ، فأنبت الله تعالى زرعهم فوق العادة ، وظهر فيه النماء والصلاح والزيادة حتى تعجب الناس منها ، فأتت البركات ونجحت الحركات ، فلما كان أوان إدراك الزرع أمر يوسف ﷺ ، فبُنيتْ له المخازن مما لا

يوصف قدره ، ولا يُدرك عدده ، ولا يوصف طولها ولا عرضها قدر ما يسع غَلَّ عامهم ذلك ، ثم أمر بحصادها وخَزْنها في السنابل ، وما زالت الغلات تنقل إلى المخازن من جميع المدائن وينفق على أهل البيت بقدر نفقاهم وحاجاهم على التحرير وعدد العيال وكان النيل يفيض في كل عام شاملاً ، ويوسف يصنع الأهراء ، ويبني المخازن سبع سنين حتى انقضت مدة الخصب وجاء أوان القحط والجدب ، ولكل صعود حدور ، ولابد من انقلاب الأمور ، وقيل في المعنى :

إِذَا امْـتَدَّتِ النَّعْمَاءُ أَوْ كَثُرَ الْبَسْطُ ... فَـلا تَغْتَرِرْ إِنَّ الزَّمَانَ أَخِي يَسْطُو
وَشُـكْرًا لِمَـنِّ الـلَّهِ جَلَّ جَلالُهُ ... فَشُـكْرُكَ فِـي إِبْقَاءِ نِعْمَتِهِ شَرْطُ
وَمَـنْ كَـانَ بِالنَّعْمَاءِ يَعْصِي إِلَهَهُ ... فَذَاكَ الَّذِي لِلْهُلْكِ يَا وَيْحَهُ يَخْطُو
وَكَـمْ صَـاعِدٍ يَرْجُو وُصُولَ مُرَادِهِ ... يُعَاجِـلُهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوصَلَ الْحَطُّ
فَكَـانَ كَـذِي نَـوْمٍ دَنَا مِنْهُ حَبُّهُ ... وَعِـنْدَ انْتِـبَاهِ الْعَيْنِ نَازَلَهُ سُخْطُ
هَبِ الْبَعْثَ لَمْ يَذْكُرْ وَلَمْ يَأْتِ نَصُّهُ ... وَلا ثَـمَّ وَعْدٌ بِالْحِسَابِ وَلا قِسْطُ
أَلَيْـسَ حَيَـاءُ الْعَبْدِ أَوْجَبَ وَاجِبٍ ... مِـنَ اللَّهِ إِذْ مِنْ فِعْلِهِ الْحَلُّ وَالرَّبْطُ
وَكَـمْ قَـرْيَةٍ عَنْ أَمْرِ سَيِّدِهَا عَتَتْ ... فَأَمْسَكَ عَنْهَا الْغَيْثَ وَاتَّصَلَ الْقَحْطُ
فَصَارَتْ كَذَاتِ الْغَيْثِ لَمْ تَدْرِ قَدْرَهَا ... تَمَزَّقَ عَنْهَا السِّتْرُ وَانْكَشَفَ الْمِرْطُ

قال : فلما طلع هلال أول ليلة من السنين المقحطات ، أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام في الثلث الأخير من تلك الليلة : يا جبريل أما تنظر إلى عبيدي وإمائي يأكلون رزقي ويعبدون غيري ، اهبط بالجوع والقحط سبع سنين ، قال : فهبط جبريل عليه السلام وصاح : يا أهل مصر جوعوا فإن الله تعالى قد سلط عليكم الجوع ، ثم إن للجوع والقحط حالتين إذا اجتمعتا ، فالهلاك أسرع ، والعذاب أوجع : الأولى كثرة الحرص على الطعام ، واستكثروا الأكل منه ، وصار لا يُشبع بالكثير ، فكان أحدهم يجوع قبل أوان الجوع ، ويأكل إذا وجد الطعام فوق الحاجة ، ويسرع إليه بالجوع قبل الميعاد . والحالة الثانية عُدْم الطعام وفقده حتى لا يكون له حاجة سواه ، ومع ذلك فلا يقدر على وجدانه إلا بعد الجهد ، ولذلك قيل : إن الطعام

إذا أهانه آكله و لم يكرمه ، استغاث إلى الله تعالى ، وشكا إليه ما يناله من الأذى والإهانة ، فيُعزه الله تعالى بعدمه وقلة نباته ، ولو نظر الآدمي بعين بصيرته إلى اللقمة المتصيرة إلى فيه كم استعملت القدرة فيها من : ملك يترل ، ومطر ينسكب ، وشمس تطلع ، ورياح تختلف ، وأهوية تتعاقب ، وآدمي يعالج ، وزارع يتصرف ، وأزمنة تتردد ، وأرض تنشق ، وأنعام تحرث ، وحاصد يحصد ، ودارس يدرس ، ومفرق يفرق بين قشره وحبوبه ، وحامل يحمل ، وطاحن يطحن ، وخابز يخبز ، ونار تنضج ، وخادم يتصرف ، وغير ذلك مما تعجز الأفهام عن إحصائه ، وتقف عقول العقلاء عند استقصائه – لكان له في ذلك عبرةٌ يحمد ربه ، ويشكر فضله ، حتى ينقطع الصوت ، ويَكلَّ اللسان ، وتذهب القوة ، وبعد هذا لا تقديرَ إلى نهاية ذلك ولا عشر المعشار مما مَنَّ الله تعالى به عليه ، وإذا شكره على إسداء النعمة تَعيَّنَ عليه أن يشكره على إلهامه للشكر ، وهو شكر يزيد على الشكر الأول بأضعافه ، كما قيل في المعنى :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً عَـــلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَـــلَيْسَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَـــالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ

ثم إذا ابتلع تلك اللقمة ، وحصلت في المعدة ، وتعدت إلى تصرف آخر فطبع يمسكها ، وآخر ينضجها ، وآخر يقسمها على الأعضاء ، فيوجه إلى كل عضو قدر ما يقوم به ، ولو بعث إلى الوجه ، كما يبعث إلى الفخذ ، لصار بمقداره وطبع يفرق بين ثفله ولبابه الذي يقوم به البدن ويغتذي به الباطن ؛ والعجب أن الطعام والشراب يدخلان في فم واحد ، وفي الحلق يفترقان ، فيهتدي هذا إلى مجراه ، وهذا إلى مجراه ، ويجتمعان في البطن ، ثم يخرجان على سبيلين مختلفين قد جُعل لكل واحد منهما ما يليق به في دخوله وخروجه ، ثم إن كل واحد منهما يدخل بشهوة وراحة ، ويخرج بشهوة وراحة ، فانظروا يا قوم بأبصار البصائر إلى فعل الملك القادر ، وقيل في المعنى :

أَيَـــا غَافِلاً يُبْدِي الإِسَاءَةَ وَالْجَهْلا مَتَى تَشْكُرُ الْمَوْلَى عَلَى كُلِّ مَا أَوْلَى
عَـــلَيْكَ أَيَادِيـــهِ تَـــلُوحُ وَأَنْتَ لا تَـــرَاهَا كَـــأَنَّ الْعَيْنَ عَمْيَاءُ أَوْ حَوْلا

لأَنْتَ كَمَزْكُومٍ حَوَى الْمِسْكَ جَيْبُهُ ... وَلَكِنَّهُ الْمَحْرُومُ مَا شَمَّهُ أَصْلا

أَتُنْفِقُ فِي عِصْيَانِ رَبِّكَ مِنَّةً ... أَهَذَا جَزَا مَنْ يَمْنَحُ الْجُودَ وَالْفَضْلا

لأَنْتَ كَعَبْدِ السُّوءِ حَارَبَ سَيِّدًا ... وَسَاءَلَهُ بَعْدَ الْمُحَارَبَةِ الطَّوْلا

قال عبد الله بن سلام : خلق الله القمح والشعير مما منه خلق الجنة ، وجعل لهما من الحُرمة مثل ما جعل للجنة ، فلولا القمح والشعير لم يُعمر بيت الله الحرام ؛ لأن بهما قوة الظهر وصلاح العباد ، وهما أول الدنيا وآخرها لا يستقيمان إلا بهما ، وأن الله خلق القمح والشعير فأودعه من روح جلاله وجعله رأس كل بركة ، وبه ثبت الأرض أن لا تزول . وقيل : لما أنزله الله على آدم إلى الأرض أنزل معه سبعين ألف ملك ، فأبلغوه إليه ، وقالوا له : يا آدم ، هو نفع لذريتكَ ، ونعمة تُسألون عنها يوم القيامة . وفيما أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام : ما من فدان يُزرع إلا والله عز وجل يترل على كل فدان ألف ملك يباركون في حرثه ، فإذا نبت أنزل الله ألفي ملك يباركون في نباته ، فإذا استوى أنزل الله ستة آلاف ملك يباركون في شطاطه ، فإذا نض حصاده أنزل الله ستة آلاف ملك يباركون في حَبِّه يهللون لرب العزة ويكبرون ، ولم يؤكل منه شيء حتى يترل الله عز وجل عشرة آلاف ملك يباركون في أكله ، وأنزل الله عز وجل على داود عليه السلام في الزبور : إني أنا الله رب كل شيء ، خلقت الدنيا ، فجعلت قوامها القمح والشعير ، ولم أخلق شيئاً هو أعز عليَّ منهما ، وهما أعز ما خلقتُ ، فمن أفسد منهما شيئاً فقد برئتْ منه ذمتي ، ومن أفسد زرعاً فكفارته التصدق بثلاثة مثاقيل وصيام شهرين وقيام عشر ليال يبتغي بهن التوبة ، فإن لم يفعل ذلك لم أغفر له ذنبه حتى ينبت ما أفسده ، فأعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، يا داود ، ازرع الزرع بجهدك ، فإنه نفع لك ولقومك ، فما من رجل زرع زرعاً أو غرس غرساً ، إلا كان ما أكله الطير أو ذرته الريح له صدقة تكفر عنه بذلك ذنوبه ، وأُوجب له الرحمة . وأنزل الله عز وجل على عيسى عليه السلام آيات محكمات يذكر فيهن القمح والشعير ، ويوصي بهما ، وأنزل الله عز وجل في المائدة القمح ، وقال الله تعالى لعيسى : يا عيسى ، إن الدنيا لا تصلح إلا بالقمح والشعير ، ولا يصلح فسادهما ؛ لأنهما أعز خلق عليَّ . يا عيسى ، اعلم أن للزرع حرمةً لا يشبهها حرمة أحد من الخلق ، وأني أغضب على

من أفسده كغضبي على من زعم أني ثالث ثلاثة ، أو كغضبي على من قال : يدي مغلولة ، أو كغضبي على من قال : إني فقير ، أو كغضبي على من زعم أني ولدت ولداً ، حتى يكَفِّر ما صنع ، ويتوب مما جناه ، فأغفر له ، وأنا غفار الذنوب . وأنزل الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام في الصحف ، وقال : يا إبراهيم ، قد خلقتُ كل شيء ، وخلقت القمح والشعير ، وخلقت فيهما النفع كله ، فحذر قومك من إفساده ، فإن إفساده يرفع الغيث عن العباد . وقيل كانت حبة القمح مثل كلية الثور حين نزلت على آدم عليه السلام ، وإنما صغر جرمها ونقصت بركتها لعدم الشكر من العباد ، وكثرة ما يتعاطونه من الأوزار . وأول من حرث الأرض آدم عليه الصلاة والسلام ، وأول صناعة تُعلمت في الأرض صناعة الحراثة ، فهي سبب الغنى وزيادة النماء . وقيل : حرث آدم عليه الصلاة والسلام الأرض ، فأنبتت قمحاً ، فأدركه في آخر النهار الإعياء والكَلَل ، فقال لحواء : ازرعي ما بقي ، فكانت الحبة لا تستقر في الأرض إلا والسنبلة قد قامت ، فلما حرثت حواء نبت شعير ، فتعجبت من تغيير النبات ، ورغبت لآدم أن يسأل عن ذلك رب الأرض والسموات ، فقال له : هي أول مَن أطاعت العدو والمشير ، فبدلت لها القمح بالشعير ، فأهملت حواء دموعها وأطارت هجوعها ، فأوحى الله عز وجل إليها : ما لها قد غيَّر الحزنُ حالها ، والسائل أعلم من المسئول ، لكن مراده أن يشرح العبد ويقول ، فعرفها آدم بسؤال مَنْ خلقه ، وقد كاد السرور يُذهب رمقه ، فقالت : بكيتُ خوف البعاد إذ لم يكن مني ما كان بمراد ، فرفع آدم قصتها إلى الله عز وجل وقد داخله عليها الشفقة ، فأوحى الله إليه : قد رفعتُ عنها وعن بناتها هَمَّ النفقة ، وفي ذلك يقول :

أَكَـثِيرَةَ الأَشْـجَانِ وَالإِشْفَاقِ ... مَهْـلاً فَعَـنْكِ وَظِيفَةَ الإِنْفَاقِ
رُفِعَتْ وَأَيْضًا عَنْ بَنَاتِكِ فَاعْلَمِي ... هَـذَا قَضَـاءُ الْوَاحِدِ الْخَلاقِ
إِنْ كَـانَ بَذْرُكِ قَدْ تَبَدَّلَ خَلْقُهُ ... حَـتَّى بَـدَا لِنَوَاظِرِ الأَحْدَاقِ
فَـلَقَدْ جَعَلْـنَا فِي الشَّعِيرِ مَنَافِعًا ... وَخَصَائِصًا دَلَّتْ عَلَى الإِرْفَاقِ
عَـلَفُ الدَّوَابِ نَعَمْ وَأَنْعَامُ الْفَلا ... تَجِـدُ الْجَمِيعُ لَهُ لَذِيذَ مَذَاقِ

وَهُـوَ الْغِـذَا لِلأَنْـبِيَاءِ وَمَنْ لَهُ زُهْـدٌ يُوَصِّـلُهُ لِقُرْبِ الْبَاقِي
فَلْتَـنْعَمِي بِقَضَـائِنَا وَبِحُكْمِنَا فَـلَكَمْ ظَـلامٍ مُدَّ بِالإِشْرَاقِ

ولما كان في الزرع غذاء الأشباح وبقاء الأرواح ، وكان عند الله بهذه الرتبة المنيفة والمترلة الشريفة ، كان إطعامه لمن احتاج إليه وسيلة للمتوسلين ، وفضيلة عظيمة عند رب العالمين ، ولذلك أن إبراهيم عليه السلام لما بنى البيت وسواه صلى في كل ركن من أركانه ألف ركعة ، فأوحى الله إليه : يا إبراهيم ، ألا أدلكَ على ما هو أفضل عندي مما صنعتَ ؟ قال : بلى يا رب ، قال : هو أن تطعمَ جائعاً ، وتعينَ لهفاناً ، فبنى له بيتاً ، وجعل له بابينِ ، وجعل فيه طعاماً دائماً ، وثياباً معلقة ، وأمر أن لا يغلق الباب ، ولا يرد عنه من قصده ، فيدخل الضيف من الباب جائعاً عرياناً ، فيأكل من الطعام ما اشتهاه ، ويلبس من الثياب ما أراده ، ويخرج من الباب الثاني ، وأرسل الله له الملائكة في صفة الضيفان ، وقيل : كانوا جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ، فقدم إليهم من أكله الطعام ، فامتنعوا من أكله ، وقالوا : لا نأكل طعاماً إلا بأُجرة ، فقال لهم : نعم إن لكم أجرة تذكرون الله في أوله ، وتحمدونه في آخره ، فنظر جبريل إلى إسرافيل ، وقال : حُقَّ لمثل هذا أن يتخذه الله خليلاً .

وقيل : ليس شيء من أعمال البر أقرب برهاناً ، ولا أظهرَ حجةً في وقت من إطعام الطعام ، وله خمس كرامات : **إحداها** يزيد ويزداد إلى يوم القيامة ، قوله تعالى ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** ﴾ [البقرة:٢٧٦] ، **الثانية** يطهر من المرض والوصب ، قوله ﷺ : « داووا مرضاكم بالصدقة » ،**الثالثة** يحرس النفس والمال ، قوله ﷺ : « حصنوا أموالكم بالزكاة » ، **الرابعة** الخلف في الدنيا بعشرة أمثاله ، وفي الآخرة بسبعمائة ضعف ، **الخامسة** يدفع سبعين باباً من السوء .

(حكاية) قيل : إن رجلاً من النبلاء بلغه أن بمدينة كذا وكذا حداداً يدخل يده في النار ، ويأخذ الحديدة المحماة بيده ، ولا تعدو عليه النار ، فقصد الرجل تلك البلدة، فلما دخل عليها سأل عن الحداد فدُل عليه ، فلما نظره وتأمله رآه يصنع ما قد وُصف له ، فأمهله حتى فرغ من عمله ، وأتاه وسلم عليه ، وقال له : إني أريد أن أكونَ الليلة ضيفكَ ، فقال : نعم ، حباً وكرامة ، فاحتمله إلى مترله ، وأكرمه ، وباتا جميعاً ، فلم ير له أثر عبادة ولا قيام ، فقال له : لعله يستتر مني ، فبات عنده

ليلة ثانية وثالثة ، فرآه لا يزيد على المفروض إلا اليسير ، ولا يقوم من الليل إلا القليل ، فقال له : يا أخي ، إني سمعت عما أكرمكَ الله تعالى به ، ورأيته بادياً عليك ، ثم نظرتُ إلى اجتهادكَ فلم أرَ عمل من تظهر عليه الكرامات ، فمن أين لك هذا ؟ قال : أنا أحدثك ؛ وذلك أنه كانت لي جارة ، وكنت بها مولعاً ، فراودتها عن نفسها كثيراً ولم أقدر عليها قط لاعتصامها بالورع ، فجاءت سنة قحط وشدة ، وعم الجوع البلدان ، فبينما أنا في يوم من الأيام قاعداً إذا بقارع يقرع الباب ، فخرجتُ فإذا بها واقفة ، فقالتْ : يا أخي ، أصابني جوع شديد ، فرفعت مسألتي إليكَ لتعطيني لله ، فقلتُ لها : ألا تعلمين ما كابدته من أجلك ومن حبك ؟ وأنا لا أطعمكِ إلا أن تمكنيني من نفسكِ ، فقالت : الموت ولا معصية ربي فرجعتْ ، فلما كان بعد يومين عادت ، وقالت ما قالته في المرة الأولى ، فجاوبتها بمثل جوابي الأول ، فدخلت وقعدت في البيت ، وقد أشرفت على الهلاك ، فلما جُعل الطعام بين يديها ذرفت عيناها ، فقالت : تطعمنى لله ؟ فقلتُ : لا ، إلا أن تمكنيني من نفسك ، فقالت : الموتُ خيرٌ من عذاب الله ، ثم قامت وتركت الطعام وخرجت ولم تأكله ، وهي تقول :

أَيَـا وَاحِدًا إِحْسَانُهُ شَمِلَ الْخَلْقَا ... بِسَـمْعِكَ مَا أَشْكُو بِعَيْنِكَ مَا أَلْقَى
فَقَـدْ صَـدَمَتْنِي شِدَّةٌ وَخَصَاصَةٌ ... وَنَازَلَـنِي مَـا بَعْضُـهُ يَمْنَعُ النُّطْقَا
كَـأَنِّيَ ظَمْـآنٌ تَرَى الْمَاءَ عَيْنُهُ ... فَـلا غُـلَّةٌ تُرْوَى وَلا شَرْبَةٌ تُسْقَى
تُنَازِعُـنِي نَفْسِـي إِلَى نَيْلِ أَكْلَةٍ ... لَذَاذَتُهَـا تَفْـنَى وَغُصَّـتُهَا تَـبْقَى
أَأَعْصِـيكَ فِيمَا بَعْدَ مَا مِنْكَ نِلْتُهُ ... وَكَيْفَ وَبِالطَّاعَاتِ أَسْتَجْلِبُ الرِّزْقَا
سَـأُتْلِفُهَا فِي نَيْلِ حُبِّكَ سَيِّدِي ... عَسَايَ بِهَا أَسْتَوْجِبُ الْقُرْبَ وَالْعِتْقَا

قال : فلما كان بعد يومين إذا بها تقرع الباب ، فخرجتُ إليها ، وهي واقفة قد قطع الجوع صوتها ، فقالت لي : قد أعيتني الحيل ، ولا أقدر على بذل وجهي لأحد من الناس إلا إليكَ ، فهل تطعمني لله ؟ فقلتُ لها : إلا أن تمكنيني من نفسكِ ، قال : فدخلتْ وقعدتْ في البيت ، ولم يكن عندي طعام حاضر ، فقُمْتُ إلى السوق ، وأتيتُ بشيء ، ثم إني أضرمتُ النار ، وصنعتُ طعاماً ، فلما نضِج الطعام

وحملته إليها في القصعة ، تداركني الله بلطفه ، وقلتُ لنفسي : ويحكِ ، هذه امرأة ناقصة عقل ودين تمتنع من طعام لا قدرة لها على الصبر دونه لما نالها ، ولها مدة وهي تتردد المرة بعد الأخرى ، وأنت لا تنتهي عن معصية الله ؟ اللهمَّ ، إني أتوب إليكَ مما خطر بنفسي ، فقمتُ بالطعام ، ودخلتُ عليها ، وقلتُ : كُلي ولا رَوْعَ عليك فإنه لله تعالى ، قال : فرفعتْ عينيها إلى السماء ، وقالت : اللهم ، إن كان صادقاً فحرم عليه النار في الدنيا والآخرة ، قال : فتركتُها تأكل وقمتُ لأزيل النار من الكانون ، وكان فصل القر والبرد ، فوقعت جمرة على قدمي ، فلم أجد لها ألماً بقدرة الله تعالى ، فوقع في نفسى أن دعوتها قد أجيبت ، فأخذت الجمرة في كفي فلم تحرقني ، فدخلتُ عليها ، وقلتُ لها : أبشري ، فقد أجاب الله دعاءك ، فرمَت الطعام ، وسجدت لله ، وقالت : اللهم ، كما أريتني مرادي فيه ، وأجبتَ دعوتي فاقبض روحي الساعة الساعة ، فقبض الله روحها في تلك الساعة ، رحمة الله عليها ، وقيل في المعنى :

دَعَتْ فَأَجَابَ مَوْلاهَا دُعَاهَا ... وَتَـــابَ عَلَى غَوِيٍّ قَدْ دَعَاهَا
أَرَاهَـــا سُـــؤْلَهَا فِيـــهِ امْتِنَانًا ... وَآتَاهَـــا كَمَـــا شَاءَتْ مُنَاهَا
أَتَـــتْهُ لِـــبَابِهِ تَـــرْجُو نَوَالاً ... وَتَقْصِـــدُهُ لِكَرْبٍ قَدْ دَهَاهَا
فَمَـــالَ إِلَـــى غَوَايَتِهِ وَأَهْوَى ... وَتَوْبَـــتُهُ أَتَـــتْهُ وَمَـــا نَوَاهَا
قَضَـــايَا الـــلَّهِ أَرْزَاقٌ فَمَنْ لا ... تَجِـــيءُ لَـــهُ وَتَأْتِيـــهِ أَتَاهَا

اللهم جنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والحمد لله رب العالمين .

المجلس الحادي عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥] .

الحمد لله الذي رفع علامات الآيات على أبراج معالم الإدراكات ، وأطلع أقمار الولايات على أطباق آفاق العنايات ، وأدار دراري الكرامات في أفلاك تفوت المقامات ، وحمل جوزات السموات على ظهور رواحل الرياح الذاريات ، ونشر خفي الأسرار المودوعات على بساط أصناف المصنوعات ، وخزائن ذخائر حقائق الأقدار المقدورات في حقائق عاج الأنوار وآبنوس الظلمات ، وأضحك ثغور البقاع الهامدات بفيض دموع السحاب الساجرات ، وأنشب في أطواق الرياح العاصفات مخاليب الطير الصافات ، وضرب قباب الجبال الراسيات على بساط تلاطم أمواج البحار الزاخرات ، وعلق ستائر أوراق الأغصان النضرات على وجوه قينات الورق الغانيات ، وقطع وصائل الأمنيات بحسام المنيات ، وخلص سبيكة إخلاص المخلصين على نار الاختيار ونزول الرزيات ، وجعل ذلك طهوراً لهم من السيئات ، فقال عز مِنْ قائل : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥] ، أحمده حمداً كثيراً على ما منح من العطايا والهبات ، وأشكره شكراً أنال به منه القربات ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله قامت بأمره الأرضون والسموات ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، المخصوص بالفضائل والبركات ، صلى الله عليه وعلى آله المخلصين بالوسائل والقربات ، صلاة تدوم وتقوم على توالي الأوقات وتتابع الساعات ، وقيل في المعنى :

أَتُنْكِرُ مَا يَبْدُو وَتَنْسَى الَّذِي يَخْفَى ... وَتَطْعَــمُ مَا يُضْنِي وَتَطْلُبُ أَنْ تُشْفَى
وَتَعْصِي طَبِيبًا نَاصِحًا لَكَ فِي الدَّوا ... وَتَشْكُو الْجَفَا مِنْهُ فَقُلْ لِيَ مَنْ أَجْفَى
وَلَمَّــا أَمِــنَّا مِــنْ عِقَــابِ إِلَهِنَا ... وَلَــمْ نُـبْدِ خَوْفاً مِنْهُ أَلْزَمَنَا الْخَوْفَا
وَضَــيَّقَ مَــا قَــدْ كَانَ أَوْسَعَهُ لَنَا ... وَصَــيَّرَنَا مِــنْ بَعْــدِ تَقْدِيمِنَا خَلْفَا
فَــلا تَنْسُــبُوا لِلْغَيْرِ فِعْلاً فَكُلُّ مَا ... تَــبَدَّى فَمِــنَّا أَصْــلُهُ لَمْ يَزِدْ حَرْفَا

وَلَـوْ أَنَّـهُ يَجْزِي عَلَى قَدْرِ فِعْلِنَا ... لَكَانَ عَلَيْنَا يُسْقِطُ الْخَسْفَ وَالْكِسْفَا
وَلَكِـنَّهُ يَعْفُـو وَيَـلْطُفُ دَائِمًـا ... كَـذَاكَ الْمَوَالِي تَمْنَحُ الْعَفْوَ وَاللُّطْفَا
أَلَيْـسَ الرِّبَا فِي الْبَيْعِ بِالْحَقِّ مُؤْذِنًا ... وَنَحْـنُ بِـهِ نَرْجُو الزِّيَادَةَ وَالضِّعْفَا
وَمَـنْ كَانَ فِي أَيْمَانِهِ الدَّهْرَ حَانِثاً ... فَـذَاكَ غَـدًا يَا وَيْحَهُ لِلشَّقَا حِلْفَا
فَيَـا أَيُّهَـا الْعَاصُونَ تُوبُوا لِرَبِّكُمْ ... وَمُـدُّوا لَـهُ فِي وَقْتِ عُسْرِكُمُ كَفَّا
وَقُولُـوا بِأَصْوَاتِ الضَّرَاعَةِ كُلُّكُمْ ... أَتَيْـنَاكَ يَا ذَا الْجُودِ نَسْأَلُكَ الْعَطْفَا
تَـرَى حَالَـنَا فَامْنُنْ بِتَفْرِيجِ كَرْبِنَا ... فَمَـا زِلْـتَ لِلرَّاجِينَ يَا رَبَّنَا كَهْفَا

قوله تعالى ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة:١٥٥] ، اعلم أن الله تعالى يميز الأولياء من الأعداء في سبع مواضع :

الأول : في الدنيا بالشدائد ، قوله تعالى : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة:١٥٥] .

الثاني : في حال النزع ، قوله تعالى : ﴿ **لاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [فصلت:٣٠] .

الثالث : في القبر ، قوله تعالى : ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم:٢٧] .

الرابع : في البعث ، قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ [هود:١٠٦] .

الخامس : عن أخذ الكتب ، قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ** ﴾ [الحاقة١٩ : ٢٥] .

السادس : عند الفراغ من الحساب ، قوله تعالى : ﴿ **فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ** ﴾ [هود:١٠٥] .

السابع : عند الفرقة إلى دار الإقامة ، قوله تعالى ﴿ **فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** ﴾ [الشورى:٧] .

قالوا : فما الحكمة في اتصال الشدائد للمؤمنين ؟ قيل : لأربعة أشياء :

الأول : ليتبين الخاص من العام .

الثاني : ليكفر الله عنهم الذنوب .

الثالث : ليكتب لهم العمل الصالح ، قوله تعالى ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [التوبة:١٢٠] .

الرابع : ليكثر دعاؤهم ورغبتهم كما كان يقول بعض العلماء : سبحان من يستخرج الدعاء بالبلاء . وقد أعطى الله الصابرين تسع كرامات : **أولها** محبته ، قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران:١٤٦] ، **الثاني** نصرته ، قوله تعالى : ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة:٢٤٩] ، **الثالث** سكنى الغرف ، قوله تعالى : ﴿ **أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا**﴾ [الفرقان:٧٥] ، **الرابع** : الأجر ، قوله تعالى ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر:١٠] ، **الخامس** : البشرى ، قوله تعالى ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة:١٥٥] ، **السادس والسابع والثامن** : الصلوات والرحمة والهدى ، قوله تعالى : ﴿ **أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة:١٥٧] ، قال الخدري : **والتاسع** : تسليم الملائكة عليهم ، قوله تعالى: ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ** ﴾ [الرعد:٢٤] . وقيل : الخوف سوط الله تعالى يقوم به أنفساً شردت عن بابه ، والجوع عذاب يسلطه الله على من كفر

بنعمته ، وغفَل عن شكره في الدنيا ، كما سلط على قريش حين تمادى بهم الصد عن الإسلام في الدنيا حتى كان الرجل منهم إذا نظر إلى السماء حيل بينه وبينها بدخان من شدة تحير رأسه وفراغ أعضائه ، وقيل : من شدة القحط وعدم المطر حتى علا الأرضَ الغبار ، وحيل بين الناظر وبين السماء بدخان ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [الدخان:١٠و١١] ، وإنما سُمي الجوع عذاباً ؛ لأنه يشغل العبد عن عبادته ، والقلب عن إلهه ، ويعذب به أهل النار في الآخرة ، كما قال : كعب : يسلط على أهل النار الجوع حتى يأكلوا أيديهم إلى مناكبهم وأطراف أصابعهم وهم لا يشعرون ، ﴿ **وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة:١٥٥] ، قيل : هي رفع البركة من الأموال والمتاجر ، والأنفس هو الوهن وعدم القوة ، الثمرات هي العقوبات بعدم بيعها ، وقيل : الإشارة في ذلك إلى البنين وما يبدونه من عقوق الوالدين ، وقيل : هو موهم أيضاً وفقد الإنسان لهم في الدنيا ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة:١٥٥] . وقال أبو موسى الأشعري : قال رسول الله ﷺ : « لا يصيب العبد نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب ، وما يعفو الله تعالى أكثر ، ثم قرأ : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى:٣٠] »[1] ذكره الترمذي . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : قال : رسول الله ﷺ : « لم تظهر الفاحشة في قوم إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولا نقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين الجدبة وشدة المئونة وجور السلطان عليهم ، ولا منعوا الزكاة من أموالهم إلا منعوا المطر من السماء ولولا البهائم لم يُمْطَروا ، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وأخذ بعض ما في أيديهم ، ولا حكم أئمتهم بغير كتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » ذكره البزار . وقال عمار بن ياسر : قال رسول الله ﷺ : « أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً ، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد ، فخانوا وادخروا ،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٥ / ٣٧٧ ، والحاكم في مستدركه ٢ / ٤٨٣ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٧ / ١٥٣.

فمُسخُوا قردةً وخنازيرَ » ذكره الترمذي . وقال أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه : خطبَنا رسول الله ﷺ يوماً ، فقال : « يا أيها الناس ، إذا عملتم سبعاً حل بكم سبع: إذا ظهر فيكم الزنا كثر الموت ، وإذا جرتم في الحكم قحط المطر ، وإذا خفرتم الذمة كانت الدولة لغيركم ، وإذا منعتم الزكاة ماتت الماشية ، وإذا فشت شهادة الزور بينكم كثر الخراب ، وإذا طففتم المكيال والميزان نقصت البركة ، وإذا غللتم وقع الرعب في قلوبكم » ذكره ابن حبيب . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : « ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب ، ولا فشا الزنا في قوم إلا فشا فيهم الموت ، ولا نقصَ قومٌ المكيالَ والميزان إلا قطع الله عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الذم ، ولا نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم العدو » ذكره مالك بن أنس في مُوطئه . وقالت عائشة رضي الله عنها : « عذب الله أهل قرية كان فيها اثنا عشر ألفاً ، أعمالهم أعمال الأنبياء ، قيل : وما كان فعلهم ؟ قالت كانوا لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر » ذكره صاحب كتاب الزهد . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال : رسول الله ﷺ : « للزاني ست عقوبات : ثلاث في الدنيا ، وثلاث في الآخرة ، أما التي في الدنيا فذَهاب ماء الوجه ، وطول الفقر ، وقصر العمر ، وأما التي في الآخرة فسخط الرب ، وسوء الحساب ، والخلود في النار » ذكره الطلميكي في كتابه ، وقال شقيق : مر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة ، فقالوا له : يا أبا إسحاق ، إن الله تعالى يقول : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] ونحن ندعوه فلا يستجيب لنا ، قال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء : **أولاها** عرفتم الله فلم تؤدوا حقه . **والثانية** قرأتم القرآن فلم تعملوا به . **الثالثة** ادعيتم حب الرسول فلم تعملوا بسنته . **الرابعة** قلتم : إن الشيطان عدوكم فوافقتموه . **الخامسة** قلتم : إنكم تشتاقون إلى الجنة فلم تعملوا لها . **السادسة** قلتم : إنكم تخافون النار فلم ترهبوا منها . **السابعة** قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له . **الثامنة** اشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم . **التاسعة** أكلتم نعمة الله فلم تشكروه عليها . **العاشرة** دفنتم موتاكم فلم تعتبروا . ذكره أبو نعيم . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : قال : رسول الله ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً جباراً ، فلا يوقر كبيركم ، ولا يرحم صغيركم ، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم ، ويستنصرون فلا ينصرون » ذكره الترمذي . وقال ابن

مسعود : « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله ، وفي كنفه ما لم يمار قراؤها سفهاءهم ، ولم تترك صلحاؤها فجارها ، فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم جبابرتهم ، فساموهم سوء العذاب ، ثم ضربهم بالفاقة والفقر » ، وقيل :

بِذُنُوبِ قَوْمٍ تَذْهَبُ الْبَرَكَاتُ ... وَتُغَيَّرُ النَّعْمَاءُ وَالْخَيْرَاتُ
وَيَزُولُ عَنْ أَهْلِ الضَّلالِ نَعِيمُهُمْ ... فَعِقَابُهُمْ أَنْ تُعْقِبَ الأَزَمَاتُ
لَمْ يَشْكُرُوا الْجَبَّارَ إِذْ وَالاهُمُ ... أَفْضَالَهُ بَلْ ضَيَّعُوا وَأَفَاتُوا
لِصَلاتِهِمْ وَصِيَامِهِمْ وَتَعَوَّدُوا ... أَكْلَ الرِّبَا فَلَهُمْ لَهُ أَدَوَاتُ
فَالْحِنْثُ فِي الأَيْمَانِ أَكْثَرُ فِعْلِهِمْ ... وَالْبَخْسَ أَحْيَوْا وَالْحَلالَ أَمَاتُوا
لا تُنْكِرُوا مَا نَحْنُ فِيهِ فَرُبَّمَا ... بِذُنُوبِنَا حَلَّتْ بِنَا الآفَاتُ

وقيل : لما اغتاظ ذو الكفل ﷺ ، وكان ذو الكفل نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل بعثه الله إلى ملك جبار من ملوكهم يقال له : أرحب ، وقيل : بل هو إلياس ، دعا الله عز وجل ، وشكا إليه ما تلقاه من الأذى ، فقال له ربه : أي شيء تريد أن أعطيكَ فيهم حتى تأخذ منهم بثأركَ ؟ فقال : أريد أن تمسكَ عنهم المطر سبع سنين ، ولا تمطرهم قطرة إلا بدعوتي ، ولا تنشئ لهم سحابة إلا بشفاعتي ، قال الله عز وجل : أنا أرحم بخلقي من ذلك ولو كانوا ظالمين ، فقال : يا رب ، فأربع سنين ، فقال : أنا أرحم بخلقي من ذلك ، وقد أعطيتكَ سنتين لا تنزل قطرة ، ولا تنشأ لهم سحابة إلا بدعوتكَ ، قال : يا رب ، فبأي شيء أعيش ؟ قال : أسخر لك صنفاً من الطير تحمل لكَ قوتكَ من الأرض التي لم يبلغها القحط ، قال : قد رضيتُ يا رب ، قال : فسخر الله له الغربان السود تحمل إليه العنب والتين والحَبَّ والرطب وأنواع الفواكه من مصر وغيرها ، ووقع القحط في بني إسرائيل ، واشتد الجوع وعدمت الأقوات ، وكثرت الأموات ، وعلموا أن الذي أصابهم إنما هو بدعوته ، فجعلوا يطلبونه حتى وجدوه في الجبل ، وقيل : بل خرج منهم وبنى خيمة عند المقابر ، فلما كلموه ورغبوه أتى إلى جبارهم ، وكان يعبد صنماً من دون الله يقال له : بعل ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ** ﴾ [الصافات:١٢٥] ، فقال للجبار : أخرج إلهكَ الذي تعبده ، وادْعُه أنت وقومك ، فإن أجابكَ وأرسل المطر رجعتُ معكَ إلى عبادته ، وإن عجز عن ذلك دعوت

ربي ، فإن أرسل المطر وأجابني رجعتم معي إلى عبادة ربي ، قالوا : نعم ، فأخرجوا صنمهم وضمخوه بالمسك والعنبر ، وصفوا أصنامهم وآلهتهم ، وجعلوا يتضرعون إليها ، ويتملقون بين يديها ، وهي لا تكلمهم ، فمكثوا سبعة أيام كذلك ، وقيل في المعنى :

يَـا ضَارِعِينَ إِلَى الْعِيدَانِ وَالْحَجَرِ ... جَهِلْتُمُ الْقَصْدَ فِي وِرْدٍ وَفِي صَدَرِ
كَمْ تَضْرَعُونَ إِلَى مَنْ لَيسَ يَنْفَعُكُمْ ... وَلا يَـرُدُّ جَوَابًـا سَـائِرَ الْعُصُرِ
وَتَـتْرُكُونَ الَّذي لا شَيْءَ يُعْجِزُهُ ... وَفِـي يَدَيْـهِ زِمَامُ النَّفْعِ وَالضَّرَرِ
لَمْ يُمْسِكِ الْغَيْثَ مِنْ بُخْلٍ وَلا عَدَمٍ ... وَإِنَّمَـا هُـوَ تَـأْدِيبٌ إِلَى الْبَشَرِ
فَـلَو رَجَعْـتُمْ لَـهُ أَوْلاكُمْ مِنَنًا ... تَـتْرَى وَجَـاءَكُمْ بِالْوَابِلِ الْهَمِرِ
فَهْـوَ الْكَـرِيمُ وَلا تَفْـنَى خَزَائِنُهُ ... وَهْوَ الْعَلِيمُ بِمَا فِي الْوَهْمِ وَالْفِكَرِ
فَعَظِّمُـوهُ وَقُولُـوا : لا إِلَـهَ لَنَا ... إِلاكَ يَـا خَالِقَ الأَجْسَامِ وَالصُّوَرِ

فلما تبين خطؤهم وظهر عجزهم ، قالوا : قد عجزنا ، فادعُ إلهكَ الذي دعوتنا إليه ، فأراد أن يمتنع منهم ، فأوحى الله تعالى إليه : كم تريد إهلاك عبيدي ، كأنكَ لم تنظر إلى ما أهلكتُ من أجلكَ ؟ فوعزتي وجلالي ما ينفعني إيمانهم ولا يضرني كفرهم ، ولكنْ لي في ذلك حكم وتقدير ، وأنا اللطيف الخبير ، فتقدم وهم ينظرون إليه ، فدعا الله تعالى بعد أن صلى ركعتين ، ورفع يديه فهاجت الريح ، واجتمعت السحاب ، وجاء المطر من كل جانب ، فآمن الملك وطائفته ، وكفر الباقون ، وقيل في المعنى :

مَـا غَيَّرَ اللَّهُ مَا بِالْقَوْمِ مِنْ نِعَمٍ ... أَوْ يُظْهِرُوا الْفِسْقَ فِي أَدْيَانِهِمْ غِيَرَا
فَكَيْـفَ نُنْكِرُ مِنْ تَغْيِيرِ حَالَتِنَا ... وَنَحْنُ فِي كُلِّ حِينٍ نَرْكَبُ النُّكُرَا
فَـلَيْسَ مِـنَّا مُرَاعٍ نَهْيَ خَالِقِهِ ... وَلا مُطِيـعٌ لَـهُ فِي كُلِّ مَا أَمَرَا
وَيَعْبُدُ الْمَالَ وَالدُّنْيَا كَمَا عَبَدَتْ ... فِـيمَا مَضَى أُمَّةٌ مِنْ جَهْلِهَا الْبَقَرَا
لَوْلا مَقَادِيرُ حُكْمِ اللَّهِ مَا تَرَكَتْ ... مِـنَّا جَرَائِمُـنَا أُنْـثَى وَلا ذَكَرَا
وَلا اسْتَقَرَّتْ بِنَا أَرْضٌ نُقِيمُ بِهَا ... وَلا رَأَيْـنَا سَـحَاباً فَوْقَنَا قَطَرَا

يَا أَيُّهَا النَّاسُ خَافُوا اللَّهَ وَاعْتَبِرُوا   فَـإِنَّ فِـي خَلْقِهِ التَّفْكِيرَ وَالْعِبَرَا

وقيل : لما غضب الله على أهل مصر ، أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام : إن أهل مصر يأكلون رزقي ويعبدون غيري ، اهبط ، فقد سلطتُ عليهم الجوع ، فانتبه الرجال والنساء والصبيان كلهم ينادون : الجوعَ الجوعَ ، وانتبه الملك وهو ينادي : الجوعَ ، وكان الملك قد أمر الخبازين أن لا يفتروا عن الخبز ليلاً ولا نهاراً ، فكانوا على ذلك ، وكان من قضاء الله تعالى أن تلك الليلة غفل الخبازون بأجمعهم ، فلم يخبزوا شيئاً ، فدعا الملكُ يوسفَ ، وشكا إليه ما يلقاه من شدة الجوع ، فجعل يوسف عليه السلام يده على بطنه ، ودعا له فسكن ما به ، واحتبس المطر من السماء ، وتعمقت الأرض عن الزراعة فلم تنبت شيئاً ، وأذن مؤذنُ يوسفَ عليه السلام في الناس : لا تزرعوا شيئاً حتى تنقضي السبع ، فإنه يضيع بذركم ، ولا ينبت لكم شيء ، قال : وفرغ القوت والطعام من بيوت الناس حتى لم يبقَ في بيت من بيوت مصر ونواحيها شيءٌ من الطعام ، فأصبح الناس متحيرين قد داخلهم لهف ، وأصابهم تحير ؛ لأنهم شاهدوا أمراً لا يستطيعون دفعه بحيلة ، وقيل في المعنى :

حُبِسَ الْغَمَامُ عَنِ الأَنَامِ فَحَارُوا   وَبَدَا الْهُيَامُ وَزَاغَتِ الأَبْصَارُ
هَانَ الْفَنَاءُ عَلَيْهِمُ يَا وَيْحَهُمْ   وَأَتَتْ أُمُورٌ لا تُطَاقُ كِبَارُ
لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ جَمْعُهُمْ وَعَدِيدُهُمْ   أَبَدًا وَلا الأَتْبَاعُ وَالأَنْصَارُ
وَبَدَا عَلَى الأَصْنَامِ أَيْضًا عَجْزُهَا   مَا تَفْعَلُ الْعِيدَانُ وَالأَحْجَارُ
مَا الْفِعْلُ إِلا لِلْمُهَيْمِنِ وَحْدَهُ   وَلَهُ الْقَضَا وَالْحُكْمُ وَالأَقْدَارُ
فَهُوَ الَّذِي فِي الْخَلْقِ يَقْضِي مَا يَشَا   وَبِأَمْرِهِ تَتَنَزَّلُ الأَمْطَارُ
صَلَّى الإِلَهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ   فَهُوَ الشَّفِيعُ الشَّاهِدُ الْمُخْتَارُ

قال : ففتح الصديق أبواب خزائنه ، وجعل عليها الأُمناء والقهارمة وأهل النظر والإحصاء ، ونادى المنادي : ألا من أراد الميرة وشراء الطعام ، فليصل إلى باب الصديق ، فاشتروا منه في العام **الأول** بما كان في أيديهم من الدراهم والدنانير والذهب والفضة حتى لم يبقَ عند أهل مصر دينار ولا درهم ولا ذهب ولا فضة إلا صارت إلى يوسف عليه السلام وانحصرت في خزائنه ، ثم باعهم في السنة **الثانية** بما في

أيديهم من الأثاث والفرش والأواني ، ثم باعهم في العام **الثالث** بالحلي والجواهر واللآلئ ، فلم يبقَ بمصر حلي ولا جواهر ولا لؤلؤ إلا في خزائنه ، ثم باعهم في السنة **الرابعة** بالدوابّ والمواشي حتى صار الكل إليه ، ثم باعهم في السنة **الخامسة** بالدور والحوانيت والضياع حتى احتوى على الأملاك جميعها ، ثم باعهم في السنة **السادسة** بنسائهم وبنيهم وبناتهم حتى صاروا كلهم أرقاء له ، ثم باعهم في السنة **السابعة** برقابهم ، فأقروا له بالعبودية والرق حتى لم يبقَ بمصر حر ولا حرة إلا صار مملوكاً له . قال : كعب : أصاب الناس في العام السابع شدة وجوع حتى إن الرجل كان يأتي يوسف عليه السلام فيبيع نفسه منه بملء بطنه ، فلما تملكهم صار ينفق عليهم على مراتبهم ، ويعطي لأهل كل بيت ما يقوتهم على حسب عدتهم ، وكلهم يُومئونَ إليه إذا بدا ، ويشيرون نحوه إذا غاب ، فصار الناس كلهم وما ملكوه تحت حكَمه وقهره إكراما من الله عز وجل له ، وجزاءً بما أقيم في سوق الرقيق يُنادى عليه فيها : مَنْ يشتري ويزيد ، وجزاءً لما صبر عن محارم الله تعالى ، واتقاءَ مولاه في سره وجهره وعسره ويسره ، فعوضه الله تعالى خيراً من ذلك حتى ملكه مصر ونواحيها ، وصارت ملكاً له بما فيها ، وصار أهلها أرقاء لا يخرجون عن حكمه ، ولا يصدرون إلا عن رأيه ، وهو قوله : ﴿ **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف:٩٠] ، ﴿ **ولأجرُ الآخرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ [يوسف:٥٧] ، أي ما يعطي الله من ثواب الآخرة خير للمؤمنين المتقين من إعطاء الدنيا لا سيما وما فيها يفنى ، ﴿ **وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ [الأعلى: ١٧]، والمعنى أن ما يعطي الله نبيه يوسف في الآخرة خير له مما أعطاه في الدنيا كما قال تعالى في حق سليمان عليه الصلاة والسلام في مسطور الكتاب : ﴿ **وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ [ص:٢٥] . قال بعضهم : لما صاروا عبيداً ليوسف عليه الصلاة والسلام هم وأولادهم وحريمهم وما ملكت أيديهم من المال والقماش والحلي والأملاك والضِّياع وما ملكوه ، أوحى الله تعالى إليه : كيف رأيت يا يوسف ؟ زعموا أنك عبد لهم ، فجعلناهم كلهم عبيدا لك ! فخر يوسف عليه الصلاة والسلام ساجداً لله تعالى ، وقال : يا رب ، لكَ الحمد على ما أنعمت وتفضلت ، سبوح قدوس ، رب الملائكة والروح ، وقوله تعالى ﴿ **أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [التوبة:١٢٠] ، الصابرين في بلائه ، الراضين بقضائه . ولقد روى عنه أنه كان

يأكل خبز الشعير ولا يشبع منه ، فقيل له : أنت في خزائن الأرض ، ولا تأكل إلا خبز الشعير ولا تشبع منه ؟ فقال : إني أخاف أن أشبع فأنسى الجائع ، وقيل في المعنى :

يَا مَنْ بِمَلْءِ البطنِ يُعْرَفُ دَائمًا ... وَيَظَلُّ بِالشَّهَوَاتِ صَبًّا هَائِمًا
أَيْقِظْ عُيُونَ الْقَلْبِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى ... فَلَرُبَّ مُنْتَبِهٍ وَيُحْسَبُ نَائِمًا
كَمْ جَاءَكَ الْمِسْكِينُ يَسْأَلُ رَحْمَةً ... فَرَدَدْتَهُ كَمَدًا وَلَمْ تَكُ رَاحِمًا
وَتَبِيتُ شَبْعَانًا وَجَارُكَ جَائِعٌ ... يُذْرِي مِنَ الأَوْصَابِ دَمْعًا سَاجِمًا
انْظُرْ إِلَى الصِّدِّيقِ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ ... قَدْ بَاتَ جوعاناً وَأَصْبَحَ صَائِمًا
تَجِدُ الشَّعِيرَ غِذَاءَهُ وَهُوَ الَّذِي ... مُلِئَتْ خَزَائِنُهُ طَعَامًا سَالِمًا
خَوْفًا بِأَنْ يَنْسَى الْفَقِيرَ لأَنَّ فِي ... نِسْيَانِ أَهْلِ الْفَقْرِ بُخْلاً قَائِمًا
وَلأَنَّهُ الرَّاعِي وَحُقَّ لِمَنْ رَعَى ... أَنْ يَبْذُلَ النُّصْحَ الصَّحِيحَ الدَّائِمَا

قال : وخاف الملك أن يتعبَّدَهُ يوسفُ عليه الصلاة والسلام مع مَنْ تعبده مِنْ أهل مصر لِمَا شاهد من سلطانه وعظم شأنه ، فقال له : يا يوسف ، أنتَ وعدتني وعاهدتني ، وحاشاكَ أن تغدر بعد عهدكَ ، فقال يوسف ﷺ للملك : ما رأيكَ أيها الملك فيما خولني ربي من ملك مصر ، ومكنني من رقاب أهلها ؟ أشرْ علي برأيكَ ، فقال له الملك : يا يوسف ، رأيكَ فيهم نافذ ، وحكمكَ فيهم جائز ، فقال يوسف ﷺ : ما أصلحتُهم لأفسدهم ، ولا أعتقتُهم من الموت لأستعبدهم ، ولا استنقذتُهم من الكرب لأضر بهم ، ولا أنجيتُهم من الجوع لأكون عليهم بلاءً ، ولم أُحيهم بنفسي ، ولكن الله أحياهم وإياي . هذه الشفقة جرت والحنوُّ من الصديق ، وهو ليس منهم ، وهم على غير الطريق ، فما حال مَنْ يظلم الناس ولا تأخذه شفقة على المسلمين ؟ فيا ذل مقامه يوم يعرض على رب العالمين ، وقيل في المعنى :

لا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِراً ... إِنَّ الْمَظَالِمَ مَبْدَا الضُّرِّ وَالنِّقَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ ... يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمِ

فقال الملك : يا يوسف ، وأنا الآخر عبد من عبيدك ، ورجلٌ من خَوَلِكَ ، وما أنا

بالذي أخرج عن رأيكَ ، ولا أستنكف عنه ؛ لأن الذي يدبر أمركَ سلطان عزيز لا يرام ، وقيوم لا ينام ، فقال يوسف عليه الصلاة والسلام : أيها الملك ، وتقول ذلك بأنك عبد من عبيدي ؟ فقال الملك : وهل الرأي إلا ذلك ؟ فقال يوسف : فإني أشهد الله وأشهدكَ أني قد أعتقتُ أهل مصر كلهم ، وتصدقتُ عليهم بجميع أموالهم ، ورددتُ عليكَ ملككَ وسريركَ وتختكَ وخاتمكَ الذي تزعم أنه حظي وجمالي ، فقال الملك : جزاكَ الله خيراً يا يوسف ، وإني لأعلم أن هذا صنيع إله الأرض والسماء ، فما على وجه الأرض مَنْ يصنع ما صنعتَ ، ولا يصبر على ما صبرتَ ، ويتكلف ما تكلفتَ ، فباركَ الله فيكَ وفي علمكَ وعقلكَ ، فابقَ كما كنت في أول الأمر ، واقضِ ما أنت قاضٍ نسمعْ لكَ ونُطِعْ ، وقيل في المعنى :

لَكَ الْحُكْمُ وَالسُّلْطَانُ وَالنَّهْيُ وَالأَمْرُ ... وَأَنْتَ رَجَاءُ الْكُلِّ إِنْ عَمَّهُمْ عُسْرُ
تَحَكَّمْ بِمَا تَهْوَاهُ فِينَا فَكُلُّنَا ... سَمِيعٌ مُطِيعٌ قَدْ عَلا وَجْهَهُ بِشْرُ
كَأَنَّكَ مِغْنَاطِيسُ كُلٍّ فَإِنْ تَلِجْ ... بِهِمْ إِذْ تَبَدَّى نَالَهُ الْعَبْدُ وَالْحُرُّ
لأَنْتَ الَّذِي رَبُّ السَّمَاءِ أَمَدَّهُ ... بِسُلْطَانِه فَالنَّصْرُ يَتْبَعُهُ النَّصْرُ
وَتَسْمُو بِكَ الأَكْوَانُ طُرًّا بِأَسْرِهَا ... وَتَعْنُو لَكَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ وَالْبَدْرُ
عَلَيْكَ صَلاةُ اللَّهِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا ... وَمَا سَارَتِ الأَفْلاكُ وَالأَنْجُمُ الزُّهْرُ

قال : وهب بن منبه : لما دُعيَ يوسفُ من السجن إلى الملك وقف يوسف بالباب ، وقال قبل دخوله إلى الملك : حسبي ديني من دنياي ، وحسبي ربي من خلقه ، جل ثناؤه ، ولا إله غيره ، ثم دخل ، فلما رآه الملك أكبره وأجله ، ونزل له عن سريره ، وخر له ساجداً ، ثم أقعده على السرير وقال له كما قال الحق المبين : **﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾** [يوسف:٥٤] ، قال : **﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾** [يوسف:٥٥] بهذه السنين ، **﴿ عَلِيمٌ ﴾** بلُغة مَنْ يأتيني . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : قال رسول الله ﷺ :« رحم الله أخي يوسفَ ، لو لم يقل : اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله الملكُ من ساعته ، ولكن ادخر ذلك عنه سنة ، فأقام عنده في بيته سنة » . وعرض عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الإمارةَ على أبي هريرةَ رضي الله تعالى عنه ، فقال : لا أقبلُها ولا

أريدُها ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ طلب الإمارة لم يعدلْ » ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : قد طلب الإمارةَ مَنْ هو خير منكَ وهو يوسف الصديق عليه السلام . فلما انفصلت السنة من طلب الإمارة دعا به الملك ، فَتَوَّجَهُ بتاجه ، ورَدَّاهُ بردائه ، ووضع له سريره وكان من ذهب مرصع بالدر والياقوت والجوهر ، يُضرب عليه حلة من إستبرق ، وكان طول سريره ثلاثين ذراعاً وعرضه عشرة أذرع ، عليه ثلاثون فراشاً وستون مرقعة ، ثم أمره أن يخرج فخرج مُتَوَّجاً لونه كالثلج ، ووجهه كالقمر ، فانطلق حتى جلس على السرير يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه ، فلما جلس يوسف على السرير دانت له الملوك ، وذللهم الله له ، ودخل الملكُ بيته مع نسائه ، وفوض أمر مصر ونواحيها إليه ، فتلطف يوسف بالناس ، ولم يزل يدعوهم إلى الله تعالى حتى آمنوا به ، وصدقوا بما جاء به ، وقيل في المعنى :

وَإِنَّا لَيُرْضِينَا رُجُوعُ وِصَالِكُمْ ... فَرُدُّوا لَنَا ذَاكَ الْوِصَالَ كَمَا كَانَا

وَكُنَّا نُغَطِّي فِي الدُّنُوِّ غَرَامَنَا ... وَنَكْتُمُ مَا نَلْقَى فَقَدْ بَانَ مَا بَانَا

فإن قيل : كيف استجاز يوسفُ عليه السلام مع علمه وعقله ، أن يمدح نفسه بين يدَيِ الملك بقوله : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٥] ، وقد جاء النهي عن تزكية النفس ؟ قيل : إنما جرى ذلك مجرى الإعلام بما يحبه الملك من العلم الذي هو مختص به ؛ ألا ترى أن الشاهد إذا أدى شهادة ، واحتاج إلى تزكية ، ولم يُحضر مزكياً ، فيجوز له أن يصف نفسه إن كان عدلاً على وجه الإخبار ، وكذا الخاطب له أن يعرض بنفسه عند مخطوبته على ما اشتمل عليه من الخصال المحمودة ، فكأن يوسف عليه السلام يقول : إني مختص بعلم كيفية حفظ ذلك الطعام الذي يُعد لأيام القحط والعدم ، عليم بوقوع ساعة الجوع متى يقع ، وكأن يوسف أعلمه بقوله : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وليس بتزكية لنفسه ؛ ألا ترى أن الله عز وجل ذكر نفسه بالكبرياء والعظمة على وجه أنه يزكي نفسه ؛ لكى يعلم عباده ، ويُبين لهم طريق توحيده وتعظيمه ؛ لأنه لو لم يعرفهم بذلك ما عرفوه ، ولو لم يُبين لهم صفاته ما وصفوه ، وكذلك ذكْر الأنبياء مناقبَ أنفسهم ليست بتزكية لهم ، كما قال : النبي ﷺ « أنا سيد ولد آدمَ بيديَّ لواءُ الحمد » ، إلى غير ذلك من أقواله مما يليق بهذا الفن إنما ذلك إخبار لأممهم ؛ إذ لو لم يخبروهم بذلك ما عرفوا رتبتهم ، ولا وصلوا

إلى مقاديرهم ، فكذلك يوسف عليه السلام لم يقصد تزكية نفسه ، إنما قصد إعلام الملك بما خصه الله تبارك وتعالى . وقيل : لم يقل يوسف عليه السلام : ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف:٥٥] حتى اجتمعت فيه عشرون خصلة مرضية : **إحداها** الدين القوي . **والثانية** المنشأ الطيب . **والثالثة** أدب النفس . **والرابعة** الخلق الحسن . **والخامسة** العلم . **والسادسة** الحفظ . **والسابعة** النصيحة . **والثامنة** فصل الخطاب . **والتاسعة** الصيانة . **والعاشرة** الوقار . **والحادية عشرة** الصدق . **والثانية عشرة** الأمانة . **والثالثة عشرة** رؤية المنة . **والرابعة عشرة** المكانة . **والخامسة عشرة** الأمانة . **والسادسة عشرة** الصبر في المحنة. **والسابعة عشرة** الشجاعة . **والثامنة عشرة** سمو الهمة . **والتاسعة عشرة** العدل . **والعشرون** هي تمام الخصال وسجية الإفضال عناية رب العالمين . أما دينه فقوله :﴿ **إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [يوسف:٣٧] ، وأما خُلُقه فقوله : ﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف:٣٦] ، وأما الحفظ فقوله : ﴿ **إِنِّي حَفِيظٌ** ﴾ ، وأما علمه فقوله :﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ ، وأما منشؤه فقوله : ﴿ **آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ [يوسف:٣٨] ، وأما نصيحته فقوله : ﴿ **فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ** ﴾ [يوسف:٤٧] ، وأما فصل الخطاب فقوله :﴿ **فَلَمَّا كَلَّمَهُ** ﴾ [يوسف:٥٤] ، وأما صيانته فقوله : ﴿ **رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ** ﴾ [يوسف:٣٣] ، وأما وقاره فقوله : ﴿ **إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ** ﴾ [يوسف:٢٣] ، وأما صدقه فقوله :﴿ **أَيُّهَا الصِّدِّيقُ** ﴾ [يوسف:٤٦] ، وأما تواضعه فقوله : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي** ﴾ [يوسف:٥٣] ، وأما رؤية المنة فقوله : ﴿ **إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾ [يوسف:٥٣] ، وأما مكانته فقوله : ﴿ **إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** ﴾ [يوسف:٥٤] ، وأما أمانته فقوله : ﴿ **أَمِينٌ** ﴾ ، وأما صبره فقوله : ﴿ **مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ** ﴾ [يوسف:٩٠] ، وأما شجاعته فقوله : ﴿ **ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ** ﴾ [يوسف:٥٠] ، وأما سُمُوُّه فقوله : ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ** ﴾ [يوسف:٥٥] ، وأما عدله فقوله : ﴿ **أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا**

عِندَهُ ﴾ [يوسف:٧٩] ، وأما عناية رب العالمين فقوله : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ [يوسف:٢١] . وكما لم يسأل يوسف ﷺ عن الإمارة إلا بعد اجتماع هذه الخصال المحمودة ، فكذلك لا ينبغي لأحد أن يتقدم للحكم بين العباد إلا إذا اجتمعت فيه نحو هذه الخصال ، وأما مَنْ يحكم بهواه ، ولا تدركه الشفقة على من سواه ، فهو الظالم لنفسه ، المتردد في لبسه ، قد خاب من الكرامة ، وحظي بالندامة ، وماله عند الله عذر يوم القيامة ، وقيل في المعنى :

يَا مَنْ يَجُورُ عَلَى الْعِبَادِ وَيَظْلِمُ ... اللَّهُ يُبْصِرُ مَا فَعَلْتَ وَيَعْلَمُ

تَبْدُو بِأَثْوَابٍ حِسَانٍ لِلْوَرَى ... بِيضٍ وَقَلْبُكَ بِالْجَهَالَةِ مُظْلِمُ

كَمْ جَاءَكَ الْمَظْلُومُ يَشْكُو كُرْبَةً ... وَأَتَى لِبَابِكَ صَاغِرًا يَتَنَدَّمُ

فَتَرَكْتَهُ يُذْرِي دُمُوعَ جُفُونِهِ ... حُزْنًا وَأَنْتَ بِمَالِهِ تَتَنَعَّمُ

تَهْوَى الإِمَارَةَ وَهْيَ وَيْحَكَ حِطَّةٌ ... فِيهَا أُمُورٌ سُوؤُهَا لا يُعْدَمُ

لَمْ يَقْصِدِ الدُّنْيَا وَجَمْعَ حُطَامِهَا ... فَالْجَمْعُ لِلدُّنْيَا عَذَابٌ مُبْرَمُ

مَا قَصْدُهُ شَيْءٌ سِوَى إِصْلاحِهِ ... وَالنَّدْبُ لِلإِصْلاحِ دِينٌ قَيِّمُ

ظُنُّوا بِهِ خَيْرًا وَصَلُّوا كُلُّكُمْ ... جَهْرًا عَلَيْهِ فَبِرُّهُ لا يُكْتَمُ

مَنْ صدق في باطنه رأى أحب في ظاهره ، الصدق نَدٌّ لا يشمه مزكوم ، والأعمى لا يرى السحاب المركوم ، لما نظر عزيز مصر إلى يوسف بعين الفراسة ، فأجلسه على إعزاز ﴿ **أَكْرِمِي مَثْوَاهُ** ﴾ [يوسف:٢١] ، ورأته زليخا بعين الأمل ، فشغفها حبًّا ، فراودته لما يراد به فأوقد هواها بنيران ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ** ﴾ [يوسف:٢٤] فحمى حماه بحراسة ﴿ **لَوْلا أَنْ رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾ [يوسف:٢٤] ، فبدت له كف من غير ذراع ، فيها مكتوب خطاب الرحمة ؛ لأنه لا يحلُّ له أن يحل عصام العصمة ، فنهضت يد العناية الربانية ، وجددت لمَنْ لربه فيه نية ، فلما أُضرمت نيران الهوى ، وقويَ وهجها ، صبَّ عليها ماء ﴿ **كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف:٢٤] ، فجرى جواد عرضه في

حرب ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ [يوسف:٥٥] ، فانبسطت يد العدوان ، وامتدت فقدت ، فلما بانت حجته في بيان ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ ﴾ [يوسف:٢٦] ، أخذت ترمي مسرات الإصرار على مرام ما رامت بيمين ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ ﴾ [يوسف:٣٢] ، فاختارت درةُ فهمه صدفَ السجن لجهل الناقد ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف:٣٣] ، فأجابه مولاه ، وأقبل عليه ، فكان يواسي المسجونين بنفس تأوي لهم فيعبِّر تأويلهم ، ويُعزِّي حزينهم ، ويعود المرضى بالمراضاة حتى يعودهم وإن كان دينهم لا يعجبه ، لكن الحر شفيق على مَنْ يصحبه ، ويعطف قلوب الأخيار على كل مبتلى لا سيما مَن امتحن بالغربة والقلى ، وقيل في المعنى :

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ بِأَهْلِهَا ... فَلَسْنَا مِنَ الأَمْوَاتِ فِيهَا وَلا الأَحْيَا

إِذَا جَاءَنَا السَّجَّانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ ... عَجِبْنَا وَقُلْنَا : جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

لما ضاق السجن على بلبل الطبع ترنم صوته ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، فعوقب بإيثاق بابه عليه ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف:٤٢] ، فلما جاز عقبةَ العقوبة رأى الملكُ في صحيفة منامه أعجوبة ﴿ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ [يوسف:٤٢] ، ففات فيه جواب فتياه في فلاة تَحيُّر ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم ﴾ [يوسف:٤٥] ، فطلبه الملك ، فلم يخرج من سجن التهمة حتى سُطرتْ برائته في صحيفة منشور ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ [يوسف:٥١] ، فخرج من ضيق السجن إلى سَعة ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٥] ، فأجابه الملك بما طلب ، وأنزله المترل الكريم ؛ هذا ، ويعقوب مقيمٌ في بيت الحزن على فراش الأسى ووساد القلق ، يقول : يا أسفا ، لا يستلذ نوماً ولا هجوعا ، كيف والإنسان خُلق هلوعاً ، ثمانينَ سنةً يعاين عذر العبر حتى نحل البدن وذهب البصر ، وقيل في المعنى :

لَمْ يَبْقَ لِي بَعْدَكُمْ رَبْعٌ وَلا طَلَلُ ... إلا وَلِلشَّــوْقِ فِي أَرْجَائِهِ عَمَلُ

بِنْـتُمْ فَأَوْحَشْتُمُ الدُّنْيَا لِبَيْنِكُمُ ... مِـنَّا فَلا عِوَضٌ عَنْكُمْ وَلا بَدَلُ
حَمَّلْتُمُونِي عَلَى ضَعْفِي بِبُعْدِكُمُ ... مَـا لَيْسَ يَحْمِلُهُ سَهْلٌ وَلا جَبَلُ
إِذَا شَمَمْتُ نَسِيمًا مِنْ دِيَارِكُمُ ... فَقَدْتُ عَقْلِي كَأَنِّي شَارِبٌ ثَمِلُ

ثم إن البلاء والقحط انتشرا في البلدان ، ووصلا إلى كنعان ، فكان أهل النواحي يقصدون مصر بأموالهم وبضاعتهم ، فيتمارون الطعام ، ويشكرون ليوسف لما يرون له من السِّير الكرام ، فوصل مسُّ الجدب إلى يعقوب عليه السلام وبَنيه ، وظهر ذلك على كل مَنْ يليه ، وكان يجتمع ليعقوب عليه السلام ستونَ رجلاً وامرأةً فشكوا إليه ما نالهم من الخصاصة والجدب ، وسألوه أن يدعو الله تعالى لهم حتى يفرج عنهم ، أو ينظر نظراً يعتمدون عليه ، ويرجعون إليه ، فقال يعقوب عليه السلام : يا بَنِيَّ ، إنه بلغني أن بمصر ملكاً من أكرم الملوك ، وأنصحهم لعباد الله ، وأحسنهم خلقاً ، وأسخاهم كفًّا ، وعنده طعام كثير ، وقد توجَّهَ الناس إليه من البلدان ببضاعات وأموال ، فحمدوا سيرته ، وشكروا إحسانه وطويته ، وقد استخرتُ الله تعالى أن أوجهكم نحوه لشراء الطعام ، فقالوا له : نحن لكَ مطيعون ، ولقولكَ سامعون ، فجهَّز عشرة منهم ، وأعدوا أُهبة حسنة ، وأظهروا زيًّا بديعاً ، وحملوا ما أمكنهم ، ولم يقصد مصر قومٌ أحسنُ حالاً منهم ، ثم أخذوا في الأُهبة والمسير ، وهم لا يعلمون ما يريد بهم اللطيف الخبير ، وقيل في المعنى :

دَعُـوا مَا كَانَ قَبْلُ مِنَ النُّشُوزِ ... وَجِـدُّوا فِي الْمَسِيرِ وَفِي الْبُرُوزِ
لَكُـمْ تَسْرِي السُّرَى وَبِكُمْ يُهَنَّا ... عَظِيمُ الْمُلْكِ ذُو الْحُكْمِ الْوَجِيزِ
وَإِنَّ طَـرِيدَكُمْ فِـيمَا زَعَمْـتُمْ ... طَـرِيحُ الْجُـبِّ يُدْعَى بِالْعَزِيزِ

قال : وكان يوسف عليه السلام قد نصب قهرمانين : أحدَهما قبطي ، والآخرَ مصري ، وأمر أحدهما أن يبيعَ الطعام من أهل مصر ، ويأخذَ الثمن ، ولا يسألَ عن اسم الرجل ، ولا عن اسم أبيه ولا نسبه ، وأمره أن لا يبيعَ من الغرباء شيئاً قليلاً ولا كثيراً ، وأمر القهرمان الآخرَ أن يكونَ بيعه من الغرباء دون أهل البلد ، وأمره أن لا يبيع من غريب شيئاً حتى يسأله عن اسمه واسم أبيه واسم بلده وأرضه ، فإذا عرفه بذلك لم يبعه شيئاً ولا يأخذ منه بضاعةً حتى يعرفَ يوسف عليه السلام بذلك ، ويأخذ منه إذنه في البيع له ، فكان الغريب إذا ورد على القهرمان ، وسأله وعرَّفه ، تركه

واقفاً ، وسار إلى باب يوسف ، فعرَّف البواب ، وعرَّف البواب الحاجبَ ، فيدخل الحاجب ، ويقف عند الحجاب ، فيبدي من الخضوع ما يبدي لدى الملوك ، ويثني على الملك ، ويقول : أيها الملك ، إنه ورد قوم من أرض كذا وكذا ،وبضاعتهم كذا وكذا ، ويريدون من الميرة كذا وكذا ، فيهتز الحجاب ، فيكون هزُّه علامة القبول والإنعام عليهم بالبغية والسول ، ولم يكن سَدْلُ الحجاب تكبراً من الصديق عليه السلام ، ولا تجبراً على الرعية ، بل كان أشد الناس تواضعاً في نفسه وتذللاً لربه ، وإنما كان ذلك إرهاباً لقلوب أعدائه ، وتحفظاً ممن يريده بالسوء ، فلو انبسط إليهم وهم لا يغفلون عنه ، لأدَّى ذلك إلى ازدرائهم له وجراءهم عليه ، وإنما بُعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتجديد الشرائع وسد الذرائع . قال : ابن عمر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « ألا أوصيكم بوصية نوح عليه الصلاة والسلام ابنَهُ ؟ قالوا : بلى ، قال : أوصى نوح ابنه ، فقال : أوصيكَ باثنتين ، وأنهاكَ عن اثنتين ، أوصيكَ بقول : لا إله إلا الله ، فإنها لو وُضعت في كفة ، ووُضعت السموات والأرضونَ السبع في كفة لرجحتهن ، ولو كانت حلقةً لقصمتهن حتى تخلص إلى الله تعالى ، وأوصيكَ بقول : سبحان الله وبحمده ، فإنها عبادة الخلق ، وبها تدر أرزاقهم ، وأنهاكَ عن اثنتين : عن الشرك والكبر فإنهما يحجبان عن الله ، قالوا : يا رسول الله أمن الكبر أن يلبس الرجل القميص النظيف أو يتخذ الطعام يكون عليه الجماعة ؟ قال : ليس ذلك من الكبر ، إنما الكبر أن تسفَّهَ الحق وتغمض الناس » ذكره البزار ، وقيل في المعنى :

خَلِّ التَّصَنُّعَ عَنْكَ يَا مِسْكِينُ ... إِنَّ التَّوَاضُعَ فِي الْقُلُوبِ يَكُونُ
مَا تَصْنَعُ الأَطْمَارُ فِيمَنْ صُنْعُهُ ... يَأْتِي النَّقِيصَ وَقَلْبُهُ مَفْتُونُ
فَتَرَاهُ يُرْقِعُ ثَوْبَهُ لِيَقُولَ مَنْ ... يَلْقَاهُ : هَذَا نَاسِكٌ وَسَكُونُ
فَإِذَا خَلا أَبْدَى الْقَبِيحَ كَأَنَّمَا ... فِي الصَّدْرِ مِنْ خُبْثِ الْخِصَالِ كَمِينُ
وَلَرُبَّ ذِي ثَوْبٍ نَظِيفٍ أَبْيَضٍ ... سَاءَتْ بِهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ ظُنُونُ
يُبْدِي السُّرُورَ إِذَا تَرَاهُ وَقَلْبُهُ ... بَاكٍ عَلَى مَا قَدْ جَنَى مَحْزُونُ
فَكَأَنَّهُ كَنْزٌ عَلَيْهِ طَلاسِمٌ ... يَبْدُو وَلَكِنْ مَا تَرَاهُ عُيُونُ
يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُزَكِّي نَفْسَهُ ... أَقْلِلْ كَلامَكَ فَالْجُنُونُ فُنُونُ

إِنَّ السَّرِيرَةَ لَيْسَ تَخْفَى يَا أَخِي　　مَـــنْ يَكْـــتُمُ الشَّـــكْوَى عَلَيْهِ تَبِينُ
وَالـــلَّهُ يُلْبِسُ عَبْدَهُ مَا قَدْ نَوَى　　وَالْكُـــلُّ بِـــالْفِعْلِ الْقَـــدِيمِ رَهِـــينُ

(حكاية) : يُروى أنه كان في بني إسرائيل رجل من العباد المبرِّزين في العبادة ، الموصوفين بالزهادة ، وكان إذا دعا ربه أجابه ، وإذا عمل أعطاه وأثابه ، وكان سياحاً في الجبال ، قواماً في الليالي ، وكان الله تبارك وتعالى قد سخر له سحابة تسير معه حيث يسير ، وتسكب عليه ماءً متى شاء ماءها المَعين ، فيتوضأ ويشرب إلى أن اعتراه فتور في بعض الأوقات ، فأزال الله عز وجلَ سحابته ، وحجب إجابته ، فكثر لذلك حزنه ونحيبه ، وطال كمده ووجيبه ، وما زال يشتاق إلى زمان الكرامة الممنون بها عليه ، فيبكي ويتأسف ويتحسر ويتلهف ، فنام ليلة من الليالي ، فقيل له في نومه : إن شئتَ أن يرد الله عليكَ سحابتكَ ، ويجيبَ دعوتكَ ، فصلْ إلى الملك الفلاني في بلد كذا وكذا ، واسأله أن يدعوَ لكَ ، فإن الله عز وجل يردها عليك ، ويسوقها إليك ، وقيل في المعنى :

اقْصِدْ إِلَى الصَّالِحِ الأَمِيرِ　　فِي خَطْبِكَ الْوَاقِعِ الْكَبِيرِ
فَإِنْ دَعَا اللَّهَ جَا بِمَا قَدْ　　سَـــأَلْتَ مِنْ وَابِلٍ هَمِيرِ
لَقَدْ سَمَا فِي الْمُلُوكِ قَدْرًا　　وَجَـــلَّ فِيهِمْ عَنِ النَّظِيرِ
وَسَـــوفَ تَلْقَى لَدَيْهِ أَمْرًا　　يَكُـــونُ بِالْبِشْرِ وَالسُّرُورِ
فَـــاقْطَعْ لَهُ الْبِيدَ وَالْفَيَافِي　　وَوَاصِـــلِ السَّيْرَ بِالْمَسِيرِ
لَعَلَّ وَقْتَ الْقَبُولِ يُقْضَى　　وَيُعْقِـــبُ الْعُسْرُ بِالْيَسِيرِ

قال : فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى البلدة التي ذُكرت له في المنام ، فدخلها وسأل عن الملك ، فأُرشد إلى قصر ، فإذا عند باب القصر غلامٌ قاعدٌ على كرسيٍّ عظيم ، وعليه كسوة حسنة ، فوقف الرجل إليه ، وسلَّم عليه ، فرد عليه السلام ، وقال : ما حاجتكَ ؟ قال : أنا رجل مظلومٌ ، جئتُ لأرفع قصتي إلى الملك ، قال : إنه لا سبيل إليه ؛ لأنه قد جعل لأصحاب المسائل يوماً يدخلون عليه فيه ، وهو يوم كذا وكذا ، فسرْ راشداً حتى يأتيَ ذلك اليوم ، قال : فأنكر الرجل عليه حجبتَهُ عن الناس ، وقال : كيف يكون هذا وليًّا من أولياء الله تعالى وهو على مثل هذه الحالة ؟ قال : فلما كان ذلك اليوم الذي ذكره البواب ، وصل فوجد عند

الباب أناساً ينتظرون الإذن لهم بالدخول ، قال : فوقف إلى أن خرج وزيرٌ عليه ثياب عظيمة ، وبين يديه سدنةٌ وعبيدٌ ، فقال : ليدخل أرباب المسائل ، قال : فدخلوا ، ودخل العابد في الجملة ، فإذا الملك قاعدٌ ، وبين يديه أرباب مملكته على مقاديرهم ومراتبهم ، فوقف الوزير ، وجعل يقدم واحداً بعد واحد حتى وصلت النوبةُ إلى العابد ، فلما قدمه الوزير نظر إليه الملكُ وقال : مرحباً بصاحب السحابة ، اقعد حتى أفرغَ لكَ ، فتحير الرجل من قوله ، واعترف بمرتبته وفضله ، فقضى الملك بين الناس ، وفرَغ منهم ، ثم قام فقام الوزراء وأرباب المملكة ، وأخذ الملك بيد العابد ، وأدخله إلى قصره ، فوجد عند باب القصر أسودَ عليه ثياب ، وفوق رأسه أسلحة ، وعن يمينه وشماله دروع وتراس ، فقام إلى مولاه ، وفتح باب القصر ، فدخل الملك ويده في يد صاحب السحابة ، فإذا بين يديه باب قصر خَلَقٌ بال ، ففتحه الملك ، ودخل إلى دار خرابة وبناء مائل ، ثم دخل بيتاً ليس فيه إلا سجّادة وقدح للوضوء وشيء من الخوص ، فجرد الملك ثيابه ، ولبس جبة خشنة من الصوف الأبيض ، وجعل على رأسه قلنسوةَ لبد ، ثم جلس ، وأجلس العابد ، ونادى : يا فلانة ، فقالت : لبيكَ ، فقال : أتدرين مَنْ ضيفنا في هذا اليوم ؟ فقالت : نعم ، هذا صاحب السحابة ، فقال : اخرجي ، لا عليكِ منه ، فإذا بامرأة كأنها الخيال ، وكأن وجهها الهلال ، عليها جبة صوف ، وقناع صوف ، فقال الملك : يا أخي ، أتريد أن تعرفَ خبرنا ، أو ندعوَ لكَ وتنصرفَ ؟ قال : بل أنا إلى سماع خبركما أشوق ، قال : يا أخي ، إنه كان لي في هذا الأمر آباء كرامٌ يتداولون المملكة ، ويتوارثونها كابراً عن كابر إلى أن ماتوا ، ووصل الأمر إليّ ، وبغَّضَ الله إليَّ الدنيا ، فأردتُ أن أسيحَ في الأرض ، وأتركَ الناس ينظرون لأنفسهم ، فخفتُ عليهم من دخول الفتنة وتضييع الشرائع وتشتيت شمل الدين ، فبايعوني مكرهاً ، فتركت أمورهم على ما كانت ، وجعلتُ لكل رأس منهم حواشيه بالمعروف ، وعامل جرايته بالمعروف ، ولبستُ ثياب الملك ، وأقعدتُ العبيد على الأبواب إرهاباً لأهل الشر ، وذبًّا عن أهل الخير ، وإقامةً للحدود ، فإذا فرَغتُ من ذلك كله دخلتُ منزلي ، وأزلتُ هذه الأثوابَ ، ولبستُ ما لا أُسأل عنه ، وهذه ابنة عمي ، وافقتني على الزهادة ، وساعدتني على العبادة ، ونحن نعمل من هذا الخوص بالنهار ما نفطر به عند الليل منذ أربعين سنة ، فأقمْ عندنا حتى نبيعَ خوصنا ، وتفطرَ معنا ، وتبيت عندنا ، وتنصرف بحاجتكَ إن شاء الله تعالى ، قال : فلما كان عشي النهار إذا بغلام خماسي قد دخل ، فأخذ ما عملاه من الخوص ، وسار به إلى السوق ،

فباعه بقيراط ، واشترى منه خبزاً وفولاً ، وأتى به ، قال : فأفطرتُ معهما ، وبتُّ عندهما ، فقاما من نصف الليل يصليان ويبكيان ، فلما كان عند السَّحَر قال : الملك : اللهمَّ ، إن هذا يطلب منكَ ردَّ سحابته فرُدَّها عليه ، وأنتَ على كل شيء قدير ، اللهم أره إجابته ، وارْدُدْ عليه سحابته ، قال : وأَمَّنَت الزوجةُ ، قال : فإذا السحابة قد نشأتْ في السماء ، فقالا : لكَ البشارة ، فودعتُهما وانصرفتُ والسحابة تتبعني ، فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بحرمتهما شيئاً إلا أجابني ، وقيل في المعنى :

وَإنَّ لِـــرَبِّي صَـــفْوَةً مِـــنْ عَـــبِيدِهِ ... قُـــلُوبُهُمُ فِـــي رَوْضِ حِكْمَتِهِ تَجْرِي

وَأَبْدَانُهُـــمْ قَـــدْ أُسْكِنَتْ حَرَكَاتُهَا ... لِمَا فِي صُدُورِ الْقَوْمِ مِنْ خَالِصِ السِّرِّ

تَـــرَاهُمْ صُـــمُوتًا خَاشِـــعِينَ لِرَبِّهِمْ ... وَأَنْفُسُـــهُمْ مَجْمُوعَـــةُ الْوَهْمِ وَالْفِكْرِ

صَـــفَوْا فَدَنَـــوْا ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ قُلُوبُهُمْ ... بِحَيْثُ يَرَوْنَ الْغَيْبَ بِالْغَيْبِ كَالْجَهْرِ

فَهُمْ حُجَجُ الْمَوْلَى عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ ... لِدَعْوَتِهِـــمْ تَجْرِي السَّحَائِبُ بِالْقَطْرِ

كَسَـــاهُمْ إِلَـــهُ الْعَرْشِ مِنْ نَسْجِ وُدِّهِ ... ثِيَابًـــا وَأَغْـــنَاهُمْ عَـــنِ الْقَصْدِ لِلْغَيْرِ

يُضِـــيءُ ظَلامَ اللَّيْلِ حُسْنُ وُجُوهِهِمْ ... فَـــأَنْوَارُهُمْ تَعْـــلُو عَلَى الأَنْجُمِ الزُّهْرِ

المجلس الثاني عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق٢ ، ٣] .

الحمد لله الذي رفع السماء على رسم جسم سرائر قدرته ، وأمسكها بلا عماد ، وبسط الأرض على سَنام آكام أمواج لُجج البحر العجاج ووضعها كالمهاد ، وأرساها على كراسيِّ رواسي صم صخر قواعد جلاميد جبالها ووضعها كالأوتاد ، العزيزِ الذي عصم خواطر العارفين بحسام تمام إرادته من حلول نزول وصول جيوش التغير والفساد ، وأنطق قُماري النسيم على أفنان أغصان أفئدتهم في روضات جنات خدمتهم بأنواع أسجاع سماع بدائع صناع عجائب الحكمة والسداد ، الكريمِ الذي أقفل على أبواب أهل الشرك بأغلال أثقال أحمال احتمال الكفر والعناد ، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ويضل من يشاء ويهدى من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، فتق ورتق وقال وصدق﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦] ، وهو الكريم الجواد ، يقيم للصادقين منهجاً ، ويجعل للمتقين مخرجاً ، ويهون عليهم الأمور الشداد ، أما سمعته يقول ، وهو لا يخلف الميعاد : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق٢ ، ٣] فتباً لمن يعتمد بعد هذا على أحد من العباد ، فسبحان من يقهر الملوك ، ويجبر الصعلوك، ويعتق المملوك ويجمع بين الأضداد ، أحمده على نعمه المتزهة عن الحصر والتعداد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أجد بركتها يوم الميعاد ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله ، المخصوص بالحكمة والرحمة والسداد ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الحسباء الأحباء النجباء الأجياد ، صلاةً تدوم وتقوم ما فاح مَندل وناجى بلبل بواد ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل :

تَنَصَّــلْ عَنِ الْعصيانِ يَا غَافِلا أَخْطَا ... فَشَــيْبُكَ قَــدْ وَافَى وَيَوْمُكَ قَدْ أَبْطَا
وَتَقْــوَاكَ لا تَقْــوَى وَعَهْدُكَ لا تَفِي ... كَأَنَّكَ لا تَخْشَى الْحِسابَ وَلا الْقِسْطَا

أَتَجْـنَحُ يَـا بَطَّـالُ لِـلَّهْوِ وَالصِّبَا وَهَذَا كِتَابُ الدَّهْرِ فِي الرَّأْسِ قَدْ خَطَّا
حُـرُوفَ بَيَـاضٍ طَالَمَا اسْوَدَّ لَوْنُهَا فألبسـها المـوتُ المُلِمُّ بِهـل مرطَا
كَـأَنَّ غُـرَابَ الْـبَيْنِ بَـدَّلَ خَلْقَهُ حمَـامُ حمَـامٌ فَالـنُّفُوسُ لَـهُ لَقْطَا
وَتَطْمَـعُ فِـي اسْتِبْطَانِ دَارٍ بِهَا الْبِلا وَثِيقَـةَ عَهْـدٍ وَالـرَّحِيلُ غَدَا شَرْطَا
جَهِـلْتَ لَقَـدْ أَمَّـلْتَ مَا لا تَنَالُهُ أَظُـنُّكَ مَجْـنُونًا سَقَاهُ الْهَوَى قِسْطَا
أَلَسْـتَ تَـرَى مَكْـرَ الزَّمَانِ بِأَهْلِه وَأَنْـتَ كَمَـنْ أَعْطَاهُ مِنْ مَكْرِه قِطَّا
سَتَدْرِي إِذَا مَا جِئْتَ فِي الْحَشْرِ مُفْرَدًا وَرَأْسُـكَ مِنْ أَجْلِ الْمَعَائِبِ قَدْ حُطَّا
وَقَلْـبُكَ مِـنْ فَرْطِ الْحُقُوقِ كَطَائِرٍ يُحَـاوِلُ نَهْضًـا وَالْجَنَاحَانِ قَدْ قُطَّا
فَـإِنْ تَـكُ تَرْجُو أَنْ تَنَالَ مِنَ التُّقَى نَصِـيبًا وَيُمْحَى عَنْكَ وَيْلَكَ مَا خُطَّا
فَقُـمْ فِـي ظَلامِ اللَّيْلِ وَاسْأَلْهُ تَوْبَةً فَكَـمْ مَنَحَ الْمَقْبُوضَ فِي رِزْقِهِ بَسْطَا
فَـلا أَحَـدٌ يُرْجَى سِوَى اللَّهِ مَانِحٌ وَلا أَحَـدٌ غَيْـرُ الَّـذِي رَبُّـهُ أَعْطَى

قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق ٢ ، ٣] ، اعلم أن الله تعالى أعطى المتقين اثنتي عشرة خصلة من خصال أهل السعادة : **أولها** القبول ، وهو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٧] ، **الثانية** العاقبة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [الأعراف:١٢٨] ، **الثالثة** النجاة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا** ﴾ [مريم:٧٢] ، **الرابعة** الجنة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا** ﴾ [مريم:٦٣] ، **الخامسة** جوار الله تعالى في الجنة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ** ﴾ [القمر:٥٤] ، ﴿ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾ [القمر:٥٥] ، **السادسة** نُصرة الله لهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل:١٢٨] ، **السابعة** محبة الله لهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران:٧٦] ، **الثامنة**

الكرامة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عندَ اللَّه أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات:١٣] ، **التاسعة** اليسر ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً** ﴾ [الطلاق:٤] ، **العاشرة والحادية عشرة** التكفير وعظم الأجر ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاته وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً** ﴾ [الطلاق:٣٦] ، **والثانية عشرة** المخرج ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً** ﴾ [الطلاق:٢] ، **والثالثة عشرة** ركوب النوق من القبور إلى القصور ، وهو قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً** ﴾ [مريم:٥٨] ، والوافد لا يكون إلا راكباً ، وقيل في المعنى :

مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَذَاكَ الَّذي ... سِيقَ إِلَيْهِ الْمَتْجَرُ الرَّابِحُ
لا يَجْتَلِي الْحَوْرَاءَ فِي خِدْرِهَا ... إِلا امْرُؤٌ مِيزَانُهُ رَاجِحُ
فَاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إِلَى نِسْوَةٍ ... مُهُورُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يقول : « الإسلام علانية ، والإيمان في القلب »[1] ، ثم يشير ﷺ إلى صدره ويقول : « التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، ثلاث مرات »[2] ذكره مسلم ، وقال عطية السعدي : قال رسول الله ﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكونَ من المتقين حتى يدعَ ما لا بأس به حذراً مما بأسٌ به » ذكره الترمذي . وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا تصاحبْ إلا مؤمناً ، ولا يأكلْ طعامكَ إلا تقيٌّ »[3] ذكره الترمذي ، وقال أبو ذر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها ، وخالقِ الناسَ بخلق حسن »[4] ذكره

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٥ / ٣٠١ ، والديلمي في مسند الفردوس ١ / ١١٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٩٨٦ ، والترمذي في سننه ٤ / ٣٢٥ .
(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٤ / ٦٠٠ ، وابن حبان في صحيحه ٢ / ٣١٤ ، والحاكم في مستدركه ٤ / ١٤٣ .
(٤) أخرجه أبو داود في سننه ٤ / ٩٦ ، والحاكم في مستدركه ١ / ١٢١ ، والدارمي في سننه ٢ / ٤١٥ .

الترمذي . وقال رسول الله ﷺ وهو يوصيه : « عليكَ بتقوى الله فإنها جماع كل خير ، وعليكَ بالجهاد فإنه رهبانية كل مسلم ، وعليكَ بذكر الله فإنه نور لك يوم القيامة » ، وقال ﷺ : « مَنْ سَرَّه أن يكون أكرم الناس فليتقِ الله » . وقال عمر رضي الله عنه لكعب : حدثني عن التقوى ، فقال : هل أخذتَ قطُّ طريقاً ذاتَ شوك ؟ قال : نعم ، قال : فما عملتَ فيه ؟ قال : حذرتُ وشمرتُ ، قال : فكذلك التقوى . وقال وهب : الإيمان عُريان ، ولباسه التقوى ، وزينته الحياء ، ورأس ماله الفقه . وقال ميمون بن مهران : لا يكون التقيُّ تقيًّا حتى يكون أشد الناس محاسبة لنفسه من الشريك لشريكه . وقال مسعر لسعد : من أفقهُ أهل المدينة ؟ فقال : أتقاهم لله . وكان شيخ يدور في المجالس وينادي : مَن سره أن تدوم له العافية فليتقِ الله . وكان الحسنُ يقول : ما تزال التقوى بالمتقين حتى يتركوا شيئاً من الحلال مخافة الحرام . وأتاه يوماً فرقد وعليه جبة صوف مرقوعة ، فأخذ الحسن بتلابيبه ، وقال : يا ابن أم فُريقد ، ليس التقوى بأكل الغليظ ، ولا بلبس العباءة ، إنما التقوى ما وقر في الصدر ، وصدقه العمل ، وقيل في المعنى :

لَيْسَ التَّصَوُّفُ لُبْسُ الصُّوفِ تَرْقَعُهُ ... وَلا بُكَاؤُكَ إِنْ غَنَّى الْمُغَنُّونَا
وَلا صِيَاحٌ وَلا رَقْصٌ وَلا طَرَبٌ ... وَلا ارْتِعَاشٌ كَأَنْ قَدْ صِرْتَ مَجْنُونَا
بَلِ التَّصَوُّفُ أَنْ تَصْفُو بِلا كَدَرٍ ... وَتَتْبَعَ الْحَقَّ وَالْقُرْآنَ وَالدِّينَا
وَأَنْ تُرَى خَاشِعًا لِلَّهِ مُكْتَئِبًا ... عَلَى ذُنُوبِكَ طُولَ الدَّهْرِ مَحْزُونَا

واعلم أن أرزاق العباد تنقسم على ثلاثة أقسام : مضمون ، ومقسوم ، وموهوب ؛ فالمضمون ما سُطر في أم الكتاب ، والمقسوم ما يتوصل إليه بأنواع الأسباب ، والموهوب ما وعد الله به المتقين حلالاً من غير حساب . وقال أبو الدرداء : قال رسول الله ﷺ : « إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله » ذكره الترمذي . وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ لابْنَيْ خالد : « لا تيأسا من الرزق ما تدهدهتْ رءوسكما ، فإن العبد تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله »[1] ذكره ابن أبي شيبة ، وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : قال

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٤ / ٢٢٦ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٢ /١١٩ ، وهناد في الزهد ٢ / ٤٠٧ .

رسول الله ﷺ : « ليس من عملٍ يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتُكم به ، ولا عمل يقربكم من النار إلا وقد نهيتُكم عنه ، فلا يستبطئنَّ أحدكم رزقَهُ ، فإن جبريل عليه السلام نفث في رُوعي : إن أحدكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، فإن استبطأ أحدكم رزقه ، فلا يطلبه بمعصية الله ، فإن الله لا ينال ما عنده بمعصيته »[1] ذكره ابن عبد البر . وقال موسى عليه السلام : يا رب ، كيف قمتَ بأرزاق خلقكَ على اختلاف صورهم وكثرة عددهم ونيالهم ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا ابن عمرانَ ، إن الخلق في قبضتي كحبة خردل ملقاة في أرض فلاة ، وإن إحاطتي بهم أكثر من إحاطة الفلاة بالحبة ، أرزقُ القريبَ والبعيد ، والكبيرَ والصغير ، والمؤمنَ والكافر ، ولا يتعذر عليَّ ذلك ؛ لقوة الإحاطة واتصال الغنى ، قال : يا رب ، فكيف ترزقهم ولا تفنى خزائنك ؟ قال : إني أضرب لكَ في ذلك مثلاً ، إذا جاء الليل فمُر بني إسرائيل لا يُضرمون ناراً ، ولا يُوقدون مصباحاً ، ثم اجعل مصباحاً على باب خيمتكَ ، ومُرهم أن يقتبسوا منه ، ففعل ذلك موسى ، فجعل هذا يوقد مصباحه ، وهذا شعلته ، وهذا ما يحتاج إليه ، حتى أوقد الكل من سراجه ، وبقي سراجه كما كان ، فأوحى الله تعالى إليه : يا ابن عمران ، أنقص من سراجك شيء ؟ فقال : لا يا رب ، قال : إذا كان هذا حكم سراجك ، فما حكم خزائن أمدها بلحظي ، وأحوطها بحفظي ، فقال : سبحانكَ ، لا إله إلا أنتَ ، لا تنقص خزائنكَ ، ولا يبيد سلطانكَ ، وقيل في المعنى :

يَا مَنْ يَجُودُ عَلَى الْعِبَادِ وَيُنْفِقُ ... وَيُـبِيحُ مَا سَأَلَ الْعَبِيدُ وَيَرْزُقُ
وَيُجِيبُ دَعْوَةَ مَنْ دَعَاهُ لِحَاجَةٍ ... وَيُنِيلُهُ اللُّطْفَ الْجَزِيلَ وَيرفقُ
أَنْتَ الْعَزِيزُ بِلا خِلافٍ وَالَّذِي ... يُولِي الْحَيَا وَأَنَا الذَّلِيلُ الْمُمْلِقُ
قَدْ أَثْقَلَتْ ظَهْرِي الذُّنُوبُ وَإِنَّنِي ... لأَضِجُّ مِنْ ثِقَلِ الْقَمِيصِ وَأَقْلَقُ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ أَزِيدَ جَرَائِمًا ... وَتَـزِيدَ إِحْسَانًا لَدَيَّ وَتُخْلِقُ
هَـذَا دَلِيلُ غِنَاكَ عَنِّي سَيِّدِي ... إِنَّ الْغَنِيَّ بِجُودِهِ يَتَصَدَّقُ

---

(١) أخرجه ابن الجارود في المنتقى ١ / ١٤٤ ، والحاكم في مستدركه ٢ /٥ ، والبيهقي في الكبرى ٥ / ٢٦٥ ، والقضاعي في مسند الشهاب ٢ / ١٨٦.

فَالْــبِرُّ لَيْــسَ يَزِيدُهُ فِي مُلْكِهِ   وَكَــذَا الْفُجُورُ سَنَاؤُهُ لا يُخْلَقُ
فَــلَهُ التَّفَضُّلُ وَالتَّطَوُّلُ وَالْغِنَى   وَلَــهُ الْعَزَازَةُ وَالْكَمَالُ الْمُطْلَقُ
قَالُوا : لَقَدْ ظَهَرَ افْتِقَارُكَ لِلَّذي   تَعْــنِيهِ فَاسْأَلْ مِنْهُ مَا هُوَ أَرْفَقُ
فَأَجَبْــتُهُمْ وَمَدَامِعِــي مُنْهَــلَّةٌ   خَرِسَ اللِّسَانُ وَلِي دُمُوعٌ تَنْطِقُ
صَــلَّى الإِلَــهُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ   مَــا غَرَّدَ الْقُمْرِيُّ وَهْوَ يُشَوِّقُ

واعلم يا أخي أن الرزق بالقسمة لا بالجهد ؛ ألا ترى أن يعقوب كان حريصاً على رؤية يوسف ، والإخوة كانوا فيه من الزاهدين ، فرآه الزاهد قبل الحريص ، ليعلم أن لكل شيء وقتاً ، والأرزاق بالتقدير لا بالتدبير ، فكيف تفيد الحيل والأسباب وربنا عز وجل يقول : ﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ﴾ [الرعد:٣٨] ، وذلك أنهم لما طلبوا الميرة دخلوا الطريق ، وعزموا على الوصول إلى مصر ، وحملوا معهم زاداً ظنوا أنه يوصلهم ، فنفد الزاد قبل وصولهم بمرحلتين ، فأثر الجوع فيهم أثراً ظاهراً ، وعلاهم الشعث ، وبدا فيهم التغير ، فلما دخلوا مصر سألوا الناس عن بائع الطعام ، فدُلوا عليه ، فلما وصلوا إليه وقفوا لديه ، وسألوه بيع الطعام ، فقال : إنكم قوم غرباء ، وليس أمر الغرباء بيديَّ ، ولكن انطلقوا إلى موضع كذا وكذا ، فإن فيه حاجتكم ، قال : فتقدموا إلى القهرمان الآخر الذي وكله يوسف عليه السلام ببيع الطعام من الغرباء ، وقيل في المعنى :

يَا نَسِيمًا هَبَّ مِنْ وَادِي قِبَا   خَبِّرِيــنِي كَيْفَ حَالُ الْغُرَبَا
وَاخْبِرِيهِمْ كَيْفَ حَالِي بَعْدَهُمْ   لَــمْ أَزَلْ مِنْ بُعْدِهِمْ مُعَذَّبَا
كَمْ سَأَلْتُ الدَّهْرَ أَنْ يَجْمَعَنَا   مِــثْلَ مَــا كُنَّا عَلَيْهِ فَأَبَى

فوقفوا بين يديه ، وسألوه بيع الطعام ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن بنو الأنبياء ، قال : من أيِّ بلد أنتم ؟ قالوا : من كنعان ، قال : ما أسماؤكم ؟ فقالوا : فلان وفلان وفلان ، قال : انتسبوا ، قالوا : نحن أولاد يعقوب نبي الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، قال : فدخل القهرمان على يوسف عليه السلام ، وأعلمه بما قالوا له ، فقال : أيها الملك ، ورد قوم لطلب الميرة من بلد كنعان ، صفتهم كذا وكذا ، وحالهم كذا وكذا ، وأسماؤهم فلان وفلان حتى عد عشرة ،

وأبوهم فيما يزعمون أنه يعقوب نبي الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، وإن الجوع قد أثر في وجوههم ، والخصاصة بدت عليهم ، فهم في نهاية من تغير الألوان ونحول الأبدان ، فاهتز يوسف ﷺ عند سماع الخبر ، وبدا عليه من السرور أبين أثر ، وقيل في المعنى :

وَرَدَ الْبَشِيرُ مُبَشِّرًا بِقُدُومِكُمْ ... فَمُلِئْتُ مِنْ قَوْلِ الْبَشِيرِ سُرُورَا
تَاللَّهِ لَوْ قَنِعَ الْبَشِيرُ بِمُهْجَتِي ... لَبَذَلْتُهَا وَرَأَيْتُ ذَاكَ يَسِيرَا
أَوْ قَالَ : هَبْ لِي نَاظِرَيْكَ لَقُلْتُ هَا ... خُذْ نَاظِرَيَّ فَمَا طَلَبْتَ كَثِيرَا
مِنْ يَوْمِ أَوْحَشْتُمْ مَنَازِلَ أُنْسِكُمْ ... مَا زِلْتُ فِي قَيْدِ الْغَرَامِ أَسِيرَا
فَكَأَنَّنِي يَعْقُوبُ مِنْ فَرَحِي بِهِ ... إِذْ عَادَ مِنْ شَمِّ الْقَمِيصِ بَصِيرَا

فقال يوسف ﷺ للقهرمان : أنزلهم مترلاً حسناً ، وابعث إليهم بطعام كثير طيب ورفهم ترفهاً يجب لمثلهم ، فعجب القهرمان من ذلك ، وكان لا يفعل ذلك بأحد ، فخرج وأمر لهم بما أمر به يوسف ، فدخلوا دار الكرامة والتفضيل ، واشتد سرور يوسف ، وجعل يشكر مولاه على ما أنجزه وعده السالف له وهو في الجب ، وهو قول الله عز وجل : ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ** ﴾ [**يوسف**:١٥] ، فبات تلك الليلة بأغبط ليلة تكون ، فلما أصبح لبس أحسن ثيابه، وجلس على سرير ملكه ، وجعل علي وجهه برقعاً من الديباج يرى الناس من داخله ، ولا يرى هو من خارجه ، منظوماً باللؤلؤ والجوهر ، وأقام على يمينه ألف جارية بزينتهن وحليهن ، وعلى يساره كذلك بأيديهن أعمدة الذهب والفضة ، ثم أمر قواده أن يلبسوا دروعهم وأسلحتهم ، ويحضروا جموعهم وأجنادهم ، ففعلوا واصطفوا صفوفاً ركباناً عن يمين الكرسيِّ ويساره ، وأمر الرجال والغلمان أن يصطفوا حول الفرسان بأيديهم الحراب والمقامع ، وأظهر زينة لم ير قط مثلها عندهم ، فصاروا يتعجبون من ذلك ، ويسأل بعضهم بعضاً : ما بال الملك فعل اليوم ما لم يكن يفعله قبل ذلك ؟ ! وقيل في المعنى :

يَا سَائِلِينَ عَنِ الأَمْرِ الَّذِي أُمِرُوا ... كُفُّوا فَمَا عِنْدَكُمْ مِنْ قِصَّتِي خَبَرُ
بَيْنِي وَبَيْنَ أَحْبَائِي مُطَالَبَةٌ ... جَرَى بِهَا وَمَضَى يَا وَيْحَكُمْ قَدَرُ

الْيَــوْمَ يُــنْجِزُ لِي رَبِّي مَوَاعِدَهُ حَتَّى أَرَى كُلَّ مَا قَدْ كُنْتُ أَنْتَظِرُ
وَمُــدَّةُ الْــبَيْنِ قدْ فُلَّتْ كَتَائِبُهَا وَجُنْدُهَا بِحُسَامِ الْوَصْلِ قَدْ قُهِرُوا
وَلِــلْمَقَادِيرِ أَسْرَارٌ إِذَا ظَهَرَتْ تَعَجَّــبَ الْخَلْقُ مِنْهَا حِينَ تَنْتَشِرُ
وَكُــلُّ شَــيْءٍ لَهُ حَدٌّ سَيَبْلُغُهُ فَيَذْهَبُ الْكَرْبُ وَالْمَظْلُومُ يَنْتَصِرُ

ثم أمر بالصواع ، فأُحضر بين يديه ، وكانت عادته أنَّ مَن دخل عليه وعرفه قضى حاجته ، ومن لم يعرفه دعا بالصواع الذي ذكره الله عز وجل ، وكان إناءً من ذهب مرصع بأنواع الجواهر والدر والياقوت ، وكان الله تعالى أوصل إليه في ذلك الإناء علم الغيب يعرف به المخبآت ، فإذا دخل عليه من لا يعرفه نقر الإناء ، وأدناه إلى أذنه ، فيعرف بذلك صدق المتكلم وكذبه ، وكانت هذه العادة تعرف منه وتذكر بين الناس ، وكان يُكال بذلك الإناء الطعامُ لعظم قدر الطعام وقيمته عند الأنام ، فجيء بذلك الصُواع إليه ، فجعله في حجره ، ثم أذنَ لهم بالدخول ، فدخلوا عليه ، فعرَفهم وهم له منكرون ، وقيل في المعنى :

عَلَى الطُّلُولِ عَمِيدُ الْقَلْبِ مَطْلُولُ فَــوْقَ الْقَتَادِ بِسَيْفِ الْوَجْدِ مَقْتُولُ
لِــلَّهِ مَوْقِفُ عَدْلٍ فِي الْقَضَاءِ لَهُ مَشْــقٌ بِأَعْنَاقِــنا وَالسَّيْفُ مَسْلُولُ
أَحَــلَّ سُقْمِي بِمِيعَادِ الرَّجَا فَلَهَا قَلْــبِي يَــذُوبُ وَجَفْنِي فِيهِ مَبْلُولُ
إِذَا اجْتَمَعْنَا بِبُسْطِ الانْبِسَاطِ عَلَى وَادِي الوِدَادِ وَقَدْ قَالَ الْوَرَى : قُولُوا
تَقَــدَّمَ النَّاسُ لِلنَّجْوَى بِبُهْرُجِهِمْ فِــي مَوْقِــفٍ لَمْ تَجُزْ فِيهِ الأَبَاطِيلُ
وَعِــنْدَهُ تَقِفُ الأَلْبَابُ خَاضِعَةً وَعِــنْدَهُ لا يَجُــوزُ الْقَــالُ وَالْقِيلُ
فَــأَيْنَ أَنْتَ إِذَا جَازَتْ قَوَافِلُهُمْ وَأَنْتَ فِي مَلْعَبِ الإِعْرَاضِ مَرْحُولُ
حُــطَّ اللِّثَامَ عَنِ الأَيَّامِ وَارْمِ بِهَا فَالشِّــعْرُ يَــا ذَا لَــهُ وَجْهٌ وَتَأْوِيلُ
إِذَا كَسَرْتَ إِنَاءً وَهْوَ مَحْضُ إِنَا نَــادَاكَ مِــنْ سِدْرَةِ الأَنْوَارِ جِبْرِيلُ

فلما دخلوا رأوا ملكا عظيماً جليلاً ذا هيبة ، ونظروا إلى الرجال والفرسان والقهارمة والعبدان والجواري والوصائف والحلي والحلل والهيبة والخَوَل والأستار والكِلَل ، ورأوا ما لم يروه قبلُ ولا سمعوا به في الزمان ، فسلموا عليه بتحية الأنبياء

وقاموا وقوفاً ، وقد طأطئوا الأعناق ، وقد غضوا الأحداق ، ونكسوا الرءوس ؛ هذا ، ووجه الصديق غير معبوس ، لكن كان مبرقعاً ، ونجم السعد والبهاء عليه قد طلعا ، وكل يناظر ما يأمر به ويحكم فيه ، وجعل يوسف يطيل النظر إليهم ويتأملهم واحدا بعد واحد ، ويعرفهم بأسمائهم ، ويراهم من حيث لا يرونه ، وجعل يطيل النظر إليهم ، ويتشاغل عنهم ، وينظر إلى جهة أخرى ، ويكلم وزراءه بما يريد من أمره ولا يكلمهم ، فلما كان بعد ساعة ، قيل لهم : اعتزلوا حتى يفرغ الملك لكم ، فخرجوا إلى مواضعهم ، ولم يكلمهم بكلمة واحدة ، فبقُوا ثلاثة أيام لم يُؤذنْ لهم في الدخول ولا في الانصراف ، وكان كثيراً ما يسرع بصرف من يرد عليه لاحتياج الناس إلى ما بين يديه ، قال : فلما اعتزلوا وبقُوا ثلاثة أيام لا يُؤذن لهم وقعتِ التهمةُ عندهم ، وتشوشت خواطرهم من نظره إليهم أكثر مما كان ينظر إلى غيرهم ، فقال يهوذا : يا إخوتاه ، إن هذا الملك نظر إلينا نظراً لم ينظره إلى غيرنا ، فإما أن يكون نظره إلينا على جهة الغبطة لنبوة أبينا وانتسابنا إلى سلفنا ، وإما أن ينظر إلى هيئتنا وتجلدنا وقوتنا فيريدَ الإعانة بنا على عدو من أعدائه أو سد من ثغوره ، وإما أن يكون بلغه فعلنا بأخينا يوسف فيريدَ بنا الفضيحة والعار والعقوبة والدمار ، وهذا هو المصرع الذي كنتُ أخوِّفكم ، والموقف الذي كنتُ أحذرُكم ، فيا خجلتنا ، ويا سوء مقامنا ، وكانوا مع ذلك في مترل حسن ، وكرامة شاملة ، وضيافة متصلة لم يكرم بها غيرهم قبلهم ، وكانوا يغدون عليه ويروحون ، وهو يعرض عنهم ، ويظهر لهم التجهم ، فكانوا يتحيرون ويقولون : من العجب إكرامه لنا ، وتجهمه عنا إذا رآنا ، ويريدون مفاجأته في الكلام ، فإذا رأوه داخلتهم الهيبةُ ، ونازلهم الخجل فيصمتون ، وقيل في المعنى :

أُعَــدِّدُ أَشْــوَاقِي لِيَــوْمِ لِقَائِكُمْ ... لأَشْــكُو الَّــذي أَلْقَــاهُ مِنْ أَلَمِ الْوَجْدِ
فَحَــتَّى إِذَا عَايَنْــتُكُمْ أَوْ لَقِيتُكُمْ ... تَحَيَّــرْتُ حَــتَّى لا أُعِيــدُ وَلا أُبْدِي
فَيَــا عَجَبِي حَتَّى لِسَانِي يَخُونُنِي ... وَحَتَّى جُفُونِي فِي الْهَوَى نَقَضَتْ عَهْدِي
يُوَاصِــلُنِي حَــتَّى أَقُــولَ مَلَكْتُهُ ... وَيَهْجُــرُنِي حَــتَّى أَمَــلَّ مِــنَ الصَّدِّ
فَوَالــلَّهِ مَا طَابَتْ حَيَاتِيَ بَعْدَكُمْ ... تُــرَى أَنْــتُمْ طَابَتْ حَيَاتُكُمُ بَعْدِي ؟

فلبثوا على ذلك حيناً ، ثم أذنَ لهم بالدخول عليه يوماً من الأيام ، فدخلوا عليه فأكرم مجلسهم ، وجعل يسائلهم ، ويكلمهم بترجمان بينهم وبينه ؛ لئلا يفطنوا إليه

ويعرفوه ، وكان الصُّواع موضوعاً بين يديه ، وكان كلما يقول لهم الترجمان شيئاً ويجيبون عنه ، ينقر الصُّواع ويدنيه من أذنه ، ويُريهم أن الصُّواع يعرفه بصدقهم أو كذبهم ، إلى أن قال لهم الترجمان : إن الملك يقول لكم : أراكم ذوي قوة وهيبة ، أخبروني : مَنْ أنتم ؟ وما نسبكم ؟ ومن أي البلاد جئتُم ؟ فقالوا : نحن الأسباط أولاد يعقوب نبي الله ، ابن إسحق نبي الله وذبيحه ، ابن إبراهيم خليل الله ونبيه ، وأخبَرُوه بنسبهم وأحوالهم واعتقادهم وطاعتهم لإلههم ، فنقر الإناء نقرةً ، وأدناه من أذنه ، وأصغى إليه ، ثم قال : صدقتم في قولكم ، ثم قال لهم : هل لوالدكم ولد غيركم أو كان له قبلكم أو خلفتموه معه أو حاضر أو غائب عنكم ؟ فأجابوه إلى أن وصلوا إلى حديث بنيامين ويوسف ، فقالوا له : كان له ابن فقده ، ولا يُدرى أين صار أمره ، وله أخ شقيق أنس به بعده ، واستراح إليه في غيبته ، قال : فنقر الصواع نقرة حتى خرج طنيناً عالياً ثم قال لترجمانه : قل لهم : إن الصُّواع يخبرني أنكم تكذبون في هذا الواحد المفقود ، وإنكم تعرفون خبره ، قال : فتغيرتْ الألوان ، وتلجلجت الألسن ، وارتعدت الفرائص ، ثم قال لهم : وكيف كان سبب فقده حتى لم يُعلم حقيقة أمره ؟ فقال واحد : أكله الذئب ، وقال آخر : أسره العدو ، وقال آخر : غرق في البحر ، فهز يوسف رأسه ، ونظر إلى الأرض ، ثم رفع رأسه وقال : ماذا قال والده لما فقده ؟ وكيف حاله من بعده ؟ قالوا : هو لفقده باكي العين ، قريح القلب ، حليف الأسف ، لا يلتذ بهجوعه ، ولا يشرب إلا ماء دموعه ، وقد اعتزل الناس ، وهجر الخلان ، واتخذ لنفسه غاراً تحت الأرض ، ودخل فيه وبكى حتى ابيضت عيناه من البكاء ، وليس له ليل ولا نهار ، ولا نوم ولا قرار ، فتقلقل يوسف تقلقل الواجد عند سماع أخبار الوالد ، وقيل في المعنى :

أَعِنْدَكُمُ فِعْلٌ بِمَا فَعَلَ الْوَجْدُ ... بِهَيْمَانَ أَفْنَتْهُ الصَّبَابَةُ وَالْبُعْدُ
قَسَوْتُمْ عَلَيْهِ لا جُزِيتُمْ بِفِعْلِكُمْ ... وَقَدْ رَقَّ إِشْفَاقًا لَهُ الْحَجَرُ الصَّلْدُ
تَرَحَّلْتُمُ عَنْهُ وَشَقَّ مَزَارُكُمْ ... فَهَيْكَلُهُ مِثْلُ الْخَيَالِ إِذَا يَبْدُو
وَيَظْمَا إِلَى لُقْيَاكُمْ كُلَّ سَاعَةٍ ... وَلَيْسَ لَهُ إِلا مَدَامِعُهُ وِرْدُ
فَأَجْفَانُهُ كَالسُّحْبِ تَهْمِي صَبَابَةً ... وَأَضْلاعُهُ مِنْ لَفْحِ أَشْوَاقِهِ وَقْدُ
وَمِمَّا عَلاهُ مِنْ جَوًى وَصَبَابَةٍ ... وَطُولُ امْتِحَانٍ لا يُطَاقُ لَهُ رَدُّ

تُقَلْقِلُهُ الذِّكْرَى فَيَصْبُو إِلَيْكُمُ ... وَيَرْجُو تَدَانِيكُمْ وَإِنْ قَدُمَ الْعَهْدُ
عَسَى مَنْ قَضَى بِالْبَيْنِ يَجْمَعُ شَمْلَنَا ... وَيُدْنِي تَدَانِينَا وَإِنْ بَعُدَ الْبُعْدُ

قال : فنقر الصُواع ، وأدناه من أذنه ، ثم قال لترجمانه : قل لهم : أما ما ذكرتم من أنكم أنبياء ، فإني لا أرى عليكم أثراً ما ذكرتم ، إنما أنتم لصوص أو جواسيسُ لأحد الملوك المناوئين لنا ، بعثكم لتطلعوا على عوراتنا ، وتعلموا الغائب من أخبارنا ، وإذا رجعتُم إليهم جئتم بأمثالكم من أهل القوة والتجلد تقاتلونا في بلادنا ، وتدخلوا علينا الفتنة والقتال ، أما أنا فلا أخرجكم من سجني حتى أعلم خبركم حقيقة ، وأستيقن ما جئتم فيه وسببه ، فان الصُواع يخبرني بأمور كثيرة عنكم ، ويقول بضد ما قلتموه ؛ فلما سمعوا ذلك منه أظهروا الخضوع ، وسكبوا الدموع ، وقالوا : أيها الملك ، إنا نسألكَ بالذي بلغكَ هذه المنزلة ، وأكرمكَ وأنعم عليكَ وفضلكَ ، إلا ما نظرتَ بعين الحنان إلينا ، وسدلتَ ستر الأمان علينا ، وعجلتَ بتسريحنا وردنا إلى أبينا ، فإنه اليوم أعظم حقًّا عليكَ وعلى أهل الأرض ، وإن لم ترحمنا فارحم الشيخ يعقوبَ ، فإنكَ لو رأيتَ حاله ، وشاهدتَ ما ناله لأبكاكَ ، قد احدودب ظهره ، وابيضت عيناه ، وكابده الوهن والشيب قبل أوانه ، وقد توسلنا إليك به ، فلا تضيع وسيلتنا إليكَ ، ولا تخيب ظنوننا فيكَ ، وقيل في المعنى :

تَفَضَّلْ عَلَيْنَا أَيُّها الْمَلِكُ النَّدْبُ ... فَمَنْ خَلْفَنَا شَيْخٌ أَلَمَّ بِهِ الْكَرْبُ
فَلَوْ أبْصَرْتَهُ يَوْمًا إِذًا لَرحِمْتَهُ ... قَدِ ابْيَضَّتِ الْعَيْنانِ وَانْحَدَبَ الصُّلْبُ
تُقَلْقِلُهُ الأَشْوَاقُ وَالْبَيْنُ وَالأَسَى ... فَسَاعَاتُهُ نَحْبٌ وَأَيامُهُ نَدْبُ
تَغَيَّرَ حَتَّى مَا نَكَادُ نَبِينُهُ ... تَقَطَّعَتِ الأَحْشَاءُ وَانْصَدَعَ الْقَلْبُ
أَصَابَتْهُ عَيْنُ الدَّهْرِ في وَلَدٍ لَهُ ... فَلَيْسَ إِلَى خِلٍّ سِواهُ يُرَى يَصْبُو
وَقَدْ ظَنَّ فِيكَ الْخَيْرَ فَاصْدُقْهُ ظَنَّهُ ... وَأَوْزِعْهُ مِنْ رُحْماكَ يَرْحَمُكَ الرَّبُّ
عَلَيْكَ سَلامٌ عَنْبَرِيٌّ نَسِيمُهُ ... كَأَنَّ شَذَاهُ الْمِسْكُ وَالْمِنْدَلُ الرَّطْبُ

فقال لهم يوسف عليه السلام : أمَّا ما ذكرتم من حرمة أبيكم ، فإني لا أعلم اليوم على وجه الأرض أعظمَ منه حرمةً ، ولا أعلى قدراً ، ولا أوجب حقًّا منه ، فلو مشى

على ظهري مقبلاً ومدبراً ما قضيتُ حقه ولا أنكرتُ سبقه ، فأخبروني ما الذي أحزنه وهو نبي من الأنبياء ؟ أليست الجنة نُصْبَ عينيه يتأملها ويرجوها ، وقد أمَّنَهُ الله في عاقبته؟ فما الذي يحزنه بعد هذا ؟ ولعله من كثرة سفهكم عليه وعقوقكم المتواصل لديه ! فقالوا : كلا أيها الملك ، ما نحن سفهاء ولا عاقّون ، وما أتاه الحزن من جهتنا ولا يأتيه ، وإنما هو ما ذكرناه لكَ ، لما فقد أنيسه وحبيبه يوسفَ ، وكان أصغرنا سنًّا ، وأحبّنا إليه ، خرج معنا إلى المرعى ، فأكله الذئب ، قال : فما الذي حمل أباكم على أنه وجهكم جميعاً ، هلا حبس واحداً منكم ؟ فقالوا : أيها الملك ، إنا كنا اثني عشر ولداً ، فأكل الذئب الواحدَ ، وحبس الشيخ الولد الثاني ، وهو شقيق المفقود ليأنسَ به ، ويستريح إليه ، وهو أصغرنا سنًّا ، وأحبّنا للأب بعد أخيه ، فقال لهم يوسف : لولا أني أخشى أن تكونوا صادقين ، وآثم في حبسكم لحبستكم ولعذبتكم عذاباً شديداً ، ولكن إن كنتم صادقين ، فارجعوا إلى أبيكم ، وأقرئوه مني السلام ، وقولوا له : يكتب لي كتاباً يشرح لي فيه حاله ، ويخبرني ما الذي أكربه وأحزنه ؟ وما الذي أعمى بصره ؟ وائتوني بشرح هذا كله وبابنه الأصغر الذي زعمتُم أنه احتبسه ، فإني علمتُ أنه لم يمسكه إلا وهو أحبكم إليه ، وأعزكم عليه ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** ﴾ [يوسف:٥٩] ، فقالوا : أيها الملك ، إنا نرغب إليكَ في تعجيل سراحنا ، فإن أبانا يعول سبعين نفساً ، ونخاف أن يطول مُكثنا عندكَ ، فيُهلك الجوعُ مَنْ وراءنا ، فقال لهم : إن الصُّواع يخبرني أنكم إذا انصرفتم لا ترجعون إلا برسم المحاربة والقتال وقد قويتْ همتكم عندي كثيرا ، وكيف أسرحكم وأنا أخاف على رعيتي منكم ؟ فاخرجوا عني فلا سراحَ لكمً عندي ، فخرجوا وقد داخلهم اليأس ، ونازلهم الكرب ، وكثر البكاء ، وعز العزاء ، وأيقنوا بالاغتراب وفرقة الأحباب ، وقيل في المعنى :

عَذْلٌ وبَيْنٌ وَتَوْدِيعٌ وَمُرْتَحَلُ ... أَيُّ الدُّمُوعِ عَلَى ذَا لَيْسَ تَنْهَمِلُ
باللَّهِ مَا بَلَدِي مِنْ بُعْدِكُمْ بَلَدٌ ... وَلا اخْتِزَانُ دُمُوعِي بَعْدَكُمْ بَخَلُ
فَلا وَحُرْمَةِ مَا أَضْمَرْتَ فِي كَبِدِي ... قَلْبِـي لِلُقـيَاكَ مُشْـتَاقٌ وَمُنْدَمِلُ
وَدِدْتُ أَنَّ الْبِحَارَ السَّبْعَ لِي مَدَد ... وَمِنْ جُفُونِي مَيَازِيبٌ لَهَا عَمَلُ
وَإِنَّ لِي بَدلاً مِنْ كُلِّ جَارِحَةٍ ... فِـي كُـلِّ جَارِحَةٍ يَوْمَ اللِّقَا مُقَلُ

فبقُوا أياماً يتململون ، فقال لهم يهوذا : يا إخوتاه ، إن هذا الكرب لا يُزيله عنكم إلا تذللكم لهذا الملك ، ورجوعكم إليه ، فلعله أن يرحم صبيانكم ، وينظر بعين البصيرة إليكم ، قال : فرجعوا إليه ، وأظهروا التذلل ، وأخذوا في التضرع والتوسل إليه ، فقال لهم : أمَّا إني لا أترككم للمسير حتى تتركوا عندي واحداً منكم أو تعطوني عهودكم ومواثيقكم أن ترجعوا إليَّ برسالة أبيكم وأخيكم الأصغر المذكور ، فقال له يهوذا : أيها الملك ، نقترع فمَنْ أصابته القرعة تركناه عندكَ رهناً حتى نرجع من عند أبينا ، ونأتيكَ بما ذكرتَ لنا ، قال : نعم ، فاقترعوا ، فخرجتْ القرعة على شمعون الأصم ، وهو الذي خلع قميصه يوم ألقي في الجب ، وقيل في المعنى :

الْخَيْرُ مَصْنُوعٌ بِصَانِعِهِ ... فَمَتَى صَنَعْتَ الْخَيْرَ أَعْقَبَكَا
وَالشَّرُّ مَفْعُولٌ بِفَاعِلِهِ ... فَمَتَى فَعَلْتَ الشَّرَّ أَعْطَبَكَا

قال : فتركوه ، وأمر لهم يوسف بجهازهم وكيل طعامهم ، فلما حملوا دوابهم دخلوا عليه للوداع ، فقال ﴿ **وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** ﴾ [يوسف:٥٩] ، يقول : قد رأيتم كيف أضيف الضيفان وأكثر الإحسان ، ﴿ **فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ** ﴾ [يوسف:٦٠] أي لا حق لكم عندي ، ولا إذن لكم في دخول بلدي ، فلما شرط عليهم هذه الشرائط ، ووعدهم بهذا الوعد في المستقبل ، أجابوه بقوله عز وجل مخبراً عنهم : ﴿ **سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ** ﴾ [يوسف:٦١] ، قالوا : سنحتال في أخذه من أبيه ، لكننا نبذل في ذلك جهدنا ، وننفذ فيه وسعنا ، ونعلم أن هذا على أبينا شديد ، ولا يقدر على فراقه ؛ لأنه أنيسه بعد الأخ المفقود ، ولكننا لا نقصر أيها الملك في إنفاذ أمركَ ، فلما استوثق منهم ، وعلم أنهم لا يخلفونه وعده ، أمر فتيانه برد بضاعتهم إليهم ، وقال : اجعلوها في رحالهم من حيث لا يعلمون ولا تجعلوها كلها في حمل واحد ، بل اجعلوها مفرقة في الأحمال حتى لا يمكنهم جحدها ، فهو قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [يوسف:٦٢] قال : وزاد في إعطائهم ، وبالغ في الإحسان إليهم ، وقال : هذا يؤكد رجوعهم ؛

لأنهم قد رأوا إكرامي وإحساني وتفضلي إليهم وامتناني ، ولو أخذتُ بضاعتهم ربما لا يجدون شيئاً يرجعون به ، واعتذروا بالفقر وقلة ذات اليد ، فلما قضى ذلك كله ، وأرادوا المسير أمرَ بهم ، فأُدخلوا عليه ، وأقبل عليهم بكليته ، وأمرَ ترجمانه فقال لهم : إن الملك قد فعل معكم فعلاً جميلاً ، وأولاكم طَوْلاً جليلاً ، وإنه يودعكم ، ويقول لكم : أبلغوا سلامي لأبيكم ، فإذا أتيتموه فقولوا له : إنا سمعنا عن همكَ وغمكَ فعليكَ بالصبر الجميل ، فإن النصرَ مع الصبر ، واليسرَ مع العسر ، والله لطيف بعباده ، وقيل في المعنى :

يَا غَائِبِينَ وَعِنْدِي لانْتِزَاحِهِمُ ... مَا لَوْ تَحَمَّلَهُ شَهْلانُ لانْفَطَرَا
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَعْدَ غَيْبَتِكُمْ ... لَمْ أَمْنَحِ النَّاسَ سَمْعًا لا وَلا بَصَرَا
قَدْ كُنْتُ بِالأَمْسِ مَسْرُورًا بِرُؤْيَتِكُمْ ... وَالْيَوْمَ أَصْبَحْتُ لا أَدْرِي لَكُمْ خَبَرَا
قَدْ كُنْتُ أَسْتَبْطِئُ الإِمْسَاءَ عِنْدَكُمُ ... وَالآنَ بَعْدَكُمُ أَسْتَبْطِئُ السَّحَرَا
مَا حَالُ مَنْ لَمْ يَبِتْ يَوْمًا عَلَى ثِقَةٍ ... ظَنَّ الضَّرُورَةَ بَعْدَ الْبَيْنِ وَانْتَظَرَا
أَلا خَيَالٌ وَلَوْ فِي النَّوْمِ تَبْعَثُهُ ... وَالنَّجْمُ يُقْنِعُ مَنْ لا يُدْرِكُ الْقَمَرَا
هَذَا الْكِتَابُ إِلَيْكُمْ سَارَ مِنْ دَنِفٍ ... رُدُّوا الْجَوَابَ فَقَدْ أَصْبَحْتُ مُنْتَظِرَا

إخواني ، تلاشت قوة إخوة يوسف ، واضمحلت حجتهم لما عاينوا سلطانه وجلاله ، ونظروا ملكه وكماله ، فبعد الإدلال أصابهم الإذلال ، وبعد السرور واللهج اضطربت من خوف العقاب الأكباد والمهج ، كذلك يوم القيامة يجمع الله الرسل فيقول : ما أجبتم ؟ قالوا : لا علم لنا ، تتحير أفهامهم ، ويستحيل جوابهم وكلامهم ، فمن التحير ينسون جواب الأمم ، ويستقلون الوسائل والذمم ، فإذا كان هذا حال الرسل في القيامة ، فما يكون حال من فزع من كثرة ذنوبه من الندامة ؟ وقيل في المعنى :

يَا خَجْلَتِي مِنْهُ إِذَا جِئْتُهُ ... وَالْعَبْدُ مَطْلُوبٌ بِدَيْنٍ قَوِيمْ
وَلَيْسَ لِي عُذْرٌ وَلا حُجَّةٌ ... وَكَيْفَ وَالْفِعْلُ خَبِيثٌ ذَمِيمْ
إِنَّ الَّذِي يَطْلُبُنِي قَدْ دَرَى ... أَنِّي مُحْتَاجٌ فَقِيرٌ عَدِيمْ
وَلَسْتُ أَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ ... لأَنَّ مَوْلايَ بِحَالِي عَلِيمْ

وَحُكْمُهُ الْمُقْسِطُ لا يَقْتَضِي هَــلاكَ مِدْيَانٍ بِمِلْكِ الْغَرِيمْ

(حكاية) : يُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يجمع الله الخلائق في صعيد واحد يوم القيامة ، وتمد الأرض ، ويُزاد في سعتها كذا وكذا ، فبينما الخلائق وُقوف إذ سمعوا رءوسهم وجبة عظيمة ، فيرفعون رءوسهم ، وقد انشقت السماء الدنيا ، ونزل أهلها وهم أكثر عددا من أهل الأرضين بأضعافهم ، فيبتدرهم أهل الأرض ، ويقولون : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : جل ربنا ، وهو آت ، فيُحدقون بالخلائق ، ثم تنشق السماء الثانية ، وينزل أهلها ، وهم أكثر عدداً من أهل الأرض وأهل السماء الدنيا بأضعافهم ، ثم تبتدرهم الخلائق ، ويقولون : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : جل ربنا ، وهو آت ، ثم تنشق السماء الثالثة بأضعافهم ، فيبتدرهم الخلائق ، ويقولون : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : جل ربنا ، وهو آت ، فتنشق السموات سماءً بعد سماء ، وكل سماء يضعف أهلها على من قبلهم بأضعافهم ، حتى ينزل أهل السماء السابعة وهم أكثر عدداً من أهل السموات والأرض بأضعافهم ، لهم أصوات مختلفة ، وصور شتى ، يخرج من أفواههم لهب النار ، قال : فيبتدرهم الخلائق فيقولون : أفيكم ربنا ؟ فيقولون جل ربنا ، وهو آت ، وناهيك بانشقاق أجرام السموات الغليظات سمكُها ، الشديدات بناؤها ، وما يصيب القلوب من الذعر الشديد ، وعند سماع القرقعة وعظيم الأصوات ، وما يصيب القلوب والأجرام والصور والأجساد من كثرة الازدحام ، وقوة اللهيب والاضطرام ، وشدة الذهول والهُيام ، فعند ذلك يُكشف عن ساق ، وتطير القلوب ، وتشخص الأحداق ، وينادي منادي الملك الخلاق : يا أيها الناس ، ستعلمون اليوم مَن أصحاب الكرم ، أين الحامدون لله على كل حال ؟ فيقوم ناس قليل ، فينطلقون إلى الجنة بغير حساب ، ثم ينادي ثانية : أين الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ؟ فيقوم ناس قليل ، فينطلقون إلى الجنة بغير حساب ، ثم ينادي ثالثة : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، ومما رزقناهم ينفقون ؟ فيقوم ناس قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يخرج من النار ملَك أسودُ له عينان يبصر بهما ، ولسان يتكلم به ، يعلو الخلائق فيُنادي بصوت يسمعه القريب والبعيد : يا معشر الخلائق ، إني وُكلتُ اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، فيلتقطهم من الصفوف ، كما تلتقط الحمامة حَبَّ السمسم ، فيلقيهم في النار ، ثم

يخرج وينادي : إني وُكلتُ اليوم بمَنْ زعم أن مع الله إلهاً آخرَ ، فيلتقطهم من الصفوف ، كما تلتقط الحمامة حَبَّ السمسم ، فيلقيهم في النار ، ثم يخرج فيقول : إني وُكلتُ اليوم بالمصَوِّرين ، فإذا حصل هؤلاء فى النار عُلقت الموازين ، ونُشرت الدواوين ، ويتجلى الله عز وجل للفصل بين العباد ، وقيل فى المعنى :

هُنَاكَ لا شَيْءَ يُنْجِي مِنْ لَهِيبِ لَظى إلا إذَا كُنْـــتَ قَدْ قَدَّمْتَ إحْسَانَا
فَمَـــا اعْتِذَارُكَ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ إِذَا جِئْتَ الْمَلِيكَ الَّذي سَوَّاكَ إِنْسَانَا
وَقَـــالَ : أَيْنَ الَّذي بِالذَّنْبِ جاهرَنا عَمْـــدًا وَجَهْـــرًا وَإِسْرَارًا وَإعْلانَا
مُـــدُّوا لَهُ الصُّحْفَ كَيْ يَقْرَا جِنَايَتَهُ فَلِـــي عَلَـــيْهِ شُهُودٌ بِالَّذِي كَانَا

المجلس الثالث عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ من دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

الحمد لله الذي عقد أزرار ثوب الوجود بحكمة وإتقان ، خالق الخلائق وقاسم الأرزاق ، ومقدر رزق الكبير والصغير والرضيع والوضيع والمحروم والمجذوم لا عن وجوب واستحقاق ، بل هو الفعال لما يريد وما للخلق معترض على الخلائق ، مولج الليل المدلهم بسُدفة ظلمته في ضوء نهار ذي إشراف ، ومولج النهار بضيائه في بهجة ليل قد مُد من الظلمة رِواقاً فوق رِواق ، محيي قلوب العارفين المحبين ببليل عليل نسيم تنسيم رجاء الوصل والتلاق ، مضحك رياض روض بارق بريق المزن المنسكب من غمام دمع بلا آماق . فإذا خاطب الغيم الروض بصوت رعد زاجر وإبراق ، تكفكف دمع السحاب كدمع صب واله مشتاق ، وجاوبته الأبراق على أغضان دوحة مخضرة الأفنان والأوراق ، بصوت مطرب وشجو معرب يهيج المشتاقين والعشاق ، وتشققت كمائم الورد والنرجس عن معاقد أزرار وأطواق ، وقام خطيب البنفسج فوق منبره يخطب قائماً على ساق ، وهو ينشد :

الجَــوُّ يُغْضِــبُنَا حِينًا وَيُبْسِمُنَا ... حِيــنًا وَيُبْــدِلُ بالإظْلامِ إشْرَاقُ

والزَّهْـــرُ يَرْفُلُ فِي أَثْوَابِ حُلتِهِ ... شِــبْهَ المُوَلَّــهِ للأَحْبَابِ مُشْتَاقُ

فَانْظُرْ بَدَائِعَ مَا أَبْدَى بِحِكْمَتِه ... رَبُّ العِــبَادِ وَمَــنْ لِلْخَلْقِ رَزَّاقُ

تَرَى رَقَائِقَ زَهْرِ الرَّوْضِ شَاهِدَةٌ ... تَقْــرَا عَــلَيْهَا لَــهُ عَهْدٌ وَمِيثَاقُ

فَالغَيْثُ يَكْتُبُ والأَكْوَانُ أَسْطُرُهُ ... وَالوَابِــلاتُ لِمَــا تُمْلِيهِ أَوْرَاقُ

رَقَّ الــزُّجَاجُ وَرَقَّ المَاءُ فَاشْتَبَهَا ... فاشْرَبْ فَدَيْتُكَ رَاحَ الغَيْثِ رَقْرَاقُ

فسبحان من زين سماء قلوب المحبين بزهرات نجوم مكارم الأخلاق ، وطيب أنفاس نفس نفوسهم بحدائق حقائق التسليم في السر والإملاق ، وشهد لهم بمحبته في كتابه العزيز ، فقال وهو العزيز الخلاق : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ من دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، فعجز الصدر عن حصر فضائلهم وضاق ، أحمده حمد عبد سَكِرَ مِنْ حبه ، وحظي بدنوه

وقربه فتاه في ميدان السباق ، ورضي عنه مولاه لما غاب عن سواه فقربه من حضرته بألطاف وأشواق ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةَ مَنْ ذاق من شراب المحبة والتوحيد أعذبَ مذاق ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله المؤيد بالفطنة والعلم والتأييد في الحكم ، والممجد بالشفاعة في يوم التلاق ، صلى الله عليه وعلى آله الموفين بالعهد والميثاق ، صلاةً تدوم وتقوم ما أفلت ناصية الفلاة مناسم ركبان الرفاق ، وغنت على كراسيِّ الأغصان ذوات أطواق ، وسلم تسليماً كثيراً ، وقيل في المعنى :

إذَا طَلَعَــتْ شَمْسُ المَعَارِفِ أَشْرَقَتْ ... حَــنَادِسُ أعْضَائي وَطَابَ كَلامِي
وَإنْ دَارَ كَأْسُ الوَصْلِ قُمْتُ بِذِكْرِكُمْ ... عَلَــى مِنْــبَرِ المَعْنَى فَجَلَّ مَقَامِي
وَشَــيَّدْتُ بُنْــيانَ الثَّــنَاءِ عَلَــيْكُمُ ... فَــدَامَ أَمَــانِي ثُــمَّ زَادَ سَــقَامِي
وَزَخْرَفْــتُ جَنَّاتِ الوُصُولِ فَهَاكُمُ ... سِــنَامَ سَــنَاهَا فَــادْخُلُوا بِسَلامِ
وَنَادَيْــتُ أَرْبَــابَ القُلُوبِ إشَارَةً : ... عَلَــى رِسْلِكُمْ إنِّي رَمَيْتُ سِهَامِي
أَلا فَاشْــهَدُوا إنِّي سَكِرْتُ مِنَ السَّنَا ... بِكَــاسِ دَوَامٍ لا بِكَــاسِ مُــدَامِ
إذَا كَــانَ حَــدُّ الخَمْرِ سَبْعِينَ جَلْدَةً ... وَعَشْــراً فَحَــدُّ الحُبِّ أَلْفُ حُسَامِ

قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ من دُونِ اللَّه أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّه وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ** ﴾ ، اعلم أن للمحبة عشرة أسماء : **أولها** المنة ، **الثاني** المودة ، **الثالث** الخلة ، ثم المحبة ، ثم الشوق ، ثم التوق ، ثم العشق ، ثم الرمق ، ثم التراع ، ثم الصبابة ؛ أما المنة فهي ابتداء الملاحظة ؛ وأما المودة فهي ميل الطبع بالبعضية ؛ وأما المحبة فهي لذة في بعضها ومواضع الحقيقة دهش ؛ وأما التوق فهو توق النفس للمحبوب ؛ وأما الشوق فهو إرادة الرؤية ؛ وأما العشق فهو مجاوزة الحد في المحبة ؛ وأما الرمق فإنه ميل القلب كما أن الرمق ميل العين ، وأما التراع فهو قلع الشيء من أصله ، وأما الصبابة فهي ذهاب الشيء من محله . قيل لأحدهم : بأي شيء تعرف أن محبة المؤمن لله أشد من محبة الكافر للصنم ؟ قال بستة أشياء : **أحدها** أن الكافر إذا أصابته شدة تبرأ من معبوده . قوله تعالى : ﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا** ﴾ الآية [البقرة : ١٦٦] ، والمؤمن لا يُعرض عن الله في الشدائد والمحن ، قوله تعالى ﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا**

إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] . **الثاني** محبوب الكافر ومعبوده كثير ، ومحبوب المؤمن ومعبوده واحد ؛ فالكافر يتبرأ من معبوده يوم القيامة، والمؤمن لا يتبرأ من معبوده لا في الدنيا ولا في الآخرة . **الثالث** أن الكافر أظهر محبته لمعبوده بقربان نفسه ، والمؤمن كتم في نفسه محبة مولاه . **الرابع** أن محبة الكافر لمعبوده من جهة واحدة ، وهي حبه له ، ومعبوده لا يحب ولا يبغض ؛ لأنه جماد ، ومحبة المؤمن من وجهتين : يحبه مولاه ، ويحب هو مولاه ، قوله عز وجل **﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾** [المائدة : ٥٤] . **الخامس** أن معبود الكافر يغيب عنه ويحتجب ، ومعبود المؤمن معه في كل حال ، قوله تعالى : **﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾** [المجادلة : ٧] الآية . **السادس** أن معبود الكافر ومحبوبه يحمله معه وينقله ، ومعبود المؤمن ومحبوبه هو حامله وكافله ، قوله تعالى : **﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾** [الحديد : ٤] . والمحبة على لسان العالِم هي الإرادة ؛ لأنه ما أراد أحب ، وما أحب أراد . وقال قوم : المحبة صفة ، والإرادة صفة . وأما في اللغة فقال قوم : المحبة اسم لصفات المودة ؛ لأن العرب تقول لبياض الأسنان ونضارتها : حَبَبُ الأسنان ، وأما أهل التصوف فقالوا في المحبة أقوالاً يمنع من استيفائها مخافة التطويل ، وقد أفردتُ لها في كتابي المسمى بـــ "فائدة المتعلم وبُغية المتكلم" مجلساً يلقح ذوي الألباب سماعُهُ ، ويهيج القلوبَ استطلاعُهُ . وقال المحاسبي : المحبة ميلكَ إلى الشيءِ بكليتكَ ، ثم إيثاركَ له على نفسكَ ورُوحكَ ومالكَ ، ثم موافقتكَ له سرًّا وجهراً ، ثم اعترافكَ بتقصيركَ في حبه . قال الكتاني : وجرتْ مسألة في المحبة بمكة – شرَّفها الله تعالى – في أيام الموسم ، فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيدُ أصغرهم سنًّا ، فقالوا : هات ما عندكَ يا عراقي ، فأطرق برأسه ودمعتْ عيناه ، ثم قال : هو عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبَهُ أنوارُ هدايته ، وصفا شربه من كأس وده ، وكشف له الحقُّ عن أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن سكت فلله ، وإن نطق فمنَ الله ، وإن تحركَ فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو لله ، وبالله ، ومع الله ، فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين ، وقيل في المعنى :

لَئنْ كُنْتَ عَنِّي فِي العِيانِ مُغَيَّبًا   فَمَا أَنْتَ عَنْ قَلْبِي وَلُبِّي بِغَائِبِ
إِذَا اشْتَاقَتِ العَيْنَانِ مِنْكَ لِنَظْرَةٍ   تَمَثَّلَ لِي فِي القَلْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وقال أنس بن مالك ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثٌ مَنْ كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسوله أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه »(١) ذكره مسلم والنسائي . وقال أنس بن مالك ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « ما تحابَّ اثنان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لصاحبه »(٢) ذكره البزار . وقال أبو هريرة ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « زار رجل أخاً له في قرية فأرسل الله على مدرجته ملَكاً ، فلما أتى عليه قال له : أين تريد ؟ فقال : أريد زيارة أخ لي في هذه القرية ، فقال : فهل لكَ عليه من نعمة تَرُبُّها ؟ قال : لا ، غير أني أحببتُه في الله ، قال : فاني رسول الله إليكَ بأن الله قد أحبكَ كما أحببتَهُ فيه »(٣) ذكره مسلم . وقال أبو هريرة ﷺ : قال رسول الله ﷺ :« والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنون حتى تحابُّوا ، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشُوا السلام بينكم »(٤) ذكره أبو داود . وقال أبو هريرة ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله ، فذكر منهم : رجلانِ تحابَّا في الله ، اجتمعا على ذلك ، وافترقا عليه »(٥) ذكره البخاري . وقالَ معاذ بن جبل ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : وجبتْ محبتي للمتحابين فيَّ ، والمتجالسين فيَّ ، والمتباذلين فيَّ والمتزاورين فيَّ »(٦) ذكره مالك في مُوطئه . وقال أبو هريرة ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : أين المتحابون لجلالي ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي »(٧) ذكره مسلم . وقال معاذ بن جبل ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « قال

---

(١) أخرجه البخاري ١ / ١٤ ، ومسلم ١/ ٦٦.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧ / ١٨٠ ، ومعمر في الجامع ١١ / ٢٠٣ ، والطبراني في الأوسط ٣ / ١٩٢ ، والطيالسي في مسنده ١ / ٢٧٣.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٣ / ٤٣٦ ، وابن المبارك في الزهد ١ / ٢٤٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١ / ٧٤ ، والترمذي في سننه ٤ / ٦٦٤ ، وأبو داود في سننه ٤ / ٣٥٠ ، وابن ماجة في سننه ١ / ٢٦.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ١ / ٢٣٤ ، ومسلم في صحيحه ٢ / ٧١٥.

(٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢ / ٣٣٥ ، والحاكم في مستدركه ٤ / ١٣٦ ، والبيهقي في الكبرى ١٠ / ١٥ ، ومالك في الموطأ ٢ / ٩٥٣ ، وأحمد في المسند ٥ / ٢٣٣.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٩٨٨ ، وأحمد في المسند ٢ / ٢٣٧ ، ومالك في الموطأ ٢ / ٩٥٢ ، والدارمي في سننه ٢ / ٤٠٣.

تعالى : المتحابون لجلالي لهم منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء »[١] ذكره الترمذي . وقال أبو هريرة ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « إن من العباد عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء ، قيل : مَنْ هم يا رسول الله ؟ قال : هم قوم تحابُّوا برُوح الله على غير أموال ولا أنساب ، وجوههم من نور يحملون على منابرَ من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم تلا ﷺ : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[٢] ذكره النسائي . وقال أبو موسى الأشعري ﷺ : « أقبل رسول الله ﷺ على الناس بوجهه لما قضى صلاته ، فقال : أيها الناس ، اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عباداً ليسُوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداءُ على منازلهم وقربهم من الله تعالى ، قال : فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس ، وألوى بيده إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله ، ناس من أبناء الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله ، انعت حالهم لنا ، فسُرَّ وجه النبي ﷺ بسؤال الأعرابي ، فقال : هم ناس من أبناء الناس وأنواع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله ، وتصافحوا في الله ، فيضع الله لهم يوم القيامة منابرَ من نور ، فيحملهم عليها ، فيجعل ثيابهم نوراً ، يفزع الناس وهم لا يفزعون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، وقيل تخميساً :

لله مِنْ عُصْبَةٍ هَامُوا بِحُبِّهِمُ — وَأَفْرَدُوني وَقَدْ فَازُوا بِقُرْبِهِمُ
فَقُلْتُ والشَّوْقُ قَدْ أَوْدَى بِحُزْنِهِمُ — يَا سَاقِيَ القَوْمِ مِنْ أَسْرَارِ رَبِّهِمُ
كَأْسَ السُّرُورِ أَمَا لي بَيْنَهُمْ قَدَحُ

عِندي وَعَيْشِكَ للأَسْرَارِ مَزْرَعَةٌ — بَيْنَ الضُّلوعِ وللأَسْقَامِ مَدْرَعَةُ
وَلِلهَوَى إنْ سَطَا سَيْفٌ ومَقْمَعَةٌ — كَرِّرْ عَلَيَّ اسْمَهُ فالكَاسُ مُتْرَعَةُ
بِخَمْرَةِ الرُّوحِ عَلَّ الهَمِّ يَنْتَزِحُ

وأَطْلِعِ الآنَ بَدْرًا كَانَ مُغْتَرِبًا — وأَظْهِرِ اليَوْمَ سِرًّا كَانَ مُحْتَجِبَا

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤ / ٥٩٧.
(٢) أخرجه النسائي في الكبرى ٣ / ٤٦٠.

وَغَنِّ يا بُلْبُلَ البَلْبَالِ مُحْتَسِبًا وَعَلِّلِ الصَّبَّ إنَّ الصَّبَّ قَدْ طَرِبَا
وَخُذْ ثِيابِي فَإِنِّي اليَوْمَ مُصْطَبِحُ
مَتَى أُبَلَّغُ أَسْبَابِي بِلا سَبَبِ مَتَى أُشَاهِدُ مَحْبُوبِي بِلا حُجُبِ
مَتَى أَكُونُ مَعَ الأَشْوَاقِ فِي غَلَبِ مَـــتَى أَتِيهُ عَنِ الأَكْوَانِ بِالقُرُبِ
مَتَى أَكُونُ بِدَعْوَى الحُبِّ أُفْتَضَحُ
مَتَى أَفُوزُ بِيَومٍ مِنْكَ يُطْرِبُنِي مَتَى أُشَاهِدُ وَجْهًا مِنْكَ يُعْجِبُنِي
مَتَى أَرَى السُّكْرَ بَيْنَ النَّاسِ يَغْلِبُنِي أَصَاحِ بِعْنِي وَخُذْ ثَوْبِي بِلا ثَمَنِ
إِذَا رَأَتْ مُقْلِتِي مَنْ كُنْتُ أَقْتَرِحُ

واعلم أن أربعاً من النساء أحببنَ أربعة ، فوجدن بذلك المغفرة : **أولهن** خديجة أحبتِ رسول الله ﷺ ، فوجدت بذلك القربة والإسلام والنجاة من عبادة الأصنام ، فعصت عليه عذالها ، وأنفقت عليه مالها ، وكانت أول من أسلم من نساء عصرها ، وبشرها المَلَكُ بقصرها ، قال أبو هريرة ﷺ : « أتى جبريل إلى النبي ﷺ فقال : هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام وطعام ، فإذا أتتكَ فاقرأ عليها السلام من ربها ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » . وقالت عائشة ﷺ : « ما غِرْتُ على واحدة من نساء النبي ﷺ ما غرتُ على خديجةَ ، وما رأيتُها ولكن كان رسول الله ﷺ يُكثر من ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ، ثم يبعثها في صدائق خديجةَ رضي الله عنها إلى الذين كانوا أصحاباً لها ، فلربما قلتُ له : كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ، فيقول : إنها كانت وكانت ، وكان لي منها ولدٌ » ذكره مسلم . وقالت عائشة رضي الله عنها : « دخلتْ عجوز يوماً على رسول الله ﷺ فقال : مَنْ أنت ؟ قالت : حثامة المزنية ، فقال : بل أنت حسانة المزنية ، كيف حالكم ؟ كيف بكم بعدنا ؟ فقالت : بخير ، بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله ، قالت : فلما خرجتْ ، قلتُ : على مثل هذه العجوز تُقبل هذا الإقبال ، وتسأل هذا السؤال ؟ فقال : يا عائشة ، إنها كانت تأتينا في أيام خديجة وحسن العهد من الإيمان »[1] ذكره مسلم . وتزوجها النبي ﷺ

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ١ / ٦٢ .

وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وقيل ابن إحدى وعشرين سنة وماتت قبل هجرته بثلاث سنين . قال ابن عباس : كان لنساء قريش عيد في الجاهلية يجتمعن فيه في المسجد ، فاجتمعن في عيد ، وإذا يهودي قد وقف عليهن وقال : يا معشر النسوة ، إنه قد جاء وقت بعث نبي كريم ،فأيتكن استطاعت أن تكون له أرضاً يطؤها فلتفعل ، قال ، فلُمنه وطردنه ، وكانت خديجة حاضرة ، فوقع ذلك القول في نفسها ، وكانت قريش قوماً تجاراً ، وكانت خديجة تستأجر الرجال الأمناء في مالها ، فسمعت برسول الله ﷺ وأمانته وصدق حديثه وكرم أخلاقه ، فبعثت إليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطيه لغيره من التجار ، فقبل ذلك منها رسول الله ﷺ وخرج بمالها مع غلام لها يُسمى ميسرة نحو الشام تجاراً ، فلما سمعت برجوعهم وقفولهم قعدت تنتظرهم ، وذلك في يوم صائف ، فاطلع رجل من العقبة والسماء ليس فيها سحاب إلا قدر ما يظل ذلك الرجل ، وكانت فى مشرفة عالية وهي تنظر ، فقالت : إن كان ما قال اليهودي حقًّا فما هو إلا هذا ، فرمقته بعينها ، والعناية بذلك تبصرها حتى قرب منها ، وإذا هو رسول الله ﷺ فسألت ميسرة عنه ، فأخبرها بما رآه في سفره من كراماته ومعجزاته ، وذلك أنهم مروا بطريقهم على راهب يقال له "نسطورا" في صومعته ببصرى من أرض الشام ، وكان الناس يترلون بإزاء الصومعة فلا يخرج إليهم فلما نزلوا ورسول الله ﷺ معهم نزل تحت ظل شجرة ، فأطلع الراهب رأسه من صومعته ونادى يا ميسرة ، وكان يعرفه : من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ فقال : هو رجل من قريش من أهل الحرم ، قال : أو في عينيه حمرة لا تفارقه ؟ قال : نعم ، فقال : هو هو نبي هذه الأمة ، والله ، ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي ، فيا ليتني أدركه حين يؤمر بالخروج ، فأخبرها ميسرة بذلك ، وما شاهد من ظل الغمامة ، فعند ذلك أرسلتْ خديجة إلى النبي ﷺ ، فلما دخل عليها سألتْه عما كان في سفرهما هو وميسرة ، ثم قالت له : يا محمد ، مالكَ لا تتزوج ؟ قال : ومَن ؟ قالت : أنا ، قال : أنت كبيرة قريش ، فقالت : اخطبني ، فخرج من عندها ، وأتى عمه أبا طالب ، فأَخبره بما شاهد فى سفره ، ثم قال : يا عم ، اخطُبْ لي خديجة ، فقال : يا بني ، أخاف أن لا يفعلوا ، ثم لقي أبو طالب عمها ورقةَ بنَ نوفل ، وذكر ذلك له ، فقال : حتى أنظر ، فلقيها عمُّها ، فذكر ذلك لها ، وذكر مَنْ يخطبها من كبراء قريش ، فقال : إن فلاناً يرغب فيك ، فقالت : شيخ كبير سنُّه ، وساءت أخلاقه يدلُّ عليَّ بماله لا حاجة لي فيه ، قالَ : وفلان ، وذكر شابًّا من قريش كثيرَ المال ،

فقالت : شاب صغير سنه ، سفيه عقله ، لا حاجة لي فيه ، قال : وما تقولين في محمد بن عبد الله ؟ فلما سمعت بما في خاطرها والغرض ، وهل لرسول الله ﷺ من عوض ؟ قالت : هو أوسط ، أي أعلى قريش حسباً ، وأحسنهم وجهاً وأفصحهم لساناً ، وأطيبهم خلقاً ، أعود عليه بمالي ، ويكون طوع يدي ، فخشي الشيخ عمها إن لم يزوجها أن تزوج نفسها ، فبعث إلى النبي ﷺ وزوجه بها ، فرضي الله عن خديجة وأرضاها ، ما أحسن فراستها ، وقيل في المعنى :

صِفُوا لي حَبِيًا قَدْ وَهَبْتُ لهُ كسبي فَأَحْلَلْتُهُ صَدْرِي وَأَسْكَنْتُهُ قَلْبي
فَإِنْ تَعْذِلُوا فالعَذْلُ لَيسَ بِنَافِعٍ وإِنْ تَعْتِبُونِي لا يَحِلُّ لَكُمْ عَتْبي
وَمَاذَا وَمَاذَا أَنْ تَقُولُوا وآمِرِي إِذَا ما مَشَى فِي الطُّرْقِ ظُلِّلَ بالسُّحْبِ
وَيَقْبِسُ بَدْرُ الأُفْقِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ ضِيَاءً يَعُمُّ الأَرْضَ فِي الشَّرْقِ والغَرْبِ
وَتَنْفَجِرُ الأَنْهَارُ بَيْنَ بَنَانِهِ بِمَاءٍ لَذِيذٍ بَارِدٍ طَيِّبٍ عَذْبِ
وَإِنْ تَفْخَرِ الأَفْخَارُ يَوْمًا بِسُؤْدُدٍ وَنَيْلٍ فَهَذَا سَيِّدُ العُجْمِ والعُرْبِ
وَهَبْتُ لهُ نَفْسِي ومَا مَلَكتْ يَدِي فإِنْ كَانَ يَرْضَانِي فَذَلِكُمْ حَسْبِي
عَلَيْهِ سَلَامٌ عَنْبَرِيٌّ نَسِيمُهُ يَضُوعُ كَنَشْرِ العُودِ والمَنْدَلِ الرَّطْبِ

قال : **والثانية** آسية بنت مزاحم أحبت موسى الكليم فأوردها جنات النعيم ، وبنى لها بيتاً في الجنة ، وأعظم عليها المنة . قيل : إن موسى عليه السلام لما وضعته أمه خافت عليه ، وما علمتْ أن العناية الربانية تحوط منْ خلفه ومن بين يديه ، ألقته من بطنها ، وعظم عليها من جهة ولدها حزنها ، والذباحون من قبل فرعون على الباب لاذت بالمسبب ، ونبذت الأسباب ، فدخلوا عليها للطلب ، فرمته في التنور رميَ الحطب ، فلما خرجوا ولم يروه عادت إليه . إذا النار بقدرة المولى لم تعد عليه ، فكانت سلامته نقداً لأجله ، وبلغ قلب أمه أقصى أمله ، ثم ألهمها الرب الجليل رميه في النيل ، فخرجتْ إلى نجار تطلب منه تابوتا من خشب ، فقال : وما تصنعين به ؟ فكرهت أن تكذب ، فقالت : وضعتُ ولداً ، وخفتُ عليه من فرعون ، وأريد رميه في النيل ، وضمن لها ربها العون والصون ، فأعطاها التابوت ، وقفا أثرها إلى مترلها ، ثم سار إلى الذباحين ليخبرهم بها ، فلما وصل إليهم حبس الله عن النطق لسانه ، فصار يشير إليهم ، ولا يفقهون كلامه ، فقال : اللهم ، إن

كان هذا النبي هو الذي يخافه فرعون ، فأطلق لساني ولا أخبرهم بإعلامي ، فأطلق الله لسانه ليريه مترلي موسى وبرهانه ، فعاد إلى الذباحين ليفشي الأسرار ، فحبس الله لسانه ثانياً ، فدعا كدعائه الأول مبتهلاً ، فأطلق الله تعالى لسانه ، فعاد إلى الذباحين ملتزماً عدوانه : وفعل ذلك ثلاث مرات ، والحنان المنان يحبس اللسان ، ثم يطلقه كما كان ، فلما كانت الرابعة سار إلى الذباحين وهو من الظالمين ، فإذا هم لم يفهموا كلامه وقد أعياهم ضربوه ضرباً وجيعاً حتى عاد صريعاً ، فلما خلص من أيديهم دعا الله تعالى كدعائه الأول وإليه ابتهل وبموسى توسل ، فأطلق الله سبحانه وتعالى لسانه وعليه تفضل ، فحينئذ رجع إلى أم موسى ليؤمن بالمولى ، فقال لها : أريني ولدكِ الذي تخافين عليه ، فإن الله حفظه من خلفه ومن بين يديه ، وقيل في المعنى :

أبالكَيْدِ تَبْغِي مَنْ خَصَصْنَاهُ بالأَيْدِ ... وَتُخبِرُ بالسِّرِّ المَصُونِ أُولِي الجُنْدِ
وَمَا ضَرَّ مَنْ تَبْغِيهِ مَنْ أَنْتَ فَاعِلٌ ... وَكَيْفَ وَمُوسَى قَدْ خَصَصْنَاهُ بالأَيْدِ
لِسَانُكَ مَحْبُوسٌ عَنِ النُّطْقِ كُلِّه ... فَأَنْتَ الُمجَازِي فِي النَّصِيحَةِ بِالرَّدِّ
وَلَحْظُكَ مَصْرُوفٌ وفعْلُكَ عَائِدٌ ... عَلَيْكَ فَلا يُغْنِي لَدَيْكَ وَلا يُجْدِي
لَوْ أنَّ جَمِيعَ العَالَمِينَ بِأَسْرِهِمْ ... يَرُومُونَ إخْفَاءَ الذي شِئْتَ أنْ تُبْدِي
لِمَا قَدَرُوا فَارْجِعْ سَلِيمًا فَإِنَّمَا ... مُرَادِيَ أنْ أُدْنِيكَ مِنِّي يَا عَبْدِي
فَسَلِّمْ لأَحْكَامِي وَسَلْنِي تَفَضّلاً ... فَحَاجَاتُ هَذَا الخَلْقِ أَجْمَعُهُمْ عِنْدِي

قال : فألقته أمه في اليم بأمر من فضله سبحانه تم وعمَّ ، فساقته المياهُ إلى الساحل بقدرة الملك العادل إلى منظرة زوجة فرعون آسية ، وكانت على الماء عالية، فلما أبصرته رفعته ، فلما فتحت عنه أبصرته، ورأت وجهاً دونه الهلال، وقد لبس حلة الدلال ، فألقى الله حبه في قلبها وفي قلب فرعون زوجها ، وعرضته على المراضع ، فلم يقبلها ؛ لأن فاه قد خُتم عليه بقُفل﴿ **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ** ﴾ [القصص:١٢] ، إلى أن سلم إلى من شفها تسليه من فراقه ، وقيل لها : هذا وعدنا السالف لك بتلاقه، يا من يئست من عناقه ، اسمعي خطاب الكرم ، كيف تخافين عليه وقد حفظناه في القدم ، وقَدرنا أنه يكون رسولاً وكليماً وصفيًّا مقبولاً ﴿ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَى**

أُمِّه ﴾ [القصص : ١٢] ، وبذلك قد وعدنا ، وحاشا كرمنا أن يخيب من قصدنا ، ولما فطمته أمه من الرضاع ساقته لآسية الحنون المطاع ، فسُرَّت به وضمته إلى صدرها ، وقبلت بين عينيه ، وأدخلته على فرعون ، فأجلسته فى حجره ، وأقبل عليه ، فأغفله الكليم ، وأدخل يده فى غصن من أغصان لحيته ، وجذب الغصن فخرج الغصن في يده ، فسال الدم في حجره ، فغضب فرعون اللعين ، وقال : عليَّ بالذباحين ، هذا الذى خُوِّفْتُ منه فلا أرجع عنه ، فجعلت آسية تتطارح ، وتقول ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [القصص : ٩]، وإن حدث منه ما تكره فلُمني ، ثم قالت : هو صغير لا عقل له كغيره من صغار الصبيان ، وإن شئت أريتك البرهان ، اجعل بين يديه تمرة وجمرة ، وقيل : جوهرة وجمرة ، فإن أخذ التمرة فاقتلْه ، فعقله معه ، ولا تسمعْ مني مرة ، وإن أخذ الجمرة وترك التمرة فدعه واقبل عذره ، ولا تُؤذ منه شعرة ، ثم دعت فى سرها مولاها بأن يُنيلها مناها ، وكان فرعون لا يأخذ أَحدا ببرهان ودليل وتبيان ، فأمر بالتمرة والجمرة فجُعلتا بين يدي موسى ، فبادر موسى إلى التمرة ومد إليها يده ، فضجت الملائكة المشفقون إلى الله تعالى ، فأرسل سبحانه فى الحال جبريل فحجب التمرة بجناحه ، وذلك قوته وشأنه ، فأخذ موسى الجمرة ، فأهوى إلى فيه ، فاحترق لسانه فبكى ، فعند ذلك سكن غيظ فرعون وزال ، ولم يعلم المفتون بأن ذلك بقدرة الكبير المتعال ، وعجبٌ وأي عجب لجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، ويحترق بالجمرة لسان موسى الكليم ، والخليل أعرض عن الأشياء كلها حتى عن جبريل ، وأتكل الأمر على الجليل ، ونادى ربه بلا واسطة ، فأراه لطفه فى الحال بلا واسطة، والكليم عند فرعون اللئيم كان صغيراً رباه ، فربما جرى على لسانه مرةً أبي ومرةً أمي ، فسُلطت عليه النار لذكره غير مولاه ، وقيل : لو لم يحس بألم النار ويبك منه لأنكر عليه فرعون ، ووجدها منقبة عنه ، وتحقق أنه هو الذى يُؤخذ بسببه ، ولَكن مولاه آلمه ليصرف المحنة عن قلبه ، ولم يجعلها برداً كما جعلها على خليله ، حكمة منه ورفعة لرسوله ، وبما نادى موسى يوماً لفرعون : يا رارا ، وهذه الكلمة بالعبرانية : يا بابا ؛ فلهذا لسانه احترق ، وظهر عليه القلق ، ألا ترى يده لم تحترق وقت أخذه الجمرة ؛ لأنها كانت فى مقام المجاهدة ، وأخذ بها يوما لحية فرعون ونتف شعره ، ولطم بها يوماً وجهه ، فحُم ثلاثة أيام من تلك الضربة ، وجرت قصة التمرة والجمرة ، وقيل : يا موسى ، إزالة الفطنة أزالتْ عنكَ المحنة ، قد

عُصمت يدُكَ من النار ؛ لأنها جاهدت أعداءنا الكفار﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [**العنكبوت : ٦٩**] ، وجُوزي اللسان بإحراقه ؛ لأنه ذكر مَنْ جرى القلم بإغراقه ، ولم تحترق شفتاه حين أدخل الجمرة في فيه ؛ لأن اللسان ملك الكلام ، وقد ذكر مَنْ جرى القدر بإغراقه ، فكانت العقوبة له ، وعُصمت الشفتان، والشفتان بمنزلة البواب ، والبواب ليس عليه عتاب ، وقيل في المعنى :

إنَّـــا نَغَـــارُ مِنَ المَحْبُوبِ إنْ ذَكَرَا ... غَيْـــرًا وَنَلْحَظُهُ إنْ غَابَ أَوْ حَضَرَا

وفِـــي العُقُوبَـــةِ تَهْدِيـــدٌ يُطَهِّـــرُهُ ... مِنْ كُلِّ وَصْفٍ دَنِيءٍ جَلَّ أَوْ صَغرَا

والمَـــنْدَلُ الرَّطْبُ لَوْلا النَّارُ تُحْرِقُهُ ... مَـــا اسْتَنْشَقَ النَّاسُ عَرْفاً فيه مُنْتَشِرَا

هَذي يَمِينُكَ مِنْ نَارِ الغَضَا سَلِمَتْ ... لأنَّهَـــا جَـــاهَدَتْ عَـــبْدًا بِنَا كَفَرَا

وَرُبَّمَـــا قُـــلْتَ يَوْمًا بِاللِّسَانِ : أَبي ... فَعُوقِـــبَ العُضْوُ فيمَا مِنْهُ قَدْ صَدَرَا

أَنْـــتَ الكَلِـــيمُ لِذِي المَوْلَى يُكَلِّمُهُ ... بِـــلا لِسَـــانٍ فَكُـــنْ لِلْوَعْدِ مُنْتَظِرَا

وَفِـــي الشَّـــدَائِدِ أَشْـــيَاءٌ مُكَـــتَّمَةٌ ... بِهَـــا يَعُـــودُ خَفِيُّ اللُّطْفِ مُشْتَهِرَا

ثُـــمَّ الصَّـــلاةُ عَلَى المُخْتارِ سَيِدِنَا ... طَـــهَ وَمُوسَى وَعِيسَى ضِعْفُهُ عَشَرَا

قال : **والثالثة** بلقيس ، أحبت سليمان ﷺ ، فكان حبها إياه سبباً لدخولها في الإسلام ، وكانت تعبد الشمس من دون الخالق حتى بانت لها الحقائق ، ووصل الهدهد بالكتاب فتبين الحق والصواب ؛ لأنها رأت كتاباً مختوماً وأمراً محتوماً ولفظاً عجيباً وحالاً غريباً ، فصاح فصيح فهمها في نادي علمها : ﴿ **إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ، إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ [النمل: ٢٨، ٢٩] ، وقيل في المعنى :

بَعَثْتُ هُدْهُدَ سِرِّي فِي طِلابِكُمُ ... وَقُلْتُ هَلْ لَكَ مِنْ عِلْمٍ بِأَحْبَابِي

فَقَـــالَ : إِنَّهُمُ قَدْ عُوِّضُوا بَدَلاً ... وَلَـــمْ يَـــرِقُّوا لآلامِي وَأَوْصَابِي

يا غَائِبِينَ وَرَبْعُ الصَّدْرِ مَسْكَنُهُم ... لَمْ تَقْطَعُوا عَنَّنَا وَصْلِي وَأَسْبَابِي

رِقُّـــوا لِصَـــبِّكُمُ مُنُّوا بِكُتْبِكُم ... سَـــمَاعُ عَتْـــبِكُمُ أُنْسِي وَآرَابِي

كَــأَنَّ قَلْبِي إِذَا مَا مَرَّ ذِكْرُكُمُ ... فَرِيسَــةٌ مَسَّــهَا ذِئْبٌ بِأَنْيَابِ

قال : فاستشارت قومها بسؤال ﴿ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ [النمل : ٣٢] ، فأشاروا إلى المحاربة برمز ﴿ نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [النمل : ٣٣] ، فما على هذا مزيد ، فقالت : إن من جنده البر والبحر ؛ لا يقاتل بالجنود ، والحسود لا يسود ، فرجعت إلى رأيها والعناية تبصرها ، فبعثتْ إليه بالهدية طمعاً أن يَقبلَها ويسكتَ عنها ، فصاح لسان العز : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ [النمل : ٣٦] ، حاشاه أن يشبه بغيره من الحكام الظَّلَمَة الذين يقبلون الرشوة أولي الضلال ، فجرد صارم العزيمة عن وعيد ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ [النمل : ٣٧] ، فلما صح ما يدعو إليه عندها ، وثبتْ على أقدام الطلب ، واستسلمت لعزيمة الإسلام ذوي العز والرتب ، وهيأت مراكب القصد ، وتزودت لسفر الوصل ، فلما وصلت وسَلَّمَتْ ، أسلمتْ فسَلِمَتْ ، وحلت نطاق النطق في الكتاب المبين : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] ، وقيل في المعنى :

سَــأَتْرُكُ أَقْوامِــي وَأَنْــبُذُ أَعْلامِــي ... وَأَهْجُــرُ أَصْــنَامِي وَأُظْهِرُ إِسْلامِي
وَأَبْــرأُ مِــنْ مُلْكِــي وَسَلْكِي وَبَزَّتِي ... عســى خَالِقُ الأَجْرَامِ يَغْفِرُ إِجْرَامِي
ولمــا بــدت للقلــب شمسُ هدايتي ... أَزَالَتْ صَدَى صَدْرِي وَظُلْمَةَ أَوْهَامِي
وَلَــمْ أَلْتفــتْ شَــمْسَ النَّهَارِ لأَنَّها ... بغَيبــتها حُــقَّ الــبَقَاءُ لِعَــلامِ
فَوَحَّــدْتُ رَبِــي مَــعْ سُلَيْمَانَ عَلَّني ... أُبَــوَّءُ بِالتَّوْحِــيدِ مَــنْزِلَ إِكْرَامِي
صَــلاةً وَتَسْــلِيمًا وَأَزْكَــى تَحِــيَّةٍ ... عَلَى المُصْطَفَى المَبْعُوثِ لِلْخَلْقِ رَحَّامِ

قال : **والرابعة** زليخا ، وأحبت يوسف الصديق ، فبانت لها أبواب التحقيق ، ورُدَّ عليها البصر والشباب ، وانتزاح الخطأ وإتيان الصواب ، وكانت قصة زليخا بين مشْي إخوة يوسف ورجوعهم إليه بأخيهم ؛ وذلك أن الله تعالى سلط على أموال زليخا الفناء ، ومات العزيز ، وافتقرت فقراً شديداً ، وذهب بصرها ، وصارت تسأل الناس ، وهذا من آفات الدنيا ، من اغتر بها ندمان ، ومن وثق بها خجلان ،

فقيل لها : لو تعرضت للصديق لرحمك وأعطاك شيئاً عن الناس يقيك ، ثم قيل لها : لا تفعلي ، فربما يذكر ما كان منكَ إليه من المراودة وطول السجن والمخالفة ، فيسيء إليك ويعاقبك ، فقالت : هيهات ، أنا أعلم بحبيبي منكم ، إن مِنْ خلقه الصفحَ والاحتمالَ والفضيلةَ والابتهالَ ، ثم نهضت حتى جلست على ربوة بطريقه ، وكان ليوسفَ يومٌ يركب فيه في كل أسبوع ، وكان يركب معه في كل موضع موكب من عظماء قومه ووزرائه وأرباب دولته نحو مائة ألف ، فلما أقبل يوسف وأحست به قامت ونادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل العبيد ملوكاً بالطاعة ، وجعل الملوك عبيداً بالمعصية ، فأمسك العنان ، ونظر إليها وهي واقفة في ذلك المكان ، فقال : من أنت ؟ قالت : أنا التي كنت أخدمكَ دهراً على صدر قدميَّ ، وأُرَجِّلُ جمتكَ بيديَّ ، وأبذل في خدمتكَ جهدي ، وكان مني ما كان في ذلك الزمان ، فقد ذقتُ وباله ولقيتُ نكاله ، وذهب مالي ، وتغيرت كما ترى أحوالي ، وفقدتُ بصري ، وتبين كما ترى ضرري ، وصرتُ أسأل الناس ؛ فمنهم مَنْ يرحمني ، ومنهم من يعرض عني ، وهذا جزاء مَنْ خالف مولاه واتبع هواه ، وقيل في المعنى : تخميساً :

أيَــا سَــيِّدًا كُلَّ المَحَاسِنِ قَدْ حَوَى وَمَــنْ هَجْرُهُ دَوًا ومَنْ وَصْلُهُ دَوَا
وَمَــنْ بُعْــدُهُ سُــقْمٌ وَمَنْ قُرْبُهُ قُوَى أَتَتْرُكُ مَنْ يَهْوَاكَ فِي مَعْرِكِ النَّوَى
وَتَمْنَعُ وِرْدَ الوَصْلِ وَهْوَ مُبَاحُ
فَــلَوْ سَــمِعَتْ أُذْنَــاكَ فِي اللَّيْلِ أَنَّتِي لَــرَقَّتْ لِمَا بِي مِنْ هَوَاكَ وَحَنَّتِي
حنــنيْكَ بِــي كَمْ ذَا تُجَدِّدُ مَحْنَتِي وَتَظْهَــرُ فِي وَقْتِ التَّجَلِّي لِفِتْنَتِي
عَلَيَّ وَأَيْدِي الوَارِدَاتِ صِفَاحُ
أَتطْــلُبُ مِــنِّي فِــي هَــوَاكَ تَسَتُّرًا وَقَــدْ نَالَ غَيْرِي مِنْكُمُ مَا تَخَيَّرَا
وَفِــي حُــلَلِ التَّقْرِيبِ أَمْشِي تَبَخْتُرَا وَأَتْــرُكُ مَقْصُوصَ الجَنَاحِ مُؤَخَّرَا
وَغَيْرِي لَهُ عِنْدَ السَّمَاعِ جَنَاحُ
وَحَسْــبُكَ رَبْعُ الصَّدْرِ مِنِّيَ قَدْ عَفَا وَحُسْــنُ عَــزَائِي لِلْجَفَاءِ قَد انْتَقَى
فَإِنْ بُحْتُ فَاعْذِرْنِي فَقَدْ بَرَّحَ الجَفَا فَلَيْسَ عَلَى مَنْ صَاحَ فِي دَوْحَةِ الصَّفَا

إذَا لَمْ يُشَاهِدْ مَنْ يُحِبُّ جُنَاحُ

وَهَبْــتُكَ قَلْــبًا لَــمْ تَــزَلْ فِيهِ ثَاوِيَا   وَأَظْهَرْتُ وُدًّا في الحَشَا لَكَ طَاوِيَا

وَآلَيْــتُ أَنِّــي لا أُرَى عَــنْكَ سالِيًا   رَضِيتُ بِمَا تَرْضَى إذَا كُنْتَ رَاضِيَا

وإلا فَحَسْبِي فِي الوُجُودِ صَبَاحُ

قال : فلما سمع الصديق كلامها بكى إشفاقا عليها ، ثم قال لها : هل بقي في قلبك شيء مما كان ؟ فقالت : والله ، لنظرة فيك أحب إليَّ من الدنيا وما فيها ، ثم قالت: ناولني سوطكَ ، فناولها إياه ، فوضعته على صدرها بفناء قلبها ، فوجد الصديق في يده عند إمساكها السوط ارتعاداً وارتعاشاً واضطراباً ، فقالت : يا يوسف ، هو كما ترى ، فجاوزها وذهب باكياً ، ثم بعث إليها رسوله ، فقال لها : يقول لك الملك : إن كنت أيماً تزوجناك ، وإن كنت ذات بعل أغنيناك ، فقالت لرسوله : إليكَ عني ، فإن الملك أعرفُ بالله من أن يستهزئَ بي ، لم يَلتفت إليَّ زمان شبابي وجمالي ، فكيف يلتفت إليَّ الآن ؟ فرجع الرسول ، وأعلم الصديق بما قالت ، وذكرت من شأنها ، فلما ركب الصديق في الأسبوع الثاني على عادته ، وقعدت هي بالربوة على عادتها ، فلما مر بها ونادت كالنداء الأول ، فقال : ألم يبلغكِ رسولي ما أُرسل به إليك فما ترينَ ؟ فقالت : ألم أقل : إن نظرة إليكَ أحب إليَّ من الدنيا وما فيها ،وقيل في المعنى :

وَحُــرْمَةِ الــوُدِّ مَالِي عَنْكُمْ عِوَضُ   وَلا تَــبَدَّلَ قَلْــبِي دُونَكُــمْ عَرَضُ

وَمِنْ حَدِيثِي بِكُمْ قَالُوا بِهَا مَرَضُ   فَقُلْــتُ : لا زَالَ عَنِّي ذَلِكَ المَرَضُ

قال : فأمر بحملها إلى قصره ، وأحضر الشهود وتزوجها ، فلما زُفت إليه وأُدخلت عليه ، نظر إليها ، فزاد إشفاقا عليها ، فصفَّ قدميه ﷺ ، وصلى ما شاء الله أن يصلي ، ثم دعا الله باسمه الأعظم ، فردَّ الله عليها جمالها وبصرها وشبابها ؛ فعادت كهيئتها يوم راودتْه ؛ فتحيرت تحيرًا كثيرًا ، وأسالتْ دموعها غزيرًا وداخلها الذهول ، ولسان حالها يقول تخميساً :

حَنَانَيْكَ رِفْقًا بِي وَمَهْلاً عَلَى صَدْرِي   فَحُــبُّكَ أَفْنَانِي وَأَفْقَدَنِى صَبْرِي

أَقُــولُ وَقَــدْ جَلَّ المَقَالُ عَنِ القَدْرِ   بَدَا لِي وَجْهٌ مِنْكَ فِي حَالَةِ السُّكْرِ

فَأَنْكَرْتُ مَا يَبْدُو مِنَ الشَّمْسِ والبَدْرِ

جَمَـــالُكَ قَدْ أَوْدَى القُلُوبَ فَراعَهَا غَدَاة اشْتَرَاهَا فِي الوُجُودِ وَبَاعَهَا
أَقُـــولُ وأذْنِـــي لا تَمَـــلُّ سَمَاعَهَا لَقَدْ أَنْكَرَتْ نَفْسِي عَلَيْكَ طِبَاعَهَا
فَهَا أنَا مِمَّا بِي تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِي
عَذَابُـــكَ عَـــذْبٌ فِي القُلُوبِ نَكَالُهُ يَهُـــونُ عَلَيْنَا فِي هَوَاكَ احْتِمَالُهُ
وَوَجْـــهٌ سَـــبَانَا حُسْـــنُهُ وَكَمَالُـــهُ فَأَسْـــكَرَنَا مِنْ غَيْرِ خَمْرٍ جَمَالُهُ
فلله مِنْ سُكْرٍ عَلَيْكَ بِلا خَمْرِ
وَجَدْنَـــا جِـــبَالَ الوَجْدِ فِيكَ خَفِيفَةً كَمَا صَارَ مِنْكَ الحُبُّ فِينَا خَلِيفَةً
وَقَوَّيْـــتَ أَسْـــرَارِي وَكَانَتْ ضَعِيفَةً تُقِيمُ حُدُودًا فِي السُّكَارَى لَطِيفَةً
وَتَضْرِبُ حَدَّ القَتْلِ فِي السِّرِّ والجَهْرِ
شَـــرَابٌ بِـــأَفْوَاهِ الخَوَاطِـــرِ قَدْ حَلا وَكَـــأْسٌ شَـــرِبْنَاهُ وَلَكِـــنَّهُ مَلا
وَقَـــلْبٌ بِمَنْ نَهْوَاهُ فِي اللَّيْلِ قَدْ خَلا محَاسِـــنُهُ بالوَهْمِ فِي مَعْلَمِ العُلا
فَيَأْخُذُ مِنْ قَلْبِي القِصَاصِ ولا يَدْرِي

قال : وقيل : بل رَدَّ الله عليها شبابها بعد وصول يعقوب ليوسف عليه السلام وارتداد بصره بالقميص ، فسارت إليه ، ووقفت بين يديه ، وقالت : يا رئيس الصابرين ، وإمام المحزونين ، تصدَّقْ على الممتحنة من قميصك بخيط يزيل وصبها ، ويُذهب كربها ، فأعطاها منه خيطاً ، وكان القميص من الجنة ، وهو الذي كساه الله إبراهيم ، وتعرضت للصديق ، وهي كهيئتها يوم راودته فدعاها إلى الإسلام فأسلمتْ بين يديه ، فكان دخولها في الملة سبباً لرفع درجتها والوصلة ، فلما زفت إليه ، وأدخلت عليه ، استأذنته في أن تصلي لله صلاة شكر على ماوهبها من نعمته وجاد عليها برحمته ، فأذن لها ، فاستطابت حلاوة المناجاة ، وذهلت عما كان وما هو آت ، فناداها لسان المطالبة بالدعوة : كيف تشتغلين عن المحبوب بالنجوى ؟ فقال لسان حالها مجاوباً ، والدمع من جفنها ينهل ساكباً : أنا كالطائر في المصائد ، شغله عن الحبة ظفر الصائد ، في أول مرة لم ينلها ، وعند وصول ما تفرغ إليها ، وقيل في المعنى :

يَــا أَهْــلَ بَــابِلَ أَنْتُمْ أَصْلُ بَلْبَالِي رُدُّوا فُــؤَادِي عَلَى جُثْمَانِيَ البَالِي
لا واعْــتِلاقِ هَوَاكُــمْ يَوْمَ بَيْنِكُمُ مَا مَرَّ صَرْفُ النَّوَى يَوْمًا عَلَى بَالِي
وَإِنَّمَــا عَرَضَــتْ بَيْــنِي وَبَيْنَكُمُ نَوَائِبٌ أَرْخصَتْ مِنْ دَمْعِيَ الغَالِي
سَلَوْتُ عَنْ غَيْرِكُمْ لَمَّا عَلِقتْ بِكُمْ عُجْــباً ألا فَاعْجَبُوا للْعَاشِقِ البَالِي

قال : فطال على الصديق انتظارُها ، فدعاها إليه فلم تجبه ، فدعاها ثانياً فسكتت عنه ، فدعاها ثالثاً فلم تجبه ، فجذبها من خلفها ، فقدَّ قميصها من دُبر ، فقال لسان حالها عنها مجاوباً : يا مَنْ أذهب الشوقُ صبرَهُ وصده ، قَدَّةٌ بقَدَّة ! ليس العجب من مشتاق يهتز ، إنما العجب من ذليل يعتز ؛ لما لاذت بنا ، ورجعت ووقفت ببابنا وخضعت ، أوضحنا لها طريق القبول والإقبال ، وأبدلناها من الإدلال بالإذلال ، وقيل في المعنى :

مَنِ اعْتَزَّ بِذِي العِزِّ فَــذُو العِــزِّ لَهُ عِزٌّ
وَلا عِــزَّ لِمُعْــتَزٍّ إِذَا اعْــتَزَّ بِــلا عِزٍّ

فلما دخل بها وجدها بكراً عذراء ، فقال لها الصديق : ما الذي كنت تفعلين حين راودتيني ، قالت : يا نبي الله أعذرني ولا تلمني ، فإن الله قد كساكَ حلة الجمال والبهاء والكمال ، وكان زوجي عنيناً لا يقرب النساء ، وكنت مشركة حينئذ فلا تؤاخذْني بسوء صنيعي ، فلما أتاها حملت منه ، فولدت افرائيم وميشا في أربع سنين وطاب عيشهما مدة حياتهما ؛ لكنه ما دام ، بل النعيم لهما والمتقين العابدين في الفردوس على الدوام ، وقيل في المعنى :

بِــتَقْوَى الإِلَه نَجَا مَنْ نَجَا وَفَــازَ وَصَارَ إلى مَا رَجَا
وَمَــنْ يَــتَّقِ اللهَ يَجْعَــلْ لَهُ كَمَا قَالَ : مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجَا
وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبْ وَإِنْ ضَــاقَ أَمْــرٌ بِهِ فَرَّجَا
وَمَــنْ كَانَ فِيمَا مَضَى مُذْنِبًا فَعَفْــوُ الإِلَــهِ لَــهُ يُرْتَجَى

(حكاية) : قيل : جهز أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ جيشاً من المسلمين تجاه العدو قِبَل الشام ، فحاصروا حصناً من حصونهم حصاراً شديداً ، وكان في المسلمين رجلان أخوان قد آتاهما الله نجدة وجرأة على العدو ، وكان أمير ذلك

الحصن يقول لأقياله ولمن بين يديه من أبطاله : لو أن هذين المسلمين حصلا وقتلا لكفيتم مَنْ سواهما من المسلمين ، قال : فما زالوا ينصبون لهما المصائد ، ويختلقون المكائد إلى أن أخذوا واحداً منهم أسيراً والآخرَ أخاه صار قتيلاً ، فاحتمل المسلم إلى أمير ذلك الحصن ، فلما نظر إليه وجده بطلاً شديداً ، فقال : إن قتل هذا لمصيبةٌ ،ورجوعَهُ إلى المسلمين كريهة ، وددت أن لو دخل في دين النصرانية ، وله من مالي كذا وكذا ، فقال له بطريق من بطارقته : أيها الأمير ، أنا أفتنه عن دينه ، وذلك أن العرب أسرع ما يصبون إلى النساء ، وإن ابنتي فلانة من أجمل النساء ، فلو رآها لفُتن بها ، قال : خذه إليكَ ، ففرش المنزل ، وألبس ابنته من الثياب ما زاد في زينتها وجمالها ، وجيء بالرجل ، فدخل المنزل ، فأُحضر الطعام ، ووقفت النصرانية بين يديه كالخادم المطيعة لسيدها منتظرةً لأمر يأمرها به تفعله ، فلما رأى المسلم ما نزل به اعتصمَ بالله ، وغض بصره عما حرم الله ، واشتغل بقراءة القرآن خوفا من الافتتان ، وبان له صوت حسن فأحبته النصرانية ، فما زالت على ذلك سبعة أيام حتى صارت تقول : أشتهي لو أدخلني هذا الرجل في دينه ، ورضي بدخولي معه في الإسلام ، وقيل في المعنى :

أَتُــعْرِضُ عَنّــا وَالْفُؤادُ لـــكُمْ يَصبُو ... فَدَوَاؤُكُم نَفْسِي وَمَثْوَاكُمُ القَلْبُ

وَإِنّــي لأُرْضِــى أنْ أُفَــارِقَ رُفْقَتِي ... وَأَتْرُكُ دِينًا دُونَهُ الصَّارِمُ العَضْبُ

وَأَشْــهَدُ أَنَّ اللهَ لا رَبَّ غَــيْرُهُ ... بِذَا ثَبَتَ الْبُرْهَانُ وارْتَفَعَ الرَّيْبُ

عَسَاهُ بِــأَنْ يَقْــضِى بِوَصْلِي وَقُرْبَتِي ... وَيُبْرِدُ قَلْبًا شَفَّهُ الشَّوْقُ والحُبُّ

فَقَدْ تُفْتَحُ الأَبْوَابُ مِنْ بَعْدِ غَلْقِهَا ... وَيُعْطِي الأَمَانِي مَنْ تَدَاوَلَهُ الكَرْبُ

قال : فلما عيل صبرها وضاق صدرها ترامت بين يديه ، وقالت : أسألكَ بدينكَ إلا ما سمعتَ كلامي ؟ قال لها : وما كلامك ؟ قالت : اعرضْ عليَّ الإسلام ، فعرضه عليها فأسلمت ، وتطهرت وعلمها الصلاة ، فلما فعلت ذلك قالت له : يا أخي ، إنما كان دخولي في الإسلام بسببكَ وابتغاء قربكَ ، فقال لها: إن الإسلام يمنع النكاح إلا بشاهدين عدلين ومهر ، وأنا لا أجد الشاهدين ولا المهر ، فلو تحيَّلْت في خروجنا من هذا الموضع لرجوتُ الوصول إلى بلد الإسلام ، وإني أعاهدك أن لا يكونَ لي زوجة في الإسلام سواك ، قالت : أنا أحتال في ذلك فدعت أخاها وأمها وأباها ، وقالت لهم : إن هذا المسلم قد لان ، ومال قلبه إليَّ ،

وندبته إلى الدخول في الدين حتى أوصله من نفسي إلى ما يريده مني ، فقال لي : إن هذا لا يتفق لي في بلد قُتل فيه أخي ، فلو خرجتُ منه لسلا قلبي ، ولفعلتُ ما هو المراد مني ، ولا بأس أن تخرجوني معه إلى قرية كذا ، فإني ضامنتُه لكم وللملك بما تريدونه ، قال : فمشى أبوها إلى ملكهم ، وعرَّفه بذلك ، فسُرَّ سروراً كثيراً ، وأمر بإخراجها معه إلى القرية فخرجتْ ، فلما وصلا إلى القرية ، وجنَّ عليهما الليل أخذا في الرحيل وقطع السبيل ، وقيل في المعنى :

وَقَــالُوا : قَدْ دَنَا مِنْهَا الرَّحِيلُ ... فَقُــلْتُ : وَلِي تُهَــدِّدُ بالرَّحِيلِ
وَمَا لِي غَيْرُ جَوْبِ القَفْرِ شُغْلٌ ... وَقَطْــعُ الأَرْضِ مِيــلاً بَعْدَ مِيلِ
لَــئِنْ ظَعَنَ الأَحِبَّةُ نَحْوَ أَرْضٍ ... لَــرُحْتُ بِهَــا مِنَ ابْنَاءِ السَّبِيلِ
وَأَجْعَــلُ نَحْوَهُمْ شَوْقِي دَلِيلاً ... فَيَهْدِيــنِي الطَّــرِيقَ بِــلا دَلِيلِ

قال : فسارا ليلتهما تلك ، وكان الشاب قد ركب جواداً سابقاً ، وأردفها من خلفه فما زالا يقطعان الأرض حتى قرب الصباح ، فمال بها عن طريقه ، وأنزلها وتوضآ جميعاً ليصليا الصبح ، فبينما هما كذلك إذ سمعا قعقعة السلاح وصلصلة اللجم وكلام الرجال وحوافر الخيل ، فقال لها : يا فلانة ، هؤلاء تبع النصارى قد أدركونا ، فما تكون الحيلة ، والفرسُ قد كلَّ وملَّ ، ولا يقدر أن يخطوَ باعاً ، فقالت له : ويحكَ ، فزعتَ وخفتَ ؟ قال : نعم ، قالت له : وأين ما كنت تحدثني من قدرة ربك وغياثته للمستغيثن به ، تعالَ نتضرع إليه ، وندعوه لعله أن يغيثنا بعنايته ، ويتداركنا بلطفه ، فقال لها : نعم ، والله ما قلتِ إلا حقًّا ، فأخذا في التضرع إلى الله تعالى ، وقيل في المعنى :

إِنَّــا إِلَيْــكَ مَــعَ السَّــاعَاتِ نَحْتَاجُ ... أَوْ كَانَ فِي مَفْرِقِي الإِكْلِيلُ والتَّاجُ
وَأَنْتَ لِي حَاجَتِي الكُبْرَى فَلَوْ ظَفِرَتْ ... بِمَا أَرَادَتْ يَدِي لَمْ يَبْقَ لِي حَاجُ
وَلَيْــسَ عِــنْدَكَ شَــيْءٌ أَنْــتَ مَانِعُهُ ... بَــلْ جُودُ جُودِكَ سَيَّالٌ وَثَجَّاجُ
لَكِــنَّنِي أَنَــا مَحْجُــوبٌ فَلَوْ رُفِعَتْ ... حُجْــبِي لأَشْرَقَ نُورٌ مِنْكَ وَهَّاجُ

قال : فبينما هو يدعو وينتحب ، والجارية تؤمِّن على دعائه ، ووجبة الخيل تقرب منه إذ سمع كلام أخيه الشهيد ، وهو يقول : لا تخف ، ولا تحزن ، فإن الوفدَ ، وفدَ الله وملائكته ، أرسلهم إليكما يشهدون عليكما في التزويج ، وإن الله قد

أعطاكما أجر السعداء والشهداء ، وطوى لكما الأرض ،وإنك ستصبح بجبال المدنية ، فإذا اجتمعت بعمر بن الخطاب ، فاقرأ عليه مني السلام ، وقل له : جزاكَ الله عن الإسلام خيراً ، فلقد نصحتَ واجتهدتَ ، ثم رفعت الملائكة أصواتها بالسلام عليه وعلى زوجته ، وقالوا : إن الله قد زوَّجَها منكَ قبل خلق أبيكما آدم بألفي سنة ، قال : فغشيهما البشر والسرور والأمن والحبور ، وزاد اليقين ، وثبتت هداية المتقين ، وطلع الفجر ، فتوضآ وصليا الصبح ، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يغلس بصلاة الصبح ، وربما دخل المحراب وخلفه رجلان ، فيبتدئ بسورة الأنعام أو سورة النساء ، فينتبه الراقد ، ويتوضأ المتوضئ ، ويأتي البعيد فما يتم القراءة إلا والمسجد قد امتلأ بالناس ، فيصلي الركعة الثانية بسورة خفيفة ، فلما كان ذلك اليوم صلى في أول ركعة بسورة خفيفة ، وأوجز فيها ، ثم في الثانية كذلك ، فلما سلم نظر إلى أصحابه ، وقال : اخرجوا حتى نتلقى العروسين ، فتعجب أصحابه ، ولم يفهموا كلامه ﷺ ، ولا عجب في ذلك ، فإن الله تعالى كشف له حتى رأى ساريةً بالعراق وهو بالمدينة على منبره ، وأسمع سارية صوته يقول : يا سارية ، الجبلَ ، فصعد هو وأصحابه الجبل ، فكان سبباً لنجاته ونجاة أصحابه ، ولقد كان مَنْ هو أدنى منه طبقةً كمعروف الكرخي وسري السقطي والجنيد وسهل بن عبد الله التستري ، ونحوهم من السادات ، لهم المكاشفاتُ والأحوال الخارقات كالخطوة البعيدة ، والحضور والغيبة ، والدعوة المستجابة ، حتى إن سهل بن عبد الله المذكور على ما اشتُهر عنه ونقله الثقاتُ من العلماء في كتبهم أنه كان يرى يوم التروية وهو الثامن من شهر ذي الحجة في مدينة تستر التي يسمونها العوامُّ بـــ "دشتر" ، ويوم عرفة كان يرى بعرفة ، وأما الشيخ عبد القادر الكيلاني – رحمه الله – فلا تُحصى مناقبه وكراماته ، وهذا حال هؤلاء ومن في طبقتهم ، فما حال من هو من الأربعة الذين هم أفضل الخلق بعد النبيين ، وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ الخلفاءُ الأربعة ﷺ أجمعين ، قال : فتقدم عمر هو ومَنْ خلفه ، حتى خرج على باب المدنية ، وكان الشاب عندما ظهر الضوء رأى أعلام المدينة ونواحيها ، فأقبل يريد المدينة وزوجته من خلفه ، فلقيه عمر ﷺ والمسلمون فسلموا عليه ، وأمر عمر ﷺ بصنع الوليمة ، فحضر المسلمون ، وأكلوا ودخل الشاب بعروسه ، ورزقه الله تعالى منها أولاداً نجباء يقاتلون في سبيل الله ، وما أتى في معناها أن أحد الخلفاء العباسيين جهز إلى الشيخ أبي بكر الشبلي – رحمه الله تعالى – حال ضعفه طبيباً نصرانيًّا ليداويَه فعالجه مدة ، فقال الطبيب يوماً

للشبلي : يا شيخ، لو علمتُ أن دواءكَ في لحم كتفي لقطعتُ منه وداويتكَ به ، فقال : الشبلي : يا نصراني ، دوائي في حل زنارك فدارِكْ ، فوقع في قلب النصراني من كلامه موقعه لكَوْن كلامه خالصاً ، وفي الحال حل زناره ، وتشهد على يديه وحسن إسلامه بما مَنَّ الكريم سبحانه عليه ، فلما بلغ الخليفةَ قال : زعمنا أننا جهزنا طبيباً إلى مريض ، ما علمنا أننا جهزنا مريضاً إلى طبيب ، وهكذا ورد أن شخصاً لقَّن ميتاً ، فأسمع الله ممن حضر واحداً منهم صوت الميت يقول : عجبتُ من ميت يلقن حيًّا ، وكما كشف عن بصر أحد الذين وارَوْا الأحنف بن قيس - رحمه الله - في قبره ، أنه فُسح له قبره مَدَّ بصره فقال لرفقائه الذين معه : هل ترون ما رأيت ؟ قالوا : لا ، فأخبرهم بما رآه ، هذا الذي بصَّره الله تعالى ، والذي ذكر قبله أسمعه ، فلا تنكروا أحوال الصالحين ، بل صدقوا فلو وصلتم إلى ما وصلوا إليه لكنتم موقنين ، وقيل في المعنى :

أَرَاكَ عَلَى الأَبْوَابِ تَبْكِي وَتَشْتَكِي ... وَمَـا لَـكَ دُونَ الطَّالِبِينَ جَوَابُ
أَصَـابَكَ عُـذْرٌ أَمْ دَهَـتْكَ مُلِمَّةٌ ... وَصَدُّكَ عَنْ بَابِ الحَبِيبِ حِجَابُ
قِفِ اليَوْمَ يَا مِسْكِينُ فِي ذِكْرِهِ وَتُبْ ... لَـهُ مِـثْلُ مَا تَابَ الوَرَى وَأَنَابُوا
عَسَى مَطَرُ الغُفْرَانِ يَغْسِلُ مَا مَضَى ... وَيُهْـنِي بِأَرْبَـابِ الذُّنُوبِ ثَوَابُ
فَقَـدْ يُفْـلِتُ المَأْسُورُ وَهْوَ مُقَيَّدٌ ... وَيُعْـتَقُ مِنْ سِجْنِ العِقَابِ رِقَابُ

المجلس الرابع عشر

في قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢] .

الحمد لله الذي أظهر بوجوده وجود آياته عبراً لكل عاقل ، فاعترف بوحدانيته وربوبيته شواهد قواطع سواطع الدلائل ، يسبح بحمده الشمس والقمر والجبال والشجر بألسنة صوامت ذوابل ، إله فرد صمد احتجبَ عن الأبصار فلا مطلع له ولا مقابل ، تقدس عن الأضداد والأفراد يعدل في القضاء لا جائر ولا مائل ، عليم يعلم خفي ما اختلج في الأسرار وخطر في الأفكار لا ناس لها ولا جاهل ، بصير يبصر خطوات الذر في قعر قاموس البحر قبل أن يقذَف إلى الساحل ، سميع يسمع وقع أرجل النمل على كثبان الرمل وصفحات الجنادل ، حي بحياة قديمة أزلية فهو آخر بعد الأواخر وأول قبل الأوائل ، كلم موسى على جبل الطور بكلام قديم أزلي صفة للمتكلم القائل ، ولم يكن بينه وبين كلامه حائل ، فلا يقال : كيف كان ، فالسؤال عن الكيفية باطل ، استوى على العرش كما قال وليس العرش له بحامل ، يترل كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول : هل من راغب ؟ هل من تائب ؟ هل من سائل ؟ الهناء لمن كان في ذلك الوقت مستيقظاً لا نائم ولا غافلٍ ونزول نزول من فضل وإحسان وطَوْل لا نزول من عالٍ على سافر ، فيا غافلاً سفينتُكَ قد أقلعت إلى الساحل ، وأنتَ بالتوبة تماطل ، قم يا مسكين في الأسحار ، والزم الندم والاستغفار للملك العادل ، وقف على الباب في جملة الأحباب ، وابكِ بدمع ساكب على الخد هاطل ، وأنشد ما قاله الأديب الفاضل :

إذَا شِئْتَ أنْ تَحظَى بِكُلِّ فَضِيلَةٍ   فَفِي ذِكْرِ مَوْلانَا جَمِيعُ الفَضَائِلِ

فسبحانه من أنعم على عباده المخلصين بقبول الوسائل ، فقال مَنْ هو أصدق قائل وأقدر فاعل :﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢] ، هذه والله أشرف المناقب وأكرم الشمائل ، أحمده على ما أودع من الإحسان والامتنان الطائل ، وآتى من الفضل والبذل الهائل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادةً أرجو بها الخلاص في اليوم الهائل ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله الذي أرسله بين الحق والباطل فاصل ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، صلاةً تدوم وتقوم بالبُكَرِ والأصائل ، وقيل في المعنى :

بِلَذيذِ ذِكْرِكَ تُنْعَشُ الأَرْواحُ   وَضِيَاؤُهُ بِجَوَانِحِي تَلْتَاحُ

فَكَأَنَّمَا جَسَدِي زُجَاجٌ أَبْيَضٌ   وَبِكُلِّ جَارِحَةٍ بَدَا مِصْبَاحُ

إِنْ قَالَ : بِاسْمِ اللهِ يَوْمًا قَائِلٌ مَضَتِ الكُرُوبُ وَجَاءتِ الأَفْرَاحُ
وَمِنَ العَجَائِبِ أَنْ تَرَانِي ضَاحِكًا وَالْقَـلْبُ فِيهِ مِنَ الغَرَامِ جِرَاحُ
فَالْبَرْقُ يَبْدُو لِلْعُيونِ سَنَاؤُهُ وَبِـإِثْرِهِ غَيْـثٌ أَتَـى وَرِيَاحُ
إِنْ جَارَ هَذَا الدَّهْرُ يَوْمًا أَوْ عَدَا فَرَجَـاءُ جُـودِكَ جُنَّةٌ وَسِلاحُ
يَا مَنْ مَضَتْ أَحْكَامُهُ فِي خَلْقِهِ طُرًّا فَـمَا لِلْكُـلِّ عَـنْهُ بَرَاحُ
خَضَعَتْ لِعِزِّكَ يَا مَلِيكُ رِقَابُنَا وَتَذَلَّلَـتْ لِـجَلالِكَ الأَشْبَاحُ
أُفٌّ لِمَنْ لِلْخَلْقِ يَشْكُو كُرْبَةً فَـلَهُ بِأَبْوَابِ العَبِيـدِ صِيَاحُ
وَيَصُدُّ عَنْكَ وَأَنْتَ مَالِكُ أَمْرِهِمْ وَلَـكَ القُلُوبُ وَعِنْدَكَ المِفْتَاحُ
فَارْحَمْ ضَرَاعَتَنَا إِلَيْكَ وَفَقْرَنَا وَالْطُـفْ فَلُطْفُكَ يَا كَرِيمُ مُبَاحُ
مَا إِنْ لَنَا رَبٌّ سِوَاكَ نَؤُمُّهُ أَنْـتَ الرَّجَـاءُ وَنُورُكَ الوَضَّاحُ

قوله تعالى : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، اعلم أن في هذه الآية عشرين قولاً ، قيل : اذكروني بالإخلاص أذكركم بالاختصاص ، وقيل : اذكروني بالحضور أذكركم بتيسير الأمور ، وقيل : اذكروني بالقلوب أذكركم بغفران الذنوب ، وقيل : اذكروني بالضمائر أذكركم بدفع الضرائر ، وقيل : اذكروني بالأصوات أذكركم بتيسير الأقوات ، وقيل : اذكروني في الخلوات أذكركم بالرحمة والصلوات ، وقيل : اذكروني بلا نسيان أذكركم بمغفرة العصيان ، وقيل : اذكروني في المساء والصباح أذكركم باللطف والصلاح ، وقيل : اذكروني في السجود أذكركم بالنعمة والجود ، وقيل : اذكروني بالمعذرة أذكركم بالمغفرة ، وقيل : اذكروني بأداء الفريضة أذكركم بالرحمة العريضة ، وقيل : اذكروني بالاستغفار أذكركم بالنواهد الأبكار ، وقيل : اذكروني بالأسحار أذكركم بغرس الأشجار ، وقيل : اذكروني في الأيام القلائل أذكركم بلبس الحُلل والغلائل ، وقيل : اذكروني بالصبر على البلا أذكركم بالدرجات العلا ، وقيل : اذكروني بالألباب أذكركم بزوال الحجاب ، وقيل : اذكروني على التوالي أذكركم بفضلي ونوالي ، وليس العجب من قوله : فاذكروني ، إنما العجب من قوله : أذكركم ، وليس العجب من قوله : ويحبونه ، إنما العجب من قوله : يحبهم ، وليس العجب من فقير يحب محسناً ، إنما العجب من محسن يحب فقيراً ، نزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ

فقال له : « إن الله يقول لكَ : أعطيتُ أمتكَ ما لم أعطه أحداً من الأمم ، قال : وما هو ؟ قال : قوله تعالى :﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ » ، ولقد أجزل العطاء والموهبة من حلاك بهذه المنقبة حيث خلقَ الفلكَ والملك والنور والحلك والعلوي والسفلي والعرش والكرسي والبهائم والهوام والوحش والأنعام ، فلم يقل لصنف منها : اذكروني أذكركم إلا لكَ ؛ فمتى تؤدي شكر مولاكَ على ما أنعم عليكَ وأولاكَ . وقال : أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه : « سُئل رسول الله ﷺ : أي العباد أفضل عند الله درجة يوم القيامة ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً ، قال : قلت : يا رسول الله ، ومنَ الغازي في سبيل الله ؟ ! قال : لو ضرب بسيفه في الكفارِ والمشركين حتى ينحنيَ ويختضبَ دماً ، لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل منه درجة »[1] ذكره الترمذي ، وقال عبد الله بن بشر : « قال رجل : يا رسول الله ، إن شرائع الله قد كثرتْ عليَّ ، فمُرني بأمر أتشبث به ، قال : لا يزال لسانكَ رطباً بذكر الله تعالى »[2] ذكره الترمذي . وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخيرٌ لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : ذكرُ الله »[3] . وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه ، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خير منه ، وإن تقرب إليَّ شبراً تقربتُ منه ذراعاً ، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربتُ منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولة »[4] ذكره البخاري . وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ وهو يسير في طريق مكة ومر بجبل يقال له : حمدان ، فقال : « سيروا ، هذا حمدان سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذا كرات »[5] ذكره مسلم . وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال :

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٥ / ٤٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي ٥ / ٤٥٨ ، والبيهقي في الكبرى ٣ / ٣٧١ .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥ / ٤٥٩ ، وابن ماجة في سننه ٢ / ١٢٤٥ ، والحاكم في المستدرك ١ / ٦٧٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٦ / ٢٦٩٤ ، ومسلم ٤ / ٢٠٦١ .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢٠٦٢.

المشهورون بذكر الله ، يضع الذكر عنهم أوزارهم ، فيأتون يوم القيامة خفافاً »(١) ذكره الترمذي . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عجز منكم عن الليل أن يكابده ، وجبن عن العدو أن يجاهده ،وبخل بالمال أن ينفقه ، فليكثر ذكر الله »(٢) ذكره البزار . وقال جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه : « خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في مسجد المدينة ، فقال : إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف في مجالس الذكر في الأرض ، فإذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : مجالس الذكر ، اغدوا وروحوا في ذكر الله ، من كان يحب أن يعلم مترلته عند الله ، فلينظر كيف مترلة الله عنده ، فإن الله تعالى يترل العبد منه حيث أنزله من نفسه »(٣) ذكره البزار ، وقال : أبو هريرة ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تبادروا هلموا إلى حاجتكم ، فيحفوهم بأجنحتهم حتى يملئوا ما بين السماء الدنيا ، فإذا تفرقوا وصعدوا إلى السماء ، فيسألهم ربهم ، وهو أعلم بهم من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عبيد لكَ في الأرض ، قال : ما يقول عبادي ؟ قالوا : يسبحونكَ ويقدسونكَ ويستعيدونكَ ، فيقول : وهل رأوني ؟ فيقولون : لا والله فيقول : وكيف لو رأوني ؟ فيقولون : لو رأوكَ لكانوا أشد لك عبادة وأشد تحميداً وأكثر لك تسبيحاً، قال : فيقول : يا ملائكتي ما يسألون ؟ فيقولون : يسألونكَ الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ قال : فيقولون : لا والله ، فيقول : وكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو أنهم رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً ، وأكثر لها طلباً ، وأعظم لها رغبة ، قال : فتقول الملائكة ويتعوذونك ، قال : فيقول : وممم يتعوذون ؟ قال : فيقولون : من النار ، قال : فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ، فيقول : وكيف لو أنهم رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد منها فراراً وأشد منها مخافة ، فيقول : أشهدكم أني قد غفرت لهم ، فيقول ملك من الملائكة : ربِّ فيهم فلان ، وليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، فيقول له : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم »(٤) ذكره البخاري . وقال أبو ذر رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : من عمل حسنة فله عشر أمثالها ، ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر ومن عمل مثل قراب

---

(١) أخرجه الترمذي ٥ / ٥٧٧.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في مسنده ١ / ٢١٥ ، والطبراني في الكبير ١١ / ٨٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٥ / ٥٣٢ ، والشيباني في الآثار ١ / ٢١٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢٣٥٣.

الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلتُ له مثلها مغفرة ، ومن اقترب إليَّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً ، ومن اقترب إليَّ ذراعاً ، اقتربتُ منه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيتُه هرولة » (١) ذكره مسلم . وقال أبو ذر رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر ، إنك إن صليتَ الضحى ركعتين لم تُكتب من الغافلين ، وإن صليتَ أربعاً كتبتَ من العابدين ، وإن صليتَ ستًّا لم يلحقكَ ذنب ، وإن صليتَ ثمانياً كتبتَ من القائمين ، وإن صليتَ اثنتي عشرة ركعة بُني لكَ بيت في الجنة ، وما من يوم وليلة إلا ولله فيه صدقة يمنُّ بها على من شاء من عباده ، وما مَنَّ على عبد بمثل أن يلهمه ذكره » (٢) ذكره البزار ، وقيل في المعنى :

أَلا عَلِّلُونِي باسْمِ مَنْ لَمْ يَزَلْ فَرْدَا ... وَمَنْ يَمْنَحُ الآلاءَ والطَّـوْلَ والرِّفْـدَا
وَمَنْ ذِكْرُهُ أُنْسِي إِذَا اللَّيْلُ جَنَّنِي ... أُصَـيِّرُهُ وِرْدًا فَأَسْـتَعْذِبُ الـوِرْدَا
إِذَا مَا شَدَا شَادٍ وَرَنَّـمَ بِاسْـمِهِ ... يَكَادُ فُؤَادِي أَنْ يَطِـيرَ لَـهُ وَجْـدَا
وَتَهْتَـزُّ أَعْضَـائِي مُوَافَقَـةً لَـهُ ... فَلا تُنْكِرُوا رَقْصِي إِذَا الشَّوْقُ بِي أَوْدَى
عَجِبْتُ لِمَنْ يَشْتَاقُ لُقْيَا حَبِيبِـهِ ... وَيَشْكُو النَّوَى مِنْهُ لَقَدْ جَهِلَ القَصْـدَا
وَهَلْ هُوَ إِلا حَاضِرٌ غَيْرُ غَائِـبٍ ... يُشَاهِدُهُ بِالْقَلْبِ مَنْ أَخْلَـصَ الـوُدَّا
وَيُبْصِرُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بَـدَا لَـهُ ... فَيَعْرِفُهُ العَقْلُ الـرَّزِينُ بِمَـا أَبْـدَى
وَهَبْتُ لَهُ كُلِّي وَلُـذْتُ بِرُكْنِـهِ ... وَحَمَّلْتُـهُ كُلِّـي وَلَـمْ أَسْـتَجِزْ رَدَّا
فَهَا أَنَا مُلْقًى فِي يَدَيْـهِ رَهِينَـةٌ ... أُسَائِلُهُ الرُّحْمَـى وَأَسْـتَنْجِزُ الوَعْـدَا
يُقَرِّبُنِي طَـوْرًا فَـأَزْهُو بِقُرْبِـهِ ... وَيُبْعِدُنِي طَوْرًا فَأَرْضَى بِمَـا أَسْـدَى

وقيل : إن جسد الآدمي سور مشيد ، وقلبه وأعضاؤه رعية ، وخواطره جواسيس ، وحركاته أجناد ، وصدره مدينة ، وقدميه مطية ، ويديه حارسان يردان ما يرد على البدن من الأذى ، وأذنيه رائدان ، وعينيه طلائع ، وفمه ترجمان ، ولسانه مسامر ، وشهوته روم تدور بالمدينة وتروم ملك السور ، فإذا كان المسامر ذاكراً لله تعالى حرس السور ، وحفظت المدينة ، وعاشت الرعية ، وبقي الملك ، وخفر الأجناد ،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢٠٦١.

(٢) أخرجه البزار في مسنده ٩ / ٣٣٦ .

وسافرت الجواسيس ، وجاءت الأخبار ، واعتزل الترجمان ، وأيد الحارس ، وصحت المطية ، وبعدت الروم عن المدينة ، وإذا غفل المسامر ، وسكت عن ذكر الله أدركته الغفلة ، وأصابه النوم فتمكنت روم الشهوات من السور ، وهلك الملك، وتفرقت الأجناد ، وضاعت الرعية ، وقيل في المعنى :

لِسَانُكَ سَامِرٌ والجِسْمُ سُورُ ... وَرُومُ هـــوَاكَ وَيْكَ بِهِ تَدُورُ
فَإِنْ ضيعتَهُ وَغَفَلْتَ عَنْهُ ... فإنَّـــكَ دُونَمـــا شَكٍّ أَسِيرُ
وإِنْ بِالذِّكْرِ كُنْتَ لَهُ حَفِيظًا ... تَأَمـــنَّتِ الـــرَّعِيَّةُ وَالأَمـــيرُ
إِذَا عِلَلُ الذُّنوبِ بِنَا أَحَاطَتْ ... فَذِكـــرُ اللهِ دِرْيَـــاقٌ كَبِيرُ

واعلم أن يعقوب عليه السلام حين وجه يوسف مع إخوته لم يزد على أن قال : ﴿ **إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ** ﴾ [يوسف: ١٣]، فعوقب على ذلك بطول البين ، والبعد من قرة العين ، ولما سأله أولاده توجيه بنيامين قال : ﴿ **فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [يوسف : ٦٤]. فلما قدم ذكر مولاه أنعم عليه برجوع البنين إليه ، وهما ولداه ، قال وهب بن منبه : لما خرجوا من عند أخيهم ، وقدموا على أبيهم كانوا يغتبطون بقضاء حوائجهم ووجود الطعام والميرة بأرخص ما وجدها سواهم ، وكانت في قلوبهم غصة في ترك أخيهم بمصر ، وكيف يسألون أباهم ابنه الثاني بعد ما فعلوا بالأخ الأول ما فعلوا ، فكانوا يخافون منه أن لا يصدقهم ولا يسعفهم في صرفه معهم ، لكنهم لم يجدوا بُدًّا من مفاجأته بهذا الكلام ، وسؤالهم إياه أن يبعثه إلى الملك ، وقد وعدوه بذلك ، وانفصلوا على الإتيان به إلى هنالك ، فقالوا : ما أخبر الله عنهم ﴿ **مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [يوسف : ٦٣] وأخذوا في شكر الملك وذكر صنيعه الجميل بهم ، وإنزاله إياهم أحسن المنازل وبيعهم الطعام بأرخص الأثمان ثم قالوا : يا أبانا ، لا وجه لنا في لقائه بعد هذا ، ولا في أخذ رطل واحد منه في المستقبل ، فقال لهم والدهم : يا بَنِيَّ ، ولِمَ ذلك وقد أخبرتم عنه بالكرامات السالفة والخيرات الوافرة والصنع الجميل ؟ فقالوا : لأنه سألنا حمل أخينا بنيامين إليه والورود به عليه ، وأمسك أخانا شمعون عنده حرصاً على لقاء بنيامين ، ومن كثرة ما رأينا فيه من حرصه لم ننفصل عنه إلا بعد ما عاهدناه على إتيانه إليه ، فإن أنت سمحت لنا بتوجهه معنا ، فنرجو من الله تعالى أن يكون

لنا عند الملك حظوة وكرامة ، ونكتال الطعام ، وإن كان غير ذلك لم يقض الملك حاجتنا ولم يلتفت إلينا ، فأجابهم أبوهم بما أخبر الله عنه ﴿ **هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [يوسف : ٦٤] ، وقيل :

كَأَنْ لَمْ تَرَوْا يا وَيْحَكُمْ فَرطَ مَا أَلْقَى ... وَإِنِّـــي كَـئِيبٌ هَـــائِمٌ دَنِفٌ مُلْقَى
أُكَــابِدُ أَشْــوَاقًا وَوَجْــدًا وَلَوْعَةً ... وَمَــا أَحَــدٌ مِــنْكُمْ لِمَا نَالَنِي رَقَا
غــريبٌ بِــهِ وجــدٌ يجــود بنفسه ... وأَحْــبَابُهُ والْقَــلْبُ رَقُّوا لِمَا يَلْقَى
وَلَــمْ يَــبْقَ لِي إلا الشَّقِيقُ الذي لَهُ ... فُــؤَادِيَ مَمْلُوكٌ ولا يَشْتَهِي العِتْقَا
أَشُــمُّ عَــلَيْهِ رِيحُــهُ بَعْــدَ نَأْيِــهِ ... فَأَضْــحَى بِهِ صَبًّا وأَصْبُو لَهُ عِشْقَا
فَكَيْــفَ اصْطِبَارِي بَعْدَهُ إنْ فَقَدْتُهُ ... أَيَبْقَى مَعِي صَبْرٌ أَصَبْرِي مَعِي يَبْقَى
عَسَــى مَنْ قَضَى بِالبَيْنِ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ... فَمَــازَالَ يُوْلِي مَنْ رَجَا جُودَهُ رِفْقَا

ثم قال لهم يعقوب ﷺ : أخذتموه مني بالمواثيق الأكيدة ، وضمنتم لي رَدَّهُ ، ثم فعلتم ما فعلتم ، وسكت عن ذلك ، وكره ما ذكروه ، واهتم همًّا شديداً ، ولم يُجبهم لما سألوه ، وجعل يبكي ويحزن ويجدد عليهم أمر يوسف وحديثه وهم يمدحون الملك وحسن سيرته ، ويقولون : يا أبانا ، ما رأينا ملكاً قط أشبه به منكَ ، وإن جميع عاداته وخلقه وسيرته تشبه خلق الأنبياء ، وقد أحسن إلينا ، ووجدنا عنده الزيادة ، ولو حملنا أخانا إليه لازددنا كرامة عنده مع ما كنا نزداد مع جملة من الهدايا والتحف ، وأكثروا عليه القول ، فلم يُجبهم بشيء ، ولم يزد على قوله : ﴿ **هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [يوسف : ٦٤] ، فلما أعياهم ذلك قام واحد منهم إلى رحله وفتحه ، وقام الجميع وفتحوا رحالهم ، فوجدوا بضاعتهم قد رُدَّتْ ، فتأكدت المحبة واشتدت ، وقيل في المعنى :

هَدَايَــا النَّاسِ بَعْضِهِمُ لِبَعْضٍ ... تُؤَكِّــدُ في قُــلُوبِهِمُ الوِصَالا
وَتَزْرَعُ فِي القُلُوبِ هَوًى وَوُدًّا ... وَتَكْسُوهُمْ إذَا حَضَرُوا جَمَالا

قال : فرجعوا إلى أبيهم فرحين مغتبطين متعجبين من كرمه ، وهو قوله تعالى :

﴿ **وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إليهِمْ** ﴾ [يوسف : ٦٥] ؛ ذلك أنهم أروه البضاعة المردودة من الذهب والفضة ، وقوي أملهم على الرجوع إليه بما في أيديهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ **مَا نَبْغِي** ﴾ وجهان : **أحدهما** على وجه الاستفهام : أي ما نطلب من الخير وحسن الظن بذلك الملك بعد ما كان الكيل موفوراً ، ورد البضاعة والأثمان مستودعة في أوعيتنا هذه ، فما نبغي بعد هذا ، أي ما نلتمس من الخير أكثر من هذا الوجه ، **الثاني** ما نبغي ، أي ما نكذب في قولنا : أرسله ، وصدقنا في قولنا من إحسان الملك إلينا واستدعائه أخانا فلا بأس أن ترسله معنا ، فهذه بضاعتنا رُدَّت إلينا ، فإذا عدنا إليه بأخينا نمير أهلنا ، يعنون نحمل الميرة لأهلنا ، ونحفظ أخانا ونكرمه ، ونرده إليك مسرعاً ، ونزداد إذا كان أخونا معنا حمل بعير ، وهذه كانت عادة يوسف عليه السلام يكتال لكل واحد حمل بعير هين عليه يسير ، وحمل البعير يومئذ له قيمة عظيمة ، فلما رأى يعقوب عليه السلام ذلك سكن قلبه إلى بعث ابنه بنيامين معهم ، ولكنه لم يجبهم إلى ذلك إلى أن فنيَ ما عندهم من الطعام ، ودخل الصبيان عليه يبكون من الجوع ، فلان قلبه ، وطابت نفسه على توجيه الأخ معهم ، واستخار الله تعالى في ذلك ، وعزم على الصبر فيما نزل به ، وقيل :

فُؤادِي لِمَا قَدْ نَالَ مِنْكَ حَزِينُ ... وَلَيْلِي سُهْدٌ كُلُّهُ وَأَنِينُ
وَعَاهَدْتُ صَبْرِي أَنْ يَفِيءَ بِمَوْعِدِي ... وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الصَّبْرَ فِيكَ يَخُونُ
وَهَبْتُ لَكَ اللُّبَّ الذي أَنْتَ سَاكِنٌ ... بِهِ وَلَهُ قَدْرٌ لَدَيَّ مَكِينُ
فَأَكْثَر عُذَّالِي لِذَاكَ مَلامُهُمْ ... فَقُلْتُ وَعُذْرِي فِي الجَوَابِ مُبِينُ
وَقَدْ تَخْرُجُ الحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... ذَخَائِرَ مِنْ رَبٍّ بِهِنَّ ضَنِينُ

ثم قال لهم ما أخبر الله عز وجل ﴿ **لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ** ﴾ [يوسف : ٦٦] ، يعني إلا أن ينزل بكم أمر مقدر من السماء لا يمكنكم دفعه عنكم من موت أو مرض أو غير ذلك ، فكأنه استثنى موثقه ، وعلم أن المقدور إذا نزل لا يمكن أحدا صرفه ولا زواله ، فقال : ﴿ **إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾ [يوسف : ٦٦]

أي شهيد عليكم ، وهو موفقكم للوفاء بالعهود وإبرار الأيمان . سُئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الموثق الذي أخذه يعقوب على ولده فقال : إن يعقوب ﷺ قال لولده : يا معشر أولادي ، إن ختنتموني في ولدي بنيامين ؛ فأنتم بُرآء من النبي الأمي الذي يكون في آخر الزمان ، له أمة لهم صفوف في الصلاة كصفوف الملائكة في السماء ، ودوي في الأسحار بشهادة أن لا إله إلا الله ، وهو صاحب التاج والهراوة ، والقضيب والإداوة ، والوجه الأقمر ، والجبين الأزهر ، والحوض المورود ، والمقام المشهود ، ذلكم النبي الذي يُسمى محمداً ﷺ ، فأنتم بُرآء منه ، وهو مُعرض عنكم بوجهه يوم القيامة إن ختنتموني في ولدي قالوا : بلى ، قال يعقوب : ﴿ **اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾ [يوسف : ٦٦] ، وقيل في المعنى :

بِجَلالِ قَدْرِكَ صَحَّتِ الأَخْبَار ... وَتَتَابَعَ الإِعْلامُ والآثَارُ
وَرَوَى الثِّقَاتُ وصَحَّ مَا قَدْ أَثْبَتُوا ... طُرًّا بِأَنَّكَ سَيِّدٌ مُخْتَارُ
وَالأَنْبِياءُ بِكَ المَوَاثِقُ أَكَّدُوا ... وَتَأَكَّدَ التَّفْضِيلُ والإِيثَارُ
لَمَّا رَأَى يَعْقُوبُ تَوْجِيهَ ابْنِه ... وَفِرَاقُهُ أَمْرٌ لَدَيْهِ كِبَارُ
أَخَذَ العُهُودَ عَلَى بَنِيهِ وَقَالَ : إِنْ ... خنتُمْ ولاحَ عَلَيْكُمُ الإِدْبَارُ
فَمُحَمَّدٌ مِنْكُمْ بَرِيءٌ يَوْمَ لا ... سِتْرٌ إِذَا لَفْحُ السَّعِيرِ يُصَار
يَا سَيِّدًا شَهِدَ الوُجُودُ بِفَضْلِه ... قَبْلَ الوُجُودِ فَمَا لَهُ إِنْكَار
مِنِّي السَّلامُ عَلَيْكَ مَا بَرْقٌ سَرَى ... وَيُعَاقِبُ الإِمْسَاءُ والإِبْكَارُ

قال : فلما قضى يعقوب موثقه ، وأنفذ عهده ، دعا ابنه روبيل ، فقال : يا روبيل ، اكتب عني كتاباً إلى ملك مصر أمْليه عليكَ ، قال : نعم ، فكتب : باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، من يعقوب ، إسرائيل الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر ، أما بعد : فإنكَ سألتني على لسان أولادي عن سبب حزني وشيبي وانحناء ظهري وذَهاب بصري ، فاعلمْ أن أولى الناس بذلك وأحقهم به أخوفهم من ربه وأذكرهم لمعاده ، فأما كِبَري قبل أوانه فمن خوف يوم القيامة ، وأما شيبي قبل أوانه فمِن ذكر النار وشدّة عذابها ، وأما انحناء ظهري

ووهن عظمي وذهاب بصري فمن حزني على قُرة عيني يوسفَ ومواصلة بكائي عليه ، فإنه كان قرة عيني ونور بصري ، وهو كان أنيسي في الخلوة ، ومرادي في الملا ، وقد أُصبتُ فيه وفُرقَ بيني وبينه ، فلا أدري أحي هو فأرجوه أم ميت فأحتسبه ؟ وأنا من أهل بيت موكل بنا البلاء ، قد خُصصنا بذلك ، لا تصفو لنا الدنيا ، ولا نزال فيها مُنغَّصين مُعذَّبين ، وما ذلك لهواننا على الله عز وجل ، ولكنها حماية ليخلص لنا أجرنا ، ويسلم من النقص عنده حظنا ، وقد بلغني اهتمامكَ وسؤالكَ عني وعن حالي ، والله تعالى يجزيكَ على ذلك خيراً ، وكفى بالله مجازياً ومثيباً ، واعلم أنك لا تُكرمني بكرامة هي أعظم في صدري وأبلغ لشكري من أن تُعَجِّلَ لي بسراح ولدي وردهم إليَّ ، فتجدد بذلك أنسي ، وتبسط بصرفهم نفسي ، وتزيل وحشتي ، وتكرم شيبتي ، فلو رأيتَ حالي لأبكاكَ ما أنا عليه ، وقد وجهتُهم إليكَ بالأمانة فرُدَّهم لي بالأمانة ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته ، وقيل في المعنى :

مُحِبٌّ بَرَاهُ الشَّوْقُ بِالمَنْزِلِ الأَقْصَى ... يُنَادِيكُمْ : رِيشُوا جَنَاحِيَ قَدْ قُصَّا
يَزِيدُ بِطُولِ العُمْرِ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ... وَتِلْكَ زِيَادَاتٌ تُكَسِّبُهُ نَقْصَا
جَلِيدٌ عَلَى وَقْعِ المُلِمَّاتِ صَابِرٌ ... لَهُ أَنَّةٌ تَرْقَى وَلَسْتَ تَرَى شَخْصَا
إِذَا مَا جَرَى تَذْكَارُكُمْ فِي ضُلُوعِهِ ... تَمَايَلَ فَاهْتَزَّتْ مَعَاطِفُهُ رَقْصَا
وَقَدْ قَضَتِ البَلْوَى مَدَامِعَ جَفْنِهِ ... فَهَلْ عَطْفَةٌ مِنْكُمْ فَيَقْبَلَ مَا قَصَّا
سَقَتْهُ اللَّيَالِي كَأْسَ ذُلٍّ وَمِهْنَةٍ ... فَأَصْبَحَ لا قَبْضًا لَدَيْهِ ولا قَنْصَا
سَتَقْطَعُ بِيَدِ الحُبِّ أَيْنُقُ وَجْدِهِ ... وَيُعْمِلُ فِي مَرْضَاتِكَ الوَجْدَ وَالنَّصَّا
لَعَلَّكَ تُحْيِي دَارِسَاتِ رُسُومٍ مِنْ ... بَرِيقَةِ هِجْرَانِ المَحَبَّةِ قَدْ غُصَّا
فَيَمْنَحُ بَعْدَ البُعْدِ أُنْسًا وَقُرْبَةً ... وَيُصْبِحُ مِنْ بَعْدِ التَّبَاعُدِ مُخْتَصَّا

ثم ختم الكتاب ، وقال لبنيه ما أخبر الله عنه يا بنيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، قيل : إنه خاف عليهم العين ، ولا عجب في ذلك

فإن نبينا ﷺ قال : « السحر حق والعين حق »(١) . وقال : « استعيذوا من العين فإنها تورث الرجل القبر » . وكان ﷺ يُعَوِّذُ الحسن والحسين ويقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة »(٢) . وقيل : كان أبو عبد الله الباجي مجاب الدعوة وله كرامات وآيات ، فبينما هو في بعض أسفاره إما حاجًّا وإما غازياً على ناقة له ، وكان في القافلة رجل عائنٌ ما نظر قط إلى شيء إلا أتلفه وأسقطه ، وكانت عند أبي عبد الله ناقةٌ فارهةٌ ، فقيل له : احفظها من العائن ، فقال : ليس له إلى ناقتي سبيل ، فأُخبر بذلك العائن ، فتحرى رَحْلَ أبي عبد الله ، وجاء إلى ناقته فعانها ، فسقطت الناقة من ساعتها تضطرب ، فأتى أبو عبد الله ، وعُرِّف بذلك ، فقال : دُلوني على العائن ، فدلوه عليه ، فوقف عليه وقال : بسم الله ، حبس حابس ، وحجر يابس ، وشهاب قابس في عين العائن ، رددتُ عين العائن عليه ، وعلى أحب الناس في كبده وكليتيه ، لحم رقيق ، ودم دقيق ، وعظم وثيق ، وفي ماله يليق ، ﴿ **فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إليك الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ** ﴾ [الملك ٣ ، ٤] ، فسالت حدقتا العائن على خديه ، وقيل في المعنى :

العَيْــنُ حَــقٌّ فَلا تَأْمَنْ مِنَ المِحَنِ ... وَعُــذْ بِــرَبِّكَ في الإسْــرَارِ والعَلَنِ
فالاسْــتِعَاذَةُ حِصْــنٌ مَنْ يَحُلُّ بِهِ ... يَكُــونُ مَا عَاشَ في حِفْظٍ مِنَ الفِتَنِ
وَاعْــلَمْ بِــأَنَّ كَمَالَ البَدْرِ مُقْتَرِنٌ ... بِالنَّقْصِ فاحْذَرْ أخِي مِنْ سَطْوَةِ الزَّمَنِ
واعْــلَمْ حِسَانُ عُيونِ النَّاسِ نَاظِرَةٌ ... كَمَــا يَقُــولُ فَصِيحُ القَوْلِ ذُو لَسَنِ
عَيْــنٌ أصَــابَتْكَ إنَّ العَيْــنَ صَائِبَةٌ ... وَالعَيْــنُ أَسْرَعُ مَا تَأْتِي عَلَى الحَسَنِ

فقال يعقوب عليه السلام لبنيه : « ادخلوا من أبواب متفرقة » أي ليدخل كل واحد منكم من باب منفرد وطريق سوى طريق الآخر ، فإنكم إذا دخلتم متفرقين كان أبعد لكم من إصابة العين ، ثم علم أن ذلك ليس بنافع من الحكم والقدر ، فقال : ﴿ **وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ** ﴾ [يوسف : ٦٧] أي

---

(١) أخرج البخاري الشطر الثاني منه ٥ /٢١٦٧ ، ومسلم ٤ / ١٧١٩.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٤ / ٢٣٥ ، وابن حبان في صحيحه ٣ / ٢٩١.

القضاء والتدبير والحكم والمشيئة ، إنما هي لله عز وجل وحده يفعل ما يشاء عليه توكلت ، وفوضت أمري إليه ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، وقيل في المعنى :

مَا الحُكْمُ حُكْمِي ولا التَّقْدِيرُ تَقْدِيرِى ... مَا الرَّأْىُ رَأْيِي ولا التَّدْبِيرُ تَدْبِيرِي
يَـا مَـنْ يَـلُومُ عَلَى رَأْيِي وَيَعْذِلُنِي ... أَنَـا المُقَـادُ بِأَرْسَـانِ المَقَادِيـرِ

وقيل أيضاً : إنما أراد يعقوب عليه السلام تفريقهم ؛ لأنه كان وصفه له الأعرابي حين لقيه يوسف عليه السلام وقال : أبلغ رسالة المغموم المهموم إلى المكظوم ، وقال : رأيته بمصر ، قيل : نزل عليه عزرائيل عليه السلام ، فقال له : هل قبضتَ روح يوسف بين الأرواح ؟ فقال : لا ، إنما هو حي واطلبه من ههنا ، وأشار إلى ناحية مصر ، فأمرهم أن يتفرقوا على الأبواب ، ويأخذوا المجانح والطرق ؛ لعل واحداً منهم يلقى يوسف في طريقه ، أو تقع عينه عليه في سيره ، ويعقوب عليه السلام لا يعلم ما خص الله به يوسف من الملك والسلطان والطَّوْل والامتنان ، وقيل في المعنى :

لَـمْ يَـدْرِ يَعْقُوبُ مَا أَوْلاهُ مَوْلاهُ ... مِـنْ مُـلْكِهِ وَحَـبَاهُ مَا تَمَنَّاهُ
أَوْصَـى بَـنِيهِ بِـتَفْرِيقٍ إِذَا دَخَلُوا ... لَعَـلَّ وَاحِدَهُـمْ إِنْ سَارَ يَلْقَاهُ
لَـمْ يَـدْرِ أَنَّ إِلَـهَ العَرْشِ سَائِقُهُمْ ... طُـرًّا إِلَيْـهِ لأَمْـرٍ دَقَّ مَعْـنَاهُ
وَأَنَّ بَيْـنَ يَدَيْـهِ سَـوْفَ يُوقِفُهُمْ ... حَـتَّى يُرِيهِ حَقِيقًا صِدْقَ رُؤْيَاهُ
وَرُبَّ طَـالِبِ أَمْـرٍ سَـاقَهُ سَبَبٌ ... أُنِيـلَ مَـا رَامَـهُ أَوْ مَا تَرَجَّاهُ
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبْ قَدْ جَاءَهُ فَرَجٌ ... فَظَـلَّ يَعْجَـبُ مِنْ أَفْعَالِ مَوْلاهُ
يَـا صَـاحِبَ الهَمِّ إِنَّ الهَمَّ مُنْفَرِجٌ ... أَبْشِـرْ بِخَيْـرٍ فَـإِنَّ الفَاتِحَ اللهُ

ثم أخذوا ولده بنيامين بعد أن شد عليه منطقته التي كانت لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وناوله قضيبَ أخيه يوسفَ ، ثم ودعه وقبَّله بين عينيه ، وقال : هكذا فعلتُ بأخيكَ يوسف ، استودعتُكَ الله رب العالمين ، فلما جاءوا باب مصر تفرقوا ، ودخل كل أخوين من باب ، وبقي بنيامين واقفا وحده عند باب الشام ، لم يدرِ أين يذهب ، ولم يعرف أحد بلسانه ، فنزل جبريل عليه السلام على يوسف ، وقال له : يا يوسف ، قم والبس جلباب الملك ، واركب ناقة ، واقصد باب الشام ، فإن أخاكَ من أمكَ وأبيكَ يسأل كل مَنْ مر به وهم لا يعرفون كلامه ، فبكى يوسف

ثم برقع وجهه ، وركب ناقته ، وسار حتى وصل إليه ، وسلم عليه بالعبرانية ، وقال له : فهو سهو سامين ، معناه : من أين أنت ؟ وما تريد ؟ قال : هوسم ، يعني من الشام في طلب الميرة فمن أنت ؟ فما علم بكلامي أحد غيرك ، فقال له يوسف عليه السلام : أنتَ في بلاد لم تعرف بالعبرانية ، وقيل في المعنى :

إنْ كَانَتِ الدَّارُ فِيمَا بَيْنَنَا سَلَفَتْ فَأَنْـتُمُ فِي سُوَيْدِ القَلْبِ سُكَّانُ
واللهِ مَا غَيَّرَتْنِي سَلْوَةٌ عَرَضَتْ ولا طَوَانِي عَنِ المَحْبُوبِ إنْسَانُ
وَكَيْفَ أَسْلاكُمُ والقَلْبُ عِنْدَكُمُ وفِـي الحَشَا مِنْكُمُ وَجْدٌ وَنيرَانُ
لا تَهْجُرونَ فتًى مَا خَانَ عَهْدَكُمُ فَتَبـلُغُوا غَرَضَ الحُسَّادِ لا كَانُوا

قال : ثم أعطاه سُواراً على عضده يساوي خمسة آلاف دينار ، فأخذه بنيامين و لم يدرِ ما يصنع به ، فعلم يوسف أنه لم يعرفه ، فقال له يوسف : اجعله على عضدكَ ، ثم قال :تعالَ معي ، انظر إخوتكَ ، فدخل الاثنان من باب واحد ، فلما دنا من إخوته وهم قيام على الباب ، قال له يوسف : امضِ إليهم فبكى ، وقال : والله ما أشتهي أن أفارقكَ ، فقد حنَّ قلبي إليكَ ، ثم راح نحو إخوته فرحان ، فقالوا : له ما رأيناكَ قط فرحانَ منذ فارقتَ أخاكَ يوسف مثل هذه الساعة ؟ قال : نعم ، وقف بي الساعة راكب على ناقة فكلمني بالعبرانية ، وأعطاني شيئاً من الزجاج ، فقال له يهوذا : أرني هذا الزجاج حتى أنظره ، فأعطاها له ، فقال له : يا أخي ، ما أحسن هذه الزجاجة ، دعها في عضدي لئلا تضيعَ منك ، فقال شمعون : يا يهوذا ، أرني أنظرها ، فطلبها يهوذا في عضده ، فلم يجدها ، فقال بنيامين : يا أخي ، قد انتقلتْ في عضدي ، فأخرجها لشمعون فشدها في عضده ، ثم طلبها فلم يجدها ، فقال بنيامين : يا أخي ، لا تحزن ، ها هي على عضدي ، قوله تعالى : **﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾** [يوسف: ٦٨] أي ما يعصمهم دخولهم مصر متفرقين من قضاء الله شيئا حتى ابْتُلُوا بإمساك أخيهم ، وادعاء السرقة عليهم ، إلى غير ذلك مما امْتُحِنُوا به ، وقيل : إنه لم يكن قصدُ يعقوب عليه السلام القولَ الأولَ ولا الثاني ، وإنما كان حاجة في نفس يعقوب قضاها ، أي غُصة كانت في قلبه من فراق يوسف ، ثم جاءت غصة أخرى بفراق بنيامين ، فحمله هذان الغَمَّان على أمره لهم بالتفرقة ؛ لأن الغريق يتعلق بما لقي قصداً للنجاة ، وكذلك غريق الهموم يتعلق بكل وجه يظن أنه

يوصله إلى الفرج ، وقد قبل الله عذره ، فلم ينقصه أجره ، ولم يعاتبه على ذلك ، وقال تعالى مخبراً عنه : ﴿ **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٦٨] . فلما وصلوا إلى مصر أُخبر يوسف عليه السلام بقدومهم ووصول أخيه بنيامين معهم ، فسُرَّ بذلك غاية السرور ، وأمر بتزيين مجلسه بالزينة الحسنة ، فزُين وبُخِّر ، وقعد على سريره ، وأمر بأواني الذهب والفضة فمُلئت مسكاً وعنبراً وأنواع الطِّيب ، وصُفَّت الأواني من باب قصره إلى موضع سريره عن يمين وشمال ، ثم أمر بدخولهم ، فلما دخلوا عليه قَدَّمُوا بنيامين من بين أيديهم ليُعلموا الملكَ بوصوله معهم ، ودخلوا على أثره ، فلما نظر بنيامين إلى تلك الأواني جعل يأخذ الطيب ، ويتمسح به ، فجعل إخوته يلومونه ويزجرونه ، ويقولون له : ما أجهلكَ ، ألكَ وُضعت هذه الأواني ، ولأجلكَ مُلئت طيباً ؟ أليس هذا سوء أدب منكَ ؛ لأنكَ لم تتعودِ الدخولَ على الملوك ، إنما تعودتَ صحبة الغنم والرعي ، فقال لهم بنيامين : يا إخوتي ، ليس الأمر كذلك ، إنما هذا الملك ملك عزيز ، وهو أعز الملوك وأطيبهم نفساً ، وقد تعود من مي الطيب فتغيره من أدنى رائحة ، ونحن قوم سفارٌ وقد تغيرت رائحتنا ، ففعلتُ هذا لتزول عنا الرائحة الكريهة ، فقالوا له : صدقتَ ، وأخذوا يتمسحون ويوسف عليه السلام ينظر إليهم وقد امتلأ سروراً وفرحاً ، فلما وقفوا بين يديه نظروا إلى بهاء ملكه ووقار سلطانه وزيادة زيه ، فتعجبوا من ذلك ، فقال بعضهم لبعض : لعل هذا غير الذي كنا لقيناه ؟ قال : فبدأهم الترجمان بالكلام ، وقال : يقول الملك : من أنتم ومن أي بلد جئتم ؟ فقالوا : نحن بنو الأنبياء الذين أمرتنا بالإتيان بأخينا ، فقال : نعم ، عرفتكم ، وأنتم عندي مكرمون ، فهل أتيتموني بأخيكم المذكور ؟ فحينئذ استبشروا ، وعرفوا أنه الملك الذي أرسلهم ، فقالوا : أيها العزيز ، إنا قد امتثلنا أمركَ ، ولزمنا طاعتكَ وسمعنا ، وأتيناكَ بأخينا ، ومعنا كتاب من أبينا ، فقال لترجمانه : خذه منهم ، فأخذه منهم ، وأعطاه ليوسف عليه السلام ، فلما قرأ كتاب أبيه ووجد فيه ما وجد ، أصابه الولوع ، وفاضت عيناه بالدموع ، وقيل في المعنى :

وَافَى الكِتَابُ كَأَنَّ مِسْكًا خَطُّهُ ... تَبْدُو رَوَائِحُهُ إِذَا يُسْتَنْشَقُ
واليَاسَمِين حكته قطعة صفحة ... وَاللَّفْظُ دُرٌّ قَدْ حَكَاهُ المَنْطِقُ
فِقَرَاته ومَدَامِعِي مُنْهَلَّةٌ ... وَالْقَلْبُ مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ يَخْفِقُ

فَكَأَنَّنِي ظَامٍ تَوَقَّدَ صخرُهُ　　وَكَأَنَّهُ مُزْنٌ مَعِينٌ مُغْدِقُ
يَا كَاتِبًا يَشْكُو بِكَثْرَةِ شَوْقِهِ　　وَأَنَا إِلَى لُقْيَاهُ مِنْهُ أَشْوَقُ
لا تَحْزَنَنَّ مِنَ البُعَادِ وَفَزْعِهِ　　فَلَكُمْ بَعِيدٌ بِالتَّوَاصُلِ يَلْحَقُ
وإِذَا المَقَادِرُ سَاعَدَتْ لمُقَدَّرٍ　　فَلَهُ مِنَ الضِّيقِ التَّوَسُّعُ يُخْلَقُ

إخواني ، ما كل مَنْ دخل حصل ، ولا كل من دنا وصل ، رب دانٍ وهو بعيد ، ومواصل وهو شريد ، دخل إخوة يوسف عليه جماعة ولم يصل إلا واحد ، كذلك من دخل في طريق المعرفة وميدان الخدمة ، فالداخل كثير والواصل قليل ، ولهذا أصاب قلوب المحققين الذهولُ حتى كابدهم السقم والنحول ، ولله در قائلهم إذ يقول :

خَلِيلَيَّ قُطَّاعُ الفَيَافِي إِلَى الحِمَى　　كَثِيرٌ وإِنَّ الوَاصِلِينَ قَلِيلُ
وُجُوهٌ عَلَيْهَا لِلْقُلُوبِ عَلامَةٌ　　وَلَيْسَ عَلَى كُلِّ الوُجُوهِ قَبُولُ

قال أحد السادة : رأيتُ ليلة كأني في مسجد الشونيزية ، وفيه رجلان أحدهما قائم ، والثاني مضطجع نائم ، ورأيتُ إبليس واقفاً بالباب يريد الدخول فلا يقدر فقلتُ له : مالكَ لا تدخل ؟ قال : إني لا أقدر ، قلتُ : ولِمَ؟ قال : كلما أردتُ أن أدخل لوسوسة القائم أحرقتني أنفاس النائم . عجباً لإخوة يوسف دخلوا داره ولم يعرفوه ، وكذلك دخلت الملحدة دار التوحيد ولم يعرفوا الموحد ، فتاهوا في بيده التحديد ، ووقفوا مع الفكر والتبليد ، وقيل في المعنى :

عَجِبْتُ لِمَنْ أُفَهِّمُهُ فَيَعْيَا　　عَنِ المعنى أكرره مرارا
وَمَنْ دَخَلَ الجِنَانَ بِغَيْرِ قَلْبٍ　　فَكَيْفَ يَرَى بِعَيْنَيْهِ الثِّمَارَا

(حكاية) : قال سيدي إبراهيم الخواص : طالبتْني نفسي في وقت من الأوقات بالخروج إلى بلاد الروم ، فخوفتُ نفسي فلم تلتفت إلى الخوف فلم تكتف ، وعملتُ على نفي الخاطر فلم ينتف ، فخرجتُ أخترق ديارها وأجول أقطارها ، والعناية تكتنفني ، والرعاية تلحظني ، لا ألقى نصرانيًا إلا غض نظره عني ، وتباعد مني ، إلى أن أتيتُ مصراً من الأمصار ، وإذا عند باب البلد عبيد ورجال على رؤوسهم الأسلحة وبأيديهم المقامع ، فلما رأوني قاموا إليَّ وقالوا : طبيبٌ أنت ؟ قلت : نعم ، قالوا : أجبِ الملكَ ، فاحتملوني إلى ملك عظيم ، ذي وجه وسيم ،

فلما نظر إليَّ قال : أطبيب أنتَ ؟ قلت : نعم ، قال : احملوه إليها ، وعرِّفوه بالشرط قبل دخوله عليها ، قال : فأخرجوني ، وقالوا : إن للملك ابنةً ، وقد أصابها اعتلال شديد ، وقد أعيا الأطباء علاجُها ، وما من طبيب دخل عليها وعالجها ولم يُفد طبه إلا قتله الملك ، فانظر لنفسك ! فقلتُ : إن الملك ساقني إليها ، فأدخلوني عليها ، فاحتملوني إلى بابها ، فلما قرعوه إذا هي تنادي من داخل الدار : أدخلوا الطبيب ، فلي وله سر عجيب ، وقيل في المعنى :

افْتَحُوا البَابَ فَقَدْ جَاءَ الطَّبِيبُ ... وانْظُرُوا نَحْوِي فَلِي سِرٌّ عَجِيبُ
فَـلَكَمْ مُـقْتَرِبٌ مُبْتَعِـدٌ ... وَلَكَـمْ مُبْـتَعَدٌ وَهْوَ قَرِيبُ
كُـنْتُ فِـيمَا بَيْنَكُمْ فِي غُرْبَةٍ ... فَـأَرَادَ الحَقَّ أُنْسِـي بِغَرِيب
جَمِيعَتُـنَا نِسْـبَةٌ دِيـنِيَّةٌ ... فَتَرَاءَيْـنَا مُحِـبٌّ وَحَـبِيبُ
وَدَعَـانَـا لِلـتَّدَانِي دَاعِـيٌ ... حُجِـبَ الغَـافِلُ عَنَّا والرَّقِيبُ
فاتْرُكُوا عَذْلِي وَخَلُّوا لَوْمَكُمْ ... إِنَّـنِي يَا وَيْحَكُمْ لَسْتُ أُجِيبُ
لست ألوى نحو فانٍ غـائبٍ ... إِنَّمَـا قَصْـدِيَ بَاقٍ لا يَغِيبُ

قال : فإذا شيخ كبير قد فتح الباب بسرعة ، وقال : ادخل ، فدخلتُ ، وإذا بيت مبسوط بأنواع الرياحين ، وإذا سترٌ مضروب في زاوية من زواياه ومن خلفه أنين ضعيف يخرج من هيكل نحيف ، فعدتُ بإزاء الستر ، وأردتُ أن أسلِّم ، فذكرتُ قوله ﷺ : « لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام ، فإذا لقيتموهم في طريق اضطروهم إلى أضيقه »[1] ، فأمسكت ، فنادت من خلف الستر : أين سلام التوحيد والإخلاص يا إبراهيم يا خواص ؟ فعجبتُ من ذلك ، وقلتُ : من أين عرفتني ؟ فقالت لي : إذا صفت القلوب والخواطر أعربت الألسن عن مخبآت الضمائر ، سألته البارحة أن يقيض لي وليًّا من أوليائه يكون لي على يديه الخلاص ، فنُوديتُ في زاوية بيتي : لا تحزني ، إنا سنرسل إليك إبراهيم الخواص ، فقلت لها : وما خبرك ؟ فقالت لي : منذ أربع سنين قد لاح لي الحق المبين ، فهو المحدث والأنيس ، والمقرب والجليس ، فرمقني قوم بالعيون ، وظنوا بي الظنون ، ونسبوني إلى الجنون ، فما دخل عليَّ طبيب منهم إلا أوحشني ، ولا زائر إلا أدهشني ،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٢ / ٣٥٤ ، والبخاري في الأدب المفرد ١ / ٣٧٨ ، والبيهقي في الكبرى ٩ / ٢٠٣ .

فقلتُ : ومَنْ دلك على ما وصلت إليه ؟ قالت : براهينه الواضحة وآياته اللائحة ، وإذا أوضح لكَ السَبيل شاهدتَ المدلول في الدليل ، قال : فبينما أنا أكلمها ، وإذا بالشيخ الموكل بها قد دخل ، فقال لها : ما فعل طبيبك ؟ فقالت : عرَفَ العلة وأصاب الدواء ، فظهرت عليه البشرى والسرور ، وقابلنيَ بالبر والحبور ، وسار إلى الملك وأخبره ، فحضه على إكرامي ، فبقيتُ أختلف إليها سبعة أيام ، فقالت لي : يا أبا إسحاق ، الهجرةَ إلى دار الإسلام ، فقلت : وكيف يكون خروجك ؟ ومنْ يتجاسر عليه ؟ فقالت : الذي أدخلكَ عليَّ وساقكَ إليَّ ، فقلتُ : نعْمَ ماَ قلت ، قال : فلما كان من الغد خرجنا على باب الحصن ، وحجبَ عنا العيَون مَنْ ﴿ **إِذَا أَرَادَ شَيْئاً فإنما يَقُول لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [يس : ٨٢] ، فما رأيتُ أصبر منها على الصيام ، وآدبَ منها على القيام ، وجاورتْ بيت الله الحرام سبعة أعوام ، ثم قضت نحبها ، ولحقت بربها ، وبمكة قبرها ، رحمة الله عليها ، وقيل في المعنى :

وَلَمَّــا أَتَوْني بالطَّبيبِ وَقَدْ بَدَتْ ... دَلائِــلُ مِــنْ دَمْعٍ سَفُوحٍ وَمِنْ سُقْمِ
نَضَا البُرْدَ عَنْ وَجْهِي فَلَمْ يَرَ تَحْتَهُ ... سِــوَى نَفَسٍ مِنْ غَيْرِ رُوحٍ ولا جِسْمِ
فَقَــال لَهُــم : دَاءٌ تَعَــذَّرَ طِــبُّهُ ... وَلِــلْحُبِّ سِــرٌّ لَيْــسَ يُدْرَكُ بالوَهْمِ
أَرَى أَثَــرًا للنَّصْــلِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ ... يَقِيــنًا وَلَكِــنْ لَسْتُ أَعرِفُ مَنْ يَرْمِي
سَــلُوهُ عَنِ السَّهْمِ المُصيبِ فُؤادَهُ ... عَسَــى سِيمَةُ الرَّامِي تَلُوحُ عَلَى السَّهْمِ
فَقَــالُوا : سَــأَلْنَاهُ فَلَمْ نَرَ عِنْدَهُ ... مَعَ البَحْثِ والتَّفْتِيشِ شَيْئًا سِوَى الكَتْمِ
فَقَالَتْ : إذًا لَمْ يَعْلَمِ النَّاسُ مَا بِهِ ... ولَــمْ يُعْــرَفِ الرَّامِي بِعَيْنٍ ولا بِاسْمِ
فَكَيْــفَ يَكُــونُ الطِّبُّ فِيهِ مُؤَثِّرًا ... دَعُونِــي فَــإِنِّي لَسْتُ أَحْكُمُ بالوَهْمِ

المجلس الخامس عشر

في قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِه آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قال لأَهْله امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص : ٢٩] .

الحمد لله الذي أنبعَ من عيون جفون المحبين الباكين من خشيته دموعاً غزاراً ، وأجرى في قلوب ألباب الأحباب من الوله والشوق جداولَ وأنهاراً ، وجَدَّدَ في أسرارِ أفكارِ المريدينَ منَ الوجدِ والتَّوْق أنواراً ، وأنبتَ في ضحضاح بطاحِ سراحِ صدورِ المحققينَ منْ أزهارِ التوكلِ والإخلاصِ والتواصلِ والاختصاصِ أثماراً ، وأمطرَ عليها من عجائب سحائب غرائب مواهب كرمه غيثاً مدراراً ، فأينعت الأزهارُ ، وأورقت الأشجارُ ، وغردت الأطيارُ على أفنانَ الأغصان بالتسبيح سرًّا وجهاراً ، وقام الوردُ يتباهى على الجلنار ويفتخرُ افتخاراً ، واشتاقت الشقائقُ إلى النسرين والبنفسج فحنَّتْ ورنَّتْ وبكتْ بدمعٍ ينحدرُ انحداراً ، فسُبحان مَنْ أنعمَ بنعمته وجاد برحمته على بَرِيَّتِه ، **﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾** [الحشر : ٢] اعتباراً ، فَجَّرَ أنهاراً ، وأنبتَ أشجاراً ، وجعل فيها من أنواع المطاعمِ والحبوب والألوان والمنافعِ ما يجب شُكره على العباد ليلاً ونهاراً ، وأخرجَ موسى من مَدْيَنَ والشوقُ لأمة قد أذكى في صدره جماراً ، فأهَّلَهُ لكلامه وخصَّهُ بإنعامه وأقامَ له مناراً ، فقال مَنْ لم يزل واحداً قهَّاراً : **﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِه آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ﴾** [القصص : ٢٩] ، أحمدُه على نعمه سرًّا وجهاراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ مُقرٍّ بوحدانيته إقراراً ، وأشهدُ أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله الذي استخلصه من نبعة العز مختاراً ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين نهجوا آثاراً وبذلوا إيثاراً ، صلاةً تقيم لها في القيامة مناراً ، وقيل في المعنى :

ولَمَّا وَرَدْنَا حانةَ القَسِّ زُوَّارَا ... وقد أشعلَ التوحيدُ في القلب أنوارَا

ولاحتْ لنا شمسُ الحقيقةِ في الدجى ... فأبدتْ على النفسِ النفيسة آثارَا

ونادى بِطُورِ القلبِ هاتفُ حُبِّهِ ... ليقتبسَ المدعوُّ مِنْ قُربنا نارَا

نَزَلْـنَا عـليهِ وَهْـوَ في دارِ ديـرِهِ يُـرَجِّعُ ألحانـاً ويضـربُ أوتارَا
ويعـلنُ بـالإنجيلِ في أهـلِ جيله ويقـرأُ تـوراةً لمنْ ضلَّ أو حارَا
كـأنَّ مقامـاتِ المعـارفِ ملكُهُ فـبينَ يديـهِ يـرفعُ الجَحْدُ إقرارَا
فـلُذْنَا بـهِ نبـتاعُ مـنهُ مُدامـةً ونلـثمُ إعظامـاً منَ الديرِ أحجارَا
فقـالَ لـنا : مَـنْ أنتمُ لا عدمتمُ فقـدْ آنَ إكـرامُ المـزورِ لمن زارَا
فقلـنَا : أتيـنا نبـتغي منكَ خمرةً تخامـرُ ألـباباً وتُدهـشُ أفكارَا
فسـاومْ وخُـذْ ما شئتَ فيها فإننا أتيـناكَ والمحجوبُ لم يَدْرِ ما دارَا
فقـالَ لـنا : عـندي بقايا مُدامةٍ وقـد عُمِّرَتْ قبلَ الملائكِ أعمارَا
بهـا هـامَ سِرُّ الرُّوحِ مِنْ رُوحِ آدمٍ فـنَعَّمَهُ السـاقي وأسـكنَهُ الدارَا
وخصَّصَـهُ بالقُـربِ مـنهُ كرامةً وَصَـيَّرَهُ مـا بـينَ أملاكهِ جارَا
ومِـنْ أجـلها نُـوحٌ أطالَ نُواحَهُ وبـرهامُ في دَنِّ التصـابي بها دارَا
وصَعْقُ ابنِ عِمرانٍ بها كانَ فاعْلَمُوا لأنَّ سـناها غـادرَ القلبَ طَيَّارَا
وأحيـا بها الأمواتَ عيسى ابنُ مريمٍ وأظهرَ دينَ الحقِّ في الأرضِ إظهارَا
وأُلْـبِسَ خـيرُ الخَـلْقِ منها طُلاوةً ففجَّـرَ مـا بـينَ الأصابعِ أنهارَا
فمـا نقدُهـا في مَهْرِ رِقِّ صفائكم فقلـنا : ألفـناها جِهاراً وإسرارَا
فَهيَّـمَ إعجابـاً وجـاءَ بقهـوةٍ تـروحُ لهـا الأرواحُ حبًّا وإيثارَا
ولاح لـنا السـاقي تَـنزَّهَ وَجْهُهُ عـنِ المِثْلِ والتشبيهِ قُدْساً وإكبارَا
فقـال لـنا : أهلاً وسهلاً ومرحباً فمـا زلـتمُ عندي كراماً وأبرارَا
ألا فاشـربوا كأساً مِنَ الوُدِّ مُترعاً حـباكمْ بـهِ ربٌّ تعـاظمَ قهارَا
فغبْـنَا بـهِ عَنْ كلِّ فانٍ ومُحْدَثٍ ومَنْ هامَ بالسُّكَّانِ لم يلحظِ الدارَا

قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ**

الطُّورِ نَاراً ﴾ [القصص : ٢٩] ، اعلم أن أربعة نفر خرجوا لأربعة أشياء ، فوجدوا أربعة أشياء : يوسف خرج للتزهة في البرية ، فوجد العبودية ، وبلقيس خرجتْ تنظر إلى ملك سليمان ، فوجدتْ معرفةَ الرحمن ، وطالوت خرج يطلب الحمار ، فوجد النُّصرةَ والظَّفَرَ على الكفار ، وموسى خرج يقتبس النار ، فوجد كلام الملك الجبار ، خرج للاصطلاء فانسدلت الظلمةُ ، وأصابَ زوجتَهُ الطلقُ ، وقعقع الرعد ، وأبرق البرد ، فاشتد عليها البرد ، فطلب النار ، فضرب زناده ، والشوق إليه قد ألهب فؤاده ، فشح الزناد بناره ؛ ليظهر أثر فقر موسى واضطراره ، فسار وهو منظور وقد اشتدتْ عليه الأمور ، فلاح له الإشراق من الطيور ، فأقبل وهو يرى اقتباسها غاية المنى ، فما وصل إلا وقد أدركه التعبُ والعنا ، فنُودِيَ : ﴿ **يَا مُوْسَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا** ﴾ [طه : ١٤] وقيل في المعنى :

أيـها العـبدُ كُـنْ لِمَـا لا تُـرَجِّي ... مـنكَ أرجَى علـى الذي أنتَ راجي
إنَّ مُـوسى مضَـى ليقبَـسَ نـاراً ... مِـنْ ضياءٍ رآه واللـيلُ دَاجِـي
فأتَـى أهْلَـهُ وقـد كَـلَّمَ اللــ ... ـــهَ ونـاجاهُ وَهْـوَ خـيرُ مُنَاجي
وكـذا الكَـرْبُ كلما اشتدَّ بالعبـ ... ـدِ دَنَـتْ مـنه ساعـةُ الانفراجِ

فعندما سمع كلام ربه كثر خفقان قلبه ، ولما بدت منه الغيبة شغل بذكر العصا عن الهيبة ، ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ [طه : ١٧] ، قيل : فما الحكمة في أنه قال : بيمينكَ ، ولم يقل : بيدكَ ؟ قالوا : لثلاثة أقوال : أحدها أنه كان في يسار موسى خاتم ، فلو قال : وما تلك بيدك لأشكل عليه الجواب ، الثاني أنه ذكر اليمين لفضيلة أصحاب اليمين ، الثالث لما جعل عصاه بيمينه صارت له شرفاً وفضيلة ، فكذلك مَنْ أُعْطِيَ كتابَهُ بيمينه ، فإن قيل : فما الحكمة في أنه سأل عن العصا وهو عالم بها ؟ قيل : لثلاثة أشياء : أحدها أنه أراد تعليم المعلمين كيف يدربون التلامذة للسؤال ، وينبئوهم عن التعليم ليهتدوا به من الضلال ، الثاني بين شفقته سبحانه للعاصين ، كأنه يقول : سألت موسى عن العصا وأنا أعلم بها ، كذلك أسألكم يوم القيامة عن الذنوب ، فلا تخافوا ، فأنا عالم بها ، وأنا اليوم أغفرها لكم ، الثالث قيل : لما تحيَّرَ موسى من هيبة الكلام آنسه بسؤاله عن العصا في ذلك المقام ، كما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال : « لما كانت الليلة التي أُسري بي

فيهـــا وقف جبريل عليه السلام في مقامه ، ثم دفعني ، فقال : ها أنتَ وربكَ ، فغبتُ عن تحية كل ملك وكلامه ، وصرتُ بمقام انقطعتْ عني فيه الأصواتُ ، وتَساوَى عندي فيه الأحياءُ والأمواتُ ، اضطربَ قلبي وتضاعفَ كربي ، فسمعتُ منادياً يُنادي بلغة أبي بكـــر : قـــفْ يا محمد ، فإن ربكَ يُصلي ، فشغلني ما سمعتُ عما كنتُ فيه ، وقلتُ : كيفَ يُصلي ربي ، وإنه لغني عن الصلاة لأحد ؟ وكيف بلغ أبو بكر هذا المقام ، فقال الله عزَّ وجلَّ : يا محمد ، أنا الغني أن أصليَ إلى أحد ، وإنما صلاتي أن أقـــول : سبحاني سبحاني ، اقرأ يا محمد : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً** ﴾ [الأحزاب : ٤٣] ، صـــلاتي رحمةٌ لكَ ولأمتكَ ، و إنما سماعُكَ صوتَ أبي بكر ، فإن أخاك موسى لما جـــاء إلى جـــبل الطُّور ، وعاين ما عاين من عظم ، أذهله ما رآه عما يُلقى إليه ، فشـــغلتُهُ عن الهيبة بذكر أحب الأشياء إليه ، وهي العصا ، فقلتُ : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ [طه : ١٧] ، ولما كان أبو بكر أحبَّ الأشياء إليكَ خلقتُ باسمـــه مَلَكاً »[1] ، وقول موسى عليه السلام : ﴿ **وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى** ﴾ [طه : ١٨] اختصار للكلام ، قيل : كان له في العصا ألف معجزة ، وقال ابن عباس رضي الله عـــنهما : « جـــاء رجـــل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أيَّ الأجلين قضى موســـى ؟ فقـــال : ما أدري و لم يُوحَ إليَّ في ذلك شيءٌ ، وسأسألُ جبريل ، فأتاه جبريل ، فقال : يا جبريلُ ، أيَّ الأجلين قضى موسى ؟ فقال : لا أدري ، وسأسألُ إســـرافيلَ ، فسأله ، فقال : لا أدري ، وسأسألُ ربَّ العالمين ، فسأل ربه ، فقال : يـــارب ، هذا جبريل يسألني ، وقد سأله نبيُّكَ محمدٌ : أيَّ الأجلين قضى موسى ؟ فقـــال الله عـــز وجل : يا إسرافيلُ ، قُلْ لجبريل يخبر نبيي محمداً أن موسى قضى أحسنهما وأتمهما عشر سنين ، إن الأنبياء إذا وعدت لم تخلف ، وكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا سُئل عن ذلك يقول : أخبرني جبريلُ ، عن إسرافيلَ ، عن الله عز وجل ، أن عـــبده موســـى قضى أتم الأجلين عشراً » ذكره وثيمة وغيره . قال وهب بن منـــبه : لما عمد موسى نحو النار التي رآها ، وانطلق يَؤُمُّها ، فلما وصل إليها رأى نـــاراً عظيمةً تخرج من جذع شجرة خضراء شديدة الخضرة ، يقال لها : العليق ،

---

(١) لم أقف عليه ، ولوائح الوضع بادية عليه .

وقيل : كانت شجرةَ العُنَّاب ، وقيل : عوسجة ، لا تزدادُ النار فيما يرى إلا اضطراماً ، ولا تزدادُ الشجرةُ مع كثرة الحريق إلا خضرةً وتنعماً ، فلما رأى ذلك من أمرها تعجَّبَ ، ولم يَدْرِ ما يصنع ، غلبه أمرها إلا أنه غلبه في قوله إنما يمنعها من الإحراق شدة خضرتها وكثرة مائها ، فوقف يرجو أن يسقط منها شيء ، فلم يسقط شيء ، فلما طال عليه ذلك أخذ ضِغْثاً من الحطب الرقيق ، وأَهْوَى به ليقتبس منها فمالتْ عليه ، فهرب حتى أبعدَ ، ثم عاد إليها ، فمالت عليه كأنها تريده ، فما زال يفعل ذلك مراراً حتى خمدتْ واستترت في الشجرة حتى كأنها لم تكن قبل ذلك ، فزاد تعجباً ، وجعل يطوف بالشجرة يميناً وشمالاً ، وقيل : إن لهذا شأناً ، ووضع أمرها على أنها مأمورة أو مصنوعة ، إلا أنه لا يدرى بما أمرت ولا من أمرها ، فوقف متحيراً ، لا يدرى أيرجع أم يقيم ، ثم نظر إلى فرعها فإذا لها خضرة ساطعة تشرق منها دياجي الظُّلَمِ ، ثم لم تَزَلِ الخضرةُ تستنيرُ وتبيضٌّ حتى عادت نوراً ساطعاً ما بين السماء والأرض ، لها شعاع كشعاع الشمس تَكِلُّ دونه الأبصار ، فلما نظر إليها كادت تخطفُ بصرَهُ ، فغمضَ عينيه بثوبه ، ولصق بالأرض ، واشتدَّ رعبه ، وطار قلبه ، وسمع دويًّا لم يسمع السامعون مثله ، فلما اشتدَّ عليه الأمر وكاد عقله أن يخالط ، نُودي : يا موسى ، فأسرع الإجابة استئناساً بالكلام ، وجعل يقول : لبيكَ لبيكَ ، قد سمعتُ كلامَكَ ، فأين أنتَ ؟ قال : أنا فوقكَ ، وعن يمينكَ ، وعن شمالكَ ، وأمامكَ ، وخلفَكَ ، وأقربُ إليكَ من حبل الوريد ، ﴿ **يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ** ﴾ [القصص : ٣٠] وقيل : إن إبليس - لعنه الله - عرض له عند انصرافه ، وقال له : يا موسى ، هذا الذي يكلمكَ هو ربكَ أم غيره ؟ قال : بل هو ربي ، لا إله إلا هو ، قال : ومِنْ أين تدري ذلك ؟ قال : أعرفه بأربعة أشياء : ***أحدها*** أن كلام البشر يُسمع من جهة واحدة ، وهذا أسمعه عن اليمين والشمال والخلف والأمام . ***والثاني*** أن كلام البشر يُسمع من الأذن ، وهذا كلام صارت كل جارحة فيَّ أذناً . ***الثالث*** أن كلام البشر هو بصوت له حروف تنقطع ، وهذا لا مقطعَ ولا حروفَ له . ***الرابع*** أن كلام الخَلْقِ لا يُوجد له دهشةٌ ولا طربٌ ، وهذا قد أطربني وأدهشني ، وقيل :

الخيامَ الخيامَ وَسْطَ الوِهَادِ   لاحتِ النارُ في ذُرَى الأطوادِ
هذه الدارُ فالتمسْ يا خليلي   منزلاً بينَ نخلِ ذاكَ الوادي

وتجسسْ مِنْ ساكني بيتِ ليلى ... هل أقاموا على شَفيرِ الوادي
فلكمْ ليلة أتيتُ إليها ... وظلامُ الدجى على الكونِ بادي
عندما أسفرتْ تَبَدَّى ضياءٌ ... دونهُ الشمسُ إذ تلوحُ بنادي
ودعتني لها فصارتْ عظامي ... مسْمَعاً مصغياً يجيبُ المنادي
عجبَ العاذلونَ مِنْ فَرْطِ شوقي ... لحبيبٍ قرارُهُ في فؤادي
فأنا كالغريقِ في لُجِّ بحرٍ ... يكثرُ الشُّرْبَ وَهْوَ ظمآنُ صادي
يا أُهَيْلَ الحِمَى ملكْتُمْ قُلَيْبِي ... وسلبْتُمْ تصبُّري ورُقَادِي
وتركتُمْ صَبابتي ووُلوعي ... ونحيبي وغربتي وسُهادي
كلُّ ما تفعلونَهُ فَهْوَ سُؤْلي ... لا أَبَالِي إذا بلغْتُ مُرَادي

وقيل : إن سبب سؤال موسى ﷺ النظر إلى ربه عز وجل أنَّ إبليسَ – لعنه الله – لما عَرَضَ له ، ولم يعلمْ أنه إبليسُ ، فقال : يا موسى ، إن كنتَ تزعمُ أنه ربكَ الذي كلَّمَكَ ، فسله النظر إليه ؟ هل أحد يخاطبه مولاه ، ولم ينظر إليه ، ولا يراه ؟ فكان مِنْ أمر سؤاله ما كان ، فاعترضَ له بعد ذلك ، فعلمَ أنه إبليسُ ، فقال له موسى : يا لعينُ ، لأجلِ عدم سجودك لآدم والكبر والهوى رضيتَ بالدنيا عوَضاً ، وتركتَ دارَ البقاء وجنةَ المأوى ، وستَصْلَى النارَ الكبرى ، ثم لا تموتُ فيها ولا تحيا ، فقال : يا موسى ، سَلْ مولاكَ أن يتوبَ عليَّ ، فلما ناجاه قال : يا رب ، أنت أعلم ، قال : يا موسى ، إن أراد التوبة فليسجد لآدم ، فلما لقيه بلغه أمرَ ربه ، فقال : هيهات ، أنا ما سجدتُ له وهو حي ، أسجد له وهو ميت ؟ ! فقال له موسى : تبًّا لكَ وسُحقاً ، أنتَ مِنْ أهل النار حقًّا ، فقال : يا موسى ، إذا كان يوم القيامة ، وأمر بي ربي إلى النار ، قلتُ كلمات بهنَّ يُدخلني ربي الجنةَ ، قال : فأثَّرَ كلامه في خاطر موسى أثراً ، فلما ناجاه مولاه ، قال : يا موسى ، زعم اللعين أن يدخل الجنة بكلمات يقولهن ، ليس كما يزعم ، إنما أُنسيه إياهن يوم القيامة ، وفي حال إبليس وحال مباشرة الظلمة أنشد بعضهم :

قُلْ للذينَ شَرَوْا دنيا بآخرة ... لم يربحُوا في اقترافِ الذنبِ بلْ خَسِرُوا
باعُوا جليلاً جميلاً باقياً أبداً ... بدارسٍ طامسٍ يا بئسَ ما اتَّجَرُوا

واعلمْ أَنَّ أهلَ المعرفة – وإن وجدوا وصال المحبوب – لا يجدون لذة الوصال إلا بعد سماع المقال : ﴿ **يَا عِبَادِي لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ، ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ** ﴾ [الزخرف : ٦٨–٧٠] ، اللهمَّ اجعلنا منهم يا مَنْ إذا أراد شيئاً فإنما يقول له : كُنْ ، فيكون ، كما أن موسى لم يجد من رؤية النار لذة إلا من قوله تعالى : ﴿ **يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ** ﴾ [القصص : ٣٠] ؛ ألا ترى أن الصديق لم يصل إخوته إليه حقيقة ولم يجدوا لذة الوصال إلا بأخيه الأمين بنيامين ؛ لأنه علم الوصال بمقال المواصل له : ﴿ **إِنِّي أَنَا أَخُوكَ** ﴾ [يوسف : ٦٩] ؛ وذلك أهم لما دخلوا عليه ، وكلموه أمر بإنزالهم على حسب ما تقدم ، فبعد أيام قلائل أمر بعمل طعام جميل ، فصُنع وجُعل لديه ، وأُجلسوا على الموائد في عز وشرف وكرامة ، والوِلْدَانُ والوصائفُ وُقوفٌ على رؤوسهم بأنواع الأشربة وألوان الزينة ، فلما أرادوا التناول قال الترجمان : إن الملك يأمركم أن يجلس كل أخوين منكم من أم وأب على صحفة ، فاقتحمَ كل أخوين منهم على مائدة ، وبقيَ بنيامين وحده ؛ لأنه لم يكن له شقيقٌ إلا يوسف عليه السلام ، فتأخر عن الطعام ، وجادتْ أجفانُهُ بالدموع السِّجام ، ونادى : واحسرتاه لفراقكَ يا يوسفُ ، ولم يَدْرِ أن الذي يبكي على فراقه قد جرى القدر بدُنوه وتلاقيه ، وقيل في المعنى تخميسا :

فؤادي والأحشاءُ تحنُو عليهمُ ... وأسرارُ فكري باديات لديهمُ
وقلبي ورُوحي ذا وذا في يديهمُ ... وَمِنْ عجبٍ أني أحنُّ إليهمُ
وأسألُ شوقاً عنهمُ وهمُ معي

وتلحظُهُمْ نفسي بعينِ وِدادها ... وتجعلُ ذكراهم أجلَّ مُرادها
وتشتاقُ رُؤياهم وهُمْ في فُؤادها ... وتبكيهمُ عيني وهم في سَوادها
ويشتاقهمْ قلبي وهم بينَ أضلعي

لقد ملكُوا قلبي كما شاءَهُ الحُبُّ ... وفيهمْ تساوَى عنديَ القُرْبُ والبُعْدُ
فصدري لهم أُفْقٌ وأوجههمْ شُهْبُ ... وما ليَ مما شفَّنِي غيرهمْ طِبُّ

وذِكْرُهُمُ أُنْسِي لقلبي ومِسْمَعِي

وقد زادَ شوقي بعدهمْ وتولعي فزدْ يا عذولي في الملامةِ أو دَعِ

فآهـــا لأيـــامٍ تَقَضَّتْ بلَعْلَعٍ فيا عينَ العبراءَ فيضي بأدمعي

ويا كبدي الحَرَّا عليهمْ تَقَطَّعِي

يناديكمُ مَنْ جسمُهُ طارَ كالْهَبَا وأجفانُهُ تسقي الأباطحَ والرُّبَا

وما زالَ عما قد عهدتمْ ولا صَبَا عليكمْ سلامُ اللهِ ما هَبَّتِ الصَّبَا

وما حَنَّ مشتاقٌ لألفِ مُوَدَّعِ

قال : فلما سمع يوسف مقاله ، ورأى حاله ، أشفق عليه ، وأقبل بكليته إليه وقال : ما لكَ يا غلامُ تأخرتَ عن الطعام ؟ فقال : أيها الملك ، أمرتَ أن يقعد كلُّ أخوينِ شقيقينِ من أم وأب على مائدة ، وكان لي أخٌ يُسمى : يوسف ، كنا شقيقينِ من أم وأب ، فقدتُهُ ولا أدري أحي هو أم ميت ، فلما ذكرتُهُ تجددتْ أحزاني ، وتحركتْ أشجاني ، ثم صاح ، وصُعِقَ ، وأُغشي عليه ، ووقعتِ الصيحةُ في مترل يوسف ، فما ظنَّ إلا أنه مات أحد العبرانيين ، وقيل في المعنى :

رعى اللهُ أحباباً هُمُ وَدَّعُوا أسًّا وقد غرسُوا أشواقهمْ عندنا غَرْسَا

ولو أنَّ نفسي أنصفتْ في وِدادها وقد مسَّها في فقدهمْ بعضُ ما مسَّا

لفاضـــتْ ولم تلبثْ فُوَاقَ حلوبةٍ وباعتْ طويلَ العُمْرِ مِنْ بعدهمْ بَخْسَا

قال : فترل يوسف عن سريره ، والبرقع على وجهه ، فرفع رأس بنيامين ، وجعلها في حجره ، وأقبل يساعده في البكاء حتى أفاق ، فقام يوسف ، وأمر الخدم أن يحملوه إلى السرير ، فحملوه ووضعوه إلى جنبه ، ثم أمر بإحضار مائدة مرصعة بالجوهر ، فوُضعت بين أيديهما ، ثم أمر الخدم أن يحملوا من ألوان الأطعمة ما يليق بالملوك ، وليس هذا من باب الفخر والتعظيم ، إنما كان قلبه ﷺ أرقَّ من قلب الفقير الصعلوك ، وإنما القصد لئلا تُنتهكَ عند العامة حُرمته ، ولكي لا يفقه إليه إخوته ، فلما وُضعت المائدة بين أيديهما قال كما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ **إِنِّي أَنَا أَخُوكَ** ﴾ [يوسف : ٦٩] ، معناه في الظاهر : إن كنتَ منفرداً فأنا لكَ كالأخ ،

فجعلَ يأكلُ معه ، فعظُمِ ذلك على الإخوة ، وقال بعضهم لبعض : انظروا إلى ابني راحيل : الأول - يعنون يوسفَ - قال : أنتم عبيدي ، وهذا يأكله مع الملك إذا رجع إلى كنعانَ يفتخرُ علينا ، ويقول : جلستُ مع الملك على سريره ، وأكلتُ معه . يا هذا ، إذا رأيتَ الأخَ يحسُدُ أخاه فلا عجبَ ، هذا ، وهؤلاء الإخوة هم أولو المناصب والرتب ؛ ثم أقبل يوسف على أخيه بنيامين يشغله بالحديث عند الأكل ، وهذا هو المستحب عند ذوي الفضل لكي يُطيلوا الأكل ، فقال : يا فتى ، ألك زوجة ؟ قال : نعم ، قال : ألكَ أولاد ؟ قال : نعم ، ثلاثة أولاد ذكور ، قال : يا فتى ، ما اسم الأول ؟ قال : ذئب ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأن إخوتي زعموا أن أخي يوسفَ أكله الذئب ، فأنا أحبُّ أن أذكره ، قال : والثاني ، قال : سَمَّيْتُهُ دماً ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأن إخوتي جاءوا بقميصه وهو متلطخٌ بالدم ، فأنا أحبُّ أن أذكر ذلكَ ، قال : فما سميتَ الثالث ؟ قال : يوسف ، قال : لِمَ ؟ قال : لئلا يندرسَ اسْمُهُ من فمي ، فاهتز الصديق لمقالة أخيه ، حتى هَمَّ أن يُبيحَ بالسِّرِّ ويُفشيه ، وأنشد لسان الحال فيه :

وكم في رياض الحسن لي من مفاضة ... أسر بها نجواي حيناً وأجهرُ
إذا نفحتْهَا نفحةٌ مِنْ تنفُّسي ... سقتها دموعي فهي تَنْدَى وتقطرُ
فهذا مصيفٌ حينَ يحمَى ويلتظي ... وهذا ربيعٌ حينَ يهمي ويمطرُ
أعللُ نفسي إن حللتُ بروْضه ... بذكركمْ والشيءُ بالشيء يُذكرُ
فقلبي عليكمْ بالتذكُّرِ ينطوي ... وعيني إليكمْ بالتخيلِ تنظرُ
أراني أراكمْ حيثُ كنتُ بناظري ... وقلبي وأنتمْ غائبونَ وحُضَّرُ
وما أنتمُ مني بحيثُ أراكمُ ... ولكنَّ قلبي عن حمَى الحبِّ يبصرُ

ثم قال يوسف : قم يا فتى معي إلى البيت لأخلوَ معكَ فيه ، فقام معه حتى دخل البيتَ ، وأرخَى الستورَ ، وكشف البرقعَ ، وأزال النقابَ ، وأظهر ما هو مستورٌ ، وقد لاح عَلَمُ السرور ، ثم قال : أتعرفني ؟ فقال : أرى وجهاً جميلاً يشبه وجه حبيبي يوسفَ ، قال : أنا أخوكَ وقُرَّةُ عينكَ يوسفُ ، فاعتنقا وبكيا ،وضجت الملائكة في السماء ، وخرَّ بنيامينُ لله ساجداً ، وغُشيَ عليه مِنْ شدة الفرح ، يا لهَا من فرحةٍ ، ما أعظمَها بعد تلك الكروب ، وتمامها إذ اجتمع الشمل بابني يعقوب ،

ثم قال الصديق : لا تخبرهم بما ألقيتُ إليكَ ، (فلا تبتئسْ) ، أي فلا تحزنْ ولا تغتمَّ بما كانوا يعملون من الحسد لنا وصرف وجه أبينا عنا ، وأريد أن أحبسك عندي ، وأكيد مكيدةً في ذلكَ فلا تحزنْ ، إن مَع العسر يسراً ، وإن النصر مع الصبر ، ولله عاقبة الأمور ، ومَنْ صبرَ احتساباً نالَ يسراً ، قال : فخرج بنيامين من عند أخيه وقد امتلأ سروراً وطرَباً ، فلقيه إخوته وهم يغبطونه بأكله وخلوته مع الملك ، ويقولون : هنيئاً لكَ يا بنيامين ، فما الذي قال لكَ الملكُ ؟ قال : وعدني بخير ، وأريتُ منه ما هو أهله ، وتبيَّنَ عدله وفضله ، قال : فأمر يوسف ﷺ فتَيَيْه اللذين أقامهما لكَيْلِ الطعام أن يكتالا لهم ، ويكونَ الصغيرُ آخرَ مَنْ يُكال له ، وأَن يجعل الصُّواع ، ولا أكثرَ قيمةً عند الصديق منه ، وكان إناءً من ذهب مُرصعاً بجواهر ، وكان الله تعالى قد أعطاه معجزة فيه يُعلمه إذا نقره بالصادق والكاذب ، فلما جعل الصُّواع في رحله أعلمه يوسف بذلك ، وأخفاه عن إخوته ، قال : سأجعله في رحلكَ حتى آخذكَ بالسرقة ، وأدعكَ عندي وأسرِّحُهم ، ولا تخفْ ولا تحزنْ ، فإن الله تعالى يدبر أمركَ ، قال الله تعالى : ﴿ **كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [يوسف : ٧٦] ، فأمر بإخفائه ، فشدوه في وسط الطعام ، وشدوا رءوس الأوعية ، ثم سلموها لأربابها ، وكذلك كانوا يفعلون بجميع الناس الذين يشترون الطعام ، قال الله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ** ﴾ [يوسف : ٧٠] ، أي كال لهم الطعام ﴿ **جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ** ﴾ [يوسف : ٧٠] ، والسقاية كان مكيال الملك ، وهو الصُّواع المذكور . قال ابن عباس : إنه كان صاعاً لم يزد عليه ، فحملوا طعامهم ، وشدوا رحالهم ، وودعوا الملك وأخوهم بنيامين معهم ، فخرجوا جميعا فرحين حتى نزلوا من مصر على يوم وليلة عند قرية هناك يقال لها : بصرى ، فلما نزلوا إذا جماعة من القهارمة والخدم والأعوان من جماعة الملك وصلوا إليهم ، فحبسوهم وأمسكوهم عن الرحيل قال : الله تعالى﴿ **ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ** ﴾ [يوسف : ٧٠] أي نادى منادٍ : ﴿ **أَيَّتُهَا الْعِيرُ** ﴾ أي الرفقة ، وهي القافلة ﴿ **إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** ﴾ [يوسف : ٧٠] ، قال : فتحيروا عند سماع النداء ، قالوا :﴿ **قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ** ﴾ [يوسف : ٧٠] ، ولِمَ سميتمونا سارقين ، ﴿**قالوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ**﴾ يعنون السقاية ﴿ **وَلِمَن جَاءَ بِهِ** ﴾

أي وللذي يجيء به ويردُّهُ ﴿ **حِمْلُ بَعِيرٍ** ﴾ يعني من الطعام ، وكان لحمل البعير في ذلك الوقت قدرٌ كبير وثمنٌ خطير ﴿ **وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٧٢] أي كفيل ، ثم قال لهم : أهذا جزاؤنا منكم ، أدخلناكم منازلنا ، ووفينا لكم مكيالنا ، فكان الجزاء منكم أن أخذتم أحب الأشياء إلى الملك وأعزها عليه ، وهو صُواعه الذي يعلم به الصادق والكاذب ، ويطلع به على الغيب ، ويشرب به إذا عطش ، فَفِعْلُكم يا هؤلاءِ رديءِ غير مناسب ، وقيل في المعنى :

رُدُّوا صُواعاً أخذتمْ أيها النفرُ — فلم يكنْ منكمُ ما ليسَ يُنتظر
عجبتُ منكمْ وأنتمْ أهلُ مكرمةٍ — إليكمُ منذُ كنتمْ يُنسبُ الأثرُ
كيفَ ارتضيتمْ بأمرٍ لا يحِلُّ لكمْ — أما لكمْ ويحَكُمْ عقلٌ ولا فِكَرُ
كأنكمْ لم تَرَوْا فِعْلَ العزيزِ بكمْ — أمـا لـهُ عندكمْ عـزٌّ ولا قَدَرُ
مَنْ ردَّهُ منكمُ في الوقتِ كانَ لهُ — حِمْلٌ مِـنَ البُرِّ موفورٌ لـهُ خَطَرُ
أنا الكفيلُ بما قد قلتُهُ فهبُوا — صُواعَنا أيـها العـادُونَ وائْتَمِرُوا
إني أخافُ عليكمْ مِنْ عُقوبةِ مَنْ — أجنادُهُ إنْ قضـَى الأملاكُ والقَدَرُ

قال : فأجابوه بما أخبر الله عنه ﴿ **تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ** ﴾ [يوسف : ٧٣] أي لا نُعرف بهذه الصفة ، فقد رأيتم سيرتنا وما نحن عليه ، فكيف سميتمونا سارقين ؟ فلما أقسموا بالله ، وأتوا بهذه الحجة عطف عليهم المنادي ومَنْ معه من الرجال ، فقالوا لهم : ﴿ **فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ** ﴾ [يوسف : ٧٤] في قولكم : ما كنا سارقين ، فأجابوهم : جزاء السارق الذي تُوجد السرقة في رحله ، فهو جزاؤه ، أي السارق الذي ظهرتْ سرقته عليه ، يُؤخذ عِوَضَ السرقة ، ويصير عبداً للمسروق في شريعة آل يعقوب ، وهو الثابت في ملتنا ﴿ **كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [يوسف : ٧٥] ، وأيُّ ظلم وأيُّ ذنب أعظم بعد الكفر من السرقة لا سيما اللصوص بالليل والناس راقدون ؟ فيا ويلهم كل الويل يوم يموتون ويوم يُبعثون ، وقيل في المعنى :

يا خائضَ البحرِ الذي قد طَمَتْ — فيـه مِـنَ العِصيـانِ أمواجُ

تَــزوَّدِ الــتقوى ودَعْ كــُـلَّ مَنْ ... لَــهُ مِــنَ الآثــامِ أزواجُ
فالعقلُ لا يُوجبُ إسخاطَ مَنْ ... إليـــه حاجـــاتُكَ تـــحتاجُ

قال : ثم رَدُّوا العيرَ نحو مصر ، وصرفوا وجوهها حتى رجعوا ، فلما أقبلوا على يوسف ، ووقفوا بين يديه أمر بتفتيش أوعيتهم بعد عتاب طويل ، ففُتشتْ وهي كل ما استودعت شيئاً من جراب وجوالق ومِخلاةٍ ، وهم لا يحتشمون من ذلك ، ولا يخشون لعلمهم بالبراءة مما نسب إليهم ، ففُتشت العير العشرة ، فلم يوجد فيها شيءٌ ، فلما وصلوا إلى رحل بنيامين تركوه ، وما قصدوا بتأخيره بعدهم إلا نفياً للتهمة ، ولو بدأوا به لخطرَ ببال إخوته أنهم تركوه قصداً في رَحْل بنيامين ، فتركوه ولم يفتشوه ، وصاروا يعتذرون إليهم ، وأمروهم بالمسير ، فحسد الإخوةُ بنيامينَ في ذلك ، وقالوا : إن ابن راحيل يفتخر علينا بذلك ، وبما تقدم من أكله مع الملك ، وخلوته ، وتقديمه عند الدخول ، فقالوا : ما بال رَحْل أخينا لم يُفتش ؟ فقال الصديق : لعله بريء الساحة كما أنتم ؟ فقالوا : لا بد من تفتيشه أيها الملك ، وأخذوا في الإلحاح والطلب ، وهم لا يعملون ما يلقون من التعب والنَّصَب ، فقال لهم يوسف : إذا أبيتمْ إلا تفتيشَ رحله ففتشوه أنتم ، ولم يتولَّ ذلك غيركم ، قال : فتقدموا إلى رحل بنيامين وفتحوه ، وإذا الصُّواع فيه على حسب تلاقيه ، فلما رأوا ذلك ضاقت عليهم المسالك ، فصاروا باهتين حائرين ، لا يردون جواباً ، ولا يُبدون خطاباً ، قد نَكسوا رءوسَهم مما نالهم من الخجل ، وأصابهم من الحزن والكمد ، هذا آفة الحسد ، فالتفتوا إلى بنيامين ، وقالوا : يا ابن الميشومة والأخ الميشوم ، هذا من شؤمكَ وشؤم أخيكَ ، فليت ما أجريناه في أخيكَ أجريناه فيكَ ، إذ أنت أحق بذلك منه ، إذ لم يكن له جرم يُؤاخذ به ، وأنتَ على حسب تعديكَ ، فكيف فضحتنا وفضحت أباك ؟ أما تخشى مولاك ؟ فقال : يا إخوتي ، اسمعوا مني ، وعليَّ لا تعجلوا حتى آتيكم ببرهان تعرفون أني بريء ؛ ألستم تعرفون أن بضاعتكم رُدت في رحالكم يوم صدرتم من عند الملك وأنتم لا تعلمون ، فإن كنتم سرقتُم البضاعةَ يومئذ ، فأنا سرقتُ الصُواع ، وإن كنتُم بُرآءَ ، فأنا بريء ، فظهرت حجته لديهم ، وسكنوا عن ملامهم لأخيهم فقال لهم الصديق : كيف رأيتم ؟ ألم أقل لكم في أوائل الأمر : إنكم خنتم وفعلتم ما فعلتم ، وأردتُ أن آخذكم بذلك ، لكنني عفوتُ عنكم ، وحسَّنْتُ ظني فيكم ، فقالوا : أيها الملك ، لا ننكر ذلك عليه ، وقالوا ما أخبر الله عنهم : ﴿ **إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ** ﴾ [يوسف : ٧٧] ، يعنون يوسف ﷺ ، وسيأتي ما ذُكر في معنى

سرقته ﴿ **فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ** ﴾ [يوسف : ٧٧] أي أسر الكلمة التي كانت جواب قولهم هذا ﴿ **وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ** ﴾ [يوسف : ٧٧] ، وهو أنه قال في نفسه : ﴿ **أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً** ﴾ [يوسف : ٧٧] يعني عند الله بما صنعتُم مِنْ ظلم أخيكم وعقوق أبيكم ﴿ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف : ٧٧] أي علم أن الذي تذكرونه كذب ، فظنوا أن قولهم : فقد سرق أخ له من قبل ، عذرٌ منهم يدنيهم إليه ، فإذا هو منه يبعدهم ، وقيل في المعنى :

يا مَنْ على العذل في الأحبابِ يقتصرُ ... كمْ ذا تُزَيِّنُ أقوالاً وتختصرُ
فربَّ ذي منطقٍ يُبدي فصاحَتَهُ ... فيه لهُ الحتفُ لا يُبقي ولا يَذَرُ
وكلُّ مصلحةٍ حاولتَ نافعة ... مضرةٌ هي إنْ لم يُسعدِ القَدَرُ
للهِ دَرُّ أديبٍ قالَ مرتجلاً ... والصبرُ أسلمَهُ إذْ خانَهُ النظرُ
إذا محاسنيَ اللاتي أَدِلُّ بها ... كانتْ ذنوبي فَقُلْ لي كيفَ أعتذرُ

قال : فاحتوشتهم الخدم كالمنكرين عليهم ، وأخرجوا بنيامين بالعنف من بين إخوته ، وجعلوا يجرونه حتى غيَّبوه ، وأدخلوه قصر الملك ، فلما غاب عن إخوته قام الصديق عن سريره ، ودخل بأخيه بنيامين إلى بيته ، وجعل يضمه إلى صدره ويقبله ، ويقول له : لا تحزنْ ، إني أنا أخوكَ يوسفُ ، وألبسَهُ الثيابَ الفاخرةَ ، وجلسا يتحدثانِ ، وقيل في المعنى :

إشارتُنا في الحبِّ رمزُ عيوننا ... إذا رُمْتَ لفظاً جاورِ اللفظَ للمعنى
فإنْ شئتَ قرباً قال : أهلاً ومرحباً ... متى غبتمُ عنا ونحن متى غبنا
فَطِيبُوا وعيشوا وافرحوا وتنعَّمُوا ... بحضرتنا معْكُمْ وحضرتكمْ مَعْنا
عسى الواحدُ المنانُ يجمعُ بيننا ... ويجمعُنا بعد الفراقِ كما كنا

ثم قال : يا أخي ، طبْ نفساً ، وقَرَّ عيناً ، فأنا أخرج إليهم لأسمع ما يقولون ، فلما خرج رآهم باكين محزونين ، وقد اعتراهم الذل والقلق ، وهم في قلق من فراق أخيهم بنيامين ، وماذا يكون حالهم إذا رجعوا إلى أبيهم الحزين ، وقيل في المعنى :

ماذا يكون الحـــال وقت رجوعنا والأخُ بنيـــامين ليسَ كــذا معنا
فيا رب أنعشْنا بتفريجِ كَرْبنَا فما زلْــتَ لــلمكروه تصرفُهُ عنا
بِحُرْمَةِ مــَنْ لــبّى وقام تخشــعاً هو المصطفى المبعوث بالجَمْعِ مَتِّعْنا

قال : فإن قيل : كيف جاز للصديق ﷺ أن يمكر على إخوته ، ويسميهم سارقين ، ويفعل هذا بهم ؟ الجواب أن يقال : إن الله تعالى قد برأه من الذنب في ذلك ، وأضاف سبحانه تلك المكايد إليه حيث قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ** ﴾ [يوسف :٧٦] ، وإنما كان الصديق يفعل ذلك بوحي من الله تعالى ، ﴿ **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ** ﴾ [يوسف : ٧٦] ؛ وذلك أن حكم الملك في مصر أن السارقَ يُضرب ويُغَرَّم ضعفيْ ما سرق ، فلم يكن يتمكن الصديق من حبس أخيه واسترقاقه في حكم الملكَ لولا ما كاد الله له تلطفاً وتهذيباً لإخوته وتكفيراً لخطاياهم حتى وجد السبيل إلى ذلك ، وهو ما جرى على ألسنة إخوته على ما هو في حكمهم وشريعتهم أن جزاء السارق الاسترقاق ، فاستعبده الصديق فيما ظهر ، ونَعَّمَه فيما خفي وبطن وأسر ، ولا يُظَنُّ بالصديق أنه أتى باطلاً أو فعل شيئاً لم يُوحَ إليه به ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ **نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ** ﴾ [يوسف : ٧٦] بضروب الكرامات وأبواب العلوم ، كما رفعنا درجات يوسف على إخوته في كل شيء ، وقيل : ناداهم سارقين لما تقدم من فعلهم معه وخيانتهم وكذبهم ، فالخائن كالسارق ، قال الله تعالى : ﴿ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٧٦] ، يكون هذا أعلم من هذا ، وهذا أعلم من هذا حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى ، أي لا يوجد عالم إلا وفوقه أعلم منه إلى أن تنتهى علوم الخلائق إلى علم الله تعالى ، فحينئذ تصير علوم الخلائق في علمه كنقطة في بحر لُجِّيٍّ . واعلمْ أن العلم علمان : مكسوبٌ وموهوبٌ ، فالمكسوب ما يأتي بالدرس والتعليم والحفظ والاجتهاد ، والموهوب ما يهبه الله لأنبيائه ، ومن شاء من عباده من غير درس ولا اجتهاد ؛ منهم الخضرُ عليه السلام ، وذلك أنه لما شرح لموسى عليه السلام قصة السفينة والتي بعدها قال في الأولى : ﴿ **فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا** ﴾ [يوسف : ٧٩] ، فنُودِيَ في سره : مَنْ أنت ؟ ومِنْ أين كان لك هذا الأمر حتى تقول فأردت ؟ فعدل في الثانية بالضمير إليه وإلى موسى بقوله : ﴿ **فَأَرَدْنَا** ﴾ ، فنُودي : أنى يكونُ لكَ وإلى موسى ؟ فعلم أن الأمر كله لله ، فعدل في الثالثة بالضمير إلى الله وحده بقوله :

﴿ فَــأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ [الكهف: ٨٢] ، وهذا كما أخبر الله عز وجل في حق موسى حيث قال : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ [طه: ٦٧] . قيل : لأي شيء خافَ وكان على يقين من ربه من النصر على العدو ونحوه ؟ قيل : سمع قائلاً يقول خطابــا للســحرة : ألقُوا يا بررة . قال رسول الله ﷺ : « وضع ربي يده » أي إحســانه ، واليد الإحسان الذي خصه به في ذلك الوقت بين كتفيَّ ، فعلمتُ علمَ الأولــين والآخــرين ، وعلمني ربي علوماً ، فعلمٌ أخذَ عليَّ كتمانَهُ إذ علم ربي لا يســمعه أحدٌ إلا عَلمَهُ ، وعلمٌ خيَّرَني فيه ، فأنا أُسرُّ به إلى أبي بكر وعمر ، وعلمٌ أمــرني بتبــليغه ، فقَــال : ﴿ يَــا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ، ولقد عاجلتُ جبريلَ في آية نزلَ بها عليَّ ، فأنزل الله تعالى عليَّ : ﴿ وَلاَ تَعْجَــلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه: ١١٤] ؛ وهل يعترض مَنْ يترل جبريل عليه ويأتي بوحي الله إليه ؟ كما قال الخضرُ لموسى عليهما السلام حين فسر له ما غاب عنه: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف: ٨٢] ، وقيل :

العــلمُ أَنْفَــسُ شيءٍ أنتَ داخرُهُ ... مَنْ يَدْرُسِ العلمَ لم تَدْرُسْ مفاخرُهُ
فــاجهدْ لتعليمِ ما أصبحتَ تجهلُهُ ... فــأولُ العــلمِ إقبــالٌ وآخــرُهُ

رُويَ في الخــبر أن نبيًّا من الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلامُ كان يتعبد في جبل مرتفع وتحته عين ماء تجري ، فكان بالنهار يجلس في أعلى الجبل بحيث لا يراه الناس يذكــر الله تعالى ، وينظر إلى مَنْ يَردُ العينَ، فبينما هو ذات يوم جالس إذا بفارس أقبل إلى العين ، فترل عن فرسه ، وأزالَ قِرَاباً ، أي جراباً ، كان في عنقه ، ووضعه إلى جنــبه ، واســتراح وشرب من الماء ، ثم قام وركب الجواد ، وترك القِرَابَ ، وكــان فيه دنانيرُ ومضى ؛ وإذا رجلٌ آخرُ قد أقبلَ إلى العين ، ونزلَ عن فرسه ، وأخذَ القِرَابَ بالمال ، وانصرف سالماً ؛ وإذا بحطاب على ظهره حُزمةُ حطب ، جاء إلى العينَ ، وأنزل الحُزمةَ عن ظهره ، وقعد على العَين فغسل وجهه ، وإذا بالفارس صاحب القراب قد أقبل لهفانَ ، فقال للحطاب : أين القِرَاب ؟ فقال : ما القِرَابُ ؟ قــال : القِــرَابُ الــذي فيه الألف دينار ، قال : لا أدري ، فضربه الفارسُ فقتله وســارَ ، فقال ذلك النبي : يا رب ، هذا واحد أخذ القراب بالمال وآخر قتل فيما

أراه ظلماً ، فأوحى الله تعالى إليه : يا هذا ، اشتغل بعبادتك ، فإن تدبير أسرار المملكة بيدي ، وليست من شأنكَ ، إنَّ والدَ الفارسِ كان قد غَصَبَ ألفَ دينار من هذا الرجلِ الذي أخذها ، فمكنتُ الولدَ منْ مالِ أبيه ، وإنَّ الحطابَ كان قدْ قَتَلَ والدَ الفارسِ ، فمكنتُ الولدَ منَ القصاصِ ، فقال ذلك النبيُّ : سبحانكَ ، لا إله إلا أنتَ ، أنتَ علامُ الغيوبِ ، وجابرُ القلوبِ ، بيدكَ التدبيرُ ، وإليكَ المصيرُ ، وقيل في المعنى :

رأى النبيُّ الذي قـد كانَ بالبصرِ فصـارَ يسألُ عمـا كانَ بالخبرِ
وشاهدتْ عينُهُ مـا ليسَ يفهمُهُ فقـال : يا رب ماذا والقتيلُ بَرِي
هذا أصابَ الغنى مِنْ دُونِ مَا تعبٍ وذاكَ أيضـاً أتـى في زيّ مفتقرِ
وذاكَ قد صارَ مَيْتاً بـعدَ عِيشتهِ من غيرِ ذنبٍ جنى يـا خالقَ البشرِ
فقيلَ : يا باحثاً عن سـرِّ حكمتنا أنتَ المقـدَّرُ لا تسألْ عـنِ القدرِ
إن الدراهمَ كانتْ مـالَ والدِ مَنْ رأيتَهُ قـد أتـى إرثاً بلا كَـدَرِ
دَعِ اعتراضَكَ يـا هذا فإنَّ لنا في الخلق سرًّا خَفِي عن حدة النظرِ
سَلِّمْ لأحكامنـا واخضعْ لـعزتنا فحكمُنَا قـد جرى بالنفعِ والضررِ

يا هذا ، سأقصُّ عليكَ شيئاً من باب المجازِ ، وهو عظةٌ وأمثالٌ يقبل الجواز ، انتبهَ بعضُ المحبينَ من نومِ الغفلةِ ، وطلعَ عليه مصباحُ الوصلة ، ففتحَ عينيه ، فرأى قرطاساً قد اسودَّ وجهه ، وزالت بهجته ، فقال : عهدي بكَ أبيض اللون ، مليح الصون ، كافوريّ الأديم ، قويم وسيم ، فلم سوَّدْتَ وجهكَ وخفضتَ قدركَ ؟ فقال : ما سوَّدْتُ وجهي باختياري ، ولكن سَوَّدَني الحبر ، فقال للحبر : لِمَ سودتَ وجه القرطاس حتى عاد نهاره كالليل بادياً للناس ؟ فقال : كنتُ كامناً في المحبرة التي هي وطني ، فجاء القلم بالقهر فاختطفني ، فقال للقلم : لِمَ أخرجتَ الحبرَ من وطنه ، وأزعجتَهُ من مسكنه ؟ فقال : اسمعْ قصتي ، فإني مظلوم ، ولعل لي عذراً وأنتَ تلوم ، كنتُ قصبةً نابتةً على شاطئ النهر أتمايلُ على الأغصان شبيه الزهر في نعيم دائم وصلاح قائم ، أعانقُ الرَّند ، وأقبل وجنات الورد ، فجاءت اليد بسكين صُنعت للقطع والفصل ، فأخرجتني عن محل الوصل ، وصيرتني فرعاً بعد الأصل ، وأزالت قشرتي التي كانت لي بُرداً ، وقدَّتْني قدًّا ، وفصلتني على قَدْرِ

الشبر ، ولزمتني خدمة المحبرة والحبر ، فلا أزال كذلك في كد وانزعاج ، وحبس واستخراج ، وإنْ يوماً تغيرتُ وشددتُ بأسي قُطَّ رأسي ، ولقد نثرتَ الملح على جرحي بسؤالك ، فأقللْ من ذلك ، ولكن سَلِ اليدَ ، فسألها ، فقالت اليد : لا أملكُ لنفسي ضرًّا ولا نفعاً ، ولا لغيري خفضاً ولا رفعاً ؛ وهل رأيتَ جسماً يتحرك بنفسه أو يوماً أنتَ فيه يعود كأمسه ، وإنما ركبتني فوارسُ الطاعة ، وهي القوة والقدرة والاستطاعة ، فيها تحرك في حلي وربطي ، وقبضي وبسطي ، فاسألِ الاستطاعةَ ، فقالت الاستطاعةُ : ليس بيدي تخيير ، ولا أقدر على تقديم ولا تأخير ، وإنما أنا منتظرةٌ ما يَرِدُ عليَّ مِنْ خطرة القلب والإرادة الممدودة من عالم الغيب والشهادة على لسان العقلِ بواسطة العلم والنقلِ ، فأنا لا أُعدم ولا أُوجد ، ولا أقومُ ولا أقعد ، إنما أنا رقُّ المقدور ، ولا أُحدثُ شيئاً من الأمور ، فاسألِ الإرادة الآدمية الإلهية الأزلية ، فسألها ، فقالت : ماذا صنعتَ ؟ على الخبيرِ وقعتَ ، أنا منقطعة الحوالات يا كثير الغفلات ، إلا إن عندى حوالة أخرى ، ولا يمكنني ذكرها ، قال : ولِمَ ؟ قالت : لأنكَ لا تفهمها ، قال : ولِمَ ؟ قالت : لأنكَ في عالم الملك والشهادة ، وأنا مبدأ عالم الملكوت والسعادة ، إنما أنا كالبحر إن أمكنكَ أن تطيقَ تلاطمَ أمواجه ، فَلِجْ في عجاجه ، وإلا فعليك بالساحل ؛ لأن ذاك العالم لا يسمع بهذا السمع ، ولا يبصر بهذه العين ، إنما تبصر ببصرك الصور ، وتعاين العبر ، أما سمعتَ قولَ السميعِ البصيرِ مخبراً عن أهلِ جهنمَ وبئسَ المصيرُ : ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [الملك : ١٠] ، فكانوا يسمعون الأصواتَ ، لكنهم في الظاهر أحياء وفي الحقيقة أموات ، ولكن سَلِ القلبَ ، فقال : إنما أنا لوح ، لم أنبسطْ بنفسي ، ولكني بُسطْتُ ، فاسألِ العقلَ ، فقال العقل : إنما أنا سراج ، لم أشتعل بنفسي ، ولكني شُعلتُ ، فاسألِ العلمَ ، فقال العلم : إنما أنا نقش لم أَنقش ، ولكني نُقشتُ ، فاسألِ القلمَ ، فقال : قد سألتُهُ في أول الأمر - كما ذكر - فقال : وأيَّ طريقٍ سلكتَ في النظر : طريقَ البصيرة أم طريقَ البصر ؟ فقلتُ : طريقَ البصر ، فقال : هيهاتَ ، تركتَ الطريق ، وخالفتَ الركب والرفيق ، وسلكتَ طريقاً لا توصل إلى مقصود ، ولا تحمل على القرب لمعبود ، فاسمع إن قصدت الصعود :

انظرْ بـقلبكَ إنَّ الـعينَ كاذبـةٌ   واسـمعْ بقلبـكَ إنَّ السمعَ خوَّانُ

إيـاكَ يسمعْ حديثاً بيننـا أحـدٌ   فقـد يقـولونَ : لـلحيطانِ آذانُ

ولكـــن يا هذا اسلكْ طريقَ العبرة ، وأعددْ زادَ الفكرة ، تصلْ إلى الحضرة ، وإن لم تقـــدرْ عـــلى هذا الطريق ، فبضاعتُك مُزجاة ، وعملُكَ قليلٌ ، ومركبُكَ ضعيفٌ ، والهلاكُ في الطريق الذي تتوجهُ فيه ، فالصوابُ لكَ أن تنصرفَ وتدعَ ما أنتَ عليه ، ولعلكَ تلاقيه ، فما هذا إلا آنُ بعثكَ فادرجْ ولا تغترَّ بالأماني ، ومنها فاخـــرج ، فكلٌّ ميسرٌ لما خُلقَ له ، فإنَّ الأذن التي في الرأسِ عند البهيمة والكافر ، فافـــتح أذنَ قلبكَ ، وبصِّرْ بصيرتكَ لتدركَ القلمَ الإلهيَّ الذي لا كالأقلام ، الذي ينقشُ على الدوام أنواعَ العلوم والإرادات وأسبابَ الشقاء والسعادات ، قلم يخط ، وكـــاتب لا يســـأم ، وحروف تعجم بآية تتوهم ، فقلمُهُ لا كالأقلام ، ويده لا كالأيدي ؛ ففتح عين بصيرته ، فرأى القلم الإلهي ، فسأله ، فقال : جوابي جواب القلم الأول ، قال : وكيف وأنتَ أبعد منه في الشبه وعليكَ المعوَّل ، فقال : وأيُّ فرق بيني وبينه في معنى التسخير ، والمولى سبحانه بيده التدبيرُ ، فالقلمُ الأولُ ظاهرٌ للعيَّان ، وأنا لا أدركُ إلا بالأذهان ، فسَلْ يمينَ الملك والسموات مطويات بيمينه ، وكذلك الأقلام في قبضته بيمينه ، فقيل : سَلِ القدرة ، فسأل ، فقيل : سَلِ القادر الـــذي يعلمُ السرَّ المكنون ، فقال تعالى : ﴿ **لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، وقيل في المعنى :

لا بـــدَّ مِـــنْ جريانِ الحُكْمِ يا لُكَعُ ... والبحثُ عن سِرِّهِ في الصدرِ منصدعُ
حكـــمُ المهـــيمنِ جـــارٍ في بريَّتِهِ ... وكـــلهمْ لـــنفاذِ الحُكْـــمِ قد خضعُوا
هـــذا يُقَـــرِّبُهُ مِـــنْ دونِ مَا عَمَلٍ ... وذا يـــباعِدُهُ مـــنهُ فيـــنقطعُ
وليـــسَ يســـألُ عَـــنْ فِعْلٍ يُقَدِّرُهُ ... لأنَّـــهُ مـــالكٌ والمـــلكُ مُتَّسِـــعُ

قـــال بعض السادة : كنت ملاحاً بنيلِ مصر ، أُعَدِّي من الجانب الشرقيِّ إلى الجانب الغربيِّ ، فبينما أنا قاعدٌ يوماً في الزورق إذا بشيخٍ ذي وجه مشرق ، وقف وسَـــلَّمَ عـــليَّ ، فـــرددتُ عليه السلام ، فقالَ : أتحملني لله ؟ قلتُ : نعمْ ، قال ، وتطعمني لله ؟ قلتُ : نعم ، فطلع الزورق ، فعَدَّيْتُ به إلى الجانب الشرقيِّ ، وكان عـــليه دفاسٌ وبيده ركوةٌ وعصا ، فلما أرادَ النزول ، قال : أريد أن أحملكَ أمانةً ، قـــلتُ : ومـــا هي ؟ قال : إذا كان عند الظهر تجدني إن شاء الله تعالى تحت تلك الشجرة ميتاً وستنسَى ، فإذا أُلهمتَ فَأْتِني وغسِّلْني في موضعي ، وكفِّنِّي في الكفن

الذي تجده عند رأسي ، وادفنِّي بعد الصلاة عليَّ في هذا الرمل ، وامسكْ المرقعةَ والركوةَ والعصا ، فإذا جاء مَنْ يطلبهم منكَ ، فادفعْهُمْ إليه ، ثم سار ، فعجبتُ من قوله ، وبتُّ ليلتي تلكَ ، ثم أصبحتُ أنتظر الظهر ، فلما جاء وقته نسيتُ ما قال لي ، ثم تفكرتُ قريبَ العصر ، ثم أُلهمت ، فصليتُ العصرَ ، وسرتُ بسرعة ، فوجدته تحت الشجرة كما قال ميتاً ، ووجدتُ عند رأسه كفناً تفوح منه رائحة المسك ، فغسَّلته وكفَّنته ، ثم صليتُ عليه ، وحفرتُ له في الرمل ودفنتُه ، ثم عدتُ للجانب الغربي ليلاً ، ومعي المرقعة والركوة والعصا ، فلما أصبح الصباح وفتح باب البلد ، وإذا بشابٍّ من الشطار أعرفه ، وعليه ثياب رقيقة ، وبيده أثر حناء ، فقال لي : أنت فلان ؟ قلتُ : نعم ، قال : أعطني الأمانة ، قلتُ : وما هي ؟ قال : العصا والركوةُ والمرقعةُ ، قلتُ : ومَنْ أعلمكَ بهم ؟ قال : لا أدري ، إلا أني بتُّ البارحةَ في عُرس فلان ، وسهرتُ أغني إلى الصباح ، فنمتُ لأستريحَ ، وإذا بشيخ يقول لي : إن الله تعالى قد قبض رُوحَ الوليِّ فلان ، وقد أقامكَ مَقامه ، فَسرْ إلى فلان المُعَدِّي ، وخُذْ ما أعطاكَ ، فإني قد أودعتُها لكَ عنده ، فأخرجتُهُمْ له فأعطيتُهُ إياهم ، فنزع ثيابه ولبس المرقعة ومضى ، فبكيتُ لما حُرمتُ من ذلك ، فلما جَنَّ الليلُ نمتُ فسمعتُ هاتفاً يقول لي : يا عبدي ، أثقلَ عليكَ أَنْ مننتُ على عبد عاصٍ برجوعه إليَّ ؟ ! إنما هو فضلي أوتيه مَنْ أشاءُ ، وقيل في المعنى :

مـا لـلمحبِّ مـعَ الحبيبِ مرامُ ... كـلُّ اخـتيارِكَ لو علمتَ حرامُ
إنْ شـاءَ واصـلَ منـةً وتعطفاً ... أو صَـدَّ عـنكَ فما عليكَ ملامُ
إنْ لَـمْ تكـنْ بصـدودِهِ متلذذاً ... فاخرجْ فمـا لكَ في المقـامِ مقامُ
أو كـنتَ تعرفُ قربَهُ مـِنْ بعدِهِ ... فـلأنتَ خَـلْفٌ والـهوى قُدَّامُ
إن كـانَ مَلَّكَكَ الغرامُ حُشاشتي ... أو قـادني للقتـلِ فيـكَ زمامُ
فـاهجرْ وصُدَّ وَصِلْ فذلكَ واحدٌ ... ليسَ الوقوفُ مـع الحظوظِ مرامُ
ما القصدُ في حبي إليكَ سوى الرضا ... فـإذا رَضِـيتَ البعدَ فهـوَ قوامُ

قال بعض العارفين : إن الله تعالى يشكرُ منَ العمل قليله إذا كان خالصاً لوجهه ، ويثيبُ عليه ، ويعفو عن الكثير من الذنب ، ويتجاوزُ عنه ، وهذا الفتى ربما كان فيه خصلةٌ حسنةٌ ، لله خالصة ، فشكره الله بذلك ، ورحمه ، وأعطاه منزلة

تقدمه ، وإن كان مكتوباً في القدَم في ديوان الأبرار ، فلن تضرَّهُ الذنوبُ والأوزارُ .
كما ذُكر أن شخصاً من الشطَّار كان يقطع الطريق بالبلاد المقدسة ومعه جماعة من الأشــرار ، فطلعوا يوماً على قافلة فيهم رجلٌ صالحٌ من الكبار ، فأخذوا جميعَ ما معهــم مــن تجارةٍ ومأكلٍ وفاكهة وثمار ، ولم يَدَعُوا أحداً منهم حتى سلبوه حتى الصالحَ أخذوا جميعَ ما معه ، فمضى نحوه كبيرهم وقد حصل عنده ، فوجده جالساً وحده ، وإذا أناس من جماعته أقبلوا وهم يأكلون من الذي أخذوه من القافلة وهم يلعبون ، فاستمر كبيرِهم لا يأكل معهم ، فلصقَ الصالحُ إلى جنبه وسَلَّمَ عليه ، فردَّ عــليه السلامَ ، وأقبلَ عليه ، فقال الصالح : يا هذا ، ما لي أراكَ لا تأكل معهم مما أخذوا من المآكل ؟ ! فقال : يا هذا ، إني صائم ، فقال الصالح : سبحان الله ، أنتَ تقطــعُ الطريقَ على الناس ، وتأخذُ أموالهم ، وتقولُ : إني صائم ، فقال : يا هذا ، لعــل الكــريم سبحانه إن شاء يتفضَّلٍ عليَّ ، ويكون ذلك صلحاً بيني وبين الحي الدائم ، فتركه الصالح ، ومضى مستخفاً بكلامه ، ووكل الأمر إلى علامه ، فبينما الصــالح بعد مدة في موسم الحج طائف بالكعبة ، وإذا شخص من ورائه جذبه ، فالتفت إليه فإذا هو الشاطرُ يُسَلِّمُ عليه ، وقال : يا هذا ، بهذا أعلمناكَ ، وأشرنا أن صــومنا إن شاء الله يُوقعُ الصلحَ بيننا ، ولعل الكريمَ من فضله لم يخيبنا ، وقيل في المعنى :

أيــا ســيدي مــا زلــتي بغريبة ... لديــكَ ولا غفــرانُها بطــريفِ
فــإن تقــبلِ العُذْرَ الضعيفَ تكرماً ... فــإنَّ رجــائي فيــكَ غيرُ ضعيفِ

قالَ - رحمه الله - : وهذا كما جاء عن الإمام أبي حامد الغزالي - رحمه الله تعالى - في إحياء علوم الدين : أن شخصاً كان عاصياً ، فلما تُوفيَ لم يحضرْ جنازته أحــدٌ استنقاصاً به لمَا كان عليه من المعاصي والزلات والذنوب الموبقات ، فبكتْ زوجــته لوَحدتــه وإسـرافه على نفسه وزلته ، وقعَدتْ تنتظرُ أحداً يجيء يحمله ويشـيعه ، فمـا رأتْ أحــداً جــاء يتبعه ، فاكترتْ حمالين ، فحملوه إلى المقابر وأسـلموه ، وعلي الكريم أقدموه ، فبينما الحمالونَ والمرأةُ سائرون ، وعلى المقبرة مقبــلون ، إذ نزل إليهم شخصٌ من أكابر الصالحينَ قد اعتزلَ الناسَ ، وفاق أهلَ زمانــه في العبادةِ والدين ، وجاء ليصلي علَيه ، فتسامع أهل البلد بالرجل الصالح ، فنزلــوا إلى الميتَ ليصلُوا عليه ، فبادروا إليه ، فلما صلى عليه صلوا وراءه احتراماً لجانبه ، فلما انقضتْ حضروا بين يديه ، واعتذروا من التخلف وطلوعهم خلفه إذ لم يكونــوا معه ، فقال الصالحُ : إن هذا الرجل لا أعرفه قبل اليوم ، لكنني أخذتني

سنةٌ من النوم قبل قُدوم هؤلاء القومِ ، فرأيتُ قائلاً يقول : يا هذا ، استيقظْ ، وقُمْ فتَوضأ للصلاة على الميت القادمِ الآنَ ، فإنه مغفور له ، وبهذا وعده الرحمنُ ، فلما سمعتُ ذلك ما أمكنيَ التخلفُ عن الصلاةِ عليه ، فوارَوْهُ في حفرته ، وعاملَهُ اللهُ بلطفه ، وتغمده برحمته ، وصار يقول :

أصبحتَ بقعرِ حفرةٍ مرتهنا ... لا أملكُ مِنْ دنيايَ إلا كفنا
يا مَنْ وسعتْ عبادَهُ رحمَتُهُ ... مِنْ بعضِ عبيدكَ المسيئينَ أنا

قال : لكن بقي في خاطر الصالح من ذلك وسواس لأجلِ ما ذكر عنه الناسُ ، فدعا زوجته ، وقال : يا فلانة ، ما تعلمين من زوجك حسنةً كان يعملها لله خالصة ؟ قالت : إنه كان على ما شُهر عنه من المعاصي ؛ غير أنه كان يصدر منه ثلاثة أشياء يرحمه بهن مالكُ النواصي : الأولى أنه كان على ما شُهِرَ عنه ؛ إذا صلى الصبح مع الجماعة كان يلبسُ ثياباً غير التي تكون عليه ، ويمضي إلى الجامع ، ويحضر في ذلك الوقت . والثانية أنه كان إذا أفاقَ من سُكْرِهِ رَمَقَ السماءَ بطَرْفه ، ويقول : يا رب ، أي زاوية في جهنم تملؤها بهذا الخبيث - يعني نفسَهُ - ويبكي حتى يخفتَ حسُّهُ . والثالثة أنه كان يُقبل على الأيتام ، ويكرمهم تعظيماً للملك العلام ، فقال ذلك الصالح : لا شك أن الله تعالى قد رحمه ، وبفضله وجوده عَمَّهُ ، ثم مضى إلى منزله وقد زال ما عنده من الإشكالِ ، وكذا أهل البلد أحسنُوا ظنَّهم بالكريم المتعال ، وقيل :

يا رب إنْ عظُمَتْ ذنوبي كثرةً ... فلقد علمتُ بأنَّ عفوَكَ أعظمُ
إن كان لا يرجوكَ إلا محسنٌ ... فبمَنْ يلوذُ ويستجيرُ المجرمُ
أدعو إليكَ كمَا أمرتَ تضرعاً ... فإذا رددتَ يدي فمَنْ ذا يَرْحَمُ

المجلس السادس عشر

في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣]

الحمد لله الذي فتقت أكفُّ أقداره أخياط إحاطة جيوب الغيوب من أسراره فبانت نهود صدور عرائس أفكار نفاذ أحكام الحكيم ، وأضرمَ مجامر الخوف في قلوب الديم ففاضت جفونها بلآلئ دموع المطر العميم ، وقاد مطيَّ السحاب بأزمَّة الرياح إلى أمهات الهامة وبنات المواهي وبساط الروضات وشامخات الجبال وشاهقات الأعلام فظهر عليها فضله الجسيم ، وضربَ ظهر الرعد بسوط البرق فسبح بصوت ترعد له المفاصل وتطيش به القلوب ويتململ الخائف لأجله تململ السقيم ، وأخرجَ من النبات المختلف والزرع المؤتلف ما دل على أنه يحيي العظام وهي رميم ، ووسعَ الخلائق بالنعم وعاملهم بالكرم فهو الغني الكريم ، وضاعف لهم الأجور وغفر للمأزور وعفا عن الفعل الذميم ، كرمه مبسوط ، وعدله مقسوط ، فبئس القنوط ، وكيف يُقنط العبد ممن عفوه وكرمه وإحسانه قديم ؟ أما سمع قول الملك العليم : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، أحمده على ما وهب من إحسانه الجسيم ، وأشكره على ما أولَى في الجديد والقديم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تنجي من عذاب الجحيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله القسيم الوسيم ، الذي آتاه الله سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا الصراط المستقيم ، صلاةً تدوم وتقوم ما هبَّ نسيم ، واشتاق إلى حميم حميم ، وسلم تسليماً كثيراً ما عُوفي سقيم ، وجاد بالعطاء والمعروف كريم ، وقيل في المعنى :

بِبَابِكَ عَبْدٌ قَدْ جَفَاهُ خَليطُ ... وَنَازَلَهُ بَعْدَ الصُّعُودِ هُبُوطُ
ذَوَى غُصنُهُ واصْفَرَّ مِنْ بَعْدِ يَنْعِهِ ... وَلِلغُصْنِ بَعْدَ الإصْفِرارِ سُقُوطُ
وَكَابَدَهُ وَجْدٌ وَضَعْفٌ مُبَرِّحٌ ... وَضَاقَ عَلَيْهِ الكَوْنُ وَهْوَ بَسِيطُ

كَسِيلٌ إِذَا دَاعِي الفَلَاحِ أَثَارَهُ وهند دواعي المهلكات نَشيطُ
فَكَمْ مَرَّةٍ رَامَ الفِرَارَ بِنَفْسِهِ وهيهاتَ لا يجدي وأنتَ محيطُ
وَلَوْلا رَجَاهُ أَنْ يَمُنَّ بِعِتْقِهِ لنازَلَهُ بؤسٌ وعاد قنوطُ
وَلَكِنْ وَعَدْتَ المُسْرِفِينَ بِرَحْمَةٍ بِذَاكَ كِتَابٌ قَدْ أَتَى وَخُطُوطُ
فَيَا قَاهِرَ الأَكْوَانِ طُرًّا بِأَسْرِهَا فَأَجْمَعُ مَنْ فِيهَا لَدَيْكَ رَبِيطُ
أَغِثْنِي بِعَفْوٍ مِنْكَ وَاغْفِرْ جَرِيمَتِي فَمَازِلْتَ عَنِّي مَا أَخَافُ تُمِيطُ

قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر : ٥٣] الآية .

اعلم أن الله تعالى أضاف هذه الأمة إلى خمسة : *أولها* إلى نفسه ، فقال تعالى : ﴿ **يَا عِبَادِي فَاتَّقُونَ** ﴾ ، ولآدمَ بالنبوة ، فقال : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ** ﴾ ، ولنوح بالشريعة ، فقال تعالى : ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً** ﴾ [الشورى:١٣] ، ولإبراهيمَ بالملة ، فقال : ﴿ **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ [الحج : ٧٨]، ولمحمد ﷺ بالأمة ، فقال تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران : ١١٠] ؛ فإذا كان يوم القيامة قال آدم : أولادي ، وقال نوح : أهل شريعتي ، وقال إبراهيم : أهل ملتي ، وقال محمد : أمتي ، وقال الرب عز وجل : عبادي ، فإذا كان هذا حال هذه الأمة أفتراهم يلحقهم ضيمٌ يوم القيامة ؟ حاشا كرم الله ، وسُمِّيَ العبد عبداً ؛ لأنه مسلك القضاء ومحل العيوب ، وليس الفخر له سبحانه أن تكون عبده ؛ لأن عبيده كثيرة ، بل الفخر لكَ أنه مولاكَ ، فأنت عبده يا هذا على الحقيقة ما كنتَ مطيعاً له . كما ذكر عن بعض الصالحين أنه قدم عليه ناس يزورونه ، فتوسم العجب فيهم حين رآهم ، فلما أقبلوا عليه قال : أهلاً بعبيد عبدي ، فأنكروا قوله ، وعنه انصرفوا ، فذكروا لأحد العلماء ما قال لهم ، فقال : صدقَ ، أنتم عبيد الهوى ، والهوى عبده . قيل : فما الحكمة في أن الله أضاف العبيد إلى نفسه ؟ قيل : لثلاثة أشياء : **أولها** ليكونوا في حمايته ، فلا يقدر الشيطان أن يخلص إليهم . **الثاني** لئلا يُدعى فيهم إبليس باتباعه . **الثالث** ليكون جميع ما يصلحكَ عليه . قيل : فما الحكمة في أن الله تعالى أضاف نفسه إلينا ، فقال :

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة : ١٦٣] . قيل أيضاً : لثلاثة أشياء : **أحدها** لتعلم أنه لا يفارقكَ . ***الثاني*** ليعلمكَ أن كل ما خلقه من أجلكَ ولكَ خلَقَهُ ، كما قيل: لما خلق الله الأرض قال الآدمي : ماذا لي ؟ قال : النبات لكَ ، وخلق الأشجار فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال الثمار لكَ ، وخلق السوى ، فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال اللبن لك ، وخلق البحار فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال : الحيتان لكَ ، وخلق الجبال فقال الآدمي : ماذا لي ؟ فقال : معادن الذهب والفضة لكَ ، وخلق الهواء ، فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال : الطير والغمام لكَ ، وخلق السماء فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال : الشمس والقمر والنجوم لكَ ، يعني لأجل ما في الشمس والقمر من المنافع ، وما في النجوم السيارات الدالة على الأوقات ، ثم خلق اللوح المحفوظ ، فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال : العلم والحقيقة لكَ ، ثم خلق المعارف فقال الآدمي : ماذا لي ؟ قال الله عز وجل : أنا لكَ ، فطوبى لِمَنْ كان له الملك العلام دائماً على الدوام حتى يلقاه على الرضا في دار السلام . **الثالث** ليكون لك الفخر على سائر المخلوقات ، وما أحسن ما أنشده في المعنى الشيخ الإمام عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى :

مَــنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَقْتٌ حَظُّهُ النَّدَمُ ... وَمَــنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُو بِهِ الهِمَمُ
وَنَاظِــرٌ فِي سِوَى رُؤْيَاكَ حُقَّ لَهُ ... يَفِيــضُ مِنْ جَفْنِهِ بِالدَّمْعِ وَهْوَ دَمُ
فَمَـــا المَـــنَازِلُ لَوْلا أنْ تَحُلَّ بِهَا ... ومَـــا الدِّيَارُ وَمَا الأَطْلالُ والخِيَمُ
لَــوْلاكَ مَـــا شَاقَنِي رَبْعٌ ولا طَلَلٌ ... ولا سَعَتْ بِي إلى نَحْوِ الحِمَى قَدَمُ
فِــي كُــلِّ جَارِحَةٍ عَيْنٌ أَرَاكَ بِهَا ... مِــنِّي وَفِــي كُلِّ عُضْوٍ لِلثَّنَاءِ فَمُ
فَــإِنْ تَكَــلَّمْتُ لَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمُ ... وإنْ سَــكَتُّ فَشُغْلِي عَنْكُمُ بِكُمُ
فَأَنْــتُمُ أَنْــتُمُ فِي القَلْبِ وَحْدَكُمُ ... وَكُــلُّ كُــلِّيَ مَشْــغُولٌ بِكُلِّكُمُ
لا تطــردوني فإني قد عُرِفْتُ بكمْ ... وَصِرْتُ بَيْنَ الوَرَى أُدْعَى مُحِبَّكُمُ
أُمَــرِّغُ الخَــدَّ ذُلاً بِالتُّرَابِ عَسَى ... أَنْ تَــرْحَمُونِي وَتَرْضَونِي عَبِيدَكُمُ
أَنَـــا المُقِــرُّ بِذَنْبِي فَاسْمَحُوا كَرَمًا ... فَبِاعْــتِرَافِي وتَقْصِــيرِي أَتَيْــتُكُمُ
نَسِــيتُ كُلَّ طَرِيقٍ كُنْتُ أَعْرِفُهَا ... إلا طَــرِيقًا تُؤَدِّيــنِي لِــرَبْعِكُمُ

قيل : وإنما قال تعالى : (أسرفوا) بضمير الغيبة ؛ لئلا يعلم أحد منهم ، ولو قال : أسرفتم بضمير الخطاب لوقع الخجل . وقيل لما قال : ﴿ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر: ٥٣] تحير العصاة ، وقالوا : إذا كان إسرافنا على أنفسنا فقد هلكنا ، فقال تعالى :﴿ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء : ٧] . وقيل : إن سبب نزول هذه الآية أن وحشيًّا قاتل حمزة عم النبي ﷺ لما ألقى الله تعالى في قلبه الإسلام ، أرسل إلى النبي ﷺ وقال : يا محمد ، لقد أردت الدخول في الإسلام لولا آية نزلت عليكَ ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ [الفرقان:٦٨] ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ [الفرقان : ٦٩] فأنزل الله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفرقان : ٧٠] . فأرسل بها النبي ﷺ إليه، فقال : هذا بشرط التوبة ، ولعلي لا أتوب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] ، فأرسل النبي ﷺ بها إليه ، فقال : هذا بشرط المشيئة ، ولعله لا يغفر لي ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، فأرسل بها النبي ﷺ إليه ، فجاء وأسلم . وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :« من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل » متفق عليه . وفي رواية لمسلم : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار » (١) . وقال أبو ذر ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشرة أمثالها وأزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو

---

(١) أخرجه البخاري ٣ / ١٢٧٦ ، ومسلم ١ / ١٥٧ .

أغفر ، ومن تقرب إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، ومن تقرب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيتُه هرولة ، ومن لقيني بقُراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً أتيتُه بمثلها مغفرةً » ، معناه : من تقرب إليَّ بطاعتي تقربتُ إليه برحمتي ، وإن زاد زدتُ ، ومن أتاني يمشي ، أي أسرع في طاعتي أتيته هرولة[1] ، أي صببتُ عليه الرحمةَ ، وسبقتُه بها ، ولم أُحوجْهُ إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود ، وقُراب الأرض ، بضم القاف وكسرها معناه الذي يقارب ملء الأرض ، والله أعلَم . قال أنس : قال رسول الله ﷺ : « إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا ، وأما المؤمن فإن الله تعالى يدخر له حسناته في الآخرة ، ويعقبه رزقاً في الدنيا لي طاعته » . وفي رواية : « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنةً يعطي بها في الدنيا ، ويجزي بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يُجزى بها » [2] رواه مسلم . قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله تعالى فيه » [3] رواه مسلم . وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » [4] رواه مسلم . وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أذنب عبد ذنباً ، فقال : أيْ ربِّ ، اغفر لي ذنبي ، قال الله عز وجل : أذنب عبدي ذنباً ، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، يقول الله تعالى : يا عبدي ، قد غفرتُ لكَ » [5] ، هذا إذا أذنبَ فيما بينه وبين ربه ، لا يظلم غيره من المخلوقين ، فإن ظلم العبدُ نفسَهُ إذا تاب العبد منه ، تاب الله عليه ، وإذا ظلم غيره ما له توبة إن لم يرضَ خصمه ، فإذا لم يرضه فجهنم من ورائه ، كما قال المولى العليم : (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم) . وعنه ﷺ : « كان في بنى إسرائيل رجلان متواخيان أحدهما مجتهد والآخر مذنب ، فكان المجتهد يقول للمذنب : أقصر ، فيقول المذنب : خلني

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢١٦٢ .
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٢ / ٦٥٥ .
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢١٠٦ .
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢١١٢ .

وربي ، فوجده المجتهد يوماً على كبيرة ، فقال : أقصر ، فقال المذنب : خلني وربي ، أبعثتَ رقيباً ؟ فقال : والله ، لا يدخلنكَ اللهُ الجنة ، فبعث الله ملكاً فقبض أرواحهما ، فقال الله عز وجل للمذنب : ادخل الجنة برحمتي ، وقال للمجتهد : أكنت قادراً على ما في يدي ؟ أتستطيع أن تمنع عبدي رحمتي ؟ أدخلوه النار ، ثم قال ﷺ : لقد تكلم بكلمة أوبقته دنياه وآخرتَهُ »[1] ، يعني القَسَمَ ، ذكره البزار ، وقيل :

يَا رَبُّ قَدْ حَلِفَ الإخْوَانُ واجْتَهَدُوا أَيْمَـانَهُمْ أَنَّني مِنْ سَاكِني النَّارِ
أَيَحْلِفُـونَ عَلَـى عَمْـيَاءَ وَيْحَهُمُ مَـا ظَـنُّهُمْ بِعَظِيمِ العَفْوِ غَفَّارِ

قال رحمه الله : وهذا يؤيد مذهب أهل السنة والجماعة ، وهو أنهم لا يقطعون للعاصي بالنار ، ويقولون : الكل في مشيئة الله تعالى ، من شاء عذبه ، ومن شاء رحمه ، إلا مَنْ ورد فيه النص عن النبي ﷺ ، وثبت أنه من أهل الجنة من السادة الصحابة ، ومن التابعين أويس القرنيُّ رضي الله تعالى عنهم ، حتى إن الإمام سعيد ابن المسيب - رحمه الله تعالى - قال : لو كنتُ شاهداً لأحد من أهل الجنة ، لشهدتُ لعبد الله بن عمر ، فإذا كان هذا عبد الله رضي الله تعالى عنه مع جلالة قدره لم يقطعْ له ابن المسيب بالجنة ، فكيف يقطع لغيره إلا مَنْ أتى فيه النص بالجنة كما ذكرنا فافهم ؟ والله سبحانه وتعالى أعلم ، وقيل في المعنى :

إِلَهِـي بِزَمْـزَمَ بِالْمُلْـتَزَمْ بِطَهَ بِمَنْ طَافَ حَوْلَ الحَرَمْ
أَجِرْنِي فَقَدْ أَوْبَقَتْنِي الذُّنُوبُ وَجُدْ لِي بِعَفْوِكَ يَا ذَا الكَرَمْ

وقالت أسماء بنت عميس : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : « **﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾** [الزمر : ٥٣] . ولا يبالي » ذكره الترمذي . قال أبو ذر ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تبارك وتعالى : كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيته فاسألوني أرزقكم ، وكلكم مذنب إلا من عافيته ، فمن علم أني ذو قدرة على المغفرة فاستغفرني غفرتُ له ولا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢ / ٣٢٣ .

أبالي » . وفي بعض طرق هذا الحديث لمسلم : « يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم » [١] ، وقيل في المعنى :

إِلَهِي عَبْدُكَ العَاصِي أَتَاكَا ... مُقِرًّا بِالذُّنُوبِ وَقَدْ دَعَاكَا
فَإِنْ تَغْفِرْ فَذَا مَنٌّ وَفَضْلٌ ... وَإِنْ تُبْعِدْ فَمَنْ يَرْحَمْ سِوَاكَا

قال عامر الدوسي ﷺ : « بينما نحن عند رسول الله ﷺ أقبل رجل وعليه كساء وفي يده شيء قد التفت عليه ، فقال : يا رسول الله ، مررتُ بغيضة شجر ، فسمعتُ أصواتاً لأفراخ طائر ، فأخذهن فوضعتهن في كسائي ، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي فكشفتُ لها عنهن ، فوقعتْ عليهن ، فلففهن في كسائي فهم أولاء ، فقال : ضعهن ، فوضعهن ، فأبتْ أمهن إلا لزومهن ، فقال رسول الله ﷺ : أتعجبون لرحمة هذه الأم للأفراخ ، فوالذي نفسي بيده لله أرحم من أم الأفراخ بأفراخها ، ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذهن وأمهن معهن ، فرجع بهن كما أمره رسول الله ﷺ » [٢] رواه أبو داود . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي سبقت غضبي ، فهو مكتوب عنده فوق العرش » [٣] رواه مسلم . وقال أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه : « كان رسول الله ﷺ يوماً قاعداً متفكراً في ذنوب أمته وخطاياهم ، فأشفق لذلك ، فبينما هو كذلك ، وإذا بطائر منظوم بالدر والياقوت من أحسن الطيور خلقاً قد وقع بين يديه ، فجعل رسول الله ﷺ يتعجب من حسنه وصورته ، ثم إن الطائر طار حتى أتى البحر ، وكشف الله عن بصر النبي ﷺ حتى رآه ، فأتى جزيرة من الرمل ، فصار يأخذ بمنقاره من الرمل ، ويرمي به في البحر زماناً ، ثم طار حتى وقف بين يديه ﷺ وقال : السلام عليكَ يا رسول الله ، فقال له : وعليك السلام أيها الطائر ، فقال : ألا تسألني من أين جئتُ ؟ ولماذا فعلتُ ما فعلتُ ؟ قال : رأيتكَ قد وصلتَ البحر ، ورأيتكَ تأخذ من الرمل بمنقاركَ ، ثم تُلقيه في البحر ، قال : نعم ، أردتُ أن أُردَّ جري البحر ، وأطمسَ أمواجه بما آخذ بمنقاري من الرمل ، فتبسَّمَ رسول الله ﷺ ، فقال الطائر : ما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٩٩٤ .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٣ / ١٨٢ .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٦ / ٢٧٠٠.

أضحككَ يا رسول الله أضحكَ الله سنكَ ؟ قال : قد عجبتُ من حسن صورتكَ وضعف عقلكَ ، وكيف تقدر أن تَرُدَّ ماء البحر بما تأخذ بمنقارك ، وما يبلغ ما تأخذه بمنقارك ؟ ! فقال : إن الله عز وجل ضربني لكَ مثلاً حين علم ما خطر ببالكَ ، والذي بعثكَ بالحق نبيًّا ، ما ذنوب أمتكَ في سعة عفوه إلا كما يأخذ الطائر بمنقاره ، ويجعله في البحر » ذكره صاحب كتاب الغرائب . وقال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما : « تلا رسول الله ﷺ قول إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] ، وقول عيسى ابن مريم : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، فرفع يديه ، وقال : اللهمَّ ، أمتي أمتي ، وبكى ، فقال الله تعالى : يا جبريل ، انزل إليه وسله : ما يُبكيكَ ؟ وهو أعلم ، فنزل جبريل ، وأخبره بما قال الله له ، قال : يا جبريل ، اذهب إلى محمد ، وقل له : إنا سنرضيك في أمتكَ ، ولا نسوؤك فيهم » ذكره مسلم ، وقيل : لما أُبعد إبليس – لعنه الله – وطُرد ونزل إلى الأرض هو وآدمُ ، قال : يا رب ، أنزلتني إلى الأرض ، وجعلتني شيطاناً مريداً ، وسلطتني على آدمَ وذريته ، فاجعل لي سلطاناً ، فقال الله تعالى : إنه لا يولد له ولدٌ إلا وُلدَ لكَ اثنان ، قال : يا رب ، زدني ، قال : ﴿ أَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [الإسراء : ٦٤] ، قال : يا رب ، زدني ، قال : صدورهم لكَ مساكن ، قال : يا رب ، زدني ، قال : تجري منهم مجرى الدم ، قال : يا رب ، زدني ، وجعل لي طعاماً ، قال : ما لم يُذكر عليه اسمي ، قال : فاجعلْ لي شراباً ، قال : كل مُسكر ، قال : فاجعل لي بيتاً ، قال : الحَمَّام ، قال : فاجعل لي مجلساً ، قال : الطرق والأسواق ، قال : فاجعل لي مصائد ، قال : النساء ، قال : فاجعل لي مؤذناً ، قال : المزمار ، قال : فاجعل لي قرآناً ، قال : الشعر . قال آدم : يا رب ، أنزلتني إلى الأرض ، وسلطتَ عليَّ إبليس ، فاجعل لي عليه سلطاناً ، قال : لا يُولد لكَ ولد إلا وكلتُ به ملكين يحفظانه ، قال : يا رب ، زدني ، قال : الحسنة بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بواحدة وأغفر ، قال : يا رب ، زدني ، قال : باب التوبة مفتوح ما دام في الجسد روح . « أتى في الخبر أن عبداً يوقف بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ، لا يعلم حسنة عملها في الدنيا ، فحالَ وقوفه يؤمر به إلى النار ، فيمضي ولا يلوي برأسه نحو ربه حياءً منه واعترافاً بذنوبه ، ولِمَا في نفسه أنه ما عمل خيراً قط ، فعندما يقرب من النار ، ويتيقن

دخوله إليها ينادي الكريمُ جل جلاله : ارجعوا به ، فيرجع ، فيقول : مالكَ تقتحم النار من غير توقف ولا إعذار ؟ فيقول : يا رب ، ما أعرف لي حسنة عملتُها في الدنيا ، وطالما عصيتكَ فلا أعصيكَ في الآخرة ، قال : فيشفق الباري عز وجل من كلامه ، ويقول : يا عبدي ، أنا أعرف لكَ حسنة ، فيقول : يا رب ، وما هي ، فيقول في الليلة الفلانية اضطجعتَ على ظهركَ ، ونظرتَ إلى النجوم وزُهرها ، وللسماء وزُرقتها ، وقلت : سبحان الخالق ، فهذه حسنة لم أنسها لكَ ، ولم أضيعْها عليكَ ، وبها أغفر لكَ ، امضُوا به إلى الجنة ، وقيل في المعنى :

يَـا وَيْلَتِي مِنْ مَوْقِفٍ مَا بِهِ ... أَخْـوَفُ مِنْ أَنْ يَعْدِلَ الحَاكِمُ
يَا رَبِّ عَفْوًا مِنْكَ عَنْ مُذْنِبٍ ... أَسْـرَفَ إِلا أَنَّـهُ نَـادِمُ
وَبَـارَزَ اللهَ بِعِصْـيَانِهِ ... وَلَـيْسَ غَـيْرُ اللهِ لِي رَاحِمُ

وقيل : يُوقف بين يدي الله يوم القيامة عبد قد أدركه الخوف ، وداخله الذهول ، فيحاسبه على ذنوبه ، فيطلب منه حُجة يأتي بها أو عذراً يعتذر به ، فلا يهتدي إلى شيء لكثرة خوفه ، فيقول : يا ابن آدم ، ما غركَ بربكَ الكريم ؟ فيقول عند ذلك : غرني كرمكَ ، فيغفر له . وقيل في المعنى :

أَلا حَدِّثُونِـي مَا رَجَائِي بِهِ يَقْوَى ... فَذَلِـكَ أَشْـهَى لِي مِنْ المَنِّ والسَّلْوَى
وَرُبَّ عَلِـيلٍ جَـاءَهُ مِـنْ طَبِيبِهِ ... بَشِـيرٌ فَخَفَّتْ عَنْهُ مِنْ حِينِهِ الشَّكْوَى
أَيَـا جَاهِلاً يَشْكُو إِلَى النَّاسِ مَا بِهِ ... وَيَـرْجُوهُمُ فِي السِّرِّ مِنْهُ وَفِي النَّجْوَى
وَيَـتْرُكُ مَـنْ يُعْطِـيهِ قَبْلَ سُؤَالِهِ ... وَيَصْـرِفُ مَا يَخْشَى وَيَأْتِي بِمَا يَهْوَى
فَحَسِّـنْ بِمَـوْلاكَ الظُّنُونَ وَلُذْ بِهِ ... فَـإِنَّ رَجَـاءَ اللهِ أَفْضَـلُ مَـا يُنْوَى
وَحَسْـبُكَ مِـنْهُ أَنْ يُلَقِّـنَ عَبْدَهُ ... مَقَـالاً بِـهِ يَـنْجُو مِنَ الضُّرِّ والبَلْوَى
يَقُـولُ لَهُ : مَاذَا دَعَاكَ إِلَى الهَوَى ... وَغَـرَّكَ بِـالمَوْلَى الكَرِيمِ الذي سَوَّى
فَيَهْـتِفُ : يَا مَوْلايَ فَضْلُكَ غَرَّنِي ... فَخُـذْ بِـيَدِي إِنِّي عَلَى النَّارِ لا أَقْوَى
فَيُنْجِـيهِ مِـنْ نَارِ الجَحِيمِ بِفَضْلِهِ ... وَيَجْعَـلُ جَـنَّاتِ النَّعِـيمِ لَهُ مَأْوَى
وَيَـبْدُو لَـهُ فِـيهَا فَيَنْظُرُ وَجْهَهُ ... وَرُؤْيَـةُ مَوْلانَـا هِيَ الغَايَةُ القُصْوَى

قال رحمه الله تعالى : اعلم أنه إنما وردت هذه الأخبار في فضل الغفار ورحمته التي تسع الأخيار والأشرار ، من أمة سيدنا محمد المختار ، لكيلا يقنط العبد من رحمة ربه الحليم الغفار ، بحيث إذا وقع منه ذنب فيقول : قد هلكت ، وينام مصراً على عصيانه ؛ اعتقاداً منه أنه لا توبة له ، فهذا ظن سوء بربه وهو اعتقاد الكفار ، وربما يمهل التوبة لرغبته في المعصية ، فتجرئه على المعاصي وإصراره عليها ومداومته لها ، وربما ينعكس عند موته - كما ذكرنا وتقدم - ويصير من الكفار ، فواجب على كل مسلم مؤمن بالله واليوم الآخر ، أنه لا يذنب وإن قدر عليه ووقع الذنب يبادر إلى التوبة بالندم والإقلاع وعدم العود إلى الذنب والأوزار ، فإن « الكيِّس مَنْ دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله المغفرة » ، هكذا قال المصطفى المختار ﷺ فلا يطمع العاصي ، ويتجرأ على المعاصي ، ويتهاون فيما فرض الله عليه من الطاعات المفروضات المفضلة ، ويعتقد كما يعتقد الفجرة الجهلة من أنه إن كان قد كُتب من أهل الجنة أو النار فلا تنفعه الحسنات ولا تضره السيئات ، فهذا ضل سعيه وأحبط الله عمله ، ولو علم فيه سبحانه خيراً وفقه وعلمه وألهمه طاعته ، ويكفى المرء الموفق قوله تعالى ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** ﴾ [الليل ٥ : ١٠] ، وقول النبي ﷺ :« اعملوا فكل ميسر لما خلق له » (١) ، فعبد اتقى الله ، وأخلص عمله حاشا كرمه أن يضيعه ، وانظر إلى قول رئيس الحكماء : « من عمل الخير فبنفسه بدا ، ومن عمل الشر فعلى نفسه اعتدى » ، وتصديق ذلك قول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ [فصلت : ٤٦] ، تالله لأهل الخير من سوء الخاتمة خائفون ، فما حال غيرهم وهم عاصون ظالمون ؟ وفي هذا إن شاء الله كفاية لأولي النهاية . واعلم أن السيد إذا أحب عبداً من عبيده ، وأراد أن يزيل طمع الغير منه أعابه بعيب ، فيقطع الغير طمعه منه ، ويزيل العجب عنه ، فلذلك قدر الله المعصية على عبده المؤمن ليزيل صحبه ولا يطمع الغير فيه ؛ ألا ترى أن الخضر عليه السلام لما أراد إبقاء السفينة أعابها لما خرقها ؛ والصديق ﷺ لما أراد إمساك بنيامين أخيه عنده رماه بالسرقة . وفي قوله تعالى : ﴿ **قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤ / ١٨٩١.

سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : ٧٧] يعنون يوسف ، ثلاثة أقوال : **أحدها** أن يوسف كان له جد يعبد صنماً ، وكانت أمه راحيل تكره ذلك ، فكانت تقول ليوسف : اسرق صنم جدك ليرى الشيخ عيب فعله . **الثاني** أنه كانت ليوسف عمة ، وكانت تحبه حبًّا شديداً ، فكانت تحمله من عند أبيه وتمسكه عندها ، فيشتاق إليه يعقوب فيأخذه منها فثقل ذلك عليها ، فنام الصديق يوماً عندها ، فشدت على وسطه منطقة كانت لإسحاق ، ثم أقامته ووجهته إلى أبيه ، فلما خرج جعلت تصيح وتقول : سرقتَ منطقتي يا يوسف وأحبتْ أن تمسكه عندها . القول **الثالث** أن يوسف كان في صغره من إلهامه الخير كلما وضعت المائدة بين يدي يعقوب ، وقعد معه الصديق وإخوته للأكل يوفر من أكله رغيفاً ، ويجعل عليه من الإدام ، ويجعل ما وفره تحت المائدة ، فإذا فرغ من ذلك خرج وتصدق به ، فعد إخوته ذلك سرقةً وعيروه بها ، وقيل في المعنى :

يَا قَلْبُ لا تَطْرَحْ سِلاحَكَ كُلَّهُ   جَــزَعاً وَإِنْ بَانَ العَقِيقُ وَبَانَهُ
لا غَرْوَ أَنْ تَجْنِي عَلَى فَضَائِلِي   سَبَبُ احْتِرَاقِ المندلي دُخَانُهُ

وهكذا دأبُ الصالحين يقصدون فعل الخير خفية حتى لا يعترضه التزين ، فيقع الرياء ، فيطيب القلب بالرياء ، فيبطل الأجر ، حتى كان الإمام أبو القاسم الجنيد – رحمه الله تعالى – في مبدأ أمره بزازاً فيقول لأهله : اعزلوا غداي ، فيأخذه ويمضي إلى الحانوت ، فيتصدق به ، فيظن أهله أنه ليأكلَهُ في حانوته ، وما يعلمون أنه كل يوم يصبح صائماً ، وكان له ورد فيصلي خلف الستر كل يوم بين الظهر والعصر ورده ، فيظن جيرانه بالسوق أنه يتغدى ، وإنما كان يصلي ورده ، وأخفى عنهم حاله ، كما أنه أخلص لله فعله ، هذا كان دأبه إلى أن صار من الأبدال ، وخصه بذلك الله الكبير المتعال ، وفي المعنى بعضهم قال :

إنَّ للهِ عِــبَادًا فُطَـــنَا   طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الفِتَنَا
نَظَــرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا   أَنَّهَــا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا
تَــرَكُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا   صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

قال : فلما خرج إليهم الصديق أمر بالصُّواع فأحضر بين يديه ، فنقر نقرة ، فسمعوا طنينها ، فقال : أتسمعون ما يقول ؟ قالوا : لا ، قال : إنه يقول إنكم

خنتم أباكم في ولده الأول ، فارتعدت فرائصهم ، وقالوا : يا أيها العزيز ، استر علينا ما ستره الله ، وإنا نسألكَ بالذي فضلك علينا إلا رحمْتَنَا ورحمتَ شيبة أبينا ، وأزلتَ كرب يعقوب ووحشتنا من بُعدنا عنه وانقطاعنا ، فلما ذكروا يعقوب ، قال لهم : لولا حق يعقوب ونسبه ورسالته ، لنلتُ منكم ما تستحقون ، فاخرجوا وغيبوا وجوهكم عني فلا حاجة لي بكم ، وقد رغب إليَّ في توجيهكم إليه وقدومكم عليه ، قالوا : فلعلكَ أن تردنا إلى أبينا بابنه الذي حبسته عندكَ ، فإنكَ لا تصله بصلة هي أسنى عنده من صرف ابنه وتوجيهه إليه ، فإن حبستَهُ تضاعف بلاؤه ، فإن كان ولابد كما قال الله تعالى :﴿ **فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ** ﴾ أي خذ واحداً منا تستعبده بدله ﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [**يوسف** : ٧٨] أي فما رأينا من إحسانك الجزيل يسهل عليكَ ما ذكرنا أن تأخذ عوضه واحداً منا،﴿ **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ**﴾ أي أعوذ بالله أن يؤخذ البريء ، ويطلق الفاعل ، فإذا فعلنا ذلك ﴿ **إِنَّا إِذاً لَّظَالِمُونَ**﴾ [**يوسف** : ٧٩] ، فقالوا : أيها العزيز ، لا يمكننا أن نرجع إلى كنعان دونه ؛ لأنا أعطينا أبانا موثقاً لا نرجع إلا بأخينا ، فانظر إلينا ، فقال : اخرجوا عني ، فلا سبيل لكم إلى ذلك ، أما أخوكم فمحبوس في حبسي ، ومأخوذ بجريمته ، فضجوا لذلك ، وضاقت عليهم المسالك ، فتشاوروا بينهم ، فلم يروا وجهاً أصوب من الرجوع إليه ، والتملق بين يديه ، فدخلوا عليه ، وقالوا : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ** ﴾ [**يوسف** : ٧٨] ، وهو هالك لا محالة إن لم ترحمه وترحمنا وأخانا ، وقيل في المعنى :

رِقُّــوا عَلَيْــنَا فَإِنَّــا أَهْلُ مَسْكَنَة ... رِفْقــاً وَلا تَقْتــلُونَا يَــا مَوَالِينَا
جُدْنَــا بِأَنْفُســنَا فِي حُبِّكُمْ طَمَعَاً ... هَــذَا لَعَمْــرِكُمُ جَهْــدُ الْمُقِلِّينَا
مَا الْخَوْفُ أَنْ تَقْتُلونَا فِي مَحَبَّتِكُمْ ... وإِنَّمَــا خَوْفُــنَا أَنْ تَــأْثَمُوا فِينَا
إِنْ تَقْتــلُونَا سَــتُحْيُونَا بِفَضْلِكُمْ ... حَاشَــا لِفَضْــلِكُمُ قَــتْل الْمُحِبِّينَا

قال : وبنيامين مع ذلك كله في مجلس كريم وقصر عظيم ، ومع ذلك لم يكن على الصديق – اللهم صلِّ وسلمْ عليه – في ذلك كله عتاب ولا ملامة ؛ لأن الله رضيه ، وجعل ذلك قصاصاً لهم لما سلف من فعلهم بأخيهم وكذبهم على أبيهم ،

قال الله تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ** ﴾ [يوسف : ٧٦] ، وإنما أضاف الكيد إليه ؛ لأنه سبحانه لا يمكن أحداً يعتب ولا يعترض عليه ، وما كان قصد الصديق تعذيباً بل تهذيباً حتى تطهر سرائرهم مما كان فيها ، ويرفع الله درجاتهم بالتوبة ويوفيها ، وقيل :

وَقَالُوا تَسَلَّوْا عَنْ جَمِيلِ وِدَادِهِ ... فَهَا أَنَا مَجْرُوحٌ بِنَبْلِ عِنَادِهِ
فَقُلْتُ لَهُمْ والطَّرْفُ تَجْرِي دُمُوعُهُ ... وَلَيْسَ لَهُ وَجْهٌ لِنَيْلِ رُقَادِهِ
وَمَا صَدَّ عَنِّي أَنَّهُ لِيَ مُبْغِضٌ ... وَلا كَانَ قَتْلِي فِي الهَوَى بِمُرَادِهِ
وَلَكِنْ رَأَى أَنَّ الوِصَالَ يَزِيدُنِي ... جُنُونًا فَأَحْيَا مُهْجَتِي بِبِعَادِهِ
كَذَاكَ يُقِيمُ الصَّبُّ عُذْرَ حَبِيبِهِ ... فَيُسْكِنُهُ فِي صَدْرِهِ وَفُؤَادِهِ

قال : فخرجوا عنه وقد داخلهم اليأس منه ، ونازلهم القنوط ، وعلموا أنه لا يرده معهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا اسْتَيْئَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا** ﴾ أي انفردوا متناجين في ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهم . وهذه الآية من فصيحات القرآن ، حتى لو اجتمع الأدباء والفصحاء والبلغاء والفضلاء على أن يأتوا بمثلها لم يقدروا ، ﴿ **قَالَ كَبِيرُهُمْ** ﴾ أي يهوذا ، وفي قول : روبيل كان أكبرهم سنًّا ، وقيل : في العلم والقوة ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ** ﴾ في حفظ بنيامين ورده إليه ، ﴿ **وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ** ﴾ أي قصرتم في أمره ، وخنتموه فيه ، يعني أن يعقوب قد أخذ عليكم العهود والمواثيق ، ومن قبل هذا أخذها علينا في يوسف ، فقطعنا رحمنا وظلمنا أخانا ، فذقنا وبال ذلك ، وقد أطلع الله الملكَ على أسرارنا ، وأظن أنكم لستم تنجون مما وقعتم فيه ﴿ **فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ** ﴾ أي لن أخرج من أرض مصر ﴿ **حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي**﴾ أي في الرجوع إليه ويتبين عذري لديه ﴿ **أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي** ﴾ بالأخ ، فأرجع إليه ﴿ **وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ** ﴾ [يوسف : ٨٠] أعدلهم ، أي هو خير من حكم في الأمور ، ثم قالوا : ندخل على الملك مرة أخرى ، فإن سمح لنا برد أخينا معنا ، وإلا حاربناه بالقوة التي ركبها الله فينا ، وذلك أن الواحد من أولاد يعقوب كان إذا غضب انتفخ ، واقشعر جلده ، وخرج شعره من ثيابه ، فيخرج من تحت كل شعرة قطرة

دم ، فيضرب بقدمه الأرض فتزلزل ، ثم يصرخ صرخة فلا تسمعها حامل إلا وضعت ، ولا يسمعها أحد إلا أغشي عليه ، فإذا مسه أحد من أولاد يعقوب أو من نسله سكن غضبه ، وزالت قوته ، وصار كواحد من الناس ، وكان الصديق بالنسبة إلى علو مقامه وفضله على إخوته أشدهم قوة ، وأقواهم بأساً ، فقال يهوذا : اكفوني أهل مصر ، أكفكم الملك ومن معه ، أو اكفوني الملك ومن معه ، أكفكم أهل مصر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : وجَّهَ يهوذا أحد إخوته ، وقال : انظر كم أسواق مصر ؟ فقال : تسعة ، فقال : يا قوم ، كل واحد منكم لسوق ، وأقوم : أنا بالملك ومن معه ، قالوا : فتقدم أنت للملك ومن معه ، فدخل يهوذا مغضباً على يوسف ، فقال أيها الملك ، رُدَّ علينا أخانا ، وإلا صحتُ الآن في قصركَ صيحةً فلا تبقى حامل إلا وضعت ما في بطنها دماً عبيطاً ، ومات كل من يسمع صيحتي ، وكانت له شعرات بين كتفيه إذا غضب قامتْ وخرجتْ من الثياب ، فلا تسكن حتى تسفك دماً أو يمسه أحد من أولاد يعقوب أو من عقبه ، فقامت الشعرات التي تخرج من ثيابه ، فنظر إليه الصديق لعلمه بها ، فقال لولده الأكبر : قُمْ وخذ بيد ذلك الرجل وائتني به ، فقام الصبي إليه ، وأخذ بيده ، وأتاه به يقوده ، فزالت في الحال حدته ، وخمدت قوته ، ولانت شرته ، فالتفت يهوذا يميناً وشمالاً ليرى أحد إخوته فلم يرَ أحداً منهم ، فقال : والله ، لقد مسني أحد من أولاد يعقوب ، وهذا الملك مؤيَّد ، ومن تأييده يُنصر على أعدائه ، ثم خرج وقد طأطأ رأسه ، وارفضَّ عرقاً ، فأتى إخوته ، فقال : مَنْ حضرني الآن منكم ؟ فقالوا : والله ، ما حضر أحد منا إليكَ ، قال : وأين أخي شمعون ؟ قالوا : مضى إلى الجبل ليأتي بصخرة يشدخ بها رءوس مَنْ في هذا المنزل ، قال : هيهات ، لا ينفع ذلك ولا يرد شيئاً ، ثم مضى يهوذا في أثره ، وإذا شمعون قد أقبل بصخرة عظيمة ، فقال له : ارم بها ، فإنها لا تفيدك شيئاً ، أقسم بالله يا أخي ، إن في هذا المنزل رجلاً من أولاد يعقوب ، فالله بفضله يزيل الكروب ، وقيل في المعنى :

لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليَوْم أَحْسَبُ أَنَّني ... جَلِيدٌ عَلَى حَرْبِ العُدَاة صَبُورُ

وَأَنِّي إذَا أُغْضِبْتُ صِحْتُ بِقُوَّتي ... فَغَادَرْتُ أَكْبَادَ الرِّجَال تَطِيرُ

فَهَا أَنَا قَدْ أُفْقِدْتُ بَأْسِي وَشِدَّتي ... وَصِرْتُ كَأَنِّي إذْ لُمِسْتُ حَرِيرُ

فَهَلْ أَحَدٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ مَسَّنِي ... أَجِيبُوا فَإِنِّي لِلْجَوَابِ فَقِيرُ

وَإِنْ تُضْمِرُوا حَرْباً فَخَلُّوهُ وَيْحَكُمْ فَكُــلُّ مَكِيــدَاتِ الــرِّجَالِ تَبُورُ
فَــذَا مَــلَكٌ قَــدْ سَدَّدَ اللهُ أَمْرَهُ وَخَصَّصَــهُ بِــالأَيْدِ فَهْــوَ نَصِيرُ
ألا فَاخْضَــعُوا طُــرًّا لهُ وتَذَلَّلُوا فَكُــلُّكُمُ فِــي رَاحَــتَيْهِ أَسِــيرُ

فقالوا ليهوذا : أشر علينا ، فقال : ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ** ﴾ [يوسف : ٨٠] ، وذكر أبو صالح قال : لما علم يوسف أن غضب يهوذا قد سكن ، قام إلى حجر من أحجار الطاحون ، وكان في فناء قصره فوكزه برجله ، فرماه خلف الحائط ، ثم جذب يهوذا جذبة كاد أن يلقيه ، ثم قال : يا معشر الكنعانيين ، أتظنون أنه ليس لأحد مثل قوتكم ، فعندها أظهروا التذلل والخضوع ، فلما رأى ذلك منهم داخل قلبه عليهم الخشوع ، وقال : قد عفوتُ عنكم ، إنما أردتُ أن أريكم فضل قوتنا ، ثم نقر الصُّواع ، وقال : إنه يخبرني أنكم طرحتم أخاكم في بئر ، ثم أخرجتموه ، وبعتموه بثمن بخس يسير ، فأنكروا وقالوا : لعل الملك قد سمع غلطاً ، فأخرج الكتاب الذي كتبوه يوم بيعهم له بخطوطهم ، فقال : هذا الكتاب وجدته في خزائني ، وفيه مكتوب بالعبرانية ، فاقرءوه وفسروه لي ، فأخذه يهوذا ونظر فيه ، ثم قال : يا روبيل ، أتعرف خطكَ ؟ فلما رآه روبيل داخله الجزع والدهش ، ونكسوا رءوسهم وأطرقوا ، وقيل في المعنى :

وَلِــي حَبِيبٌ عَزِيزٌ لا أَبُوحُ بِهِ أَخْشَى فَضِيحَةَ وَجْهِي حِينَ أَلْقَاهُ
أُغَــالِطُ الــنَّاسَ طُرًّا فِي مَحَبَّتِهِ وفِــي الأَغَــالِيطِ سِرٌّ دَقَّ مَعْنَاهُ
أُرِيهُــمُ أَنَّــنِي فِي غَيْرِهِ دَنِفٌ وَلَيْــسَ يَعْــلَمُ مَا أَلْقَاهُ إلا هُو

قال : فقال الصديق : ما لكم صَمَتُّمْ ؟ فقالوا : أيها الملك ، هذا كتاب كتبناه لعبد بعناه كان لنا ، قال : فأخبروني ما فيه ، فقرأه روبيل كما تقدم ، فقال الصديق : ويحكم ، لقد جئتم بما لا يليق ، فلو كنتم كما تقولون ما ارتكبتم من صغركم ما ارتكبتم ، ثم نقر الصواع ، وأدناه منه ، وقال : إنه يخبرني أن أخاكم الذي تزعمون موته حيٌّ ، وأنه سيرجع يخبر الناس بصنيعكم معه ، ثم نقره وقال : إنه يقول : إنكم فرَّطتم في أخيكم ، وكذبتم على أبيكم ، وكل ما دخل أبيكم من الهم والحزن

والعمى فمن أجلكم ، ثم نقره وقال : إنه يقول : إنكم أذنبتم هذا الذنب ، وما زلتم عليه مصرين ، ولم تتوبوا منه ، ولم تستغفروا الله ؛ لأصيرنكم نكالاً للعالمين ، ولأذيقنكم العذاب الأليم ، عليَّ بالحدادين حتى أقطع أيديهم وأرجلهم أجمعين ، فلما سمعوا ذلك ضاق ذرعهم ، وسالت مدامعهم ، وبكوا وخضعوا وندموا على ما أسلفوا ، فقال لهم يهوذا : هذا ما حذرتكم منه يوم فعلتم بأخيكم ما فعلتم ، وقلتُ لكم : إن الله لبالمرصاد ، ولا يترك ظلم العباد ، وكل عامل يلقى عمله من خير أو شر فعله ، فكيف يكون حال الشيخ الضعيف إذا بلغه فقد أولاده جميعاً ، وقد أصابه ما أصابه لفقد يوسف ، فتوبوا إلى ربكم ، وأشهدوا هذا الملك الجليل قدره بالتوبة ، فلعل الله الرءوف الرحيم أن يمنَّ عليكم بالتوبة ، وأن يشفقَ الملك عليكم فيردَّكم بأجمعكم إلى أبيكم ، وقيل في المعنى :

هَلْ إِلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ طَرِيقُ ... إِنَّ نَفْسِي لِمَا جَنَتْهُ تَضِيقُ
دِنْتُ دِينَ العُصَاةِ سِراً وَجَهْرًا ... لَمْ يَكُنْ لِي مِنَ الخِيارِ صَدِيقُ
أَنَا فِي قَبْضَةِ الذُّنُوبِ أَسِيرٌ ... لَيْتَنِي مِنْ وَثَاقِهِنَّ طَلِيقُ
عَمَلِي مُثْقلٌ وَحِمْلِي وَثِيقُ ... وَالذِي أَرْتَجِيهِ رَبٌّ شَفِيقُ
ذَلِكَ اللهُ سَيِدِي وَمَلاذِي ... فَهْوَ لِي مَلْجأٌ وَرُكْنٌ وَثِيقُ

قال : فبكوا جميعاً ، وقالوا : اعترفنا بذنوبنا ، وتبنا مما كسبت أيدينا ؛ ولئن مَنَّ الله علينا برد أخينا يوسف ، لنكونن تراباً تحت قدميه ، ولم نزل بين يديه ، ولنقبلن رأسه ، فلما سمع الصديق مقالهم ، ورأى حالهم ، فاضت عيناه بالدموع ، وقال : إلى متى أقلقل قلوب إخوتي ، إنما كان حرصي وفعلي ذلك بهم لأجل توبتهم وزوال الإصرار من قلوبهم ، فأمر أن يُخلَّى سبيلهم ، وينصرفوا إلى أبيهم ، وقال لهم : أما أنا فلا أسرح لكم أخاكم بوجه ولا على حال ، فلما استيأسوا منه تشاوروا ، فقال لهم يهوذا : أما أنا فما لي وجه ألقى به والدي ، ﴿ **فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ، ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا** ﴾ [يوسف : ٨٠ ، ٨١] ، يعنون في أظاهر الأمر ؛ لأنه وجدت السرقة في رحله ، ونحن ننظر ﴿ **وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ** ﴾ [يوسف : ٨١] أي ما كنا نحفظه ، ولا نعلمه إذا غاب عنا ، ﴿ **وَاسْأَلِ**

﴿ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ أي أهل البلدة ، ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي أهل الرفقة ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف : ٨٢] فيما ذكرنا ، وقد وصفنا لكَ الأمر على ما وجدناه ، فلما رجعوا إلى أبيهم ، قالوا هذا وهم ثمانية ، وتأخر منهم في مصر ثلاثة : يهوذا وشمعون وبنيامين ، فلما أقبلوا عليه قال يعقوب : ما لي أراكم ثمانية ؟ قالوا : يا أبانا ، إن بنيامين سرق صُواع الملك فحبسه واستعبده ، وأما يهوذا وشمعون ، فإنهما تخلفا عنك حياءً منكَ ، وقالا : لا نبرح من ههنا حتى يأذن لنا أبونا أو يحكمَ الله لنا ، فلما قالوا ذلك ساء ظنه وقويتْ تهمتهم عنده ، وقال : كلما توجهتم ذهب واحد منكم ؟ ثم تضاعف حزنه ، وتزايد قلقه حيث كان يعاني همَّ يوسف وحده ، فتزايد همُّ الثلاثة ، ولسان حاله ينشد عنه :

لَقَدْ صَدَقَتْ مِنِّي الظُّنُونُ الكَوَاذِبُ ... ونَـالَ الذي يَبْغِي العَدُوُّ المُحَارِبُ
وَأَنْفَـذَ سَهْمُ البَيْنِ والبُعْدُ مُقْلَتِي ... وَضَاقَتْ لَمَّا أَلْقَى عَلَيَّ السَّبَاسِبُ
وَفُرِّقْـتُ مِـنْ قَوْمٍ كِرَامٍ أُحِبُّهُمُ ... فَمِـنْهُمْ أَسِيرٌ فِي الوَثَاقِ وَغَائِبُ
وَمِـنْهُمْ طَـرِيدٌ قَدْ تَمَادَى غِيَابُهُ ... وَمِـنْهُمْ شَـرِيدٌ ضَايَقَتْهُ المَذَاهِبُ
وَإِنَّ ضِـياءَ العَـيْنِ وَيْحِي فَقَدْتُهُ ... فَسَـاعَاتُ يَوْمِي كُلُّهُنَّ غَيَاهِبُ
فَمَنْ ذَا الذي أُبْكِيهِ مِنْهُمْ وكُلُّهُمْ ... حَبِيـبٌ بِـهِ مِـنْهُ تُنَالُ الرَّغَائِبُ
مَصَائِبُ شَتَّى جُمِّعَتْ فِي مُصِيبَةٍ ... وَلَـمْ يَكْفِهَا حَتَّى قَفَتْهَا مَصَائِبُ

قال : ثم قال يعقوب عليه السلام : وما سرق ابني ؟ قال : صُواع الملك ، أخرجه من رحله وقد حبسه الملك بجنايته وغيبه عنا ، وأردنا محاربته فإذا هو أشد قوة منا ، ولكن صرفه الله عنا بعد أن هم أن يؤذينا ببركة دعائكَ لنا ، ونحن لا ندري أسرق أخونا أم لا ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ أي أهل القرية والعير التي كنا فيها ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف : ٨٢] ، وقد وصفنا لك الأمر على جليته ، وألقيناه إليك على أصله ، ولقد لقينا من الذل والهوان والتردد والامتحان ما لو اطلعتَ عليه لساءكَ ، وقد علم الناس حالنا وشاهدوا ما كان منا ، فلما سمع مقالهم قال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ أي زينت لكم ﴿ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ أخرجتم بنيامين من عندي رجاء منفعة ، فعاد من ذلك شر وضرر ، ولعلكم فعلتم في بنيامين ما فعلتم في يوسف ،

فلا أصدقكم ولا أكذبكم ، بل أرد أمري إلى الله ، وأصبر صبراً جميلاً لا جزع فيه ولا شكوى إلا لمن قدر البلوى ، وهكذا يكون المؤمن يتمسك بالصبر عند الشدائد والنقم ، والشكر عند التفضل والنعم ، ثم قال : ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ** ﴾ [يوسف : ٨٣] . لما عظم بلاؤه زاد رجاؤه ، والكرب كلما اشتد بالعبد الكئيب جاءه الفرج القريب . قال رسول الله ﷺ لما بلي بالشدائد اشتدي أزمة تنفرجي (١) ، وقيل لما فقد ولده يوسف قال : ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً** ﴾ يوسف : ٨٣] ، فتعلق بالصبر ، ونسي حسن الظن بالرب ، فزيد كربه بفراق بنيامين ، فلما فقده ومَنْ معه من إخوته ، رجع إلى الصبر والرجاء لرب العالمين قال : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ** ﴾ [يوسف : ٨٣] ، فأجابه سبحانه سريعاً ، وأراحه من البين ، ورد عليه ضياء العين ، وجمع بينه وبين الاثنين ، وقيل في المعنى :

لا تَجْزَعَنَّ لِحَادِثٍ كُلِ الأُمُورَ لِفِعْلِ قَادِرْ
فَلَتَظْفَرَنَّ بِمَا تُحَاوِلُ أَوْ يُصِيبَكَ مَا تُحَاذِرْ
وَإِذَا تَضَايَقَتِ الأَوَائِلُ سَوْفَ تَنْفَرِجُ الأَوَاخِرْ

قال الله تعالى : ﴿ **وَتَوَلَّى عَنْهُمْ** ﴾ أي أعرضَ عن بنيه ، وتجدد وجده بيوسف وازداد ، ﴿ **وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ** ﴾ أي يا طول حزني عليه ، ﴿ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ** ﴾ ، وانقلب سوادها بياضاً ، فلم يبصر بهما من الحزن : أي من البكاء ، فلهذا عند الحكماء أن كثرة البكاء تورث العمى ، قال الله تعالى : ﴿ **فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٨٤] أي مغموم مكروب ، لا يظهر حزنه بجزع ولا شكوى ، بل يردد حزنه في جوفه ، ويكتمه عن غيره حتى طلع عليه عالم السر والنجوى ، ﴿ **قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ** ﴾ أي لا تزال (تذكر يوسف) لا تفتر عن ذكره ﴿ **حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً** ﴾ أي ضعيفاً مُبتلى ﴿ **أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ** ﴾ [يوسف : ٨٥] أي الميتين ، فلما

---

(١) أخرجه الشهاب في مسنده١ / ٤٣٦ ، والديلمي في مسند الفردوس ١ / ٤٢٦ ، ولوائح الوضع بادية عليه .

أغلظوا عليه في القول ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي** ﴾ أي ما بي من البث ، وهو الهم الذي تفشيه إلى صاحبكَ ﴿ **وَحُزْنِي إِلَى اللَّه** ﴾ لا إليكم ، أي ذكر مصيبتي لربي ، وأشكو شدها إليه ، ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [**يوسف** : ٨٦] أي أنا أعلمُ منكم بربي ، وقيل في المعنى :

يَـــا وَاحِدُ جَلَّ عَنْ نِدٍّ وَعَنْ عَدَدِ أَشْـــكُو إِلَيكَ ولا أَشْكُو إِلَى أَحَدِ
مَـــاذَا أَقُـــولُ ومَا لِلقَوْلِ فَائدَةٌ أَنْتَ العَلِيمُ بِمَا قَدْ حَلَّ فِي خَلَدِي
إِنِّـــي لأَنْظُرُ عَنْ يَسْرَي وَمَيْمَنَتِي فَـــلا أَرَى غَيْرَ ذِي عَذْلٍ وذِي فَنَدٍ
هَـــذَا يَلُـــومُ وَهَذَا لَيْسَ يَعْذُرنِي كَـــأَنَّ مَا بِي شَيْءٌ قَدْ جَنَتْهُ يَدِي
يَـــا رَبُّ قَدْ حَلَّ بِي مَا إِنْ أُعَبِّرُهُ أَنْـــتَ العَلِيمُ فَخُذْ يا سَيدِي بِيَدِي

قال : يا من ضج من الكرب ويصيح ، خل التدبير لمن خلقكَ ، واشكُ إليه تستريح ، تكثر النحيب والعويل ، وتريد أن يَمحي عنكَ فعل الوبيل ، لو رجعت إليه بقلبك لعجل لك بتفريج كربكَ ، لو صح يقينك لما أسلمك معينك ، لو صحت المعرفة لزالت العلل المجحفة ، أنت أصل دائك ، أنت المعرض عن دوائك ، أنت الزاهد عن رشادك ، أنت العامل على إبعادك ، أنت الجالب لنكالك ، أنت الجامع لأنكالك ، أنت الفارُّ من نعيمك ، أنت الطالب لزقومك وحميمك ، من ذا الذي لاذ بالمولى فأسلمه ؟ من ذا الذي أطاعه حقيقة فما أكرمه ؟ ولو أنهم عند حل العقود ونبذ الوداد وبدء الصدود وخلعهم لثياب الحياء ونقضهم لصحيح العهود أناخوا بأبوابنا ساعة ، وأجروا مدامعهم في الخدود لعدنا سراعا إلى وصلهم وقلنا قلوب المحبين عود .

(حكاية) : كان في بني إسرائيل رجل من خيارهم ، وكان له كثير المال ، وله ولد صالح ، فلما حضر الوالدَ الموتُ قعد ولده عند رأسه ، وقال : ألا توصيني يا أبت ؟ قال : يا ولدي ، لا تحلف صادقاً ولا كاذباً ، يعني بإلهه خوفاً من أن تقع في الكذبَ فتحنثَ فتأثم ، فبذلك أوصاه ، فما حال من يتهاون بالحلف بالطلاق ، ويعاشر زوجته حراماً ، لا شك أن جهنم مأواه ، قال : ثم إن الرجل مات ، فتسامع الناس بوصيته ، فبلغ فُساق بني إسرائيل ، فصار الرجل منهم يأتي إلى الولد ، ويقول : لي عند أبيكَ كذا وكذا ألفاً ، فأعطني مالي أو احلفْ ، فيتوقف عن يمينه لوصية أبيه

له ، فيعطيه ما طلب ، فلم يزل يتردد إليه الفُساق إلى أن فني ماله ، واشتد إقلاله ، وكان له زوجة صالحة وولدان صغيران ، فقال لزوجته : إن مطالبة الناس لي قد كثرت ، وقد نفد المال ، وليس معي شيء ، فلنفرَّ بأنفسنا إلى بلد لم نُعرف فيه ، فنعيش بين أظهر الناس ، فركب البحر بها وبولديها ، لا يعرفان إلى أين يقصدان ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد : ٤١] ، وقيل في المعنى :

يَا خَارِجًا خَوْفَ العِدَا مِنْ دَارِهِ وَاليُسْرُ قَدْ وَافَاهُ عِنْدَ فِرَارِهِ
لا تجزعنَّ من العباد فربما عَزَّ الغَرِيبُ لِطُولِ بُعْدِ مَزَارِهِ
لَوْ قَدْ أَقَامَ الدُّرُّ فِي أَصْدَافِهِ مَا كَانَ تَاجُ المُلْكِ بَيْتَ قَرَارِهِ

قال : فبينما هم سائرون إذ أحاطت الأمواج بالسفينة فانكسرت ، فبقي الرجل على لوح ، والمرأة على لوح ، والولدان على لوح ، وفرقتهم الأمواج ، فحصلت المرأة في بلد ، والولد الواحد في قرية ، والآخر حصل في سفينة أخرى التُقط فيها من البحر ، وأما الرجل فقذفه الموج إلى جزيرة منقطعة حصل فيها ، فتوضأ فيها ، وأذن وأقام الصلاة ، فإذا قد خرج من البحر أشخاص بألوان مختلفة فصلوا بصلاته، فلما فرغ قام إلى شجرة في الجزيرة ، فأكل من ثمارها ، فزال عنه جوعه ، ثم وجد عيناً من الماء عذبة فشرب منها وحمد الله تعالى ، فبقي ثلاثة أيام يصلي ويخرج من البحر أقوام يصلون بصلاته ، فلما كان بعد ثلاثة أيام إذا بمناد يناديه : يا أيها الرجل الصالح البارُّ بأبيه ، المجل قدر ربه ، لا تحزن فإن الله يخلف عليكَ ما خرج من يديك ويرده عليك ، من كان بارًا بأمه وأبيه فالله بفضله يكفيه ، إن في هذه الجزيرة كنوزاً وأموالاً ومنافع يريد الله أن تكون لها وارثاً وفيها عامراً ، وهى في موضع كذا وكذا من الجزيرة ، فاكشفْ عنها ، وإنا نسوق إليك السفن ، فأحسن إلى الناس وادعهم إليك ، فإن الله تعالى يُميل قلوبهم إليكَ ، فقصد تلك المواضع من الجزيرة ، وكشف الله له تلك الكنوز ، وصارت السفن تأتي إليه ، فيحسن إحساناً عظيماً لمن أقبل من الناس إليه ، ما أحسن الإحسان ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة يقولها الإنسان ، وقيل في المعنى :

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ رِقَابَهُمُ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِحْسَانَ إِنْسَانُ
فَإِنْ أَسَاءَ مُسِيءٌ فَلْيَكُنْ لَكَ فِي عُرُوضِ زَلَّتِهِ عَفْوٌ وَغُفْرَانُ

قال : وكان يقول للواردين عليه : لعلكم تُدلون على العمال والفقراء ، فإني أعطيهم كذا وكذا ، وأجعل لهم كذا ، فصار الناس يأتونه من الأقطار ، فلم يأتِ عشر سنين إلا والجزيرة قد عمرت ، والولد البارُّ مالكها وملكها ، ولا يأتيه أحدَ إلا يحسن إليه حتى شاع ذكره ، وكان ولده الأكبر قد حصل عند رجل علمه الأدب ، وكذا أخوه الأصغر لطف الله به ، وساق إليه رجلاً من أهله أخذه وأدبه ورباه وأحسن تربيته وعلمه طريق التجارة ، وحصلت المرأة عند رجل من التجار ائتمنها على ماله لما توسم فيها الخير ، وعاهدها أن يعينها على رضا الله تعالى وطاعته ، فكان يسافر بها في السفن إلى البلاد يبتغي الفوائد والرزق الحلال من فضل رب العباد ، فسمع الولدُ الكبيرُ عن ذلك الملك فقصده ، فأوقع الله في قلبه حبه وهو لا يعلم من هو ، ومال إليه الملك فاستكتبه ، وأخلص له وده وسره ، ومن حبه ائتمنه ، سمع الولد الآخر أيضاً بالملك فقصده ، فحظي عنده ، ووكله على النظر في أموره ، ولا يعرف كل منهم الآخر ، بل هو الله مولاهم كما فرقهم جمعهم وأراهم آمالهم ، فبقي الأخوان برهةً من الزمان في خدمة الملكِ والدهم ، واجتمعا به بعد إبعادهم ، وسمع التاجر الذي عنده المرأة عن الملك والإحسان المنسوب إليه ، فانتقى من الثياب الفاخرة والتحف اللائقة ليُقدم بها عليه ، وأتى بسفينة والمرأة معه حتى أرسى على الجزيرة التي صارت مدينة ، ثم نزل إلى الملك وقدم له هدية ، فاستظرف الملكُ بها ، وسُر بها سروراً كثيراً ، وأمر للرجل بجائزة سنية ، وكان في هديته عقاقير ، وأراد الملك من التاجر أن يُعرِّفه بأسمائها ومصالحها وقال : تبيت الليلة عندنا ، فقال : أيها الملك ، إن لي في السفينة وديعةً عاهدتها أن لا أكل أمرها لغيري ، وهي امرأة صالحة ظهرت لي بركتها ، فقال الملك : إني سأبعث إليها أمناء يبيتون عندها ، ويحرسون ما لديها ، فأجابه التاجر إلى ذلك ، وبقي عند الملك ، فوجه الملك كاتبه ووكيله وهما ولداها ، وقال : تحرسان سفينة هذا الرجل الليلة من غير أن تناما إن شاء الله ، فلما ذهبا صعدا السفينة ، وجلس أحدهما في مقدمها ، والآخر في مؤخرها ، فذكرا الله تعالى وقتاً من الليل ، ثم قال الواحد للآخر : يا فلان ، إن الملك قد أمرنا بالحراسة ، ونخاف النوم ، فتعال نتحدث بأخبار الزمان ، وما رأينا من الخير والامتحان ، فقال الآخر : أما أنا يا أخي فمن امتحاني أن فرق الدهر بيني وبين والدي وأمي وأخ لي كان اسمه كاسمكَ ركب والدنا بنا البحر من بلد كذا وكذا ، فانكسرت السفينة وفرق الله شملنا ، فلما سمع أخوه مقالته قال : وما كان اسم والدكَ ؟ قال : فلان وأمي فلانة ، قال فقام كل واحد إلى أخيه يقول : أنت أخي ورب الكعبة ، ثم قال أحدهما للآخر :

يا أخي حدثني بأمركَ من صغركَ إلى الآن بما لقيتَ ، فجعل يحدثه والأم تسمع إلى ما حلا على قلبها ووقع ، فكتمت أمرها ، فيا عظمَ سرورها لما سمعتْ ما أسرَّها ، فلما طلع الفجر قال الواحد للآخر : سر بنا يا أخي نتحدث في مترلي ، قال نعم ، وأما التاجر فتوجه إلى السفينة ، فوجد المرأة كاظمة : ظاهرها حزن وباطنها سرور، فقال يا أختي ، ما لك ؟ فقالت : بعثتَ إليَّ مَنْ أقلقني ، و لم أنم الليلة منهما على ما بلغني ، فظن التاجر أنهما أغضباها بقصد سوء ، فغضب من ساعته ، وتوجه إلى الملك وأخبره ، فأمر بإحضارهما ، وكان الملك يتحقق أمانتهما ، ويعرف براءتهما ، فلما حضرا قال : عليَّ بالمرأة ، فلما حضرت قال لها : ما رأيت أيتها المرأة من هذين الرجلين ؟ فقالت : أيها الملك ، أسألك بمولاكَ إلا ما سألتهما يعيدان كلامهما الذي تحدثا به البارحة ؟ فقال الملك : قولا ما قلتماه ولا تكتماه ولا تخافا الذي أسمعتما هذه المرأة ، فأعادا كلامهما ، فإذا الملك قام من على سريره وصاح صيحة وكذا المرأة ، وترامى كل واحد على الآخر وقال : والله ، أنتما ولداي ، وقالت المرأة : والله ، أنا أمهما ، فجمع الله شملهم ، وألَّفَ بينهم بعد تفريقهم وتشتيتهم ، فسبحان من إذا قصده قاصد نجاه و لم يخيب فيه رجاه ، ولسان حالهم يقول :

لِكُــلِّ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ مِيقَاتُ ... وَالأَمْــرُ فِــيهِ أَخِي مَحْوٌ وإِثْبَاتُ
لا تَجْــزَعَنَّ لِعُسْرٍ قَدْ دُهِيتَ بِهِ ... فَاليُسْــرُ آتٍ بِــذَا جَاءَتْكَ آيَاتُ
وَرُبَّ ذِي كُــرْبَةٍ بَانَتْ مَضَرَّتُهَا ... لَــهُ وبَاطِــنُهَا فِــيهِ المَسَــرَّاتُ
وَكَــمْ مُهَانٍ عُيُونُ النَّاسِ تَنْظُرُهُ ... مِــنَ الهَــوَانِ فَتُغْشِــيهِ المَبَرَّاتُ
هَــذَا الــذِي نَالَــهُ فَقْرٌ وَكَابَدَهُ ... ضُــرٌّ وحَلَّتْ به فِي الوَقْتِ آفَاتُ
وَفَــرَّقَ الشَّــمْلَ مِــنْهُ بَعْدَ أُلْفَتِه ... فَكُلُّهُــمْ بَعْدَ طُولِ الجَمْعِ أَشْتَاتُ
أَعْطَــاهُ مَوْلاهُ خَيْرًا ثُمَّ جَاءَ بِهِمْ ... وفِــي التَّجَمُّعِ لَوْ تَدْرِى إِشَارَاتُ
سُبْحَانَ مَنْ عَمَّتِ الأَكْوَانَ قُدْرَتُهُ ... وَأَخْــبَرَتْ بِتَدَانِــيهِ الــدَّلالاتُ
فَهْــوَ القَرِيــبُ بِــلا حَدٍّ يُكَيِّفُهُ ... عَقْــلٌ ولا فِي تَدَانِــيهِ المَسَافَاتُ
قَــدْ خَصَّــنَا بِنَبِيٍّ شَرْعُهُ حَسَنٌ ... صَــلاةُ رَبِي عَلَــيْهِ والتَّحِــيَّاتُ

المجلس السابع عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧] .

الحمد لله ناشر كل طي ومميت كل حي ، الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ، خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة أمشاج كاللعاب ، وكتب على جبينه ما قضاه عليه في أم الكتاب ، سبحانه وتعالى عما يقول الآفكون ، رفع السماء وزينها بالنجوم ، ودحا الأرض ونمقها بالرقوم ، وأوتدها بالجبال الراسيات فاستقرت على التخوم ، وإذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، أجرى الأنهار بالماء النمير ، وأخرج الأقوات وقسمها بالتقدير ، وأنبت الحبوب والفواكه والثمار ، فلكل واحد منها مطعم يعرفه الكبير والصغير ، و ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠] ، جعل الدنيا دار أشتات وزوال ، وامتحن فيها الأنبياء والأولياء والأرسال ، وأوصاهم بالصبر على المحن والبلايا العضال ، وقال لنبيه حين أسف على أهل الضلال : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨] ، أحمده على ما يوليه من نعمه ، وأشكره على إحسانه وكرمه ، وأقر ببقائه وقدمه ، وأنزهه عن إدراك اللحظات وخطرات الظنون ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أجدها في يوم تشخص فيه الأبصار وتطيش الأفكار وتحيط الأوزار ويندم المفرطون، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ذو البهجة الباهرة والحجة القاهرة والطلعة الزاهرة والمحبة البينة الطاهرة ، الذي لم يزل صادعاً بما قلد حتى أتاه اليقين وغاب عن العيون ، واختلى بمولاه فقربه وأدناه وجعل مقامه أعلى المقامات يغبطه فيه الأولون والآخرون ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وأصحابه الأطهرين وعترته والتابعين ما تعاقبت السنون ولزمت الطيورُ الغصونَ وناح كل مصاب ومحزون ، وقيل :

صَبْرُ المُحبِّ عَنِ المَحْبُوبِ مَذْمُومُ ... وَقَلْبُهُ بِسِهَامِ الشَّوْقِ مَكْلُومُ
أَيَحْسُنُ الصَّبْرُ عَمَّنْ مُلْكُهُ جَلَدِي ... وَمُهْجَتِي طَوْعُهُ فَاللُّبُّ مَحْكُومُ

إِنْ قُلْتُ آهاً دَرَى مَا قَدْ أَشَرْتُ لَهُ وَإِنْ سَكَتُّ فَسِرُّ السِّرِّ مَعْلُومُ
يَلَذُّ عِنْدِي تَعْذِيبِي وَيَعْذِلُنِي وَمَا أَنَا فِي الَّذِي يُبْدِيهِ مَظْلُومُ
فَالصَّبْرُ يَحْسُنُ إِلا عَنْهُ وَيْحَكُمُ إِنَّ الصَّبُورَ عَنِ الأَحْبَابِ مَحْرُومُ
قَدْ غِبْتُ عَنِّي بِهِ فِي كُلِّ آوِنَةٍ حَتَّى فَنِيتُ وَمَنْ أَهْوَاهُ قَيُّومُ
وَرَايَةُ الحُبِّ فِي الأَحْشَاءِ خَافِقَةٌ وَرَقْمُ طُرَّتُها بَادٍ وَمَرْسُومُ
لَوْ قَطَّعُونِي فِي مَرْضَاتِهِ قِطَعًا مَا قُلْتُ لَمْ إِنَّهُ فِي حُبِّهِ لوم
يَا مَنْ ثَبَاتُ رَجَاءِ الصَّابِرِينَ بِهِ امْنُنْ عَلَيَّ فَجَيْشُ الصَّبْرِ مَهْزُومُ

قال : لما كان الصبر في الشدائد يجلب المنن والفوائد ، ويورث العلو على كل معاند ، ويرغم أنف كل حاسد ، أمر الله به رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأوصى به أصحابه الكرام ، وأمرهم أن يبلغوها كل من دخل في دين الإسلام ، قال رسول الله ﷺ لأحد أصحابه الكرام : « عليك بالهجرة ، فإنه لا مثل لها ، وعليك بالصبر فإنه لا مثل له ، وعليك بالسجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط بها عنك خطيئة » (١) في رواية ذكرها النسائي . وقال ابن عباس : « كنتُ بين يدي رسول الله ﷺ فقال : يا غلام ، أو قال : يا بني ، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فقد جف القلم ، فلو أن الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوكَ بشيء لم يقضه الله لكَ لم يقدروا عليه ، ولو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن يضروكَ بشيء لم يقدره الله عليكَ لم يقدروا عليه ، واعمل لله بالشكر واليقين ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيرا ، وإن النصر مع الصبر ، وإن مع العسر يسرا » (٢) رواه النسائى . وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ :« إن المعونة تأتي من الله

(١) أخرجه النسائي في الكبرى٤ / ٤٢٦ ، والمجتبى ٧ / ١٤٥ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٤ / ٦٦٧ ، والحاكم في مستدركه ٣/ ٦٢٣ ، والضياء في المختارة ١٠ /٢٣ .

على قدر المئونة ، وإن الصبر يأتي من الله على قدر البلاء »[(١)] ذكره البزار ، وقال علي رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ :« من رضي بالقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل – يعني من النوافل – وانتظار الفرج بعد الصبر عبادة »[(٢)] رواه ابن عبد البر . وقال خباب بن الأرت ﷺ : « شكونا إلى رسول الله ﷺ ما نلقاه وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تدعو لنا ؟ ألا تستنصر لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فتُحفر له في الأرض حفرة ، فيجعل فيها ، ثم يجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيجعله نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرَموتَ لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[(٣)] ذكره البخاري . وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإذا أحب الله قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط »[(٤)] ذكره الترمذي . وقال سعد ﷺ : « قلت : يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، فيُبتلى الرجل على قدر دينه ، فلا يبرح البلاء عن العبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة »[(٥)] ذكره الترمذي . وقال أنس : قال رسول لله ﷺ : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد بعبده الشر أمسكَ عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامه »[(٦)] هذا معناه – والله أعلم – في حق المؤمن الخالص المخلص الذي هو على الكتاب والسنة ، بحيث إذا ابتلى في الدنيا بشيء يكون تكفيراً لسيئاته ، ورفعة في آخرته لدرجاته ، وأما الفاجر أو المبتدع سواء ابتلى أم لا ، فهو كالجمل إن عقله أهله لا يدري فيم عقلوه ولا فيم أطلقوه ؟ إن أصيب في دنياه فزيادة في عذابه ، وإلا فمدخرة له على الزيادة في نكاله ، وعظم حسابه . وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا

---

(١) أخرجه الشهاب في مسنده ٢ / ١١١ .

(٢) أخرجه الشهاب في مسنده ١ / ٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣ / ١٣٢٢.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ٤ / ٦٠١.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه ٤ / ٦٠١ ، وابن حبان في صحيحه ٧ / ١٦٠.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه ٤ / ٦٠١ .

كفر الله بها من خطاياه » (١) رواه البخاري ومسلم . وعنه قال : « كان لأبي طلحة ﷺ ابن يشتكي ، أي ضعيف ، فخرج أبو طلحة فقُبِض الصبى ، فقالت أم الصبي : لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أنا أحدثه ، فلما رجع أبو طلحة ، قال : ما فعل ابني ؟ قالت أم سليم وهي أم الصبى : هو أسكن ما كان ، فقربت إليه عَشاء فأكل وشرب ، ثم صنعتْ له أحسن ما كانت تصنع قبلُ فوقع بها ، فلما رأت أنه قد شبع ، وأصاب منها ، قالت : يا أبا طلحة ، أرأيتَ أن قوماً أعاروا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، قالت : فاحتسب ابنك ، قال : فغضب ، ثم قال : تركتيني حتى إذا تلطختُ ثم أخبرتيني بابني ، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : أعرستمُ الليلة ؟ قال : نعم ، قال : اللهم بارك لهما ، فولدت غلاماً ، فقال لي أبو طلحة : احمله ، فأتى به النبي ﷺ وبعث معه بتمرات ، فقال : معه شيء ؟ قال : نعم ، تمرات ، فأخذها النبي ﷺ فمضغها ، ثم أخذها من فيه ، فجعلها في في الصبي ثم حنكه ، وسماه : عبدَ الله » (٢) متفق عليه . وفي رواية البخاري قال ابن عيينة – رحمه الله – : « فقال رجل من الأنصار : فرأيتُ تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن ، يعني من أولاد عبد الله المذكور » . ويُروى « أن أبا طلحة لما أخبر النبي ﷺ بصنيع زوجته وصبرها قال : هكذا كان رجل ممن كان قبلكم له زوجة ولها ولدان منه ، أحدهما أكبر من الآخر ، فخرجت أمهما يوماً في حاجة لها ، فقال الكبير للصغير : ألا أريك يا أخى كيف تذبح الشاة ؟ قال : بلى ، قال : فاضطجع على جنبك ، فأخذ سكيناً ومر بها على رقبته ، فأدركته الأم وقد قتله ، فصرخت فيه فانهزم ، فألقى نفسه في البئر ، فماتا وأبوهما غائب ، فطلبت أحد جيرانها فأطلعته وقالت : لا تخبر والدهما حتى أنا أخبره ، فوضعته ملاصقاً للصغير وجللتهما بمرط ، فحضر أبوهما مستمسياً ، ولم يعلم الخبر ، فوضعت له عَشاء ، ثم تطيبت وتزينت ، وأتت فراشها فواقعها ، ثم قال : أين ولداي ؟ قالت : تراهما مضطجعين ، فناداهما فأجاباه في الحال بإذن الله تعالى ، وقاما ماشيين ، فأخذت الأم تتعجب ، فقال مالك : فقصت القصة عليه ، فأخذ يتعجب ، فأخبر أن صبر الأم وصنيعها مع الوالد سبب حياتهما » . وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضتُ صفيه من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢١٣٧ ، ومسلم في صحيحه ٤ / ١٩٩٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢٠٨٢ ، ومسلم في صحيحه ٣ / ١٦٨٩ .

أهل الدنيا إلا الجنة »[١] رواه البخاري . وقال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « من مات له فرطان من أمتي أدخله الله الجنة ، فقالت عائشة : ومن مات له فرط واحد من أمتكَ ؟ قال : ومن مات وله فرط واحد يا موفقة ، قلت : ومن لم يكن له فرط من أمتكَ ، قال : فأنا فرط أمتي لم يصابوا مثلي »[٢] ذكره الترمذي . وعنه أيضاً قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته : أقبضتم روح ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : أقبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدكَ واسترجع ، فيقول : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسموه بيت الحمد »[٣] رواه الترمذي . وعن أنس مر النبي ﷺ عند قبر صبي وأمه تبكي ، فقال : اتقي الله واصبري ، فقالت : إليكَ عني ، فإنكَ لم تُصَبْ بمصيبتي ، ولم تعرفه ، فقيل لها : إنه النبي ﷺ ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين ، فقالت : لم أعرفكَ ، فقال : إنما الصبر عند الصدمة الأولى » متفق عليه . وقالت عائشة : « سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون ، فأخبر أنه إذا كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء ، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين ، فليس من عبد يقع في الطاعون ، فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتبه الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد » رواه البخاري . وقال جابر : كان معاذ من أحسن الناس وجهاً وخلقاً وأسمحهم كفًّا ، ولما وقع الطاعون بالشام قال معاذ : اللهمَّ ، أدخل على آل معاذ نصيبهم من هذا ، فطعن له امرأتان فماتا ، ثم طعن ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم طعن معاذ فجعل يُغشى عليه ، فإذا أفاق قال : رب عمني ، فوعزتكَ ، إنك لتعلم أني أحبكَ ، ثم يُغشى عليه ، فإذا أفاق قال مثله ، فلما حضرته الوفاة قال: مرحباً بالموت ، مرحباً زائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم ، إنك تعلم أني كنت أخافكَ ، وأنا اليوم أرجوكَ ، إني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار وغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر . وقال أنس : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يقول : إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر ، عوضتُهُ منهما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٢٣٦١ .

(٢) أخرجه الضياء في المختارة ١٠ / ٤٢١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٣ / ٣٤١ ، وابن حبان في صحيحه ٧ / ٢١٠ .

الجنة » [١] يريد عينيه . رواه البخاري . لكن الأعمى إذا صبر واحتسب ، وكان عاملاً بما أمر الله ، منتهياً عما حرم الله ، نال الجنة بعفو الله ، كما قال الله ، وإلا فكم من أعمى خسر دنياه وأخراه بارتكابه الآثام وأكله الحرام ، وكم من بصير ربح دنياه وأخراه بملازمته التقوى وصرف نفسه عن الهوى ، قال الكريم المولى : **﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾** [الليل ٥ : ١٠] ، قال عطاء بن أبي رباح : قال ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ فقال : بلى ، فقال هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت : « إني أصرع ، وإني أتكشف فادعُ الله لي ، قال : إن شئتِ صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوتُ الله أن يعافيك ، فقالت : أصبر ، فقالتَ : إني أَتكشفَ ، فادعُ الله أن لا أَتكشف ، فدعا لها » [٢] متفق عليه . وقال عبد الله بن مسعود : « كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء يضربه قومه ، فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » [٣] متفق عليه . وقال أنس : قال النبي ﷺ : « لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضر نزل به » . وفي رواية « لضر أصابه فإن كان لابد فاعلاً فليقل : اللهم ، أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » [٤] متفق عليه .

وحُكِيَ أن رجلاً من الفقراء كان صابراً على فقره لا يشكو إلى غير ربه بفقره ، ولا يسألَ مخلوقاً حتى ولا صديقاً ، فضاق صدر زوجته لذلك لما ضاقت عليها المسالك، وأنى لها الصبر واليقين وهي ناقصة عقل ودين ؟ فأشارتْ على زوجها أن يقعد في الطرقات يلتمس من الناس الخيرات ، فكره قولها في ذلك ، ولم يسمع منها لكون هذه الخصلة لم يتعودها ولم يسأل مخلوقاً عنها ، فألحت عليه ، ولم تزل تلح عليه حتى سمع قولها ، وسأل ومال إليه ، وكيف لا وهن الغالبات والداهيات والمصيبات؟ فقال لها : إني أستحيي أن أسأل غير ربي ، فقالت : أسبل منديلاً على وجهك ،

---

(١) أخرجه البخاري ٥ / ٢١٤٠ ، وأحمد في المسند ٣ / ١٤٤ .

(٢) أخرجه البخاري ٥ / ٢١٤٠ ، ومسلم ٤ / ١٩٩٤.

(٣) أخرجه البخاري ٣ / ١٢٨٢.

(٤) أخرجه البخاري ٥ / ٢٣٣٧ ، ومسلم ٤ / ٢٠٦٤.

واجلس في الطرقات ، فلكَ أسوةٌ بغيركَ ، فبينما هو قاعد يوماً على الطريق وهو فريد إذ جاءه والي الشرطة والعبيد ، فقالوا له : أنت سرقتَ كذا وكذا لفلان من هذ الحارة يا هذا ؟ فأقسم بالله إنه ما سرق شيئاً فلم يصدقوه ، بل جروه وأخذوه ، وعند أمير البلدة أوقفوه ، فأمر بقطع يده ، وأن يطلقوه ، فقطعوا في الحال يده ، فمضى نحو بيته ويده معه حتى أتى أهله ، فلما أقبل عليها رمى يده إليها ، قالت ما هذه اليد يا فلان ؟ قال : هي يد مَنْ سأل غير الرحمن ، وقيل :

إذَا مَا مَدَدْتُ الكَفَّ أَلْتَمسُ الغِنَى ... إلَـــى غَيْرِ مَنْ قَالَ اسْأَلُوني فَشُلَّتِ
أصَـــبِّرُ نَفْسِي إنَّ فِي الصَّبْرِ عِزَّةٌ ... وَأَرْضَـــى بِدُنْـــيَايَ وإنْ هِيَ قَلَّتِ

وقيل : لما مات أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، لَجَّ المشركون في أذيته ، ونالوا منه ، فصار يعرض نفسه على القبائل ، ويسألهم الدخول في دينه فلم يأت أحداً من القبائل إلا صده ورده ، ويقول : قومُ الرجل أعلم به ، أتراه يصلحنا وقد أفسد قومه ؟ فعمد إلى ثقيف بالطائف ، فوجد سادات ثقيف وهم إخوة ثلاثة ، فعرض عليهم نفسه ، وشكا إليهم على سبيل الحكاية ما يلقاه من الأذية ، فقال أحدهم : أنا أمزق ثياب الكعبة إن كان الله بعثكَ بشيء قط ، وقال الآخر : يا محمد أعجز الله أن يرسل غيركَ ؟ وأما الآخر فقال : لا أكلمكَ بعد مجلسكَ هذا أبداً ، إن كنت رسولاً من الله كما تزعم ، فلأنتَ أعظمُ شرفاً وقدراً من أن أكلمكَ ، وإن كنتَ كاذباً على الله لأنتَ أشرُّ من أن أكلمكَ ، وأفشَوْا في ثقيف الذي قال لهم ، واجتمعوا يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقعدوا بالحجارة ، فخلص من سماطهم وقدماه يسيلان بالدماء ﷺ في طريقه كلما رفع ، فعمد إلى حائط من كرومهم ، فأتى ظل شجرة من الكرم ، فجلس مكروباً في أصلها ، ثم نظر إلى السماء ، وقال : اللهم إني أشكو إليك غربتي وكربتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنتَ ربُّ المستضعفين ، إلى مَنْ تكلني ، إلى عبد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بكَ غضب عليَّ فلا أبالي ، ولكن عافيتكَ لي أوسع ، أعوذ بنور وجهك من أن يترل بي غضب ، أو يحل عليَّ سخطكَ ، وبمعافاتكَ من عقوبتكَ وبكَ منكَ ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسكَ ، لكَ العقبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بكَ . وكان في الكَرْمِ عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، فكره أن يأتيهما لما يعلم من عداوهما لله ولرسوله ، فتحركت له رحمهما ، فقالا لغلام لهما نصراني يقال له : عداس : خذ

قطفين العنب ، وقدحاً من الماء ، ثم اذهب به إلى هذا الرجل، وإنه سيسألك أهدية هو أم صدقة، فإن قلت له : صدقة لم يأكل فقل له : هدية ، فسار عداس بما أرسلاه به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضعه بين يديه ، فقال : أهدية أم صدقة ؟ فقال : هدية ، فمد يده ، وقال : بسم الله ، وكان عداس من أهل نينوى ، فلما سمع قوله تعجب منه ، وصار ينظر إليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أين أنتَ ؟ قال : من أهل نينوى ، قال : من مدينة الرجل الصالح أخي يونس بن متى ؟ قال : وما علمكَ به ؟ فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم قصته وما أُوحي إليه فيه ، فخر عداس ساجداً ، وجعل يقبل قدميه صلى الله عليه وسلم ، وكان عتبة وشيبة ينظران إليه ، فقال أحدهما للآخر : أما غلامكَ فقد أفسده عليكَ، فلما أتاهما قالا له : ما شأنكَ سجدتَ لمحمد وقبلتَ قدميه و لم نرك فعلت ذلك بأحد منا ؟ فقال : يا سيدي ما على وجه الأرض خير من هذا ، حدثني بشيء وهو شأن نبي بعثه الله إلينا يقال له : يونس بن متى ، فأخبرني أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا : لا يفتنكَ عن دينكِ ، فقال : هو والله نبي مرسل، فقالا : ويحكَ ، عزمت قريش على أنها تقتله وتستأصله ، فقال : هو والله يقتلهم ويسودهم ، فإن اتبعوه فهنيئاً لهم باتباعه ، وقيل :

هَدَى اللهُ عَدَّاسًا إلى رُؤية الحَقِّ ... فأبْصَرَ بَدْرَ التَّمِّ يلتاحُ فِي الأُفْقِ
أَتَاه رَسُولُ اللهِ فِي حالِ عُسْرَةٍ ... وَقَدْ نَالَ مِنْ أَهْلِ الضَّلاَلَةِ مَا يُشْقِي
فَقَدَّمَ للمُخْتَارِ مَا جَاءَهُ بهِ ... فَمَدَّ لَهُ كَفًّا يَزِيدُ عَلَى الوَدْقِ
وَسَمَّى حَبِيبَ اللهِ باسْمِ الذِي لَهُ ... تُسَبِّحُ فِي طُولِ المَدَى سَائِرُ الخَلْقِ
وَسَمَّى حَبِيبًا لَمْ يَزَلْ بِوِدَادِه ... يُصَرِّحُ فِي كُلِّ الأَحَايِنِ للخَلْقِ
فَحَنَّ إلى ذَاكَ السَّمَاعِ ولَمْ يَزَلْ ... يُنَاجِيه عمَّا قَدْ أَعَادَ مِنَ النُّطقِ
فَقَالَ لَهُ إِنِّي رَسُولٌ إلى الورَى ... حَقِيقٌ وقَوْمِي الآنَ قد جَحَدُوا حَقِّي
فَمَا قَامَ إلا والعِنَايَةُ قَدْ بَدَتْ ... عَلَيْه وعَبْدُ الرِّقِّ قَدْ خُصَّ بالعِتْقِ
عَلَيْهِ صَلاَةُ اللهِ ثُمَّ سَلامُهُ ... صَلاَةً تُنَجِّينَا مِنَ النَّارِ والحَرْقِ

قال الشيخ أبو علي الدقاق – رحمه الله تعالى – : الصبر على الخروج من البلاء على

حسب الدخول فيه ، كأيوب عليه السلام حين حفظ الأدب في الخطاب ، فقال : قدرت الضر عليَّ وابتليتني وأنت أرحم الراحمين، و لم يقل : ارحمني، وقيل : لم يقل ذلك على وجه الشكوى ، وإنما قال ذلك لتكون له أسوة بالمبتلين وسنة للضعفاء والمضطرين ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : "إنما أسهو لأسن" ، فكان سهوه في العدد لاشتغال قلبه بالواحد الأحد ، وقيل :لم يقل : مسني الضر اعتراضا على الأقدار، إنما كان قوله إظهارا للافتقار ؛ لأن عدم المبالاة بالبلاء مقاومة للمقدور، وهو في الحقيقة إذا صبر العبد نال السرور، وقيل : إنما قال ذلك شكوى لا ضجراً ، أي مسني الضر الذي تبتلي به أنبياءك وأصفياءك وأنت أرحم الراحمين حيث رحمتني به ، وقيل : لم يقل : مسني الضر حقيقة ؛ لأن البلاء استغاث من أيوب حيث لم يكن بأيوب طاقة له ، وقيل : أكل الدود جسمه كله إلا قلبه ولسانه ، فقصدت دودة قلبه وأخرى لسانه ، فقال مولاي : لم يبقَ لي إلا لساني به أذكركَ ، وقلبي به أعرفكَ ، فإذا أُكلا ذهبت مني الفوائد ومسني الضر، وقيل : كانت الدودة عنده بمنزلة الأضياف قراها لحمه ، فلما في اللحم تنغص لخصاصة أضيافه ، فقال : مسني الضر ، وقيل : اَستعجم أمره إليه ، فلم يدرِ أبلاؤه تخصيص أم تمحيص أم تهذيب أم تعذيب ؟ فقال : مسني الضر ، وقيل : إنَ الله تعالى أوحى إليه : إن البلاء الذي أصابكَ اختصصتُ به سبعين نبيًّا قبلكَ ، فلما أحس بكشفه عنه قال : إني مسني الضر ، وقيل : إن جبريل عليه السلام كان يتلقاه كل يوم ، ويأتي إليه يعوده بأمره ، ويقول له : ربك يقرئكَ السلام ، ويقول لكَ : كيف حالكَ ؟ كيف تجدك؟ فيقول: لربي الحمد والشكر على كل حال ؛ إذا كان راضياً عني فلا أبالي ، فيلذ بمناجاته وافتقاد ربه كل يوم له لا يحس بألم ، فانقطع عنه يوماً فأحس بالضعف ، ووجد ألمه ، فقال : إني مسني الضر ؟ وقيل : حبس عنه الوحي أربعين يوماً ، فقال: مسني الضر ، وقيل : ضعف عن القيام بأوراده ، وعادة أهل الخير إذا اعتادوا الخير وأقدموا بالمواظبة على أورادهم ، يحصل عندهم بقطعه المشقة العظيمة ، فلما ضعف عن القيام بما اعتاده من الخير قال : مسني الضر، وقيل : مر به رجلان ، فقال أحدهما للآخر : ربَّ جريمة صنعها المبتلَى هذا فعُوقب بها ، فاستشعر العتاب من الحق على ألسنة الخلق ، فقال : مسني الضر ؛ لأنه كان سبب ابتلائه أن ملكاً ببلدته حدث منه جور في حق الرعية العوام ، فتوجه الأكابر ومعهم أيوب صلى الله عليه وسلم إليه لكي ينهوه ويردوه عن المظالم ، فلما حضروا عنده أغلظوا له القول وزجروه و لم يخشوا منه إلا أيوب صلى الله عليه وسلم ، فإنه ألان الكلام مداراة

لأجل ملكه وماشيته ، فابتلاه الله الحكيم تهذيباً لما ذكر في كتابه ، وقيل : إن قوله : مسني الضر خير يتضمن الدعاء لا الشكوى ، يدل عليه قوله تعالى : (فاستجبنا له)، وقيل : إن زوجة أيوب رضي الله عنها كان لها قرون شعر في راسها ، وكان من عادتها لما افتقر بعلها تخدم النساء وتسوق إليه ما يقوته إلى أن عَرَّفَ النساءَ بها إبليسُ - لعنه الله - فقال لهن : هذه تغسل قذر المبتلى ، وتعجن عجينكن ، وتصنع طعامكن، وإني لا آمن يصيبكن ما أصاب زوجها المبتلى ، فطردنها عنهن ، وأغلقن الباب في وجهها ، وبقي أيوب صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام لم يذق طعاماً ، فأدركه الضعف ، وأشفقتْ عليه ، فخرجتْ تطلب له شيئاً ، فأتت واحدة واقفة ببابها وقد جاء خبزها فسألتها منه ، فقالت : لا ، إلا أن تعطيني ضفيرة من ضفائرك أزين بها شعري ، فقالت لها : هي عون نبي الله أيوب عليه السلام إذا قام لحاجة ، قالت : فإذًا لا أعطيك شيئاً ، فتذكرت جوعه واحتياجه فقطعتْ لها ضفيرة، فناولتها رغيفين، فأتت بهما أيوب عليه السلام ، وأخبرته بصنيعها في ضفيرتها ، فحصل عنده غم ، وأقسم بالله كما حكاه الله تعالى عنه ، فحلف أن يضربها مائة ضربة ، فسهل الله تعالى عليها بما ذكره في كتابه العزيز لما علم صدق النية منها وإبراراً لما أقسم زوجها ، وقيل في المعنى :

قَلَّتْ لِعُذْرِكَ يَا زَمَانُ كَتَائِبِي ... وَرُمِيتُ بالسَّهْمِ القَتولِ الصَّائِبِ
غَيَّرْتَنِي ذَلَّلْتَنِي وأَنَا التِي ... كُنْتُ المُطَاعَةَ فِي بَنَاتِ أَقَارِبِي
لَكِنَّنِي أَرْضَى بِمَا قَدْ نِلْتُهُ ... وألوذ بالبلوى لِيَنْعَمَ صَاحِبِي
قَدْ صِرْتُ بَعْدَ العِزِّ أَسْأَلُ جَارَتِي ... وَلَطَالَمَا سَحَّتْ سَحَابُ مواهِبِي
وَيَهُونُ مَا أَلْقَى وإِنْ طَالَ المَدَى ... وَيَقِلُّ فِي المَحْبُوبِ قَطْعُ ذَوَائِبِي

قال : فلما رأى أيوب الخبز سألها ، فأخبرته ، فقال : سيدي ومولاي صيرتني أعيش من شعر حليلتي ، مسني الضر ، وقيل : إن قوله : مسني الضر لم يقدح في صبره ؛ لأن الغالب عليه الصبر ، فنادر مقالته لا تؤثر في حاله ، وكذلك قول يعقوب عليه السلام : (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) ، فقوله هذا لا يقدح في صبره الجميل ، بل كان مسلماً أمره إلي الله في جميع أحواله . وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قال : كان يعقوب عليه السلام حين أتاه خبر بنيامين ، كان يخرج وقائد يقوده ، فيقعد على الطريق ، فتمر به الخادم ، فيقول لها : هل

معك شيء قد حملتيه؟ فتقول : نعم ، فيقول : ضعيه في الأرض ، ثم يقول: ألا ترين ما فعَل بي في ولدي ، ويذكر لها قصته على سبيل الحكاية ، فيبكي وتبكي معه، ثم يمر به الغلام على رأسه حُزمة الحطب ، فيفعل ذلك معه ، فأوحى الله تعالى إليه : كم تشكوني إلى خلقي ولا يملكون لك ولا لهم ضرًّا ولا نفعاً ، وعزتي وجلالي ، لو شكوتَ إليَّ لفرجتُ عنكَ ، فدخل بيته وأغلق بابه ، فبينما هو قاعد إذا برجل قد دخل عليه من غير الباب في أحسن صورة وأطيب رائحة ، فقال : مَنْ أدخلكَ عليَّ وقد أغلقت الأبواب وشيدت حائطي ؟ فقال : أنا عبد من عبيد ربكَ أتيتُكَ لتسألني فأخبركَ ، قال : ومن أنت؟ قال : ملك الموت ، قال : سبحان الله ، أتقبض روحي قبل رؤية حبيبي يوسف ؟ قال : لا ، أتيتك لتسألني ما شئتَ فأخبركَ ، قال : هل قبضتَ روح يوسف ؟ قال : لا ، وإنه حي ، وستلقاه عاجلاً ، واطلبْهُ من ههنا ، وأشار إلى ناحية مصر ، فعندها خرج وقال لبنيه ما أخبر الله تعالى : (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) أي فابحثوا واسألوا عن يوسف وأخيه ، يعني بنيامين ، (ولا تيأسوا من روح الله) أي من رحمة الله والفرج الذي يأتي به برحمته ، (إنه لا ييأس من روح الله) أي من رحمة الله (إلا القوم الكافرون) ، يريد أن يرجو الله في الشدائد ، ولا ييأس منه إلا الكافر المعاند ، وقيل في المعنى:

تعلقــتِ الآمـــالُ منكَ بنــظرة ... فيا ليتَ شعري هل لذاك سبــيلُ
إذا كنتَ في الأحياء لم أخشَ فرقةً ... لأن لقـــاء الــميتين طــويــل

قال : ثم دعا بقرطاس ، وقال لابنه روبيل : اكتب عني إلى هذا الملك كتابا أمليه عليك فكتب : باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب إلى عزيز مصر، أما بعد أيها الملك ، اعلم أنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، أما جدي إبراهيم فأُلقي في النار وقاسى فيها ما قاسى ، فصبر فردها الله عليه برداً وسلاماً ، وأما عمي إسمعيل فابتلي على صغر ظنه بالغربة والقلى والعطش ، فصبر لأمر الله تعالى حتى فداه الله بذبح عظيم، وفي آخر عمره كف بصره إعظاماً وإجلالاً، وأما أنا فإني أضعفهم ركناً ، وأقلهم حيلةً وأعظمهم مصيبةً ، كان لي ولد يقال له : يوسف ، اختُلسَ من بين يدي ، فبكيتُ عليه حتى ذهب بصري ، وأما الذي أخذتَ وأمسكتَ عندكَ بكونه سارقاً فوالله ليس بسارق ولا مثلي من يلد سارقاً ، ولكنه كان أخاً للمفقود، إذ خفتُ أن يتصدع قلبي من ناحية أخيه ضممتُهُ إلى صدري ، وشممتُ رائحة أخيه فيه ، فاتقِ الله أيها الملك ، واصرفه وعجل برده إليّ ، وارحمْ تُرحم، فوالله ، ما يسرق ولا هو

يسارق ، فلا تحبسْهُ عندكَ ، وارحمْ ضعفي وقلة حيلتي ، واغتنم الأجر من الله تعالى (فإن الله لا يضيع أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً) ، والسلام عليكَ ورحمة الله وبركاته ، وقيل في المعنى :

مغيــبُكَ هَلْ يَكُونُ لَهُ إِيَابُ ... وَبُعْدُكَ هَلْ يَكُونُ لهُ اقْتِرَابُ
تَــرَّفَّقْ بــالفُؤاد فَأَنْــتَ فِيهِ ... وَكَــمْ سِرٍّ يُصَانُ لَهُ الكِتَابُ
أَأَرْجُو أنْ أَحُطَّ عِنَانَ وَجْدِي ... وَوَجْهُــكَ لا يُحَطُّ لَهُ نِقَابُ
إِذَا اسْتَرَقَتْ حَدِيثَكَ أُذْنُ قَلْبي ... فَهُــتِّكَ فِي جَوَانِبِه حِجَابُ
فَــلا نَــوْمٌ يَطِيبُ ولا انْتِبَاهٌ ... وَلا طَعْــمٌ يَلَــذُّ ولا شَرَابُ
وَقَلْــبِي بَــيْنَ بَابِكَ والتَّدَانِي ... كَعُصْــفُورٍ تَخَطَّفَــهُ عُقَابُ
كِتَابِي قَدْ مَضَى بالشَّوْقِ مِنِّي ... وَلا أَدْرِي بِمَــا يَأْتِي الجَوَابُ

قال : ثم قال لروبيل : اذهب بكتابي ، وعجل برد جوابي ، فذهب به روبيل ، ودفعه إلى يوسف ، فأخذه وجمع بنيه ، وقال : اسمعوا كتاب جدكم المغموم المكظوم لكي أقرأه عليكم ، ثم كتب إليه يوسف بعد ما قرأ الكتاب وفهم ما فيه :

أما بعد ، قد وصل كتابكَ ، وذكرتَ فيه مصابكَ ومصاب آبائكَ ، فاصبر كما صبروا تظفَرْ كما ظفرُوا ، وما أحسن هذا الجواب كيف لا والصديق من أولي الألباب ، وقيل :

مَــا أَحْسَنَ الصَّبْرَ فِي مَوَاضِعِه ... والصَّــبْرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ حَسَنُ
حَسْــبُكَ مِــنْ حُسْنِه عَوَاقِبُهُ ... وَغَايَــةُ الصَّــبْرِ مَــا لَهَا ثَمَنُ

قال : فلما قُرئ عليه قال يعقوب : والله ما هذه مكاتبة الملوك إنما هو كلام الصديقين ، (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) ، فرجعوا كلهم إلى مصر ، ودخلوا على الصديق خاشعي الأبصار ، مطرقي الأحداق ، فلما رأى ما نزل بهم وقد تغيرت ألوانهم ، وخضعت رءوسهم ، فلما نظر إليهم رق قلبه ، وقال لهم : كيف تركتم أباكم ؟ قالوا : مكروباً حزيناً ، قال : على أي ابْنَيْه أشدُّ حزناً ؟ قالوا : أما الأول فقد يئس منه ، وإنما اشتد حزنه على هذا المحبوس عندكَ ، وقال لنا قولاً لولا هيبتكَ ومخافتكَ لأخبرناكَ به ، قال: قولوا وأنتم آمنون ، قالوا : قال :لِمَ

تفجعه في ولد له حبستَهُ عندكَ بغير جُرم ، وعليه كان يشم ريح المفقود ، ولا ترحم ضعفه وكفَّ بصره ، ويخاف عليك من دعائه في السَّحَر، وهذا لا يليق بكرمكَ ، ولا هو المشهور عنكَ في صنعكَ ، فلما سمع ذلك منهم لم يملكْ نفسه ولا دمعه ، فبكى بأعلى صوته ، ولسان حاله يقول:

أحْبَابَـنَا مَا بِاخْتِيارِي تَخلُّفِي وَلِـي مَعَكُمْ قَلْبٌ عَنِ الجِسْمِ آبِقُ
فَلا تَحْسَبُوا أني تَغَيَّرْتُ بَعْدَكُمْ لَكُـمْ بِوَفَـا عَهْدِي عَلَيَّ وَثَائِقُ
وَحقِّ الهَوَى المَعْصُومِ إنِّي أحِبُّكُمْ وَإنِّـي مَتَى أجْحَدْ هَواكُمْ أنَافِقُ

قال : ثم أكرمهم ، وأكرم مثواهم ، وبالغ في إكرامهم ، فلما جن الليل قام وصلى ما شاء الله أن يصلي، ثم دعا الله تعالى باسمه الأعظم ، وقال لأخيه أمِّنْ على دعائي وسأل الله أن يردَّ بصر أبيه ، وأن يجمع به شمله مع كل من يليه، فهبط عليه جبريل الأمين ، وقال : يقرئك السلام رب العالمين ، ويقول لكَ : وَجِّهْ قميصكَ لأبيكَ ، فإنه إذا أُلقي على وجهه ارتد بصيراً بقدرة الله تعالى ، وقيل في المعنى :

ألا وَجِّـهْ إلَـى المَكْظُـومِ ثَوْبَا فَـإنَّ بِـهِ يُـزِيلُ اللهُ كَـرْبَا
وَيَصْـرِفُ لَحْظَـهُ مِـنَّا عَلَـيْه إلَـهٌ إنْ دَعَـاهُ العَـبْدُ لَـبَّى
وَقَـبْلَ وُصُـولِهِ يَـرْتَاحُ قَلْـبٌ لِنَسْـمَتِهِ إذَا مَـا الـرِّيحُ هَبَّا
فَـإنَّ زَمَـانَ بُعْدِكُـمُ تَقضَّـى وَأعْقَـبَهُ إلـهُ العَـرْشِ قُـرْبَا
فَخَـلِّ العَتْـبَ عَـنْ قَوْمٍ أقَرُّوا وأبْـدَوْا مِـنْ قَبِيحِ الفِعْلِ تَوْبَا

قال : فلما أصبح أذن لإخوته في الدخول فدخلوا عليه ، فقال قد خليت سبيلكم كما تريدون فانصرفوا ، قالوا : (يا أيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر) ، أي أصابنا المخمصة والجوع ، (وجئنا ببضاعة مزجاة) ، أي قليلة ندافع بها الأيام ونتقوت ، وليست مما يُتسع به ، وكانت دراهم زيوفاً ، (فأوف لنا الكيل) ، سألوه مساهلتهم في النقد ، (وتصدق علينا) بما بين الجياد والرديئة ، وقيل : تصدق علينا برد أخينا (إن الله يجزي) أي يتولى جزاء (المتصدقين) ؛ فلما أعلنوا بهذا القول أدركته الخشية ودمعت عيناه ، وقال في نفسه : إلى كم أقلقل قلوب إخوتي ، إنما كان القصد أن يتوبوا وقد هان الأمر وهذا منتهاه ، فقال توبيخا لهم لما سبق من فعلهم : (هل

علمتم ما فعلتم بيوسف) وإخراجه عن أبيه ونزوله في الجُبِّ وربطه بالحبل وقطعه بعد إذ هممتُمْ بقتله وبيعه ؟ وكذلك فعلتم بأبيه من إدخال الغم بإفراده من يوسف (وأخيه إذ أنتم جاهلون) أي جهلتم قدر أبيكم وأخيكم ، وأثمتم بكونكم عققتم أباكم ، وأبعدتم أخاكم جهلاً منكم، ولما قال هذه المقالة رفع البرقع عن وجهه، فرأوا وجهاً منيراً كالبدر لا محالة ، (قالوا أئنك لأنتَ يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد منَّ الله علينا) بالجمع بيننا بعد ما قصدتم الفرقة بيننا ، (إنه من يتقِ ويصبرْ) على المصائب في الدنيا ويشكرِ المولى ، (فإن الله لا يضيع أجرَ المحسنين) أي لا يضيع أجر من كان هذا حاله وهو من المتقين ، وقيل في المعنى:

الحِجَابُ قَدْ زَالَ ولاحَ الحَبِيبُ وَبَــدَا الإقْــبَالُ وَولَّــى المَغِيبُ
عِــنْدَمَا لاحَ لِــلحْظِ عِــيانِي صَــارَ مِصْــباحًا لحندسِ جَنَانِي
وسقى بِالرَّاحِ مِنْ غَيْرِ بَنَان
فَحَلَّــتْ أحْوَالٌ وَهَامَتْ قُلُوبُ وَأَتَــى الإدْلالُ وَعَــزَّ الغَرِيــبُ
قَالَ لِي : اقْرُبْ مِنْ غَيْرِ مَسَافَهْ ثُــمَّ سَلْ واطْلُبْ فَعِنْدِي الضِّيَافَهْ
وَيْحكَ كَمْ تَنْدُبُ مَا ثَمَّ مَخَافَهْ
أكْــثِرِ الأقْــوالَ فَإِنِّي مُجِيبُ واسْــحَبِ الأذْيَالَ فالمُلْكُ رَحِيبُ
فَعَــلا قَــدْرِي وَجَلَّ مَقَامِي وانْجَلَــى فِكْــرِي وَزَادَ غَرَامِي
وَبَدَا بَدْرِيَ مِنْ غَيْرِ ظَلامِي
رَجِّحِ المِكْيَالَ فالعَيْشُ خَصِيبُ مَعْشَــرَ العُــذَّالِ الحَــقُّ قَرِيبُ
مَنْ يَرُمْ وَصْلِيَ يَهْجُرْ مَنْ سِوائِي مَــنْ يَجِــدْ مِثْلِيَ مِنْ دَانٍ ونَائِي
فَأنَا المُبْلَى ومَهْدِيُّ الشِّفَاء
نِعْمَــتِي تُنَالُ كَغَمَامٍ سَكُوبْ وَلِــي الإفْضَالُ والصُّنْعُ الغَرِيبْ
اقْصُــدُوا بَابِي طُرًّا يَا عِبَادِي وَيْــحَ مُــرْتَابٍ لَــوَى لِعِنَادِي
إنَّ أحْبَابِيَ هُمْ أهْلُ وِدَادِي

أخلصوا الأعمالَ والكــل منيبُ زالت الأوجــال ومــرتْ كروبُ

قال : فانكبوا عليه يقبلون يديه وقدميه ﷺ ويقولون : (تالله لقد آثركَ الله) أي فضلكَ الله (علينا) بالعلم والعقل والرفعة والجمال والحسن والكمال ، (وإن كنا لخاطئين) آثمين في أمرك (قال لا تثريب) أي لا تعيير ولا بأس (عليكم) بعد هذا (اليوم) ، ثم أبرأ ذمتهم وحاللهم ، وسأل لهم المغفرة ، فقال : (يغفر الله لكم) الآية ، ثم سألهم عن أبيه ، فقالوا : ذهبت عيناه من كثره بكائه عليك ، فقال : يا إخوتي قد ارتفعت الوحشة من قلوبنا ، فأزال الله بفضله ما نزل بنا ، فلا بد من زوال الكربة عن أبينا ورفع الهموم عنه (اذهبوا بقميصي هذا) ، وكان كما ذكرنا أنه نزل به جبريل على إبراهيم يوم أُلقي في النار، وكان فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عُوفي وصحَّ ، وذلك قوله : (فألقُوه على وجه أبي يأت بصيراً) أي يرجع ويعود مبصراً ، (وائتوني بأهلكم أجمعين) ، فأخذ يهوذا القميص ، وعجل إلى أبيه بالتجهيز، وكسا يوسفُ إخوته ، وبعث إلى أبيه بكسوة هائلة ومائتي راحلة لجهازه وجهاز أهله ، وخرج يهوذا بالقميص رَاجلاً حافياً شاكراً لله تعالى ، وقيل : تزود سبعة أرغفة لم يأكل منها شيئاً حتى قدم على أبيه ، فلما كان يهوذا من أبيه يعقوب على ثمان مراحل فكَّ القصبة ، وأخرج القميص ونشره ، فهبت ريح الشمال ، فوجد يعقوب رائحة يوسف عليه السلام في القميص على ثمانين فرسخاً ، وقيل في المعنى :

أُحِبُّ الشَّمَالَ وأهْوَى الجَنُوبَا لأنَّهُمَــا يُسْــعِدَانِ الكَئِيــبَا
تَهُبُّ الشَّمَالُ بِرِيحِ الحَبِيبِ فَتَفْعَلُ فِي القَلْبِ شَيْئًا عَجِيبَا
وَتَــأْتِي الجَنُوبُ بِرَدِّ الجَوَابِ فَــتَأْخُذُ واللهِ مِــنِّي نَصِــيبَا
أُعَلِّــلُ نَفْسِــي بِمَرِّ الرياحِ لأنِّــي غَرِيــبٌ أُحِبُّ الغَرِيبَا

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ** ﴾ [يوسف : ٩٤]. أي القافلة ، ومعهم يهوذا خرجوا من مصر متوجهين نحو كنعان ﴿ **قَالَ أَبُوهُمْ** ﴾ [يوسف : ٩٤]. يعني يعقوب لمن حضره ﴿ **إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ** ﴾ [يوسف : ٩٤]. وذلك لما هاجت الريح حملت ريح القميص ، واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة ، فعلم أنه ليس

في الجنة من ريح الدنيا إلا ما كان من ذلك القميص ، ثم قال: ﴿ **لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ**﴾ [يوسف : ٩٤] . أي تسفهوني وتجهِّلوني﴿ **قَالُوا** ﴾ أي حفدته وهم أولاد أولاده ، وقيل : غير هم ممن حضره ﴿ **قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ**﴾ [يوسف:٩٥]. أي في شقائك ، أي مما تكابد من الأحزان على يوسف وخطابكَ في النزاع إليه على بعد عهده منكَ ، وكان عندهم أنه مات ﴿ **فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً** ﴾ [يوسف : ٩٦] . أي عاد ورجع بصيراً ، وقيل في المعنى :

لما جفا مؤنسي وأبعدني ... أنســـتُ منه ببعضِ أسبابهْ

كمثل يعقوبَ بعدَ يوسُفِهِ ... حـــنَّ إلى شَمِّ بعضِ أثوابهْ

قال – رحمه الله تعالى – : ويُحكى أن فراق يعقوب من يوسف سببه أمران : أحدهما أنه دخلت عليه يوما جارية له وبين يديه طعامٌ ، فشمت رائحته وخرجت ولم تذق منه شيئاً ، وكان في زعم يعقوب إذا خرجت يبعث لها منه ، فنسي وكانت حاملاً ، فأسقطت من رائحة الطعام وعدم ذوقها منه . الثاني أن يعقوب عليه السلام اشترى جارية بولد لها معها ، فباع ولدها ، وكان يقال له : البشير ، فرَّقَ بينه وبينها ، فحصل عندها بسبب فراق ولدها وجد وتأسف عليه وشوق إليه ، فنزلت دمعتها على خدها ، فشكت ذلك إلى ربها ومولاها ، فقدر سبحانه عليه بفراق أحب أولاده إليه ، وأن لا يراه حتى ترى الجارية ولدها ، ثم يقدم عليه ، فاتصل ولد الجارية بمصر ، وصار من الخدام ليوسف عليه الصلاة والسلام ، فتوجه إلى يعقوب بالثوب البشيرُ ، ولم يعلم أنه هو الذي باعه لأنه وقتَ بيعه كان طفلاًوهو صغير ، فلما قرب البشيرُ من منزل يعقوب رأى امرأةً تغسل ثياب يعقوب ، فسألها عن منزله ، فقالت : يا هذا ، إليكَ عنه ، فإنه مهموم مكروب ، فقال : أنا رسول إليه ، قالت : ما اسمكَ ؟ ومن أرسلكَ حتى أدلك عليه ؟ قال : اسمي البشير ، جئتُ رسولاً من عند يوسف الصديق ذي الوجه المنير ؛ فلما سمعتْ بذكر البشير ارتخت أعضاؤها ، وخطر ببالها أنه ولدها ، فلم تملك نفسها أن قامت إليه ، وأبصرت علامة في يديه كانت تعرفها في صغره عليه ، فألقت نفسها عليه وضمته إليها وقالت : والله ، أنتَ ولدي الذي باعكَ سيدي ، وأنت صغير يا بشير ، فقدر الله اجتماعها بولدها قبل اجتماع يعقوب بولده لما الكريم وعدها حيث ألهمها ، فأخذتْ بيده ، ودخلتْ على سيدها ، وقيل في المعنى :

إذا كـــان مـــا فات لا يُستردُّ　　وما خُطَّ في اللوح لا ينمحي
فـــلا تأســـفنَّ ولا تحـــذرنَّ　　ولا تحـــزنَنَّ ولا تفـــرحِ
فكم حدث الهَمُّ بعدَ السرورِ　　وكـــم بـــاتَ همٌّ فلم يُصْبِحِ

قال : فلما قدم يهوذا على أبيه قال : يا أبت ، إن الملك الذي هو بمصر هو ولدكَ يوسف ، فالتفت إلى حفدته الحاضرين ، ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٩٦]. ثم التفت إلى يهوذا القادم عليه قبل إخوته ، وقال يا ولدي ، ما أدري ما أكافئكَ ببشراك لي ، لكني أدعو الله أن يهون عليكَ سكرات الموت ، فقال يهوذا : يا أبتِ ، وإنه قد أمرنا أن نصل بأهلنا إليه ومَنْ معنا أجمعين ، وقد بعث إليكَ مائتي راحلة وجهازاً لكَ ولِمَنْ بين يديكَ ؛ فلما قدم عليه الأولاد قالوا كما حكى رب العباد : ﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [يوسف : ٩٧و ٩٨] . قيل لابن عباس : بماذا عرفوا يوسف ؟ يعني إخوته . فقال : كانت علامة في رأسه ، وكان ليعقوب مثلها ، وكذا لإسحاق وكان لسارة مثلها ، وهي شامة بيضاء ، فرفع التاج عن رأسه ، والبرقعَ عن وجهه ؛ فلما نظروا إلى الشامة عرفوه . قال ابن عباس في قوله ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي** ﴾ : أَخَّرَ ذلك إلى السحر ليكون أقرب إلى الإجابة . وقال مجاهد : أخر دعوته إلى الثلث الأخير من الليل لكونه أفضل أوقات الليل . وقال سعيد بن جبير : ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي** ﴾ ، يعني في الليالي البيض ، وهن ليالي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ؛ لأن الدعاء فيها مستجاب ، ويقال : أيامهن اللاتي يسمون البيض لظهور القمر آخر النهار ، أخر ذلك إلى سحر ليلة الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وقال ابن عباس : وجد يعقوب رائحة يوسف في القميص على ثلاثة أيام ، وقيل : ثمانية ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وقيل في المعنى :

مـــا للنســـيمِ لدى الأصيل عليلا　　أتـــراه يشـــكو لوعـــةً وغليلا
جـــر الذيـــولَ على ديارِ أحبتي　　فـــأتى يجـــرُّ مـــن السَّقامِ ذيولا
حـــتى النســـيمُ إذا أَلَمَّ بأرضِهِمْ　　خلعـــوا علـــيه رقـــةً ونحـــولا

رحلوا غداةَ أقامَ في القلبِ الأسي فالصبرُ مثلهمُ أجدَّ رحيلا
والسحر معقود بهُدْبِ جفونهمْ والمسكُ في أطواقه محلولا
مروا فرقرقتِ القلوبُ عليهمُ طيرٌ يظللُ عيسهمْ تظليلا
يحكين غِربانَ الفراقِ وإنما لقلوبُ قومٍ خُيِّلَتْ تخييلا

قال : ومع ذلك سلك يعقوب الأدب مع ربه بقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ كما سلك جده إبراهيم ﷺ بقوله : ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾ [مريم : ٤٨]. وإن كان لفظ "عسى" وقع في القرآن واجباً إلا في سورة التحريم ، فما قصد الخليل ويعقوب إلا سلوك الأدب مع الله العظيم على قدر المقام والتعظيم . قال : وكان قد بعث الصديق مع البشير إلى يعقوب عدة المسير ، فتهيأ يعقوب وخرج معه أهله حتى لم يبقَ منهم أحد . قال وهب بن منبه : كانوا سبعين ذكَراً ، واستاقوا مواشيَهمْ ؛ فلما أن كانوا من مصر على يوم وليلة أرسل يعقوب يهوذا إلى يوسف يعرفه بقدومهم ، فخرج يوسف إلى لقائه في مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته ، وكان على يوسف حلة حمراء ، فنظر يوسف إلى يعقوب ، ونظر يعقوب إلى يوسف ، فكان يقول : يا يهوذا من هذا الذي عليه الحلة الحمراء كالقمر بين الكواكب ؟ فينظر يهوذا فلا يرى شيئاً ، وقيل في المعنى :

أراكَ على البعادِ وما تراني وكم نابَ الخيالُ عنِ العيانِ
وأرضى من وصالكَ بالترجي وأقنعُ من لقائكَ بالأماني
سجيةُ مَنْ لهُ في كلِّ عضوٍ فؤادٌ هائمٌ يهواكَ عاني
يُفَهِّمُكَ الغرامَ بلا فؤادٍ ويُسمعكَ الدعاءَ بلا لسانِ

قال : فلما كان بينهما مقدار ميل ، نزل يوسف عن دابته ، ويعقوب عن ناقته ، وجعل كل منهما يسعى إلى الآخر ، فضج الناس بالبكاء ، وأشرقت الملائكة من السماء ، فلما اعتنقا خر يعقوب مغشيًّا عليه من عظم الملتقى ؛ فلما أفاق جعل يلحس يوسف لسانه كما تلحس البقرة عجلها وهو يقول : يا بُني أخبرني بفعل إخوتك معك ، فقال : يا أبت ، نحمد الله على نعمه ، ونشكره على ما أولانا من فضله ، كان وانقضى ، ولا نذكر الذي مضى : وأنشد بعضهم فقال :

تعالوا بنا نطوي الحديثَ الذي جرى ... فلا شعر الواشي بذاك ولا درى
تعالوا بنا حتى نعودَ إلى الرضا ... وحتى كأنَّ العيشَ لم يتغيرا
ولا نذكر الماضي الذي كان بيننا ... على أنه ما كان ذنباً فيُغفرا

وقيل : إنه لما سأله ما فعل إخوتك بكَ ؟ قال : يا أبتِ ، لا تسلني عما فعله إخوتي ، واسألني عما كان من الابتلاء والامتحان ونزغة الشيطان ، وكان ذلك مقداراً قدره الملك الديان ، ثم جاء من فضل الله من الخير والإحسان والجود والامتنان ما لم يكن خطر على بال الإنسان ، فالحمد لله على كل حال ، ولا تذكر ما فعل إخوتي يا أبتِ ، وقيل في المعنى :

وإذا المسيء جنى جنايةَ مذنبٍ ... فاقبلْهُ بالمعروفِ لا بالمنكرِ
أحسن إليه إذا أساء فأنتما ... من ذي الجلال بمسمعٍ وبمنظرِ

قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ** ﴾ [يوسف : ٩٩]. يعني أباه وخالته ، فالخالة بمنزلة الأم كما أتى في الحديث ، فان أمه قد ماتت ؛ وقيل : تمثلت له بإذن الله مع أبيه حتى رآها دون غيرها تحقيقاً لرؤياه ، ولا عجب فإن الصالحين يكشف الله عن بصرهم وسمعهم ، فيرون ما لا يرى غيرهم ، ويسمعون ما لا يسمع غيرهم ، فما بالكَ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم قال : ادخلوا مصر ، وذلك أن يوسف لما استقبلهم قال لهم قبلُ : ﴿ **وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾ [يوسف : ٩٩] . وكانوا قبل ذلك يخافون دخول مصر إلا بجواز من ملكهم ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، أي أجلسهما على سرير الملك ، ﴿ **وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً** ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، أي سجدوا ليوسف سجدة التحية لا سجدة العبادة . قال بعض المفسرين : إنما كان انحناء عبر عنه بالسجود . وقال بعضهم : كان تحية الناس في ذلك الزمان السجود بعينه مع الانحناء ؛ فلما جاء الله بالإسلام أبدلَنا من السجود التحيةَ بالسلام ، ثم قال يوسف : ﴿ **هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ** ﴾ [يوسف : ١٠٠] . يعني سجود الأحد عشر كوكباً هم إخوته والشمس والقمر أبوه وخالته ﴿ **قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً** ﴾ [يوسف : ١٠٠]. أي ليست بأضغاث

﴿ **وَقَدْ أَحْسَنَ بِي** ﴾ [يوسف : ١٠٠] . أي مولاي ﴿ **إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ** ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وهو البسيط من الأرض ، وكان يعقوب وولده بأرض كنعان أهل مواشٍ وبرية ﴿ **مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي**﴾ [يوسف : ١٠٠] . أي أفسد بيني وبينهم بالحسد ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ** ﴾ [يوسف : ١٠٠] . عالم بدقائق الأمور ﴿ **إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، فيهم بما شاء . قال وهب : عاودوا أباهم في طلب الاستغفار فدعا لهم وهم خلفه عشرين سنة ، ثم استجاب الله فيهم ليلة الجمعة في الثلث الأخير من الليل . قال وهب : دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل ومرأة ؛ فلما خرجوا من فرعون مع موسى كان منهم المقاتلون ستمائة ألف وعشرين ألفا لا يعدون ابن العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره سوى الذرية . وقال أيضاً : عاش أبوه وخالته بعد دخول مصر أربعاً وعشرين سنة في أرغد عيش وسرور لا يأتي عليهم يوم وليلة إلا أحدث الله لهم سروراً وغبطة . فلما حضر يعقوبَ الموتُ جمع ولده وولد ولده ، وقال ما حكاه مولاهم : ﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ** ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، الآية ، فقال : ﴿ **يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴾ [البقرة : ١٣٢] . فقالت الأسباط : يا أبانا ، إنا نخاف من أخينا أن يحقد علينا ما كان منا إليه ، فأوصه بنا ، فقال : يا بُني ، لا تحقد على إخوتك ما كان منهم إليكَ ، فقال : أو لي يقال هذا ؟ قد عفوتُ عنهم ، ووهبتُهم جريمتهم رجاءَ أن يعفوَ اللهُ عني ، ثم أوصى يعقوبُ يوسفَ إذا مات أن يحمله من مصر إلى الأرض المقدسة ، ويدفنه عند أبويه إبراهيم وإسحاق . قال وهب : مات يعقوب وأخوه عيص في يوم واحد ، ودُفنا في قبر واحد كما كانا أول حالهما في بطن واحد ، وكان عمرُ يعقوب وعيص مائة سنة وسبعة وأربعين سنة . فلما جمع الله تعالى ليوسف شمله وأقر عينه بمراده تمنى الموت ، فقال كما حكاه عنه ربه تعالى : ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ** ﴾ [يوسف: ١٠١] . يعني ملكَ مصر ، وقيل : أراد ملكه لنفسه حين قهرها عن السوء ، ﴿ **وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ** ﴾ [يوسف: ١٠١] . يعني تفسير الأحلام ﴿ **فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ**

﴿وَالأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠١] . خالقها ابتداءً **﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً ﴾** [يوسف: ١٠١] . اقبضني على الإسلام ، **﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾** [يوسف: ١٠١] . من آبائي الكرام إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، يريد الرفعة إلى درجاتهم ؛ لأن أعلى درجة في الجنة مقام النبوة . قال رسول الله ﷺ : « ما تمنى أحد من الأنبياء الموتَ إلا يوسف » ، فلما حضره الموتُ أوصى إخوته إذا خرجوا من مصر يخرجونه معهم إلى الشام مع آبائه ، ثم استخلف من بعد يوسف يهوذا ثم روبيل ثم زبالون ثم شمعون ثم سخر ثم ممعايل ثم ذان ثم لاوى ، كل هؤلاء أولاد يعقوب ، وكان موسى وهارون من لاوى بن يعقوب . وكان بين دخول يوسف مصر ودخول موسى أربعمائة وثمانون سنة ، ووُلد ليوسف من زليخا اثنان إفراثيم وهو جد يوشع بن نون ، والآخر ميشا ، وهو جد موسى وهرون . قال وهب : ما أنزل الله كتاباً من السماء بعد يوسف إلا وفيه سورة يوسف تامة كما في القرآن . وقيل عاش يوسف مائة سنة وسبع سنين ، وتوفاه الله طيباً مرضيًّا ، ودُفن في صندوق مرمر في بطن النيل ، وذلك أن بني إسرائيل تمنت كل فرق منهم أن يدفن في محلها تبركاً به ، حتى خافوا أن ينشب بينهم القتال ، فاتفقوا على دفنه في النيل ليصيب الكل من بركته ﷺ وعلى آبائه الكرام ، وقيل في المعنى :

دفنوه في النيل المَعِينِ تبركاً ... فرأوا جميعاً فوق ما قد أمَّلُوا
فكأنه بدرٌ تغيبَ وجهُهُ ... تحت السحابِ وضوءُهُ لا يُجهلُ
فقدوه لكنْ لم تزلْ بركاتُهُ ... موجودةً فيهمْ تروحُ وتقبلُ
والنيلُ يحكي كفَّهُ في قبضه ... بالجودِ والنَّعْمَا إذا ما يُسئلُ
لم يغنِ عنه إذْ أتاه حِمَامُهُ ... سلطانُهُ وحُسامُهُ والمِقْوَلُ
وغدا دفيناً بينَ أطباقِ الثرى ... والرملُ يعلو جسمَهُ والجَنْدَلُ
هذا القضاءُ على الخلائقِ بالفنا ... فجميعُنَا عما قليلٍ يرحلُ
والحكمُ للجبارِ حقٌّ مُثبتٌ ... ولهُ يكونُ رجوعُنَا والموئلُ
وعلى نبيِّ اللهِ يوسفَ مثلها ... وجميعُ مَنْ للخلق حقًّا مرسلُ

مـا لاحَ بـدرٌ أو ترنمَ طائرٌ ... وانهـلَّ وَسْـمِيٌّ وفاحَ المندُل

قال : فلما خرج موسى ببني إسرائيل من مصر ، وسار وضُرب عليهم التيه فلم يدروا أين يذهبون ، فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل ، وسألهم عن سبب ذلك فقالوا : إن يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أخذ على إخوانه عهداً أنْ لا يخرجوا من مصر حتى يُخرجوه معهم ، فلهذا استدَّ علينا الطريق ، فسألهم عن موضع دفنه فلم يعلموا ، فقام موسى ينادي : أنشدكم الله ، كل من يعلم قبر يوسف أين هو إلا أخبرني به ، ومن لم يعلم صُمت أذناه عن قولي ، فكان يمر بين الرجلين ينادي فلا يسمعان صوته ، حتى سمعته عجوز لهم ، فقالت له : أرأيتكَ إن دللتكَ على قبره ، أتعطيني كلَّ ما أسألكَ ، فأبى عليها ، وقال : حتى أسأل ربي ، فسأله فأوحى الله إليه من لطفه وإحسانه ورفده جبراً لقلبها بإيتاء سؤلها ، فقال : سلي ، فقالت : إني عجوز كبيرة ، لا أستطيع المشي فاحملني ، وأخرجني من مصر ، هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فأسألكَ أنْ لا تنزل غرفة من غرف الجنة إلا نزلتُها معكَ ، قال : نعم ، قالت : إنه في جوف الماء في النيل ، فادع الله أن يحبس عنه الماء ، فدعا الله أن يؤخر طلوع الفجر إلى أن يفرُغ من أمر يوسف ، فحفر موسى ذلك الموضع فاستخرجه وحمله حتى دفنه عند آبائه بالأرض المقدسة ، وقيل :

لـنا في نبيِّ اللهِ يوسفَ أسوةٌ ... وليـسَ لخلقِ اللهِ في الأمر مَدْفَعُ

حـباهُ فأحيـاه وبعـدُ أماتَهُ ... وكـل امرئٍ حيٌّ إلى اللهِ يرجعُ

قال – رحمه الله – : لما ترك الأسباط أباهم ، وقصدوا للميرة أخاهم ، جهزهم بجهاز الكرامة والإيثار ، وطلب منهم سَوْقَ أخيهم بعد المزار ، فاحتالوا على يعقوب بحيلة ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ [يوسف : ٦٣]. فأضحت سفينة العتاب تجري بهم بنسيم ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٦٤]. وقد ظهر منكم ما ظهر ، فلم يزالوا حتى حملوه إليه ، فلما رآه أنس ببشراه ، وأقبل عليه ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ [يوسف : ٦٩]. وسأعمل حيلة عندي على رغمهم يدعوكَ ، فحال بينهم وبينه بحيلة ﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ ﴾ [يوسف : ٧٠]. فلما دخل وقت التهمة ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف : ٧٠]. فأبرز عروس احتياله يقدمها وصائف

﴿ مَاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ [يوسف : ٧٠و٧١]. فرغبته ليس إلا ذلك ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ [يوسف : ٧٦] . لما أمسكهم وهي تعقب أعقابهم في كنف ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا ﴾ [يوسف : ٧٦] . فأعقبهم الخجل منها ، فلما عادوا إلى أبيهم عاد أَلَمُ الشجا بشجن ، وغم على حزن ، وترح على ترح ، وجرح على جرح ، فقابل زائد الأسى إذ عسى بلفظ عسى ، ثم بعثه لطف ﴿ لا تَقْنَطُوا ﴾ [يوسف : ٥٣] ، على أن يبعثهم برسالة ﴿ فَتَحَسَّسُوا ﴾ [يوسف : ٨٧] . فلما رجعوا دخلوا من فقر الفقر فاستلقوا في ساحة النصر ينادون على غليل الذل : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف : ٨٨] برد أخينا ، تالله ، لقد جُوزيتَ أيد مدها ختنم من قبل أن يقال : تبتم ، فكشف ستر الستر بيد ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ ﴾ [يوسف : ٨٩]. فانقشع غيم كربهم بشمال ذلهم ، فـلاح هلال يوسفهم ، فقالوا في غرفات عرفانهم ينادون : ﴿ أَإِنَّكَ لأَنْتَ يُـوسُفُ ﴾ [يوسف : ٩٠]. فأجاب عن ضمير شاكر بعبارة : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ [يوسف : ٩٠] يا إخوتي ، فاعترفوا بما اقترفوا ، وعرفوا ما أسلفوا ، ولما أن صفوا ، فكان جملة ما وصفوا ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف : ٩١] يا أخانا ، فلما طلعت شمس العفو في سماء ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ [يوسف : ٩٢]. حفت كواكب عتاب ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ ﴾ [يوسف : ٨٩] ، فرفع الصديق من تلك الفوائد على موائد نصيب الوالد ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾ [يوسف : ٩٣] ، ولا تقولوا ماذا فهبت نسائم الفرج ، فتوغلت في خياشيم المريض القرح ، فجر زمام المزكام من فرح عن منخر الضر والسقام ، فأدى غليل البعد عن عليل الوجد قبل انقضاء العمر ﴿ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف : ٩٤] ، فجاءت أفراح وسم المحزون من أمر ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، وقيل في المعنى :

ناشـدتكَ اللهَ يـا نـسيمُ ... مـا فـعلتْ بعـدنا الرسـومُ
هـل استهلتْ بها الغوادي ... ونَمَّقَـتْ روضـَها الـغيومُ

أم نسـخَتْها يـدُ الـليالي — حـتى عفـا رسْمُهـا القـديمُ
أم هـل بهـا مَنْ عهدتُ فيها — بَعْـدُ عـلى حالـه مقـيمُ
عـلِّلْ بـرُوحِ الوصـالِ صبًّا — أنـتَ بأشـواقهِ علـيمُ
وعُـدْ وسَـلِّمْ عـلى أنـاسٍ — مـا أنـا مـن حـبهم سليمُ
واشـرحْ لهـم حـالَ مستهامٍ — أنفاسُـهُ بـالهوى سَـمُومُ
وقـل : غـريبٌ ثوى بأرضٍ — في غيرهـم قلـبُهُ مقـيمُ
أحبابَـنا تنقضـي الـليالي — ومـا انقضـت مـني الكلومُ
أصـبحتُ من بَعدكمْ وحيداً — فـلا خـليلٌ ولا حمـيمُ
يكـابدُ الشـوقَ حين يُمسي — وتعـتري قلـبَهُ الهمـومُ
لم يجـرِ ذكـرُ الفـراقِ إلا — حـنَّ كمـا حَـنَّتِ الرسـومُ

قال : فلما كشف ليعقوب قوام الوجد ﴿ **قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ** ﴾ [يوسف : ٩٤]. أحدقت به عواذل ﴿ **تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ** ﴾ [يوسف : ٨٥]. فحاربهم بسلاح ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٩٦]. هذا وهم على قدر علمهم يلومون ، تالله لو وجدوا ما وجد ما أنكروا ما عرف ، لكن مَنَّ الله عليهم ، وعفا عما سلف ، فلما هبت شمال تنسم جميع الشمل فرق وفرق سدن الفراق ، فانقشع عمى العمى ﴿ **فَارْتَدَّ بَصِيراً** ﴾ [يوسف : ٩٦] ، فعاتبهم بأليم ﴿ **أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ** ﴾ [يوسف : ٩٦] ، فلجوا من صريع توبيخه إلى صرع ﴿ **يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا** ﴾ [يوسف : ٩٧] ، فأخرهم إلى سيف ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ** ﴾ [يوسف : ٩٨] ؛ ليعمل سيف الأسف في سَقامهم ودا ، فلما قدموا على يوسف ﴿ **وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً** ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، فبان قول أبيك بقوله : ﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ** ﴾ [يوسف : ٦] . فلما رأى يوسف بدر التِّمام قد تم مشرقاً على دار الغرور كصباح الظلام حذر على تمنيه نية تنميه من كف المحاق ، فاغتم الإدلاج في الليالي البيض

المشرقات ، وسأل الفوز من مفازات الآفات ، فقال مِقْوَلُ إبدائه وإنشائه معلناً : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً ﴾ [يوسف : ١٠١]. فالعجب ممن يحتقر الضعيف إذا رآه وينسى قوة مَنْ خلقه وبراه ، أما علم الجهول الغبي أن الله يصنع بالضعيف ما يتعجب منه القوي ؟ وقيل في المعنى :

لا تعجبنَّكَ قوة أوتيتَها ... واعلمْ بأنكَ مُكْرَهٌ محكومُ
وانظر بعينكَ في الوجود فإنه ... يا ذا التغافلِ مصحفٌ مرقومُ
فلكم غني قد أصيبَ بفقره ... فإذا به بين الأنام عديمُ
ولرب مخدومٍ رفيعٍ قدره ... نزلتْ به الأغيارُ فَهْوَ خديمُ
وصحيحِ جسمٍ قد مشى متبختراً ... ذهبتْ قواه فجسمُهُ مسقومُ
لا شيءَ يبقى بعد هذا كله ... إلا الإلهُ الواحدُ القيومُ
فهو الذي لا ينقضي سلطانه ... وله الثنا والمجدُ والتعظيمُ
صلى الإلهُ على النبي وآلهِ ... ما سار نجمٌ أو مضى معلومُ

(حكاية) : قال شيخ المريدين والحجاج ، الشيخ أبو الحسن الدراج - رحمه الله تعالى - : كنتُ كثيراً ما آتي مكة ، فكان الناس يتبعوني لمعرفتي بالطريق ، فلما كان في عام من الأعوام أردتُ السفر إلى بيت الله الحرام ، فقلتُ : آخذ طريق الثغر لأستريح من الناس ، ولا يتبعني أحدٌ ، فأخذتُ طريق الثغر لأسافر وحدي ، فإذا رجل مجذوم قاعد في المحراب ، فلما رآني قال : أبا الحسن ، الصحبةَ ، فقلتُ في نفسي : فررتُ من الأصحاء ، وأصحب المجذومين ! فقلتُ : لا أصحب أحداً ، فسكتَ عني ؛ فلما كان من الغد دخلتُ الطريق وحدي ، فجئتُ المغيثة ، فلما دخلتُها أويتُ إلى المسجد ، فلما دخلته إذا بالرجل المجذوم قاعد في المحراب ، فقلتُ : سبحان الله ، هذا سبقني إلى ههنا ، فرفع رأسه إليَّ وتبسم وقال : يا أبا الحسنِ ، يصنع الله بالضعيف ما يتعجب منه القوي ، قال : فبتُّ تلك الليلة متحيراً ، فلما أصبحتُ دخلتُ الطريقَ وحدي ، فوصلتُ الفرع ، فدخلتُ المسجد ، وقصدتُ المحراب ، فإذا هو قاعد فيه ، فقلتُ : يا سيدي ، الصحبةَ ، وجعلت أقبل قدميه ، فقال : ليس لي إلى ذلك من سبيل ، فجعلتُ أبكي

وأنتحب لما حُرمتُ منه ، فقال لي : مهلاً عليكَ ، فإنه لا ينفعكَ ، وقيل في المعنى :

أتبكي على بُعدي ومنكَ بدا البعدُ ... وترغبُ رَدًّا حيث لا يمكن الرَدُّ
نظرتَ إلى ضعفي وظاهرِ علتي ... وقلتَ : سقيماً لا يروحُ ولا يغدُو
ولم تدرِ أن الله جلَّ جلالُهُ ... يمنُّ بلطف ما تخيله العبدُ
لئن كنتُ في رأي البيان كما ترى ... وبالجسم من فرط الزمانة ما يبدُو
وليس معي زادٌ يوصلني إلى ... محل به يأتي إلى السيدِ الرِّفْدُ
فلي خالقٌ ألطافُهُ بي خفيةٌ ... فليس له ندٌّ ولا منه لي بُدُّ
فَسِرْ سالماً عني ودعني وغربتي ... فإن الغريبَ الفردَ يؤنسه الفَرْدُ

قال : فكنتُ بعد ذلك لا آتي منهلاً ، إلا وجدتُّه قد سبقني إليه ، فلما وصلتُ المدينةَ غاب عني أمره ، وعمي عني خبره ، فلقيتُ أبا يزيد البسطامي وأبا بكر الشبلي وطائفة من المشايخ ، فذكرتُ لهم قصتي ، وشكوتُ لهم غُصتي ، فقالوا لي : هيهات ، ذلك الشيخ أبو جعفر المجذوم ، بحرمته نستسقي ، وببركته يجاب الدعاء إذا دعا ، قال : فزاد شوقي إليه ، فسألتُ الله أن يجمعني به ، فبينما أنا واقف بعرفات وإذا أنا بجاذب يجذبني من خلفي ، فالتفتُّ إليه ، فإذا هو فصحتُ صيحةً ، وغُشي عليَّ ، فلما أفقتُ من غشيتي لم أجده ، فزاد الوجد لذلك ، وضاقت عليَّ المسالك ، فسألت الله رؤيته ، فلم يكن إلا أيام قلائل ، وإذا به يجذبني من خلفي ، فالتفتُّ إليه وقلتُ : عزمتُ عليكَ بالله إلا ما ثبت عليَّ ، فسألتُهُ أن يدعوَ لي ثلاث دعوات : الواحدة أن يحبب الله لي الفقر. الثانية أن لا أبيتَ على معلوم ، ولا يعوزني شيء . الثالثة أن يرزقني الله النظر إلى وجهه ، فدعا لي وغاب عني ؛ قال : فحبب الله لي الفقر ، فوالله ما في الدنيا شيء هو أحب إليَّ منه ، الثانية أني منذ كذا وكذا سنة ما بتُّ على معلوم ، ولا يعوزني شيء ؛ وإني لأرجو الله أن يمنَّ عليَّ بالثالثة ،ويجيبَهُ فيها ، كما أجابه في الاثنين ، وقيل في المعنى :

زيُّ الفقيرِ تبتلٌ ووقارُ ... ولباسُهُ الخُلْقَانُ والأطمارُ
وحُلاه من طول الصيامِ نحولُهُ ... فدموعُهُ من جفنه مِدْرارُ
والإصفرارُ يزينه ولربما ... بسِراره تتزينُ الأقمارُ

فأنيسُـــهُ بــنهارِهِ تذكـــارُهُ وجليسُــهُ في لــيله الجبــارُ
مـــتذللٌ مـــتدللٌ في وقـــته يمشـــي تـــراه وقلــبُهُ طَـيَّارُ
ولأجلــه يحـيي الإلــهُ بلادَهُ وبفضـــلهِ تــتنزلُ الأمطـــارُ
وإذا دعــا يومــاً بدفــعِ مُلمةٍ رُدَّ الظلــومُ ويُقصــر القهارُ
فــالخلقُ أجمعُهُمْ مريضٌ مدنفٌ وهـــو الطيــبُ المشفقُ الزوارُ
ســيماه تبدو إن نظرتَ لوجههِ صفتِ القلوبُ ولاحت الأنوارُ
يــا طالــباً لهــمُ وليس يراهمُ حجبتكَ ويحكَ عنهم الأوزارُ
تــرجو لحــاقهمُ وأنتَ مقيدٌ قــد أخرتكَ عن المنى الأعذارُ
لو كنتَ تعرفُ قَدْرَ كلِّ جنايةٍ لجرتْ أخي مِنْ جفنكَ الأنهارُ
أنَّــى إلى المــزكومِ شمُّ أزاهرٍ والثوبُ يدري قَدْرَهُ السمسارُ
فاضرعْ إلى مولاكَ واسألْ فضلَهُ فعسى تساعد من نأى الأقدارُ
فــتُراحُ من فَرْطِ التباعدِ والقِلَى وتــنالُ مــا تهوى وما تختارُ
فجــنابُهُ رَحْــبٌ لكلِّ مؤمِّلٍ وهـــو الإلــهُ الواحــدُ الغفارُ
ثم الصــلاةُ عــلى الــنبي وآلهِ ســفنِ النجاةِ وهمْ همُ أقمارُ
والصــحبُ ثم التابعينَ لفضلهمْ مــا مــرَّ لــيلٌ دائــمٌ ونهارُ

إخواني ، قد مضى أكثر الأجل ولا خوف ولا وجل، ما أظنكَ تذكر سيدكَ إلى الفوت إلا عند حلول الموت ، يا مشتاقون أين شارقكم إلى ما فوقتم ؟ وأين توقكم إلى ما ألفتم ؟ يا قيس المحبة مُتْ على قبر ليلى .

واختلفوا في مدة الفراق بينه وبين والده وإخوته، فذهب بعضهم إلى أنها كانتْ أربعين سنة ، وذهب بعضهم إلى أنها كانت ثلاثاً وثمانين سنة، وقد جمع الله شملهما بعد هذه المدة المديدة .

فنسأل الله تعالى أن يجمعنا وكافة إخواننا المؤمنين والمؤمنات في دار كرامته ، وأن يتفضل علينا بوابل غفرانه ورحمته، وأن يجعلنا من أهل محبته .

اللهم صلِّ على سيدنا محمد الصلاة التامة ، وسلِّمْ سلاماً تامًّا عليه . اللهم إنك أمرتنا أن نعتق أرقاءنا ونحن أرقاؤكَ فأعتقنا . اللهم إنكَ أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا ونحن سُؤَّالَكَ واقفين ببابكَ ، فلا تردنا من رحمتك خائبين . اللهم إنا دعوناكَ دعوة من خضعت رقبته وفاضت عبرته ، فاقبل اللهمَّ توبتنا واغفر لنا ولوالدينا، وللمؤمنين والمؤمنات ، إنك جواد بالخيرات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفهرس

تقديم ٥

ترجمة المؤلف ٦

وصف المخطوطات ٧-١٢

المجلس الأول

في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ١٣-٢٦

المجلس الثاني

في قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ ٢٧-٤٠

المجلس الثالث

في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ٤١-٥٦

المجلس الرابع

في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ ٥٧-٧٣

المجلس الخامس

في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ٧٤-٩٣

المجلس السادس

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ ٩٤-١١٠

المجلس السابع

في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾ ١١١-١٢٧

المجلس الثامن

في قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ١٢٨-١٤٥

المجلس التاسع

في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ ﴾ ١٤٦-١٦٣

المجلس العاشر

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ . ١٦٤-١٧٩

المجلس الحادي عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ ١٨٠-١٩٩

المجلس الثاني عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾ ٢٠٠-٢١٥

المجلس الثالث عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً﴾ ٢١٦-٢٣٥

المجلس الرابع عشر

في قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ٢٣٦-٢٥٢

المجلس الخامس عشر

في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ ﴾ ٢٥٣-٢٧٣

المجلس السادس عشر

في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ ٢٧٤-٢٩٥

المجلس السابع عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ ٢٩٦-٣٢٣